

النُّورُ المُبِينُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ الْمُبَارَكَةِ

تأليف

السيد محمد مهدي الحادمي (الصدر)

المجلد الثاني

صدر خادمی، سید محمد مهدی، ۱۳۴۱-
النور المبين في تفسير القرآن الكريم/ تأليف السيد محمد مهدی صدر الخادمی.
قم: مؤسسه انصاريان للطباعة و النشر، ۱۴۴۱ق.=۱۳۹۸
جلد ۳.

ISBN: 978-964-219-637-1 (vol. 1)/ 978-964-219-639-5 (vol. 2)
978-964-219-640-1 (vol. 3)/ 978-964-219-638-8 (set)

عربی:
۱- تفاسیر شیعه - قرن ۱۴ BP۹۸
۲- Qur'an - Shiite hermeneutics
۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی: ۵۸۹۷۵۹۰

النور المبين في تفسير القرآن الكريم

تفسير سورة آل عمران المباركة

(المجلد الثاني)

تأليف: السيد محمد مهدی الخادمی (الصدر)

الناشر: مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر

الطبعة الأولى ۱۴۰۰ - ۱۴۴۳ - ۲۰۲۱

المطبعة: نكين

الكمية: ۵۰۰ نسخة

عدد الصفحات: ۵۱۲ ص.

حجم الغلاف: كبير

رقم الإيداع الدولي: ۵-۶۳۹-۲۱۹-۹۶۴-۹۷۸

رقم الإيداع للدوره: ۸-۶۳۸-۲۱۹-۹۶۴-۹۷۸

(تم تمويل الطباعة من ثلث المرحوم الحاج حمزه محمد علي السلطان)



مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر

جمهورية ايران الإسلامية

قم - شارع الشهداء - فرع ۲۲ - ص. ب ۱۸۷

هاتف: ۳۷۷۴۱۷۴۴ (۲۵) (۹۸) فاكس: ۳۷۷۴۲۶۴۷

البريد الإلكتروني: Int_ansarian@yahoo.com

www.ansariyan.ir

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة آل عمران المباركة

المقدمة

سورة آل عمران نزلت في المدينة، ولها (٢٠٠) آية، آياتها ذات نظام وترتيب خاص. ولهذا السبب احتمال أن تكون قد نزلت دفعة واحدة، إذ الآيات من أولها إلى آخرها تتناغم فيما بينها ومطالبتها جميعاً مترابطة ترابطاً عضوياً، كما يحتمل إلى حدٍ كبير أن هذه السورة المباركة حين نزلت كانت الدعوة النبوية قد تجذرت واتسعت رقعتها؛ لاسيما وأن آيات السورة تتناول الحديث عن معركة أحد وواقعة المباهلة والملاعنة مع نصارى نجران، كما تذكر اليهود، وتحرض على المشركين.. وكل هذا يؤيد هذا المعنى محط البحث وأنها نزلت والمسلمون منهمكون في الدفاع عن الدين؛ دفاعاً جتّشوا فيه كل قواهم..

فهم؛ وبداعي الفتن التي كان اليهود والنصارى يثيرونها في صفوفهم.. كان لا بدّ لهم من مواجهتهم وإطفاء نائرتهم؛ ممّا كان يضطرهم إلى صرف المزيد من قوتهم وجهدهم في النقاش والمجادلة والمجادلة معهم.. هذا والمسلمون كانوا يواجهون المشركين ويخوضون معهم الحروب، ويعيشون حالة الاستنفار الدائمة، بحيث لم يكونوا لينعموا بلحظة أمان واحدة؛ خصوصاً وأنّ الإسلام كان في حالة انتشار وقد عمّ صيته الأرجاء، مما استثار المشركين واليهود والنصارى فقاموا لإخماد نهضته..

وجرت تسمية هذه السورة بناءً على الآيات (٣٣.٣٥) التي تضمّنت قصّة ولادة السيّدة مريم عليها السلام ابنة عمران عليه السلام، ولذا؛ صار المقصود من عنوان (آل عمران) السيّدة

مريم عليها السلام وابنها النبي عيسى عليه السلام.. كما أولت هذه السورة مسألة المدد الإلهي للمؤمنين وحياة الشهداء في سبيل الله أهمية خاصة..

وقد تمّ التطرق قسم من هذه السورة المباركة إلى سلسلة من الأحكام الإسلامية فيما يرتبط بلزوم وحدة الصف المسلم، وبيت الله الحرام، وفريضة الحج، وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتولي لأولياء الله والبراءة من أعداء الله، ومسألة الأمانة، والإنفاق في سبيل الله، وترك رذيلة الكذب، ومقاومة الأعداء والصمود بوجههم والصبر على المشاكل، وموضوع الامتحانات الإلهية المختلفة الأشكال، وذكر الله تعالى على أي حال.. وفي كلّ ذلك إشارات رائعة مفعمة بالمعاني الفذة.

ولاستكمال هذه البحوث؛ جرى الحديث عن جوانب من تاريخ الأنبياء، ومنهم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى على نبينا وآله وعليهم الصلاة والسلام، وقصة مريم عليها السلام ومقام هذه المرأة العظيمة الجليّة، إضافة إلى مؤامرات اليهود والنصارى ضدّ موسى وعيسى عليهما السلام.. وقد عرضت هذه المطالب جميعاً بشكل هو غاية الاتّساق، وكأنّها. في هذه السورة. قد نزلت دفعة واحدة، وكلّ ذلك يدعم هذا المعنى. لاسيما وأنّ هذه السورة المباركة نزلت والمسلمون منهمكون في الدفاع عن حوزة الدين؛ دفاعاً كرّسوا له كلّ طاقاتهم وقواهم.. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة بعضاً من الحقائق والمعارف التي يهدي المؤمنين بها إليه، مضافاً إلى مواساتهم ليزيلوا عن قلوبهم شبهات ووساوس الشيطان وأهل الكتاب، وليتأكّدوا أنّ الله تعالى لا يغفل أبداً عن تدبير شؤون ملكه ومالكه، ولا يعجزه في ذلك مخلوقاته، لأنّ الدنيا دار بلاء وامتحان، ولأنّ اليوم يوم عمل والغد يوم حساب وجزاء.

فضيلة تلاوة هذه السورة

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة آل عمران؛ أُعطي بكل آية منها أمناً على جسر جهنم»^١.

وعن إمامنا الصادق عليه السلام قال: «من قرأ البقرة وآل عمران؛ جاء يوم القيامة تظلاًنه على رأسه مثل الغمامتين»^٢.

شأن نزول أكثر من (٨٠) آية من هذه السورة

يقول بعض المفسرين: نزلت أكثر من (٨٠) آية من آيات هذه السورة بخصوص مبعوثي نصارى نجران للتحقيق عن الإسلام إلى المدينة.

وكان عدد المبعوثين (٦٠) شخصاً، منهم (١٤) رجلاً من شخصيات النصارى وكبارهم، يرأسهم ثلاثة رجال يعود الجميع إليهم في توجيههم وتنظيم شؤونهم، أحدهم يسمّى عاقباً ويقال له عبد المسيح أيضاً. كان يعدّ الرجل الأول فيهم ولم يكن النصارى ليخالفوه في رأي ونظر.. والرجل الثاني يسمّى سيّداً ويقال له أيهم، وكان مسؤولاً عن ترتيب أمور السفر ومحظ اعتماد النصارى، أما الرجل الثالث؛ فكان يدعى أبا حارثة، وكان عالماً وصاحب نفوذ في قومه وأهل دينه، وقد شيدت عدّة كنائس باسمه، وكان يحفظ جميع كتب النصارى الدينيّة.

وقد جاءت هذه المجموعة المكوّنة من (٦٠) شخصاً وهي ترتدي زيّ قبيلة بني كعب.. بأجمل وأبهى حلّة حتى أن أحد الصحابة قال فيهم: لم أر مبعوثين بتلك الروعة من المظهر.. فدخلت مسجد النبيّ صلوات الله عليه وآله وقد صلّى بالناس صلاة العصر.. وحينما دخلت المسجد راح رجالها يصلّون صلواتهم ويقرعون الناقوس وقد اتجهوا إلى المشرق.. فقام بعض

١ - مجمع البيان، ج ٢، ص ٦٩٣

٢ - ثواب الأعمال، ص ١٠٤

الصَّحَابَةُ لِيَمْنَعُوهُمْ، لَكِنَّ النَّبِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَالٌ دُونَ ذَلِكَ وَأَجَازٌ لِلنَّصَارَى أَنْ يُؤَدُّوا صَلَوَاتِهِمْ كَمَا يَرِيدُونَ..

وبعد الصلاة؛ تقدّم عاقب وسيد من رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وبدءا يتحدثان إليه..
فعرض عليهما الإسلام والتسليم لله سبحانه وتعالى..

فقالا: لقد أسلمنا قبلك وسبقناك بالتسليم لله!

فقال صلوات الله عليه وآله: كيف يكون دينكم على حق مع أنّ أعمالكم تحكي عن أنّكم غير مسلمين لله، ذلك أنّكم تقولون بأنّ الله ولداً وأنّ عيسى ابن الله، وتعبدون الصليب، وتأكلون لحم الخنزير.. وهذه الأمور تخالف أمر الله تعالى؟

فقال عاقب وسيد: إن لم يكن عيسى ابن الله؛ فمن أبوه إذن؟

فقال النبيّ الأكرم صَلَّى الله عليه وآله: هل تقرّان بأنّ لكلّ ولد شَبَهاً بأبيه؟
فقالا: نعم.

فقال صلوات الله عليه وآله: أليس لله تعالى الإحاطة بكلّ شيء، وهو الحيّ القيوم، ورزق المخلوقات كلّها عليه؟

فقالا: نعم؛ الأمر كذلك.

فقال الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله: فهل كان لعيسى عليه السلام هذه الأوصاف؟
فقال عاقب وسيد: لا.

فقال صلوات الله عليه وآله: هل تعلمان أنّ الله سبحانه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو العالم بكلّ شيء؟

فقالا: نعم؛ نعلم ذلك.

فقال صَلَّى الله عليه وآله: فهل أنّ عيسى كان يعلم غير ما علّمه الله؟
فقالا: لم يكن يعلم غير ما علّمه الله..

فقال صلوات الله عليه وآله: فهل تعلمان أنّ ربنا قد صوّره في رحم أمّه كما أراد؟
فقالا: نعم؛ هو كذلك.

فقال صلّى الله عليه وآله: أوّ ليست أمّ عيسى قد حملته كما تحمل الأمّهات أجّتهن في أرحامهنّ ثمّ جاءت به إلى الدنيا كما تجيء الأمّهات بصغارهن. وتغذّي عيسى عليه السلام كسائر الصغار؟

فقالا: نعم؛ هكذا كان.

فقال صلوات الله عليه وآله: فكيف يكون عيسى عليه السلام ابناً لله تعالى مع عدم الشبه فيه بأبيه؟

فبهت عاقب وسيّد ومعهما بهت جميع النصارى.. وهنالك نزلت الثمانون آية وبضع؛ من بداية السورة الكريمة؛ إيضاحاً لمعالم الدين ومنهاجه القويم.^١

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٦٩٥ و ٦٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. كما أشرنا في بداية تفسير سورة (الحمد) فإنَّ البسملة الشريفة لها مكانتها الخاصّة، وكونها آية مستقلّة. ولطالما ورد التأكيد على قراءتها في بداية كلّ عمل، وتكرارها في بدء كلّ سورة؛ أمانة على أهميّتها.
٢. طبقاً لنصّ القرآن؛ فإنَّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ليس مخصوصاً بالإسلام، بل إنّ الأنبياء الآخرين كانوا يتلفّظون بها..
- بداية ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ بحرف الباء ويعني الاستعانة بذات الله المقدّسة، وهي تعني أنّ كلّ فعل لا يتمّ دون إرادة الله المتعال.
٣. الاستعانة بالله تعني طلب العون من جميع الصفات الإلهيّة، مثل الرحمانيّة والرحيميّة..

الآية ١



النقاط المستفادة من هذه الآية

تفسير: كشف مفهوم الحروف المقطعة بالحاسوب

١. التوضيحات التي أوردناها بخصوص الحروف القرآنية المقطعة في سورة (البقرة) هي ذاتها فيما يرتبط بالحروف القرآنية المقطعة في سورة (آل عمران) ولا حاجة إلى تكرارها هنا. وما ينبغي ذكره هنا هو نظرية أحد المفكرين المصريين المعاصرين، ونظراً لأهميتها نجد من الجدير ذكرها مختصرة:

٢. نشرت مجلة (آخر ساعة) المصرية المعروفة ضمن تقرير لها مجموعة تحقيقات استغرق العمل بها ثلاث سنوات من قبل العالم الكيميائي المصري (رشاد خليفة) الذي يعمل في ولاية ميسوري الأميركية في مدينة سانت لويس، وذلك لاكتشاف بعض معاني الحروف القرآنية المقطعة، من مثل (ق، الم، يس و...) وقد استعان هذا العالم بعمليات حسابية معقدة جعلت من طبيعة العلاقة الوطيدة بين الحروف المذكورة الخاصة بالسورة مع حروف السورة الواردة في مطلع السورة أمراً قابلاً للإثبات.. ناهيك عن أنّ الحكم بصحتها وسقمها (العلاقة) بحاجة إلى مزيد من التحقيق، ولعلّ ذلك يكون من مهمة الأجيال القادمة.. ويمكن الإشارة إلى خلاصة البحث والدراسة في عدة أقسام:

ألف: في القرآن (١١٤) سورة، منها (٨٦) سورة مكّية، و(٢٨) سورة مدنيّة، وفي مجموع السور القرآنية هناك (٢٩) سورة استهلّت بالحروف المقطعة.. هذا وإنّ العمليات الحسابية لجميع الحروف النورانية الأربعة عشر الواردة في الـ(١١٤) سورة قرآنية وتحديد نسبة كلّ واحدة منها والعمليات الحسابية المطوّلة الأخرى التي يجب إجراؤها بهذا الصدد أمر لا يمكن تصوّره دون

الاستعانة بجهاز الحاسوب.. ولهذا؛ فقد خضعت جميع الحروف المذكورة الواردة في جميع السور القرآنية وكذلك مجموع حروف كل سورة وبشكل منفصل إلى التحديد (وهذا العمل والمقدمات الأخرى استغرق مدّة عامين) وبعد إجراء العمليات الحسابية التالية بواسطة الحاسوب ظهرت ولأول مرّة في التاريخ الإسلامي نتائج مثيرة، كشفت حقائق عجيبة للغاية وأكّدت الإعجاز القرآني على المستوى الرياضي (فضلاً عن الجهات الأخرى).

ب: والآن لاحظوا النتائج المذهلة التي ظهرت من خلال هذه العمليات الحسابية:

هذه الحروف هي نصف الأبجدية العربية التي تحتوي (٢٨) حرفاً، أي أنها (١٤) حرفاً، وهي:

(ا، ح، ر، س، ص، ط، ع، ق، ك، ل، م، ن، ه، ي) وتسمّى تارة بالحروف النورانية.

ج: يوضح لنا العقل الالكتروني بعملياته الحسابية والإحصائية نسبة كل حرف من الحروف

الأربعة عشر في كل سورة قرآنية قياساً بحروف تلك السورة..

فمثلاً: بعد الإحصاء نجد أنّ نسبة حرف (ق) وهو أحد الحروف النورانية الأربعة عشر المقطّعة في سورة (الفلق) تفوق كل حرف وهي (٦/٧٠٠ بالمئة) وهي بالدرجة الأولى في سور القرآن، وتليها سورة القيامة حيث يتكرّر الحرف المذكور (٣/٩٠٧ بالمئة) وبعدها سورة الشمس بنسبة (٣/٩٠٦ بالمئة) وكما لاحظنا؛ فإنّ نسبة التفاوت بين سورتي القيامة والشمس هي واحد بالألف، وعلى هذا نتحصّل على هذه النسبة في جميع السور القرآنية (وليس بخصوص هذا الحرف فقط، بل بالنسبة لجميع الحروف النورانية) وهكذا تتّضح نسبة مجموع حروف كل سورة لجميع هذه الحروف..

د: نسبة حرف (ق) في سورة (ق) أكبر من جميع السور القرآنية بلا استثناء، أي أنّه وطيلة (٢٣) سنة التي استغرقها نزول القرآن، فإنّ حرف (ق) قد ورد بمعدّل أقلّ في السور الـ (١١٣) الأخرى، وهذا لعمرى أمر مثير حيث يمكن للمتحدّث أن يراقب عدد كل حرف من حروف خطابه وطيلة (٢٣) سنة مع أنّه يتكلّم بكلّ عفوية ودون أي تكلف، وهذا فعل لا ريب. خارج

عن نطاق البشر، وهو غير ممكن حتى بالنسبة لأكبر علماء الرياضيات دون استعانتهم بالعقول الكامبوتريّة.. وهذا الواقع العجيب يشير إلى أنه ليس حكراً على السور والآيات، بل هو شامل حتى لحروف القرآن كونها قد وردت ضمن نظام رياضيّ وحسابي خاص. وأنّ الله تعالى وحده القادر على إجراء هكذا عمليّات حسابيّة [أو من يعطيه هذه القدرة الإعجازيّة الفائقة] مثلما هو الحرف صاد في سورة (ص) أيّ أنّ نسبته وعدده متناسب مع مجموع حروف السورة، إذ عدده في السورة يفوق أيّ سورة أخرى. وكذلك حرف (ن) إذ هو أكبر رقم نسبي في جميع السور القرآنيّة..

هـ: الاستثناء الوحيد في هذا المجال ورد في سورة (الحجر) الذي ورد حرف (ن) فيها أكثر من وروده في سورة (ن) ولكنّ المثير هو أنّ سورة الحجر إحدى السور التي استهلّت بـ ﴿الر﴾ وسنلاحظ فيما بعد أنّ السور القرآنيّة التي شرعت بـ ﴿الر﴾ يجب أن تعدّ كسورة واحدة، فإذا قمنا بذلك، وجدنا النتيجة المطلوبة، وهي أنّ عدد حرف (ن) فيها كلّها أقلّ من سورة (ن)!!

و: لاحظوا الأحرف الأربعة ﴿المص﴾ الواردة في مطلع سورة (الأعراف)، إن جمعنا حرف الألف وحرف الميم وحرف الصاد؛ المتكرّر في هذه السورة، وجدنا أنّ مجموع هذه الأحرف أكثر ممّا في كلّ سورة قرآنيّة، كذلك هي حروف ﴿المر﴾ الواردة في سورة (الرعد)، وكذلك الحروف الخمسة (كهيعص) الواردة في مطلع سورة (مريم) فإن جمعناها معاً، وجدنا أنّها أكثر من ورودها في كلّ سورة قرآنيّة.. وهنا نواجه شكلاً آخر من المسألة، وهو أنه ليس كلّ حرف كان له حسابه وحكمته في القرآن فحسب، بل إنّ جملة الحروف لها نفس الخاصيّة من حيث النظم والحكمة..

ز: إلى هنا كان البحث عن الحرف الواحد الوارد في مطالع بعض السور، أمّا الحروف المجتمعة الواردة في عدّة سور قرآنيّة مثل (المر و الم) فلها خاصيّة أخرى، وهي أنّه وطبقاً للحسابات الكامبوتريّة، فإنّ مجموع هذه الحروف الثلاثة مثل (أ، ل، م) إن حسبت في

مجموع السور التي ستكون أكثر من معدل وجودها في السور القرآنية الأخرى، وهنا تتجلى مسألة أكثر إثارة، وهي أنه ليس حروف كل سورة قرآنية تخضع لنظم وحكمة معينة فحسب، بل إن مجموع حروف السور المشابهة تخضع لذات النظم والحكمة بعينها.

ح: هذه العمليات الحسابية إنما تكون صحيحة حيث لا نتلاعب بالخط الأصلي القديم للقرآن، مثل (إسحق وزكوة وصلوة) التي إن كُتبت هكذا (إسحاق وزكاة وصلاة) فإن العملية الحسابية ستضطرب وتتلاشى.

ت: هذه التحقيقات تشير إلى أن القرآن لم ينقص ولم يزد شيئاً وإلا لما تمت المحاسبات بالشكل الصحيح.

ي: في كثير من السور القرآنية التي تبدأ بالحروف المقطعة تأتي الإشارة إلى حقانية وعظمة القرآن ومجده بعد الحروف، مثل: ﴿الم﴾. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ وهذه بحد ذاتها تمثل إشارة لطيفة إلى علاقة الحروف المقطعة بإعجاز القرآن..^١

٣. من محصلة البحث أعلاه نخلص إلى أن حروف القرآن الذي نزل خلال (٢٣) سنة لها نظمها وحسابها الدقيق جداً، وأن كل حرف من الحروف الـ (٢٨) له نسبته الرياضية الدقيقة والكاملة مع باقي الحروف، كما أن حفظ هذه النسبة من جانب الإنسان وعموم البشر أمر غير ممكن (مع عدم الاستفادة من العقول الالكترونية).

ولاشك أن تحقيقات وبحوث العالم المذكور وحيث لم تكن منذ البداية خالية من النقص، فإنها بحاجة لجهود علماء آخرين يتصف عملهم بالصبر والاستقامة لتكتمل بالشكل المطلوب.. وعلى هذا؛ فإننا لا نضمن صحة أو سقم هذه العملية ما لم تتم مراجعتها المرة بعد المرة...

١- تفسير الامثل، ج ٢، ص ٤١٤ إلى ٤١٩

الآية ٢

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ

ورد شرح وتفسير هذا النص القرآني المقدس بشكل مفصل لدى تفسير الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. المقصود من ﴿الْقَيُّومُ﴾ أنه قائم بذاته غير محتاج إلى غيره، مع أن غيره محتاج إليه في جميع ما يفعل ويصدر عنه.
٢. مخلوقات الله غير مستقلة في علمها وحياتها.. بينما الله تعالى هو الجهة الوحيدة التي تحتاجها جميع القوى والقدرات..
٣. قدرة الله تعالى سبحانه نافذة في كل شيء، ولا يحدث شيء في عالم الوجود إلا وهو تعبير عن مشيئته وإرادته وإذنه.

الآية ٣

نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ

بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. الحق في الأصل بمعنى التطابق والاتفاق، ولهذا قيل لما هو مطابق متسق مع الواقع حقاً. وأن يقال لله عز وجل حقاً بداعي أن ذاته المقدسة هي أعظم الواقع وغير القابل للإنكار في عالم الوجود، وبعبارة أوضح: الحق هو الموضوع الثابت الذي لا يأتيه الباطل والخطأ..
- وفي الآية محطّ البحث: وردت الباء على الحق ﴿بالحق﴾ باعتبارها باء المصاحبة كما في الاصطلاح.. أي: يا أيها النبي! قد أنزل الله عليك القرآن مع دلائل وعلامات الواقع..
٢. التوراة في الأصل مفردة عبرانية بمعنى الشريعة والقانون، ثم أطلقت هذه الكلمة على الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيه ورسوله موسى بن عمران عليه السلام.. كما تطلق هذه المفردة على مجموعة كتب العهد القديم، وتارة على الأسفار أيضاً.
٣. مجموعة كتب اليهود المسماة بالعهد القديم، هي في الحقيقة مركبة من التوراة وعدة كتب أخرى. والتوراة مكونة من خمسة أقسام تحمل عناوين: سفر التكوين وسفر الخروج وسفر اللاويين وسفر الأعداد وسفر التثنية.. وهذا القسم من كتب العهد القديم شرح لخلق العالم والإنسان والمخلوقات الأخرى، وقسم عن حياة وسير الأنبياء الماضين وموسى بن عمران عليه السلام وبني إسرائيل وأحكام الشريعة.. والكتب الأخرى في حقيقتها عبارة عما كتبه مؤرخو اليهود بعد موسى عليه السلام، وهي شروح لحياة الأنبياء وملوك الأقوام والأمم التي ظهرت بعد حقبة موسى عليه السلام.

٤. ليس بين كتب اليهود كتاب سماوي، غير أسفار التوراة الخمسة، واليهود أنفسهم لا يدعون ذلك ولا يعدّونها كتباً جاءتهم من الله تعالى، بل إنّ زبور داود عليه السلام الذي يسمّى أيضاً بالمزامير إنّما هو شرح لمناجاة هذا النبيّ الجليل مع ربّه المتعال.

٥. فيما يتعلّق بأسفار التوراة الخمسة؛ ثمّ قرائن ودلائل واضحة تشير إلى أنّها هي الأخرى ليست نصوصاً سماوية، بل هي كتب تاريخيّة دوّنت بعد رحيل النبيّ موسى بن عمران عليه السلام، وذلك لاحتوائها شرح قصّة وفاة هذا النبيّ وكيفيّة دفنه وجملّة حوادث وقعت بعد وفاته أيضاً.. لاسيّما ما جاء من نصوص في السفر الخامس وهو سفر التثنية، إذ يثبت بوضوح أنّ هذا الكتاب قد حرّر بعد مدّة طويلة جدّاً من وفاة النبيّ موسى عليه السلام، ناهيك عن أنّ هذه الأسفار وبقية كتب اليهود تتضمّن نصوصها الكثير من الخرافات والأساطير والأكاذيب على أنبياء الله تعالى ورسله الكرام.. وكلّ ذلك يشير إلى تزوير التوراة وتحريفها، كما أنّ هناك شواهد تاريخيّة تؤكّد بأنّ التوراة الأصليّة قد زالت ومحيت نصوصها الحقيقيّة.. فجاء بعض من يدّعي التدين بدين موسى بن عمران عليه السلام وكتب ما ادّعى أنّها التوراة.

٦. الإنجيل في الأصل كلمة يونانيّة تعني البشارة أو التعليمات الجديدة، وهو اسم للكتاب المنزل على النبيّ عيسى عليه السلام.. والملفت للنظر أنّ القرآن المجيد متى ما ذكره. هذا الكتاب. وأشار إليه، جاء باسمه المفرد غير المتعدّد، وأنّه قد نزل من الله تعالى، وبهذا تكون الأناجيل الكثيرة المتداولة في النصارى، وحتى أكثرها شهرة، وهي الأناجيل الأربعة (لوقا، مرقس، متى، يوحنا) ليست وحياً إلهيّاً، كما أنّ النصارى لا ينكرون هذه الحقيقة التاريخيّة القائلة بأنّ هذه الأناجيل المتداولة قد دوّنت من قبل تلامذة عيسى عليه السلام أو تلامذة تلامذته، بحيث كتب كلّ منهم إنجيله الخاصّ بعد عيسى بسنين مديدة.. وما يدّعونه بصدد أنّهم كتبوها بإلهام إلهي خاصّ أمر مفتقر إلى الدليل والإثبات!

٧. أهمّ كتب النصارى ومورد اعتماد أكثر فرقهم ومذاهبهم مجموعة الكتب التي أضحت

تحت عنوان (العهد الجديد).

٨. (العهد الجديد) يعادل ثلثاً من (العهد القديم) وهو يتضمّن (٢٧) كتاباً ورسالة تتناول مواضيع متفاوتة..

٩. إنجيل متى: هذا الإنجيل كتبه (متى) أحد حواريين النبي عيسى عليه السلام في سنة (٣٨) ميلادية. ويذهب البعض إلى أنه كتبه بين سنّي (٦٠.٥٠) ميلادية.

١٠. إنجيل مرقس: طبقاً لتصريح كتاب (القاموس المقدس) صفحة (٧٩٢) فإنّ مرقساً هذا لم يكن من الحواريين الاثني عشر، ولكنّه كتب إنجيله تحت إشراف (بطرس) وقد قتل هذا الأخير في سنة (٦٨) ميلادية.

١١. إنجيل لوقا: كان (لوقا) رفيق السفر لـ (بولس الرسول) وقد تنصّر هذا الأخير بعد مدّة من عيسى عليه السلام، وكان قبل تنصّره يهودياً متطرّفاً جداً، توفّي حوالي سنة (٧٠) ميلادية، وطبقاً لمؤلف كتاب (القاموس المقدس) صفحة (٧٧٢) فإنّ تأريخ كتابة هذا الإنجيل يعود إلى سنة (٦٣) على سبيل الظنّ والتخمين.

١٢. إنجيل يوحنا: (يوحنا) أحد حواريين وتلامذة النبي المسيح عليه السلام ورفيق سفر (بولس) وحسب الكتاب المذكور وبشهادة أغلب النقاد والمحققين؛ يعود تاريخ تأليف هذا الإنجيل إلى أواخر القرن الميلاديّ الأول.

١٣. من نصوص هذه الأناجيل التي تتناول قصّة صلب المسيح (المدّاعة) والحوادث التي تلت ذلك يثبت بوضوح أنّ جميع هذه الأناجيل قد حرّرت بعد سنين من عيسى عليه السلام، ولا يعد أي منها كتاباً سماوياً.

ألف: أعمال الرسل (أعمال الحواريين ومبلغي الصدر الأول).

ب: (١٤) رسالة من رسالات بولس إلى مختلف الأفراد والأقوام.

ج: رسالة يعقوب (الرسالة العشرون من جملة الرسائل السبع والعشرين الواردة في العهد

الجديد).

د: رسائل بطرس (الرسالة ٢١ و ٢٢ من العهد الجديد).

هـ: رسائل يوحنا (الرسالة ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ من العهد الجديد).

و: رسالة يهوذا (الرسالة ٢٦ من العهد الجديد).

ز: مكاشفة يوحنا (القسم الأخير من العهد الجديد).

١٤. طبقاً لتصاريح المؤرخين النصارى وطبقاً لشهادات الأناجيل الصريحة وسائر الكتب المحرزة بعد النبي عيسى عليه السلام، وحسب ما تقدّم من القول، نستنتج بأنّ الإنجيل كتاب سماويّ ضائع وهو ليس في أيدينا اليوم، وإنّما تمّ أقسام كتبها بعض الحواريين في أناجيلهم وهي. للأسف - ممزوجة بالخرافات والأكاذيب..

الآية ٤

مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. بعد ذكر التوراة والإنجيل . كما لاحظنا . وردت الإشارة إلى القرآن الكريم تحت مسمى الفرقان.

القرآن فرقان

٢. سؤال: لماذا سمي القرآن الكريم بالفرقان؟

لأنَّ الفرقان لغةً يعني وسيلة تمييز ومعرفة الحق من الباطل، وعموماً؛ هو كل شيء يفرق بين الحق والباطل لغرض معرفتهما، ولذا؛ وجدنا القرآن الحكيم يسمي يوم معركة بدر بيوم الفرقان، لأنَّ جيش المسلمين الصغير الفاقد والمفتقر للأسلحة والوسائل الحربية انتصر على جيش الكافرين الكبير بالنسبة لجيش المسلمين.. وكذلك سمي القرآن الحكيم معاجز النبي موسى عليه السلام العشر فرقاناً أيضاً.

٣. لأنَّ القرآن المجيد يفصل الحق عن الباطل فقد سمي فرقاناً، وقد أنزله الله تعالى لهداية الناس ومعرفة الحق من الباطل ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾.

٤. بعد إتمام الحجّة ونزول الآيات من جانب الله تعالى وبعد شهادة الفطرة والعقل على صدق دعوة الأنبياء وحقانيّة خاتمهم صلى الله عليه وآله، ليس ثمَّ نهاية غير الجزاء والمجازاة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

٥. لئلا يتصوّر بأنَّ ثمَّ شكّاً في حقيقة تهديدات الله عزّ وجلّ؛ أضافت الآية المجيدة القول: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

٦. العزيز لغةً تطلق على ثلاثة أشياء:

ألف: كل ما كان الحصول عليه صعباً ونيله غير يسير يسمّى عزيزاً..

ب: كل ما كان غير قابل للنفوذ؛ مشكلاً يدعى عزيزاً، ولذا؛ سمّيت الأرض الوعرة وصعبة العبور عزيزةً في لغة العرب.

ج: الأقوياء الأشداء من الأشخاص والذين تصعب الغلبة عليهم، أو كانت غير ممكنة؛ يسمّون أعزّاء.. وأينما أطلقت هذه الكلمة وكيفما استخدمت في الله عزّ وجلّ؛ حملت هذا المعنى، أي أنّ أحداً من مخلوقاته غير قادر على غلبته أو الفرار من حكومته، وأنّ الجميع مسلمون له بالعجز المطلق.

٧. ليعلم الكافرون. عبر هذه الآية. بأنّ تهديد الله تهديد جادّ وحقيقي. يقول تعالى بأنّه قادر عزيز، ولهذا؛ ليس من أحد له القدرة على مقاومة تحقيق تهديده، فهو وإن كان رحيماً بعباده رؤوفاً، كذلك هو شديد العقاب منتقم ممّن ليس جديراً بالرحمة..

٨. رغم أنّ الانتقام يقصد به. لغةً. في الغالب ما يعمد إليه البعض بداعي عدم الصفح عن أخطاء وممارسات الآخرين كخطوة مضادة بحيث لا يلحظون مصلحتهم ومنفعتهم في العفو.. وبالتالي فهي خطوة أو صفة غير حميدة، ذلك لأنّ الإنسان يجب أن يمارس فضيلة العفو في كثير من الموارد والأحيان ويقدمها على الانتقام أو الردّ بالمثل.. ولكنّ الانتقام في أصل اللّغة ليس بهذا المعنى، بل هو بمعنى معاقبة المذنب، ومعلوم أنّ معاقبة المذنب المتعمّد الجائر خطوة حميدة، بل وتحكيم للعدالة وتأصيل للحكمة.

٩. العذاب الشديد ليس خاصاً بالآخرة، فقد يكون اللّهُو والحرص على جمع المال والغفلة عن الله تعالى والبعد المعنوي في الحياة والانغماس في المادّيات نوع عذاب، كما يشير القرآن الكريم في الآية (٨٥) من سورة التوبة: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

العذاب في القرآن؟!

١٠. سؤال: ما معنى كلمة (العذاب) في الاصطلاح القرآني؟

كلمة العذاب في الاستعمال القرآني بمعنى العذاب الروحي المجرد أو العذاب الروحي والجسدي معاً.. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ فكان عذاب آل فرعون لبني إسرائيل امتحاناً من جهة الله، ومن جهة فرعون عذاباً بحد ذاته.. ولم تقل الآية أن ما كان يصدر من آل فرعون ضد بني إسرائيل عذاباً من الله..

والله تعالى يعدّ حياة الذين نسوه - مهما كانت مرفهة - حياةً ضيقة تعيسة عسيرة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ وكذلك كلما كان مضراً بالروح والبدن؛ يسميه الله عذاباً. كما أن المادّيين يعدّونه عذاباً.. مع اختلاف النظريتين.. فهو من جهة القرآن عذاب روحي.. ومن جهة المادّيين عذاب مادي.. ولعلّ ما يعدّه المادّيون مصداقاً للراحة والسعادة؛ يسميه القرآن عذاباً وأصلاً ومصدراً للشقاء والنقمة، كما في قضية العجب بالأولاد والأموال والقوّة وغير ذلك ممّا أشارت إليه آية سورة التوبة المذكورة.

الآية ٥

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية وبالإشارة إلى علم الله تعالى مكتملة للآيات السابقة، إذ قرأنا فيما سبق أن الله هو الحي القيوم وأن تدبير عالم الوجود بيده وبأمره، وأنه سيعاقب الكافرين المعاندين، ولا ريب أن هذا الفعل بحاجة إلى علم وقدر غير قابلتين للتصور، ولهذا؛ تمت الإشارة في أول الآية محط البحث إلى علم الله، ثم في الآية الثانية ورد التنويه بقدرته عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

٢. إنه من غير الممكن أن يخفى شيء على الله تعالى باعتباره الحاضر الناظر في كل مكان ولأنه موجود في كل مكان وجوداً غير محدود فلا مكان يخلو منه، بل هو أقرب إلى المخلوق من نفسه، فإنه في الوقت الذي لا يحده مكان؛ يحيط بكل شيء، وإحاطته بكل شيء تعني علمه المطلق بكل الموجودات والأمور.

الآية ٦

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. وردت الإشارة في هذه الآية إلى جهة من جهات علم الله تعالى وقدرته، التي هي في الحقيقة إحدى إبداعات عالم الخلق ومن المظاهر الجليلة البارزة من علم الله وقدرته اللامتناهية، وهي تصوير الإنسان في رحم الأم وتشكّل كيانه في ذلك الفضاء المظلم.. بشكل بديع وعجيب وغير منقطع.. إنه عجيب حقاً، لاسيّما بكلّ ذلك التنوع من حيث الشكل والصورة والجنس وأنواع القابليات المتفاوتة والصفات والغرائز المختلفة: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

٢. أن يكون الله هو الإله المعبود لا غيره، لأنّ ما يصدر عن إرادة وفعل ذاته المقدّسة غير جدير بأن يُعبد، وعليه؛ لماذا صارت بعض المخلوقات؛ مثل النبيّ عيسى المسيح عليه السلام محطّ عبادة بعض الناس، وكأنّ في هذا التعبير إشارة إلى شأن النزول الذي ذكر في أوّل السورة، حيث النصارى يقرّون بأنّه عليه السلام قد ترعرع في رحم أمّه السيّدة مريم عليها السلام، وعليه: فهو مخلوق وليس خالقاً، فكيف يمكن أن يكون معبوداً؟

٣. بالنظر إلى التطوّر العلميّ الحاصل في طبّ الأجنّة، فلو تمّ تصوير مراحل حياة الجنين في الرحم، وعرض هذه الصور أمام عين الإنسان بالترتيب لتجسّدت له عظيمة الخلق والقدرة الربّانية ولتعزّف على آفاق أخرى جديدة بهذا الصدد.. لأنّ الجنين في البداية يتكوّن من خلية واحدة لا شكل ولا أعضاء ولا جهاز خاصّاً يرى فيها.. وبسرعة عجيبة يبدأ هذا الموجود بالتشكّل المتوالي في مخبأ الرحم.. وكأنّ أيادي ماهرة فتّانة هي التي تصوّره وترسم ملامحه ليلاً

ونهاراً.. وهذه الذرة الصغيرة - بل المتناهية في الصغر - تتكوّن إنساناً في أقصر مدّة، هذا بغض النظر عما سيكون في جوف هذا الإنسان من أجهزة دقيقة ومعقّدة ومحيّرة..

٤. من عجائب الخلقة أنّ ما يلي تركيب النطفة والبويضة يتشكّل الجنين في أوّل صورة وسرعان ما يتحول إلى ما يشبه حبة فاكهة الفراولة ضمن عمليّة تصاعديّة، ويسمّى إتصال هذه الحبة بأشباهها (مرولاً) في علم الطبّ، ومع هذا التطوّر تتكامل كتلة دمويّة إلى جانبها، ثمّ يتمّ الاتصال بشريانين؛ واحد ينتهي إلى قلب الأمّ وآخر إلى الجنين عن طريق عقدة السرة لتتمّ عملية التغذية من الدم الموجود في المشيمة.

وشيّئاً فشيئاً وبفعل التغذية والتكامل وانطلاق الخلايا إلى الجهة الخارجيّة وتفريغ الـ(مرولاً) وهي المسمّاة في علم الطبّ بـ(بلاستولا) لا يتأخّر الأمر حتّى تجد الخلايا موضعها، وبالنتيجة يقسم الجنين إلى ناحيتي الصدر والبطن. والعجيب هو أنّ الخلايا متشابهة حتّى هذه المرحلة حيث لا اختلاف فيما بينها في ظاهر الأمر، ولكن بعد ذلك تبدأ مرحلة تصوّر الجنين ويبدأ تشكّل الأجزاء المتناسبة مع ما يتوقّع أو ينتظر لها من أدوار مستقبلية. وهنالك تظهر الأنسجة والأجهزة المختلفة وتتكفّل كلّ مجموعة من الخلايا بصناعة أحد الأجهزة، مثل جهاز الأعصاب وحركة الدم والجهاز الهضمي وغير ذلك، وبالنتيجة يتصوّر الجنين بعد مراحل جرت في مخبأ الرحم بصورة إنسان متعادل الكيان..

٥. مفردة ﴿الأرحام﴾ جمع رحم على وزن خشن، وهي لغةٌ بمعنى المكان، ورحم المرأة هو المكان الذي تستقرّ فيه النطفة ويتشكّل فيه الجنين وينمو.. كما تطلق الكلمة على الأقارب من أمّ حيث تربطهما المحبّة، فيقال لهم: رحماً، مع أنّ البعض يذهب إلى عكس ذلك، فيقولون بأنّ المفهوم الأصليّ للرحم هو رقّة القلب والعاطفة والمحبّة، وحيث يكون الأقارب متعاطفين متحابّين فيما بينهم، كما تطلق الكلمة على موضع تربية الطفل أيضاً.

الآية ٧

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ
وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ
مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ
وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ ۚ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ
إِلَّا أُولَؤُلَآءِ الْأَلْبَبِ



شأن نزول هذه الآية

نقل في كتاب (معاني الأخبار) عن مولانا الإمام الباقر عليه السلام أنَّ جماعة من اليهود يتقدّمهم حييّ بن أخطب وأخوه جاؤوا رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وقد حملوا معهم أوراقاً فيها شيء من علم الحروف وقالوا له: طبقاً لحساب الحروف الأبجدية؛ فإنَّ حرف الألف يساوي الرقم واحد، واللام يساوي ثلاثين، والميم يساوي أربعين (الم) وعليه؛ فإنَّك تكون قد أخبرت بأنَّ مدّة بقاء أمّتك لن تكون أكثر من إحدى وسبعين سنة (!) ودفعاً لهذا الاستنتاج الباطل قال لهم النبي الأكرم صَلَّى الله عليه وآله معترضاً: لم اکتفیت بحساب ﴿الم﴾ والقرآن فيه حروف مقطعة أخرى مثل ﴿المص﴾ و﴿و﴾ و﴿الر﴾ وغيرها، ولو كانت هذه الحروف إشارة إلى مدّة بقاء أمّتي، فلم لا تحسبوا جميع الحروف (علماً أنَّ مفهوم هذه الحروف أمر آخر) فنزلت هذه الآية الشريفة.^١

١- راجع: معاني الأخبار، ص ٢٣ و ٢٤

وجاء في تفسير (في ظلال القرآن)^(١) شأن نزول آخر لهذه الآية، وهو ينسجم من حيث النتيجة مع الشأن المتقدم، إذ روى فيه أن نصارى نجران قالوا للرسول صلى الله عليه وآله أ لست تقول عن المسيح: إنه كلمة الله وروحه؟ يريدون أن يتخذوا من هذا التعبير أداة لتثبيت معتقداتهم عن عيسى - عليه السلام - وأنه ليس من البشر، إنما هو روح الله - على ما يفهمون هم من هذا التعبير - بينما هم يتركون الآيات القاطعة المحكمة التي تقرر وحدانية الله المطلقة، وتنفي عنه الشريك والولد في كل صورة من الصور.. فنزلت فيهم هذه الآية، تكشف محاولتهم هذه في استغلال النصوص المجازية المصورة، وترك النصوص التجريدية القاطعة.^٢

النقاط المستفادة من هذه الآية

في معنى المحكم والمتشابه

١. ذهب الراغب في (مفرداته) في تعريف كلمة (المحكم) إلى أنها تعني المنع^٣، وإلى أن العلم والمعرفة يقال لهما حكمة، لأنهما يعوقان الإنسان ويمنعانه من الجهل والسوء.. كذلك تطلق هذه الكلمة على ما هو ثابت مستقر مستقيم، لأن ما يتصف بذلك يمنع من الانحراف، والمحكم أيضاً هو القول الثابت الواضح القاطع لكل احتمال للخلاف عن نفسه.
٢. تقسم آيات القرآن - في إحدى أشكال تقسيماتها - إلى مجموعتين: مجموعة من الآيات واضحة جلية، فلا يمكن مواجهتها بالإنكار وسوء الفهم والتفسير أبداً، وهذه تسمى بالآيات

١ - لمؤلفه سيد قطب المصري.. وهذا التفسير يعدّ أخطر ما كتب ضد عقيدة أهل البيت عليهم السلام لاسيما وأنه قد تناول الآيات القرآنية بما يدعى التفسير الحركي إذ كان محوره (كلمة حق يراد بها باطل) حيث اعتمد فكرة الحاكمية لله وجاهلية الناس ثم تكفير جميع الناس والحكم بجواز، بل بوجوب قتلهم وانتهاك حرمتهم، وبالتالي؛ فإن مؤلف هذا الكتاب قد أسس وشرع للإرهاب المعاصر. وما هذه الحركات الإرهابية التي تأسست منذ منتصف القرن الماضي إلا تشعبات عن فكر ومنهج هذا الكتاب ومؤلفه. [المترجم]

٢ - في ظلال القرآن، ج ١، ص ٣٦٩

٣ - مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢٤٨

المحكمات.. ومجموعة أخرى هي الآيات المتشابهات، وقد سميت بذلك لحاجتها إلى عمق التفكير وتفصيل القول باعتبارها تتناول مواضيع متشعبة؛ مثل الحديث عن العوالم البعيدة عن متناول الإنسان، وعالم الغيب وعالم البعث والقيامة.. ونصوص هذه الآية توحى بتضمّنها أسراراً لا يمكن كشفها إلا من قبل الجديرين بفكّ الرموز القرآنيّة والذين قد خطبوا بالقرآن، وهم ليسوا سوى النبيّ الأكرم وآل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

٣. المقصود من الآيات المحكمات هي الآيات ذات المفاهيم الواضحة الجليّة التي لا تقبل النفي والنقض، مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ والآية الشريفة: ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ﴾ وآلاف الآيات التي تتناول العقيدة والمواظب والأحكام والتواريخ.. فهي آيات محكمات..

٤. الآيات (المحكمات) في القرآن تسمّى (أمّ الكتاب) باعتبارها مفسّرة ومرجعاً وتوضيحاً لآيات القرآن الأخرى، ذلك لأنّ مصطلح (أمّ) تعني الأصل والأساس لكلّ شيء، وأمّ الأولاد قيل لها أمّاً لأنها أصل الأسرة وراعية أولادها، وعلى هذا؛ فإنّ الآيات المحكمات هي العناوين العريضة وأصل الآيات الأخرى..

٥. مفردة (المتشابه والمتشابهات) لغة تعني الأقسام والتفاصيل المتشابهة المحتاجة إلى فصل وتوضيح، ومن هنا؛ قيل للعبارات والكلمات ذات المعاني المعقّدة والمبهمة والتي تتضمّن أوجهاً شتى واحتمالات مختلفة: متشابهة، والمقصود القرآني من هذا العنوان هو أنّ الآيات التي تبدو للوهلة الأولى معقّدة وتوضع لها احتمالات عدّة بادئ بدء؛ لا بدّ من عرضها على الآيات المحكمة لتوضيحها وفهم مقاصدها الحقيقيّة..

٦. لا ينفكّ المغرضين من الأفراد عن رفع عقائدهم بالآيات المتشابهة، ومن البديهيّ أنّهم يعمدون إلى إساءة الاستفادة من الآيات التي يمكن أن تفسّر بعدّة تفاسير للوهلة الأولى؛ لا سيّما إذا لم تعرض على الآيات المحكمات.. وإن أردنا تمثيل ذلك وأخذنا جملة من الآيات

المتشابهة العائدة إلى بعض صفات الله تعالى وطبيعة ومشاهد يوم القيامة، وجدنا هذه الحقيقة ماثلة أمامنا، مثل قوله تعالى:

﴿يد الله فوق أيديهم﴾.

و: ﴿والله سميع عليم﴾.

و: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾.

ومعلوم أنّ الله ليس بجسم لتكون له يد (بمعنى هذا العضو البدني المعروف) وليس له أذن وليس عنده. أي لم يجعل له. ميزاناً كما هي موازيننا في الدنيا ليمحص أعمال الناس بها.. وإنّما ذلك كلّ إشارة وكناية إلى جملة من المفاهيم الكلّية الخاصّة بالقدرة والعلم وأساليب التمحيص والاختبار..

٧. تطالعنا الآية الأولى من سورة (هود) المباركة بالقول الشريف: ﴿كتاب أحكمت آياته﴾ وهي وصف لجميع الآيات؛ لا بمعنى أنّها جميعاً آيات محكمات بالوصف الذي مرّ في شرح الآيات (المحكمات) وإنّما جرى ذلك مجرى الإشارة إلى العلاقة الوطيدة بين جميع الآيات ومؤدّاها.. وكما أنّه سبحانه قال في الآية الثالثة والعشرين من سورة (الزمر) المباركة: ﴿كتاباً متشابهاً﴾ والتشابه هنا من حيث الصحّة والحقائيّة والمتانة، لا بمعنى (المتشابهات) الذي هو وصف لبعض الآيات..

٨. بالتحقيق والنظر والتدبر في معنى (المحكم والمتشابه) نصل إلى نتيجة أنّ الإنسان الواقعي الباحث عن الحقيقة وفهم الكلمات الإلهيّة ليس له سوى مطالعة جميع الآيات معاً ثم استخراج الحقائق.. ولا يزاح الإبهام والتشابه في ظواهر الآيات إلّا بالالتفات لآيات أخرى تختصّ بموضوع واحد، وبعبارة أوضح: إنّ الآيات المحكمات . من زاوية . هي كما الطرق العريضة والعناوين الرئيسيّة، فيما الآيات المتشابهات عبارة عن طرق فرعيّة وعناوين تفصيليّة.. ومعلوم أنّ المرء إذا ما تاه في الطرق الفرعيّة؛ عليه العودة إلى أقرب جادة رئيسيّة

عريضة ليصَّحَّ مسيره ويعثر على طريقه الفرعي الذي يبتغي.^(١)

٩. السؤال الذي يطرح نفسه في الأذهان هنا هو: مع أنَّ القرآن نور وخطاب حقٍّ واضح جليٍّ وقد أنزله الله تعالى لهداية البشر، فما هي فلسفة وحكمة وجود بعض من الآيات مبهمة متشابهة، ولعلَّها تؤدِّي إلى الشبهة أو إساءة الاستفادة من قبل البعض؟

فلسفة المتشابه

للإجابة على ذلك؛ لا بدّ من القول بأنَّ الحكمة من وراء جعل قسم من الآيات متشابهات هي التالي:

الف: الألفاظ والعبارات الجارية في أحاديث الناس؛ إنّما وجدت لسدّ الحاجات اليومية، ولهذا، ما إن نخرج عن دائرة الحياة البشريّة المادّيّة المحدودة، كأن يكون الحديث عن الخالق اللا محدود بأيّ حساب من الحسابات.. سنرى بوضوح أن ألفاظ الناس لا تصلح لأن تكون قوالب للمعاني المطلوبة، وسنضطرّ حينها إلى استعمال كلمات مختلفة من نواحي عديدة يكون لها مردودها المطلوب.. ثمَّ إنّ عجز الألفاظ - عموماً - هو في الغالب سبب مباشر للمتشابهات في الحوار والتعبير.. فأيات كريمة مثل: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿أَوْ:﴾ الرحمن على العرش استوى ﴿أَوْ:﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿وَسَيَأْتِي تَفْسِيرُهَا فِي مَحَلِّهِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، وكذلك التعبير بالقول: ﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ حيث تتجلّى مقاصدها عند إرجاعها إلى الآيات

١- ومعلوم أن مقصود السيّد المؤلّف من كلّ ذلك هو ضرورة العودة إلى المرجع الأوّل في إعادة المتشابهات إلى المحكمات، بل وفهم المحكمات أوّلاً، وهم أهل البيت عليهم السلام الذين هم عدل القرآن، باعتبارهم الثقل الوحيد المخوّل لفهم الناس مقاصد القرآن كما نصّ النبيّ الأكرم صلوات الله عليه وآله على ذلك في خطبة الغدير العظيمة وجرت بيعة المسلمين على ذلك، إذ قيدهم جميعاً وإلى يوم القيامة بأنّ أمير المؤمنين عليه السلام، هو الوحيد الذي يفهم الناس (بعد الرسول قرآن الله العظيم.. وهذه النقطة هي الركن العظيم الذي يضمن للناس عدم الضلال عن إرادة الله تعالى. إلّا أنّ منهج غير أتباع أهل البيت عليهم السلام هو الاكتفاء بالقرآن لدى تفسيره انطلاقاً من القول (حسن كتاب الله) عصياناً لرسوله ودفعاً لأوصياء الرسول الحقيقيين عن مراتبهم التي رتبهم الله تعالى فيها. لعلم هؤلاء المسبق بأنّ المعصوم هو القادر وذو الصلاحية والجدارة والمسؤولية في تفسير كلام الله تعالى وإرجاع ألفاظه المقدّسة إلى معانيها الحقيقيّة. [المترجم]

المحكمات؛ كل حسب موضوعه..

ب: أن كثيراً من الحقائق المتعلقة بالعالم الآخر، أو عالم ما وراء الطبيعة الذي هو غير قريب من أذهاننا، ونحن إزاءه غير قادرين على إدراك عمقه بحكم تقيّدنا بقيود الزمان والمكان.. هذا الجهل والعجز والتقيّد ومحدودية أفكارنا واتّساع آفاق هذه المعاني، يمثل سبباً آخر لوجود التشابه في قسم كبير من الآيات القرآنية الشريفة، مثل الآيات التي تتناول موضوع القيامة وغيرها، وهذا الواقع يشبه من يريد إيضاح تفاصيل الحياة الدنيا لجنين يعيش في بطن أمه.. فإن هو تكلم معه؛ أجبر على الإيجاز لعجز الجنين عن الفهم إلى حدّ الإطلاق، ناهيك عن العجز عن السماع والاستعداد للفهم، وإن لم يتكلم يكون قد قصّر..

ج: سرّ آخر من أسرار وجود المتشابه في القرآن، استهداف طبيعة وقابلية التفكير لدى البشر وإيجاد نهضة فكرية لديهم، وهذا بالذات ما يطرح بخصوص المسائل الفكرية المعقّدة مثلاً لتقوية وشحن الذهن لدى المفكرين وحثّهم على مزيد من الدقّة والملاحظة..

د: المسألة الأخرى لدى ذكر المتشابه في القرآن . ولعلّها الأهمّ من كلّ ما تقدّم . كما ورد في ثقافة أهل البيت عليهم السلام أنّ مردّ وجود الآيات المتشابهات إيضاح مدى الحاجة إلى النبيّ الأعظم وأوصيائه الراسخين في العلم، وليكون ذلك سبباً في رجوع الناس والأجيال المتعاقبة إليهم تبعاً للحاجة العلميّة والعقائديّة والتشريعيّة، ولتكون قيادة الأوصياء للناس مشروعاً عملياً ولينتفعوا بهم في المجالات الكثيرة الأخرى.. وهذا الواقع يشبه واقع الكثير من الكتب المدرسيّة التي أوكل شرح أقسام كثيرة منها إلى شخص المعلم والمدرّس، لمزيد من الفهم لتوطيد العلاقة العلميّة والأخلاقيّة المفترضة بين هذا المدرّس والتلاميذ.. ثمّ تبعاً لهذه الحاجة يتسّنى للتلاميذ كسب مزيد من العلم والمعلومات من الأستاذ.. وهكذا يتجلّى أنّ القرآن المجيد مصداق عظيم للوصيّة النبويّة المعروفة.. وهي التي تجسّد خلاصة المهمّة النبويّة وتمثّل الصورة الكاملة للإسلام

حيث قال صلوات الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين؛ كتاب الله وأهل بيته، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^١.

هذه مسألة اختبار الأشخاص وتحديد مثيري الفتن وتمييزهم عن الفتن.. تعدّ حكمة أخرى ودافعا آخر جرت الإشارة إليه في هذه الآية.

في معنى التأويل

١٠. ذكر للتأويل معان لغويّة عديدة مثل:

الف: أن يرى الإنسان مناماً غير محدّد النتيجة، فيرجع إلى أحدهم، أو لعلّه يرى مشهداً يفسّره ذلك المنام، كما جرى للنبي يوسف عليه السلام منامه الشهير الذي تحقّق بتفاصيله فيما بعد فقال فيما قال: ﴿ هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾.

ب: متى ما تحدّث الإنسان وقد كرّس في كلمات وعبارات حديثه أسراراً ومفاهيم خاصّة تمثّل هدفه الأساس من الحديث، فإنّه يقال لها: (تأويل) أو العودة بالشيء.

ج: أو أنّ كلّ عمل أو حديث لم يتحقّق الهدف الأساس منه؛ يسمّى تأويلاً، فمثلاً: إذا قام امرؤ شيء ثمّ بيّن هدفه الأصليّ من فعله في النهاية.. كان فعله هذا تأويلاً، كما هي قصّة النبي موسى والخضر عليهما السلام الواردة في سورة (الكهف) والأفعال التي صدرت في تلك السفرة (مثل خرق السفينة ومقتل الغلام الصغير) حيث لم يكن القصد منهما محدّداً أو واضحاً، ولذلك؛ انزعج موسى عليه السلام أيّما انزعاج، ولكنّه حين اتّضح له أن المقصود من خرق الخضر عليه السلام للسفينة يتمثل في ألا تصادر من قبل أحد سلاطين الجور حيث قال له الخضر عليه السلام في نهاية المطاف: ﴿ ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾.

١- بصائر الدرجات، ج ١، ص ٤١٣

١١. المقصود من قوله تعالى: ﴿وابتغاء تأويله﴾ أنّ في القرآن المجيد آيات لها أسرار ومعان عميقة، غير أنّ أفراداً ذوي أفكار منحرفة وأغراض فاسدة يعمدون إلى تأويلها لخداع الآخرين: «وابتغاء تأويله على خلاف الحق» كأولئك اليهود الذي عمدوا إلى الحروف المقطعة في القرآن وفسروها على أنها إشارة إلى قصر مدّة بقاء الدين الإسلامي، أو كالنصارى الذين برّزوا بهذه الحروف المقطعة لألوهيّة النبي عيسى عليه السلام، وكلّ هذا تأويل بخلاف الحق ورجوع بالآية إلى غير هدفها وغايتها الصحيحة..

١٢. وردت عبارة ﴿الراسخون في العلم﴾ في القرآن الكريم في موضعين: أحدهما في سورة (آل عمران) والثاني في سورة (النساء) في الآية الثانية والستين بعد المئة.

١٣. المقصود من عبارة ﴿الراسخون في العلم﴾ هم الثابتون ذوو العلم العميق وال ثابتون في المعرفة.. ولا ريب أنّ مفهوم هذه الكلمة مفهوم واسع يشمل جميع العلماء والمفكرين، إلّا أنّ منهم أفراداً ممتازين لهم خصوصيّتهم وهم يمثّلون مصاديق فذة لهذا المفهوم..

١٤. طبقاً للروايات الكثيرة الواردة في كتاب (أصول الكافي) وسائر كتب الحديث، وقد أوردتها كتاب تفسير (نور الثقلين) و(تفسير البرهان) في ذيل تفسير هذه الآية الشريفة، أنّ الراسخين في العلم هم النبي وآل بيته الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين وهم يعلمون علم اليقين بما أنزل من قرآن وتأويله حيث علّمهم الله تعالى كلّ شيء وتأويل كلّ آية ومفاهيمها.^١

١٥. في البين بحث مهمّ جرى بين المفسّرين والعلماء، وذلك في معنى ﴿الراسخون في العلم﴾ وما إذا كان الله تعالى وحده الذي يدري تأويل القرآن مضافاً إلى الراسخين في العلم، أم أنّ تأويل القرآن حكر على الله وحده لا شريك له، وأنّ الراسخين في العلم يقولون بأنّهم لا

١- راجع: نور الثقلين، ج ١، ص ٣١٢ إلى ٣١٨ والبرهان، ج ١، ص ٤٤ إلى ٤٦

يدرون تأويل الآيات المتشابهات ولكنهم يعربون عن تسليمهم وقولهم بأن الآيات كلها من عند الله تعالى.. ولكل من القائلين بهذا الصدد شواهد لإثبات وجهة نظرهم.. إلا أن القرائن المتوقفة في الآية والروايات المشهورة تكشف عن أن الراسخين في العلم مطلعون على المتشابهات وتأويلها (الراسخون في العلم) عطفاً على الله تعالى:

أولاً: من البعيد جداً أن تكون ثم آيات قرآنية لا يعلم أسرارها إلا الله تعالى.. أو ليست الآيات القرآنية قد أنزلت لتربية الناس وهدايتهم وتعليمهم، فكيف يمكن أن نتصور وجود آيات لا يعلم تأويلها حتى الرسول الذي أنزلت عليه الآيات.. إن هذا يشبه شخصاً يكتب كتاباً لا يعلم مفاهيم ما ورد فيها إلا هو؟!

ثانياً: كما يقول المرحوم الطبرسي في (مجمع البيان): لم يُر بين العلماء ومفسري القرآن الكريم من يمتنع عن تفسير آية من الآيات ويقول: هذه آية من الآيات التي لا يعلم معناها إلا الله تعالى.. بل نراهم على الدوام يحثون السير في تفسير الآيات ويبذلون أقصى الجهد في أداء مسؤولياتهم.^١

ثالثاً: إن كان المقصود من ﴿الراسخون في العلم﴾ أنهم مسلمون فيما لا يعلمون، فإن من الأنسب القول إن الراسخين في العلم هم مسلمون ضمن إيمانهم، ذلك لأن الرسوخ في العلم يناسب تأويل الآيات؛ لا الجهل بها مع التسليم.

رابعاً: أن الروايات المستفيضة الواردة في تفسير هذه الآية تؤيد أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل الآيات، وعليه؛ يجب أن تعطف على كلمة (الله).^٢

١٦. قوله تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ الوارد في خاتمة الآيات إشارة إلى أن هذه الحقائق يعلمها العلماء؛ الذين يفهمون أصل وجود الآيات المحكمات والمتشابهات.. وهم

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٠١

٢- راجع: بصائر الدرجات، ج ١، ص ١٩٦ و ٢٠٣ و ٢٠٤.

الذين يفقهون ضرورة جعل الآيات المتشابهات إلى جانب الآيات المحكمات ثم الكشف عن أسرارها.. ولهذا نقل عن مولانا الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «من ردّ متشابه القرآن إلى محكمه؛ هدي إلى صراط مستقيم»^١.

١- عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ٢٩٠

الآية ٨

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً^١

إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. حيث أنَّ من الممكن أن ينتهي الإنسان إلى الانزلاق في فهم الآيات المتشابهة وأسرارها المستودعة فيها، فيخرج خائباً في اختبارها، إلا أنَّ الراسخين في العلم والعلماء الولايتيين حقاً، وفضلاً عما أنعم الله تعالى عليهم بنعمة العلم الرباني في فهم معاني هذه الآيات تراهم يلجؤون إليه سبحانه وتعالى ويسألونه التفضل عليهم بالاستقامة على ما أنعم عليهم من الهداية، كما يطلبون إليه الرحمة باعتباره واهب العطايا ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾.

٢. كثير هم العلماء الذين يهلكهم غرورهم العلمي وتؤدّي بهم وساوس الشيطان وهوى النفس إلى الانحراف.. وهنا لابدّ لهم من اللّجوء وتسليم أنفسهم لله تعالى وطلب الهداية منه.. بل إنّه ورد في بعض الروايات أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد أسلم نفسه المقدّسة المعصومة إلى الله تباركت أسماؤه منذ البداية..... ولطالما دعاه بالقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^١.

ولمّا كان الإيمان بالمعاد واليقين بالبعث والحساب أكثر شيء تأثيراً في ضبط الميول النفسيّة، فإنّ الراسخين في العلم دائمي التذكّر لذلك الواقع واليوم العظيم، فتراهم يقولون على الدوام: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾.

١- أمالي المرتضى، ج ١، ص ٣١٨

وهكذا يحيدون بأنفسهم عن هوى الذات والعواطف النفسية غير المنضبطة التي توجب الانحراف.. وإن مثل هؤلاء العلماء لهم أن يفهموا آيات الله تعالى بالشكل الذي يريده الله تعالى ورسوله وآل رسوله المعصومين؛ فيأمنون السقوط في الانحراف والتفسير بالرأي..

٣. لا ينبغي الغرور بالعلم، ولا بد من استدامة طلب الهداية من الله تعالى ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾.

٤. إن محور الهداية والانحراف هو قلب الإنسان وطبيعة تفكيره ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾.

٥. مع أن الهداية أمر بالغ الأهمية، إلا أن الاستقامة والبقاء على هذه الهداية هو الأمر الأهم ﴿بعد إذ هديتنا﴾.

٦. الهبة الدائمة المجردة عن المنة؛ قضية خاصة بالله تبارك وتعالى ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

الآية ٩

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ

لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. الآية السالفة إشارة إلى إيمانهم التام بالمبدأ، وهذه الآية الثانية إشارة إلى إيمانهم الراسخ

بالمعاد.

٢. حيث أن عقيدة المعاد والإيمان بيوم البعث والحساب أكثر شيء تأثيراً في ضبط

الميول والوساوس النفسية، فإنَّ الراسخين في العلم دائمو التذكُّر له، ولطالما يقولون: ﴿ رَبَّنَا

إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾.

٣. إذا ما أراد الناس أن يصابوا عن الهوى والميول النفسية الشديدة التي توجب الانحراف؛

فلهم أن يعوا آيات الله تعالى كما هي..

الآية ١٠

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. (وقود) بمعنى مادة الاحتراق. وفي جهنم مادتان للاحتراق: الحجارة والبشر ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ نعم؛ إنّ الصفات والخصال والأفكار والأعمال تغير هوية الإنسان؛ حتى تبلغ به إلى أن يتبدل ويصير وقوداً للنار جهنم، بل ويكون وسيلة الاحتراق.
٢. لا تغتروا بأموالكم وأولادكم، ولا تتعلقوا بغير الله عزّ وجلّ، لأنّ غير الله مدان ولا يثمر شيئاً مفيداً ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم﴾.
٣. كفر الإنسان يخرجّه عن مدار الإنسانية ويهبط به إلى حيث الأشياء الماديّة ﴿أولئك هم وقود النار﴾.

الآية ١١

كَدَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. الدَّابُّ هو في الأصل الاستمرار في السير والحركة، وهو كلُّ فعل وعادة وأسلوب وطريقة ومنهج مستمر..

٢. هذه الآية تبين نموذجاً واضحاً عن أقوام كانوا يتمتعون بالثروة وكثرة الأشخاص، كما هو حال آل فرعون ومن سبقهم ممَّن كان على شاكلتهم حيث اغتروا بأموالهم وقوتهم وكثرة عددهم؛ فكذبوا بآيات الله تعالى . معاجز وتعاليم وأنبياء وأوصياء . ولكن أسباب الغرور المذكورة وغيرها لم تمنع إصابتهم بعذاب الله الذي نزل في ساحتهم ﴿ كذاب آل فرعون... شديد العقاب ﴾.

٣. صحيح أنَّ الله سبحانه أرحم الراحمين، ولكنَّه في الوقت نفسه شديد العقاب حيث يريد تربية أو مجازاة عبده.. وعليه، فلا يصحَّ أن يغترَّ ابن آدم برحمة الله الواسعة.

٤. يستفاد من كلمة (دَاب) بطلان اتِّخاذ الإنسان طريقة ومنهج آل فرعون ومن هم على شاكلتهم نموذجاً يحتذى به، باعتباره منهجاً خاطئاً يعبر عن حالات العناد ومقاومة الحقيقة وتكذيب الآيات الإلهية.. ولهذا؛ ورد التهديد بشديد العقاب.. ذلك لأنَّ ارتكاب الذنوب ما لم يبلغ حدَّ العادة والسنة والطريقة والمنهج؛ فإنَّ التوبة والرجوع عنه أمر يسير؛ وعقوبته قد تكون عقوبة بسيطة، ولكنَّ الجرأة على الذنب إذا ما تكرَّست في وجود الإنسان وجوهره، تعمَّر عليه العودة عنها، وكانت العقوبة عليها شديدة.. ولذلك؛ فإنَّ أنجع سبيل للكافرين والمذنبين العاقين هو العودة والتوبة الصادقة قبل فوات الأوان...

الآية ١٢

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
وَيَبْسُ الْمِهَادُ

شأن نزول الآية

بعد معركة بدر وانتصار المسلمين على الكافرين، قال جماعة من اليهود: إن ذلك النبي الأثمي - المنسوب لأُم القرى وهي مكة المكرمة - الذي قرأنا وصفه واسمه في توراتنا؛ والذي لا يهزم في حرب هو هذا النبي الذي رأيناه قد انتصر في بدر. فيما قال آخرون منهم: لا تعجلوا واصبروا حتى يخوض محمد - صلى الله عليه وآله - معركة أخرى، وهنالك لكم أن تقضوا رأيكم فيه. وحينما وقعت معركة أحد، ولحقت الهزيمة - حسب الظاهر بالمسلمين - قال هؤلاء اليهود: إنه والله ليس النبي الذي بشرت به التوراة... فلم يسلموا وزادوا في عنادهم ضد الإسلام والمسلمين، بل ونقضوا مواعيدهم التي كانوا أبرموها مع رسول الله صلوات الله عليه وآله الخاصة بعدم الاعتداء أو مساعدة أعدائهم على بعضهم قبل انقضاء أجلها، وقد انطلق ستون فارساً منهم يتقدمهم كعب الأشرف إلى مكة للاتحاد مع المشركين في مواجهة المسلمين، وما أن عادوا إلى المدينة حتى نزلت هذه الآية وألقتهم حجراً!¹

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. وردت في القرآن المجيد إخبارات غيبية كثيرة؛ حتى عدت من أدلة وعظمة إعجاز كتاب الله تعالى.. والآية أعلاه نموذج من تلكم الإخبارات الغيبية.. إذ التعرف إلى علّة نزول الآية والوقت الذي نزلت فيه حيث فقد المسلمون - حسب الظاهر - الكثير من قوتهم ونفوذهم،

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٠٦

إضافة إلى مساعي المشركين في رُفْد نفوذهم ودعم اتِّحادهم... فَإِنَّهُ يستفاد من هذه الآية الجليلة أَنَّها آية معجزة في إخبارها الغيبي المتحدِّي لمساعي ومؤامرات الكافرين من أهل الكتاب ومشركي مَكَّة بأنَّهم لا محالة سيغلبون، لا سيَّما وأنَّها قد أخبرت بذلك والمسلمون قد أُصيبوا في مقتل من حيث الناحية المعنويَّة بعد أحد..

٢. إِنَّ تَحَقُّقَ الوعد الإلهيِّ (ستغلبون) بمعنى: سرعان ما ستلحق بهم الهزيمة.. فما يخصَّ يهود المدينة (بنو قريظة وبنو النضير) فقد تلاشى جمعهم في معركة خيبر، وفيما يتعلَّق بمشركي مَكَّة؛ فهي قد فتحت وهنالك هزموا شرَّ هزيمة، هذا فضلاً عمَّا حلَّ بهم في معركة الخندق السابقة لهذين الحدثين والتالية لواقعة أحد..

٣. لا ينبغي للمؤمنين أن يضطربوا ممَّا قد يتعرَّضون له من هزيمة إذ كلَّ حرب يرد عليها احتمال الهزيمة والنصر، إلَّا أنَّ ما هو مؤكَّد هو مصير الكافرين المنتهي إلى جهنَّم ﴿ستغلبون وتحشرون إلى جهنَّم﴾.

الآية ١٣

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ
رَأَى الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

شأن نزول الآية

هذه الآية نزلت عن معركة بدر، وكما قال المفسرون في معركة بدر، فإن عدد المسلمين كان (٣١٣) رجلاً، منهم (٧٧) من المهاجرين و (٢٣٦) من الأنصار، وكان أمير المؤمنين عليه السلام يحمل راية المهاجرين، فيما كان سعد بن عبادة يحمل راية الأنصار، وكان لدى المسلمين (٧٠) بغيراً وجوادان وست دروع وثمانية سيوف.. هذا بينما كان عدد المشركين يفوق الألف مقاتل مسلّح، وكان لديهم (١٠٠) من الخيل. وقد استشهد من المسلمين (٢٢) رجلاً، منهم (١٤) من المهاجرين و (٨) من الأنصار، فيما قتل من المشركين (٧٠) وأُسِر منهم (٧٠) آخرون. وقد رجع المسلمون بنصر مؤزّر إلى المدينة، وهذه صورة مختصرة عن قصة معركة بدر الكبرى^١.

النقاط المستفادة من هذه الآية

إرادة الله الحكيمة والخفيّة

١. الآية أعلاه تحذّر الكافرين مرّة أخرى من الاغترار بثرواتهم وعديد أشخاصهم، إذ لا فائدة تعود عليهم من ذلك، وشاهد ذلك ومصادقه الحيّ معركة بدر، حيث كان أعداء الإسلام

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٠٨ و ٧٠٩.

كثيري العدة والعدد والأموال إلا أنهم هزموا هزيمة نكراء صارت لهم درساً وعبرة فيما بعد...

٢. تُرى لم لا يعتبر الكفار من موضوع معركة بدر وكيف أن جيشاً صغيراً، يفقد تقريباً مقومات القوة العسكرية المادية بمعناها المعروف، قد قاتلهم بصلابة الإيمان والمتانة وواجه جيشهم الذي يفوقهم أضعافاً بالعدة والعدد.. فانتصرت الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة المغرورة..

٣. لو كانت القوة المادية وعدد الأشخاص والإمكانات الكبيرة هي وحدها التي تؤدي إلى النجاح لكان المشركون قد انتفعوا منها بما يضمن لهم النصر في بدر.. غير أن النتيجة كانت على عكس ما كانوا يشتهون.. ثم إن الآية الشريفة عادت لتقول إنَّ المشركين وبفعل ضعفهم الروحي وخوائهم النفسي وغرورهم الكاذب راحوا يرون عدد المؤمنين الذين لم يكن عددهم يزيد على ثلث عدد الكافرين، ضعفي عددهم ﴿يرونهم مثلهم رأي العين﴾.

٤. أحد أسباب هزيمة المشركين في بدر وطبقاً لشهادة القرآن المجيد أن القدرة الإلهية للمؤمنين وهم الـ (٣١٣) رجلاً كانت في أعين الكفار لأكثر من (٦٠٠) رجل ليضاعف رعبهم وهلهم ﴿يرونهم مثلهم رأي العين﴾.

٥. لو جرى التأمل في هذا المدد الإلهي، وكيف صار المشركون يرون كل واحد من المسلمين خلال معركة بدر رجلين، لوجب القول بأن من الطبيعي لدى بدء المعركة وحين تلقى الكفار كل تلكم الضربات الماحقة من قبل المؤمنين. وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عليه السلام . أن الرعب استولى عليهم فظنوا بأن قوات مؤمنة أخرى التحقت بجيش المسلمين وأن هؤلاء بدؤوا يخوضون المعركة بضعفين لقوتهم الأولى، في حين أن المشهد الأول للمعركة كان على العكس من ذلك، إذ كان الكفار يرون المسلمين أقل من عددهم القليل أصلاً..

٦. لعل الله تعالى أراد. قبل بدء الحرب. أن يقل عدد المسلمين بأعين الكافرين، ليدخل

هؤلاء الحرب بغرور وغفلة، ثم بعد بدء القتال أراهم الله المسلمين ضعفين ليزيد من رعبهم واضطرابهم ويستولي عليهم الشعور المسبق بالهزيمة.. فيما قلل الله عدد المشركين في عيون المسلمين ليضاعف قوتهم وشعورهم المعنوي.. وهذا هو الذي أشارت إليه الآية (٤٤) من سورة الأنفال: ﴿وإذ يركبموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللکم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي: يا أيها المؤمنون! لا تخافوا ولا تحزنوا وخوضوا الحرب بكل ثقة.. فيما المشركون سرحوا في تصوّراتهم يملؤهم الغرور واستصغار شأن المسلمين.. وهكذا لقي كل من الفريقين ثمرة تصوّراته..

٧. ورد في بعض الروايات أنّ أحد المسلمين قال: قلت لصاحب لي قبل بدء المعركة: هل تظنّ أنّ الكفار هم سبعون رجلاً؟ فقال: أظنّهم مئة شخص، ولكننا حينما بدأنا الحرب ثم انتصرنا وقدنا الأسرى؛ أخبرنا هؤلاء أنّهم كانوا ألف مقاتل..^١

٨. لا شكّ في أنّ إرادة الله تعالى في إمداد المؤمنين لم تكن عن غير حكمة وحساب. والعياذ بالله. ومن الطبيعي أنّ جيش المؤمنين كان بمسيس الحاجة إليها في ذلك الظرف العصيب.. ومن الطبيعي أيضاً أن يكون ثمّ أفراد بينهم جديرين بهذا المدد..

٩. كان نصر المسلمين التاريخي في بدر ذا بعدين، إذ كان نصراً عسكرياً من جهة، ومنطقيّاً من جهة أخرى.. أمّا العسكريّ منه؛ فمن حيث أنّ جيش المسلمين كان جيشاً متواضعاً في العدد والعدد مفتقراً إلى أبسط الإمكانيات التي تكفي لمواجهة الجيش المعادي الذي كان يفوقه ثلاثة أضعاف متزوّداً بأنواع السلاح.. أمّا المنطقيّ منه؛ فهو من حيث أنّه سبحانه وتعالى كان قد وعد المسلمين بالنصر قبل بدء المعركة.. وهذا من أدلّة حقانيّة الإسلام.

١- تفسير الامثل، ج ٢، ص ٤٥٤ و ٤٥٥ نقلا عن تفسير القرطبي

١٠. ذوو البصائر والذين يرون الحقائق كما هي يأخذون العبرة من هذا النصر المحمديّ العلويّ المؤزر، ويعلمون أنّ القاعدة الأصليّة لتحقيق النصر هي الإيمان ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾.

الآية ١٤

زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ
وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية . في حقيقتها . إكمال لما مرّ من بحث .. إذ الآيات السالفة تحدّثت عن الذين يعتمدون أموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا واغترّوا بهما وظنّوا أنّهم في غنى عن الله سبحانه .
٢. مفردة (القناطر) جمع قنطار، وهو الشيء الرصين المحكم، وتقال كذلك للمال الكثير.. وإن شاهدنا جسراً أو شخصاً نبهاً يقال لهما قنطرة فلرصانة بناء الجسر أو متانة التفكير.. و (المقنطرة) اسم مفعول من هذه المادّة بمعنى المضاعف والمكثّر.. وذكر هاتين الكلمتين مترادفتين لأجل التأكيد..
- وقد حدّد البعض مقداراً معيّناً للقنطار وقالوا: القنطار هو سبعون ألف دينار ذهب، وحدّه آخرون بمئة ألف، وقال غيرهم: هو اثني عشر ألفاً.. ووصفه آخرون بكونه كيساً أو صرة من المسكوكات الذهبية أو الفضيّة.. ونقل أنّ القنطار هو مقدار من الذهب الذي يحويه جلد بقرة..^١ وهو في الحقيقة تعبير عن المال الكثير..
٣. كلمة (الخيّل) اسم جمع بمعنى الجياد أو الفرسان، والمقصود في الآية هو المعنى الأول.

١- تفسير القمي، ج ٢، ص ٣٩٤

٤. مفردة (المسومة) بمعنى المعلّمة بعلامة، على سبيل الهيكل والمظهر الخارجي المميّز، أو بسبيل تعليمها واستعدادها للامتطاء في سوح الحرب..

٥. تمّت الإشارة في هذه الآية إلى ستّة أشياء من جملة ثروات وأمور الحياة المهمّة، وهي عبارة عن: الزوجة والولد والمال النقدي وما يركب ممّا يستفاد منه، في الثروة الحيوانيّة (الأنعام) و(الحرث) والزراعة.. وهي بمثابة أركان الحياة المادّيّة للإنسان.

٦. الحديث في هذه الآية عن الأشياء والأمور التي هي محطّ تعلق واهتمام الناس في الحياة، مثل النساء والأولاد والمال الوفير والذهب والفضّة ووسائل النقل المعاصرة أو الماضية مثل الخيل والدواب أو الأرض الزراعيّة.. كلّ ذلك ممّا يمتحن به الإنسان: ﴿رَبِّينَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾.

٧. كثرة الأموال والممتلكات والنساء والبنين من جملة متاعنا الدنيويّ (فلا يصحّ اعتبارها هدفاً) ولا بدّ من الإيمان بأنّ الحياة الطيّبة الخالدة هي عنده تبارك وتعالى: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾.

٨. لا شك في أنّ الإنسان في الحياة الدنيا يعجز عن مواصلة العيش من دون الوسائل الدنيويّة، بل إنّ طيّ الطريق المعنويّ والسعادة أمر غير ممكن من دون هذه الأمور المذكورة، إلّا أنّ الاستفادة منها في خضمّ المسير شيء، والتعلّق الخارج عن الحدّ المعقول أو عبادتها واعتبارها الغاية شيء ومطلب آخر..

الزينة الدنيويّة

٩. سؤال: من هو الذي يضيف الزينة على الأمور المادّيّة عند الإنسان؟
الف: ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الوسواس الشيطانيّة هي التي تزيّن لكم الأمور الستّة المذكورة وغيرها في عين الإنسان وقد استدلّ هؤلاء المفسّرون على ما ذهبوا إليه بالآية (٢٤) من

سورة (النمل) المباركة: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وأمثال هذه الآية.. ولكن لا يبدو هذا الاستدلال صحيحاً، ذلك لأنَّ الحديث في هذه الآية عن الأعمال، فيما الآية مورد البحث لا تختصُّ بذلك، وإنَّما الحديث فيها عن الأموال والنساء والأولاد.

ب: ما يبدو صحيحاً من أنَّ من زَيَّن هذه الأمور هو الله تعالى بطبيعة فعله وخالقيته لابن آدم، وهو سبحانه الذي كرَّس حبَّ الولد والمال والثروة في طبيعة الإنسان لتتمَّ عملية الاختبار طي طريق التكامل، كما ورد في الآية الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: لينتفعوا من هذه الزينة في مسار السعادة دون الفساد والدمار.

١٠. من المسائل المثيرة في هذه الآية أنَّها ذكرت المرأة والزوجة باعتبارها الموضوع الأول ومصداق الزينة الدنيوية التي جعلت اختباراً للإنسان، وهذه الحقيقة هي التي يعبر عنها علماء النفس المعاصرين بالقول بأنَّ الغريزة الجنسيَّة هي أقوى الغرائز الإنسانيَّة، وهذا التأريخ البشريِّ بمراحلهِ يؤيِّد بأنَّ كثيراً من الوقائع الاجتماعيَّة والتاريخيَّة ناشئة من هذه الغريزة...

١١. لا ريب في أنَّ هذه الآية أو غيرها من الآيات لا تعترض على العلاقة المعتدلة والموقف الرصين تجاه المرأة والأولاد والثروة، ذلك لأنَّ الحركة نحو تحقيق الأهداف المعنويَّة السامية أمر غير ممكن من دون وسائل الحياة الماديَّة، هذا بالإضافة إلى أنَّ قانون الشرع لا يتضادَّ وقانون الخلقة، وإنَّما الأمر المرفوض هو العلاقة غير المتوازنة، وبعبارة أخرى: المرفوض والمحزَّم هو عبادة وسائل ومظاهر الحياة الماديَّة..

١٢. قدَّمت المرأة من بين النعم الماديَّة لعظيم دورها بالقياس إلى النعم الأخرى ولفداح خطرها في تكريس قناعات عبادة الدنيا وآرائهم ودخولهم في عالم الجرائم المفجعة!!

١٣. ما المقصود من متاع الحياة الدنيا؟

المتاع هو ما ينتفع به الإنسان، والحياة الدنيا هي المعيشة الواطئة المتدنِّيَّة، وعليه؛ يكون معنى كلمة: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ أنَّ يتَّخذ من الأمور الستَّة المذكورة آنفاً هدفاً

نهائياً لحياته دون أن يعتبرها سلماً لسموه إلى عالم الكمال، فهو إنما يزرع تحت وطأة الحياة الدنيا الدنيئة..

وفي الحقيقة؛ إنّ كلمة ﴿ الحياة الدنيا ﴾ إشارة إلى المسيرة التكامليّة في الحياة.. وأنّ العيش في هذا العالم هو بداية مراحل تلك المسيرة (في عالم الشهود والمادّة)، ولذا؛ جرت الإشارة الإجماليّة في نهاية الآية إلى تلك الحياة السامية التي تنتظر الصالحين من البشر، حيث قال تعالى: ﴿ والله عنده حسن المآب ﴾.

الآية ١٥

قُلْ أُؤْتِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ
وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. بالالتفات إلى أن الآية السابقة تحدّثت عن الأشياء الهامة بالنسبة للإنسان في حياته الماديّة، فإنّ هذه الآية الكريمة تشير-ضمن عمليّة مقايسة- إلى المواهب الإلهيّة الفدّة الخاصّة بعالم الآخرة بعد أن يطوي ابن آدم مراحل الصعوديّة وتكامله الإنساني ﴿قُلْ أُؤْتِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾ أي أفضل ممّا في متناول أيديكم في الحياة الدنيا؟
٢. بدأت هذه الآية بجملة ﴿أُؤْتِبْتُكُمْ﴾ وهي جملة استفهامية يتوقّع صدور الإجابة عليها من جهة الفطرة الحيّة والعقل والذكاء الإنساني ليكون نفوذها في المستمع والمتلقّي أشدّ وأعمق..
٣. جملة ﴿أُؤْتِبْتُكُمْ﴾ مشتقّة من مادّة الإنباء، وهي تستعمل في الغالب لدى الأخبار المهمّة والجديرة بالالتفات..
٤. تهدى النعم الأبديّة في الجنان للذين اتّقوا في الدنيا، ولهذه النعم صفات غير صفات النعم الدنيويّة، وقد وردت الإشارة إلى نماذج من ميزات تلكم النعم دون نعم الدنيا:

من ملامح السعادة الأخرويّة

- الف: حدائق الجنّة وبساتينها متفاوتة مع حدائق الأرض وبساتينها حيث لا يقطع عنها الماء أبداً، وهي خلاف المواهب الماديّة في عالمنا الدنيوي، وصفتها الخالدة الثابتة..
- ب: أزواج ذلك العالم مطهّرات لا عيب فيهن أبداً كما هو المشهود في أزواج عالم الدنيا

الذي يستحيل تصوّر تجرّد نسائه عن العيوب البدنية والمعنوية..

ج: أرقى وأسمى النعم الأخروية على الإطلاق نعمة الرضوان الإلهي، وهي النعمة التي تفوق توقع المؤمنين بما لا يمكن مقارنتها بجميع نعم الجنة..

٥. في هذه الآية تمّ الإعلان للمؤمنين أنّهم إذا قنعوا بعيشة الحلال في الدنيا وتورّعوا عن اللذات المحرّمة والنوازع التي تنتهي بظلم الآخرين والجور عليهم، فإنّ الله تعالى سيعطيهم من اللذات الأسمى والأرقى من الناحية المادية والمعنوية المجردة عن كلّ عيب ونقص..

بين الجنة والمادة..

٦. هنا ثمّ سؤال: هل أنّ في الجنة لذات مادية؟

مع أنّ البعض يذهب إلى أنّ اللذات المادية منحصرة في عالم الدنيا، وأنّ الجنة ليس فيها من هذه اللذات، وأنّ جميع عبائر القرآن الناطقة عن جنات الآخرة وأنواع الأطعمة والفواكه والمياه الجارية والأزواج المطهرة وغير ذلك؛ إنّما هي كنايةات عن جملة مقامات ومواهب معنوية؛ وردت كما وردت في كتاب الله تعالى لإيضاح المعاني والغايات لعوالم الناس.

ولكنّ الردّ على هذا المذهب الباطل يكون بالقول: حينما أقرنا بالمعاد الجسماني. طبقاً لصريح الآيات القرآنية الوفيرة. لا بدّ من الإيقان بوجود المواهب لأهل الجنة والعذاب لأهل النار بشكليه الماديّ والمعنويّ (الجسمانيّ والروحانيّ) بما يستحقّ كلّ فريق.. وقد وردت الإشارة في الآية إلى القسمين معاً.. بما يناسب المعاد الجسماني وما يناسب الروح ومصير الأرواح.

٧. بلا شكّ، إنّ المتأثرين بالمدارس الوضعية والالتقاطية والقائلين بمعنوية نعم ذلك العالم، قد أولوا ظواهر الآيات القرآنية ونسوا المعاد الجسمانيّ وتداعياته نسيان منكر.

٨. لعلّ الهدف والمقصود من العبارة الأخيرة من الآية: ﴿والله بصير بالعباد﴾ إشارة إلى هذه الحقيقة القائلة بأنّه العالم البصير بجسم الإنسان وروحه وما سيحتاجان في عالم الآخرة، وأنّه تبارك اسمه سيوفّر لابن آدم ما يحتاجه ركنه..

الآية ١٦

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا

عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

تهتم هذه الآية بالحديث عن إحدى صفات العباد المتقين التي تمت الإشارة إليها في الآية السابقة حيث أحصت لهم ست صفات ممتازة مرموقة.

من صفات المتقين

١. أولئك المقبلون على ربهم بقلوبهم وأرواحهم، فأضاء لهم قلوبهم، فراحوا يشعرون بالمسؤولية تجاه أعمالهم ويقولون: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا آمَنَّا بِمَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾.
 ٢. حينما تهدأ أصوات عالم المادة وتغفو أعين الغافلين الجاهلين، هنالك تحيا القيم الأصيلة وتشرئب قلوب رجال الله فيسجدون في محضر عظمتهم ويطلبون إليه الغفران ويذوبون في أنوار جلال كبريائه، فتهمس كل ذرات وجودهم بالتوحيد والولاية..
 ٣. كما يللم الظلام أطرافه حين يطلع الفجر وينتشر الفيض الإلهي على وجه الوجود..
- كذلك هم المؤمنون العاشقون يتممون همساتهم مع طلوع الصبح، فتزاح عن قلوبهم ستائر ظلمة الغفلة والذنب لتحل محلها أنوار الرحمة والمغفرة والمعرفة الإلهية..

الآية ١٧

الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

في هذه الآية جرى إيضاح خمس صفات عظيمة أخرى لعباد الله:

١. هؤلاء المميّزون بالصبر والاستقامة والسير في طريق طاعة الله تعالى إذا ما وقعت المصاعب، وكذلك الصابرون عند الشدائد والمصائب الفردية والاجتماعية (الصابرين).
٢. هؤلاء الصادقون بالقول وبالفعل، والذين يعملون بما يؤمنون في بواطنهم ويأثرون بأنفسهم عن النفاق والكذب والتقلب والخيانة: (والصادقين).
٣. هؤلاء القانتون الخاشعون الثابتون على ذلك في مسار العبودية لله سبحانه: (والقانتين).
٤. والذين ينفقون في سبيل الله، ليس من أموالهم فحسب، بل من جميع مواهبهم المادية والمعنوية لمحتاجيها: (والمنفقين).
٥. وهؤلاء المستغفرون بالأسحار وطالبو المغفرة: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.
٦. نقرأ عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنّ من قال في ركعة الوتر (آخر ركعات صلاة الليل) سبعين مرة: «أستغفر الله ربّي وأتوب إليه» وواظب على ذلك سنة، كتبه الله تعالى من (المستغفرين بالأسحار) ووجبت له الجنة والمغفرة من الله عز وجل.^١
٧. مفردة (سَحَر) على وزن بَشَرَ تعني في الأصل الخفاء والغطاء، وحيث أخريات الليل بمثابة غطاء خاص على كلّ شيء، قيل لها: وقت السحر. ومفردة (سحر) على وزن شعر من

١- من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٤٨٩

هذه المادّة، ذلك لأنّ الساهر يقوم بأعمال خافية أسرارها على غيره.. بل إنّ العرب تسمّي المرأة أحياناً سَحراً بداعي خفائها وراء جلدة الصدر..

السَّحَر والاستغفار

٨. سؤال: لماذا خصّ. هنا. وقت السحر بالاستغفار، والحال أنّ الاستغفار مطلوب وممدوح

في كلّ حين؟

حيث أنّ روح العبادة والاستغفار والتوبة إلى الله تعالى إنّما تكون إذا قرنت بحضور القلب، فإنّ العبادة والاستغفار في تلكم الساعات. الهادئة والشاعريّة. أسمى من باقي ساعات اليوم، لا سيّما حين يعطّل الإنسان أعماله ويتجرّد عن الاهتمامات والهموم المادّيّة، وبعد أن استيقظ من نوم الليل وتهيئاً لمزيد التوجّه إلى ربّه المتعال.. وهذا المعنى يمكن أن يلمس بالتجربة بكلّ يسر.. ومعلوم أنّ الكثير من العلماء يعمدون إلى حلّ مشاكلهم ومعضلاتهم العلميّة في هذه البرهة من الزمن، لأنّ مصباح الفكر وروح الإنسان يكونان أكثر استعداداً من أي برهة زمنيّة أخرى...

الآية ١٨

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

النقاط المستفادة من هذه الآية

شهادة الله تعالى على وحدانيته؟

المقصود من شهادة الله على وحدانيته شهادة عملية فعلية لا قولية كلامية، أي أنه سبحانه بإبداعه عالم الخليفة حيث يحكم فيه حكومة واحدة والقوانين فيه قائمة بهيئة وطرز واحد وضمن نظام توحيدٍ واحد، قد أكد أن خالق الوجود ومعبوده ليس أكثر من واحد، وأن كل شيء يستوحي ويستلهم من مصدر واحد، وعليه؛ فإن إيجاد هذا النظام الواحد شهادة الله على وحدانيته ذاته.

٢. شهادة الملائكة وأولي العلم على وحدانيته الله . وطبقاً لهذه الآية الجليلة الفذة . شهادة قولية واعتراف منهم، ذلك أن كلاً منهم قد أقر بكل وجوده وبلسانه بهذه الحقيقة.. ولا ريب أن شهادة الملائكة وأولي العلم لها بعد عملي، ذلك أنهم يعبدونه لا شريك له ولا يحنون رؤوسهم لسواه..

٣. يمكن أن يقال: ينبغي التفكيك بين شهادة الله لنفسه بالوحدانية بالهيئة العملية وبين شهادة الملائكة وأولي العلم الذين شهدوا وأقرّوا بالقول..

فنقول: إن التفكيك حاصل في أصل سياق الآية، حيث نسبت الشهادة إلى الله، وهو الخالق المتعال من جهة، وإلى المخلوق من جهة أخرى، وبالتالي؛ فإن فعل الله ينبغي أن ينظر إليه متفاوتاً عن فعل عبده.. وقد جرى هذا النوع من التفكيك في سياقات آيات غير

قليلة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾^١ حيث الصلاة الإلهية شيء والصلاة الملائكية شيء آخر.. فالأولى - كما يفهم - تأكيد الرحمة والبركة من الله، فيما الثانية طلب ملائكي للرحمة والولاية لهذا النبي الأعظم وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

٢. جملة ﴿قائماً بالقسط﴾ في الاصطلاح الأدبي: حال فاعل فعل (شهد) وهو الله تعالى، فيكون المقصود: إنَّ الله شهد بوحدانيته في حال كونه قائماً بالقسط والعدل في عالم الوجود.. وحقيقة هذا النص المقدس دليل على شهادته، ذلك لأنَّ حقيقة العدالة؛ اختيار الطريق الوسط والمباشر؛ البعيد عن أيِّ إفراط وتفریط وانحراف.. ونحن نعلم أنَّ الطريق الوسط والمستقيم المباشر هو ليس أكثر من طريق واحد.. وذلك كما نقرأ في الآية (١٥٣) من سورة الأنعام المباركة: ﴿وَإِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

٥. عرّف طريق الله تعالى في هذه الآية طريقاً واحداً، فيما الانحراف عن وحدانية الله يتشعب في طرق شتى، لأن الصراط المستقيم وصف مفرداً بينما طرق الانحراف وصفت جمعاً.. ونتيجة ذلك؛ أنَّ العدالة مقرونة بالنظام الواحد، والنظام الواحد دليل وعلامة مبدأ الواحد، ممّا يعني أنَّ العدالة بمعناها الواقعي في عالم الخلقة دليل على وحدانية خالق الخلقة..

٦. في هذه الآية قرن (أولو العلم) إلى الملائكة، وهذه ميزة لأولي العلم على من سواهم.. وكذلك يعلم من هذه الآية أنَّ ميزة أولي العلم تأتت من حيث اطلاعهم - ضمن علمهم - وإقرارهم بوحدانية الله التي هي أعظم الحقائق..

٧. واضح أنَّ المقصود من (أولو العلم) في هذه الآية هم العلماء.. وإن كان قد ورد في الروايات الخاصة بذيّل هذه الآية أنَّهم الأئمة الأطهار عليهم الصلاة،^٢ وذلك باعتبارهم

١ - سورة الأحزاب / ٥٦.

٢ - تفسير فرات الكوفي، ص ٧٨

المصداق الأوضح لهذا المعنى لكونهم الجهة الوحيدة المخولة في تفسير القرآن ولكونهم ترجمان وحي الله تعالى وأنهم هم المكلفون بتفهم الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.. وقد روى المرحوم الطبرسي في (مجمع البيان) في تفسير هذه الآية عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله حيث قال: «ساعة من عالم يتكئ على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد سبعين عاماً»^١.

٨. تكررت عبارة (لا إله إلا هو) في ذيل الآية، وهذا التكرار الصريح فيه الإشارة إلى أنه كما وردت العبارة في مطلع الآية وأن الله تعالى والملائكة وأولي العلم يشهدون بوحدة الله، فإن على كل من يسمع هذه الشهادة أن يشهد أيضاً على هذه الوحدة المقدسة.

٩. حيث أن عبارة (لا إله إلا هو) باعتبارها تعظيماً لله وإظهاراً لتوحيده، فقد تذيلت بصفاتي العزة والحكمة، ذلك لأن القيام بالعدالة بحاجة إلى القدرة والحكمة، وأن الله تعالى هو الوحيد القادر على كل شيء والمطلع على كل شيء.. ولهذا؛ فهو الناشر للعدل في عالم الوجود.

١٠. هذه الآية من جملة الآيات التي كانت تحظى . بشكل ملفت . باهتمام الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، إذ كان كثيراً ما يتلوها وفي مختلف الحالات والمناسبات.. وخصوصاً في ليلة عرفة كما روي عن الزبير بن العوام....^٢

١- جامع الأخبار، ص ٣٧

٢- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧١٧

الآية ١٩

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ
 اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ
 بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ
 اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. الدين عند الله تعالى هو دين واحد؛ ولا اختلاف فيه.. وهو سبحانه لم يأمر عباده إلا باتباع هذا الدين، ولم ينزل على أنبيائه ورسله كتاباً إلا عن هذا الدين، ولا آية ولا معجزة قد أذن بها إلا لأجل هذا الدين.. وهو الإسلام؛ أي التسليم للحق والإيمان بعقائد الحق وإعمال الحق، وبعبارة أخرى: الدين الواحد هو التسليم لما صدر عن مقام الربوبية فيما يتعلق بالعقائد والأعمال، أو: المعارف والأحكام.

روح الدين

٢. في الحقيقة؛ إنَّ روح الدين في كلِّ عصر ليس سوى التسليم للحق؛ ولن يكون غير ذلك.. ولكن.. لما كانت رسالة نبي الإسلام هي آخر وأكمل وأرقى الرسالات؛ فقد اختير لها عنوان (الإسلام)، وإلا فإنَّ جميع الرسالات الإلهية هي إسلام؛ وروح الدين والإسلام هو التسليم للحق.. وعليه؛ فإنَّ معنى عبارة ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ هو أنَّ الرسالة الحقَّة عند الله تعالى هي التسليم لأوامره وتعاليمه، وإنَّ من لوازم هذا التسليم وأجلى حقائقه قبول جميع الأنبياء ورسول الله ورسالاتهم ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

معنى الدين لغة

٣. مفردة (الدين) في اللّغة بمعنى الجزاء والأجر، وبمعنى الطاعة والاتباع والامتثال للأمر الوارد.. وفي الاصطلاح الديني هو: مجموعة القواعد والقوانين والآداب التي يتمكّن . وهكذا ينبغي . الإنسان بها من الاقتراب إلى الله . بعد الإيمان بمن جاء بها نصّاً وشرحاً . لينال سعادة الدارين، وليسير ضمن المسار الأخلاقي والتربوي الصحيح.

٤. مفردة الإسلام تعني التسليم، وعليه؛ فإنّ معنى عبارة: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ أنّ الدين الحقيقي عند الله هو التسليم لأوامره ونواهيه، وإلاّ فإنّ جميع الأديان الإلهيّة . من جهة . هي الإسلام.

٥. مع أنّ الشرائع والرسول والأنبياء متفاوتون من حيث الكيف والمقدار والأشخاص، إلّا أنّهم . من حيث الحقائق . ليسوا إلّا مصاديق لذلك الأمر الواحد.. فالتفاوت في الشرائع إنّما هو من حيث الكمال والنقص، وليس من حيث الذات أو التضادّ، حيث لا تنافي ذاتياً وأساسياً بين الشرائع والأنبياء.. وإنّما المعنى الجامع لها ولهم هو التسليم لله تعالى والطاعة المطلقة له سبحانه وتعالى، ولكنّ هذه الطاعة تحكمها العصور المتفاوتة والألسن والظروف المختلفة..

٦. طالما رافقت الدلائل الواضحة ومعاجز الأنبياء الأديان السماويّة، فلم تبقِ للباحثين عن الحقائق قضايا مبهمّة.. مثال ذلك النبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله؛ وفضلاً عن المعاجز الجلّيّة والدلائل الواضحة لرسالته، مثل القرآن المجيد، وأوصافه في الكتب السماويّة السابقة، وهي وفيرة غير خفيّة إلّا على اليهود والنصارى الذين لم يقبلوه، لأنّهم يجهلون، أي أنّ الاختلافات الدينيّة لم تكن بسبب جهل أهل الكتاب بالرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله.. وإنّما هو الرغبة في الظلم والإصرار على الانحراف عن الحقّ وتحكيم الآراء الشخصية.. وإلّا فإنّ الناس . وفي مقدّماتهم طبقة العلماء . لو أنّهم عافوا الأحقاد وضيق النظرة والمصالح الشخصية وعرفوا مساحات حدودهم، فنظروا نظرة واقعيّة وحققوا في أحكام الله تعالى؛ لتّضح لهم طريق الهدى ولحلّت الاختلافات بسرعة بالغة: ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلّا من

بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴿٧﴾.

٧. لا ريب في أنّ صول الأديان السماوية واحدة، مع أنه سبحانه وتعالى قد أنزل على الناس . ضمن تعاقب الأجيال وتكامل المجتمعات . أكمل رسالة وأرسل لهم أفضل رسول وخاتم الأنبياء بعد أن جعل رسالته خاتمة الرسالات.

وقد أوضح أمير المؤمنين عليه السلام في كلماته القصيرة هذه الحقيقة لدى وصفه الإسلام فقال:

«لأنسب الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل»^١:

١. فالإسلام هو التسليم للحق.

٢. والتسليم لا يكون بلا يقين (لأن التسليم المجرد عن اليقين تسليم أعمى غير واع).

٣. واليقين هو تصديق (أي أنّ العلم غير كاف، بل لابد من اقتراحه بتصديق قلبي).

٤. والتصديق هو الإقرار (أي أنّ الإيمان لا يكفي أن يكون في مساحة القلب والروح، وإنما المطلوب أو المفروض أن يقترب إلى الشهامة والإظهار والجهر أيضاً).

٥. والإقرار هو أداء المسؤولية (أي أنّ الإقرار ليس مجرد ما يجري على اللسان، بل هو عهد صادق بتقبل المسؤولية).

٦. أداء المسؤولية هو العمل (العمل بأمر الله تعالى وتنفيذ المشروع الإلهي) لأنّ العهد والمسؤولية لا يمكن أن يكونا شيئاً سوى العمل والتنفيذ.

٧. كما وقع اليهود في الاختلاف حول وصيِّ موسى بن عمران عليه السلام وأُريقَت ضمن ذلك الاختلاف دماء غزيرة.. وكما اختلف النصارى في قضية التوحيد ولائوها بالشرك والتثليث.. وكذلك كان هؤلاء.. أهل الكتاب.. يتوقَّعون ظهور خاتم الأنبياء صلوات الله عليه وآله بكلِّ اشتياق.. ولكنته ما أن بُعث راحوا يتجاهلون ظهوره وبعثته لما رأوا فيه وفي مشروعه الإلهي من خطر على مصالحهم، مضافاً إلى طغيانهم وظلمهم وحسدِهم، كما راحوا يحزِّفون ما ورد بحقه في كتبهم، ممَّا أدى إلى اختلافهم.. فأمن منهم من آمن وكان أكثرهم كافرين ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلَّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾.

آفاق الآيات الإلهية

٨. المقصود من آيات الله هنا جميع الآيات الإلهية والبراهين والكتب السماوية، بل ولعلَّها تسري إلى الآيات التكوينية في عالم الوجود.. أمَّا ما ذهب إليه بعض المفسرين من حصرها بالتوراة والإنجيل وأمثالهما؛ فهو مذهب ينقصه الدليل ﴿ ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾.

٩. حقيقة هذه الآية ردَّ قاطع على القائلين بأنَّ الدين هو السبب الكبير في الاختلافات الحاصلة بين الناس وأنَّ الدين علَّة إراقة الدماء عبر التاريخ.. لأنَّ هؤلاء المدَّعين خلطوا بين الدين وبين الأفكار المنحرفة والتطرُّف الباطل الذي صوَّره الانتفاعيون المصلحيون والجهَّال بالدين، ذلك لأنَّنا إذا حقَّقنا في التعاليم الدينية الصحيحة وجدناها كلها تهدف شيئاً واحداً، وعرفنا أنَّها تريد للبشرية سعادة الدارين، مع أنَّها قد تكاملت منعاً لحاجات الإنسان وتكامله.. ولنقل إنَّ الأديان السماوية كما هي قطرات المطر النازلة من السماء، فترى طعمها متفاوتاً بتفاوت الأرض التي تسقط عليها.. فكان التفاوت في الأديان عائداً إلى تفاوت المجتمعات كما تتفاوت قطرات المطر بتفاوت البقاع الساقطة عليها!...

الآية ٢٠

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ
وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۖ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ
ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ الْبَلَّغُ ۖ وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ﴿حَاجُّوكَ﴾ من مادة المحاجة التي هي بمعنى البحث والمحاورة والاستدلال والدفاع عن الرأي في مسألة ما لغة.

الإنسان كائن حر...

٢. من الطبيعي أن يبادر الناس إلى الدفاع عن آرائهم ومعتقداتهم، وأن يظنوا الحق إلى جانبهم، ولهذا؛ يعلم من هذه الآية بشكل ضمني لزوم الامتناع عن محاجة المعاندين الذين لا يسلمون للمنطق الصحيح.

٣. أن مسؤولية النبي إبلاغ رسالة الله حتى للمعاندين وتوعيتهم بالحق والدليل والبرهان. وما يبقى هو مدى اقتناع الناس أو عدم اقتناعهم.. إذ المطلوب من النبي أن يذكرهم ويجعل من نفسه قدوة حسنة لهم.

٤. المبلغ والداعي مأمور بأداء وظيفته ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾.

٥. القائد والمبلغ مسؤول عن أن ينظر إلى جاهل الناس ومثقفهم بعين واحدة ﴿قُلْ لِلَّذِينَ

أوتوا الكتاب والأُمِّيِّينَ ﴿١﴾.

٦. من هذه الآية يتَّضح أنَّ الإنسان حرٌّ في اختيار طريقه، ولهذا لم يكن أسلوب الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله أسلوباً جبرياً، بل كان يجهد كلَّ الجهد في إيضاح الحقائق للناس ثمَّ إيكالهم إلى عقولهم ليختاروا المصير الذي يرتوون..

٧. كلمة (أُمِّيِّين) بمعنى الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، ولعلَّ الهدف من إيراد هذه الكلمة هنا هم المشركون الذين يقابلهم أهل الكتاب (اليهود والنصارى) حيث المشركون لا كتاب سماًوياً لديهم ليتعلَّموا منه القراءة على الأقل!

٨. لا شكَّ في أنَّ الله تعالى قد أمر نبيَّه في هذه الآية - وبلا جدال - أن يتوجَّه للناس بالسؤال عمَّا إذا كانوا أسلموا كما هو قد سلَّم الله تعالى، وأنَّ المقصود بالتسليم ليس مجرد التسليم اللِّساني.. وإنَّما هو التسليم الحقيقي والعملي للحقّ.. الذي إذا ما التزموه - مع أنَّ الدعوة المحمَّديَّة دعوة كلّها حقٌّ ومنطق واستدلال واضح - فلا ريب في أنَّهم سيؤمنون، فإن لم يؤمنوا، لم يسلموا للحقّ ﴿٢﴾ قل للذين أوتوا الكتاب والأُمِّيِّينَ أسلمتم ﴿٣﴾.

١- وهناك رأي آخر ينتهي إلى مخاطبة النبي صلوات الله عليه وآله اليهود والنصارى (أهل الكتاب) وأهل مكَّة المنتسبين إلى أمّ القرى الذين كانوا يلقَّبون ممن حولهم بالأُمِّيِّين [المترجم].

الآية ٢١

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. يشير السياق القرآني عبر هذه الآية أنَّ المشركين قد خاضوا حواراً مع نبي الإسلام صلوات الله عليه وآله ولم يسلموا للحق كما أنهم قد ارتكبوا ثلاثة ذنوب كبيرة:

الكفر ظلم عظيم

الف: الكفر بآيات الرب العظيم.

ب: قتل الأنبياء عليهم السلام.

ج: قتل الذين يدافعون عن مناهج الأنبياء ويدعون الناس إلى التزام العدل والعدالة.

وكل واحد من هذه الذنوب يكفي في الاعتقاد بأنهم لم يسلموا لأمر الحق وأنهم قد خنقوا صوت الحق ومن يمثل الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٢. عدت الآية الأمرين بالعدل والداعين إلى الحق والمعروف في صف الأنبياء، فيما عدت الكفر بالله وقتل الأنبياء وقتل الداعين إلى الحق في مستوى واحد.. وهذا يعبر عن منتهى اهتمام الإسلام بمسألة بسط العدالة في المجتمع البشري.

٣. التعبير بـ (يكفرون ويقتلون) بصيغة المضارع دليل على الاستمرار وإشارة إلى أنَّ الكفر

وقتل الأنبياء وقتل الأمرين بالعدل كأنه جزء ومقطع من سيرتهم ومنهج حياة هذا الفريق الضالّ وهم مستمرون في هذا الصدد، ولا ريب أنّ هذه السيرة أكثر شبهاً بسيرة اليهود التي لا تزال نلاحظها فيهم ضمن صور أخرى، ولكنّ هذا لا يمنع أن يكون للآية مفهوم عام..

٤. المقصود من كلمة (بغير حقّ) ليس إمكانية أن يقتل الأنبياء بحقّ، وإنّما المقصود هو أنّ قتل الأنبياء إنّما يكون بغير حقّ على الدوام.. فالكلمة هنا كلمة توضيحية وردت للتأكيد..

أنواع العذاب

ثمّ تتمة للآية والآية التالية، وردت الإشارة إلى ثلاثة أشكال من العقاب؛ وهي: العذاب الأليم وحبط الأعمال وانعدام الناصر.

٥. يعلم من قوله تعالى: ﴿فبشّرهم بعذاب أليم﴾ أنّ الكفّار المعاصرين للنبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله مشمولون بهذه الآية، في الوقت الذي نعلم أنّهم لم يقتلوا أحداً من الأنبياء، ولكن لما كان الرضا بأعمال فرد من الأفراد أو جماعة من الجماعات بمثابة المشاركة.. والآية عموماً تدين رضا الكفّار (واليهود على وجه الخصوص) بأعمال وجرائم ومناهج أسلافهم، إذ يعدّ هذا الرضا مشاركة خطيرة لأعمالهم وللعقاب الذي سيناله الطرفان..

٦. كلمة (البشارة) في الأصل بمعنى النبا السار الباعث على النشاط والحيوية والذي يترك أثره على الوجه والبشرة، أمّا استعمال هذه الكلمة فيما يتعلّق بنبا العقاب الأليم الذي سيواجه الكفّار. كما ورد في هذه الآية وآيات أخرى مشابهة. هو نوع تهديد واستهزاء بعقائد ومناهج المذنبين الضالّين.. وهذا الاستعمال شبيه بما هو متداول بيننا حيث إذا اجترح أحداً سوءاً، قيل له على سبيل التهديد والاستهزاء: ستلقى أجر وجزاء ما فعلت!

٧. أن تصرّح جملة ﴿فبشّرهم بعذاب أليم﴾ بشمول الغضب الإلهيّ والتهديد بنزول العذاب، فإنّها تقصد أنّ العذاب ليس العذاب الأخروي فحسب، بل دليل تتمة السياق القائل: ﴿أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾.

٨. نقرأ في حديث عن أبي عبيدة الجراح أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله عن أشد الناس عذاباً في يوم القيامة، فقال: من يقتل نبياً أو رجلاً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.. ثم تلا صلوات الله عليه وآله قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ ثم أضاف قائلاً: يا أبا عبيدة! لقد قتل بنو إسرائيل (٤٣) نبياً في ساعة واحدة من صباح أحد الأيام.. فقام لهم (١١٢) رجلاً من عبّاد بني إسرائيل وأمروا القاتلين بالمعروف ونهوا عن المنكر.. فما كان من قاتلي الأنبياء إلا أن قتلوهم في ذلك اليوم وهذا ما قاله الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^١.

٩. كما ورد في ذيل الآية (٦١) من سورة البقرة؛ فإن التاريخ اليهودي العجيب يشير إلى أنهم وبالإضافة إلى إنكارهم الآيات الإلهية كانوا يتبجحون بقتل الأنبياء ودعاة الحق ومن يقوم ويعارض جرائمهم العظيمة.. ولا ريب أن العقاب الثلاثي المذكور في هذه الآية والآية التي تليها سيكون من نصيبهم وساءت مصيراً.

الآية ٢٢

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالُهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ليس حبط الأعمال نتيجة لارتكاب كل الذنوب، بل هو لأجل ذنوب شديدة بعينها، وينتهي إلى إزاحة الأعمال الصالحة ونفي الشفاعة عن أصحابها، مما يدل على طبيعة وشدة تلك الذنوب، ويتبعها شدة في الجزاء كما هو الحال في جريمة قتل الأنبياء والأئمة.

تاريخ اليهود المظلم

٢. كما تقدّم القول في ذيل الآية (٦١) من سورة البقرة؛ عن تاريخ اليهود المعقّد والعجيب، بأنهم كانوا يمتازون بكلّ الجرأة والجسارة في قتل الأنبياء والأوصياء ومناذي الحقّ، ناهيك عن إنكار الآيات الإلهيّة، ثمّ تراهم يعمدون إلى قتل وتصفية المجاهدين الذين يدافعون عن حرمة الأنبياء والأوصياء، ولا ريب في أنّ ذلك العقاب الثلاثي يسري إلى من يتابعهم ويرضى عن فعالهم مهما تقدّمت الدهور..

٣. إنّ العلاقة الموجودة بين الآية السابقة وهذه الآية دليل على أنّ الأفراد المتّصفين بهذه الصفات الثلاث الموجودة في الآية السابقة قد هدّدوا بعذاب الآخرة الأليم وبعذاب الدنيا أيضاً.. فكان عذابهم الأخرويّ: ﴿فبشّرهم بعذاب أليم﴾

وعذابهم الدنيويّ هو قتلهم وتشتّتهم وزوال أموالهم ونهاية أرواحهم، وكذلك سيعدّون بأنّ الله تعالى سيلقي بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وقد ذكر الله ذلك كلّ في كتابه العزيز ﴿أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين﴾.

٤. يعلم من عبارة ﴿مالهم من ناصرين﴾ قضيتان:

الأولى: أن من قتل شخصاً لكونه آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، تحبط أعماله ولا يبقى له أجر عليها أبداً.

الثانية: أنه لن ينال شفاعته في القيامة على الإطلاق..

الآية ٢٣

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ
 اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

شأن نزول هذه الآية

روي في (مجمع البيان) عن ابن عباس أنَّ رجلاً وامرأة يهوديين ارتكبا في عهد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله جريمة الزنا، وكان كلُّ منهما متزوجاً.. وقد كان جزاؤهما في التوراة الرجم، وحيث كانا من طبقة الأشراف؛ فقد امتنع اليهود عن تنفيذ الحكم عليهما.. فتقرر أن يعرضاً على حاكم المدينة الذي لم يكن غير رسول الله صلى الله عليه وآله؛ رجاء أن يجدا عنده حكماً آخر أخفَّ درجة من الرجم.

وحينما عرضا على النبي الأكرم، قال لهما: بيني وبينكما التوراة التي تقرأنها، فجيء بعالم من علماء اليهود يدعى ابن صوريا، وكان يسكن منطقة فدك المحاذية للمدينة، فعرفه النبي وقال له: أنت ابن صوريا؟ فقال: نعم. فقال: أنت أعلم علماء اليهود؟ فقال: هكذا يقول اليهود.. فأمره رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقرأ من التوراة ما فيه حكم المتزوجين الزناة.. وكان ابن صوريا عارفاً بقصّة الرجل والمرأة.. فراح يقرأ من التوراة، وما أن بلغ النصّ الخاصّ برجم الزاني المحصن وضع كفه على الموضع الخاصّ وتجاوز له ليقرأ ما بعده، ولكنّ عبد الله بن سلام.. وكان قبل إسلامه يهودياً عالماً.. التفت إلى ما فعل ابن صوريا، فنهض قائماً وأزاح كفّ ابن صوريا عما أخفته من صفحة التوراة، وراح يقرأها وقال: تقول التوراة: يلزم اليهود أن يرحموا الزناة المحصنين متى ما قام الدليل عليهم..

ثم إنَّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أمر بتنفيذ حكم الرجم على الرجل والمرأة طبقاً لدينهما. فغضب جماعة من اليهود ممّن كانوا حاضرين في ذلك الاجتماع.. فنزلت

هذه الآية بحقهم..^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. تبعاً للآيات السابقة حيث كان الحديث عن المحاجة والحوار وعناد بعض أهل الكتاب، يتضح في هذه الآية أنهم لا يسلمون للمقترحات المنطقية المنصفة.. كما تشير الآية إلى دوافع هذا السلوك والموقف ونتائجه..

٢. يفهم من قوله سبحانه: ﴿أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ أنّ التوراة والإنجيل اللذين كانا في ذلك الوقت . في أيدي اليهود والنصارى ليسا هما الكتابين السماويين الأصليين، بل كانا مجرد قسم منهما، ولعلّ الأقسام الأكبر منهما كانا قد حُرِّفاً أو ضيَّعا.. هذا مع أنّ المقصود من الذين أوتوا نصيباً من الكتاب هم أهل الكتاب، ولولا أنّ القرآن قد صرَّح بذلك لما علم أنّ اليهود والنصارى لم يكونوا قد اطلعوا إلا على جزء بسيط من كتابيهما، نظراً للتحريف والحذف الذي تعرّض له أصلهما من قبل..

الآية ٢٤

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ

فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. دليل مخالفة وانحراف أهل الكتاب أنهم كانوا يؤمنون بكونهم العنصر الأرقى والأسمى (كما يذهبون الآن، وآراؤهم ومؤلفاتهم تشهد على ذلك) وقد كانوا يدعون بأنَّ ثَمَّ علاقة وعهداً يربطهما بالله الخالق من دون سائر المخلوقات.. حتَّى قالوا بأنَّهم أبناء الله سبحانه عمّا يصفون ﴿نحن أبناء الله وأحبَّاءه﴾ ولهذا؛ كانوا يعدّون لأنفسهم حصانة تصونهم عن العقاب الإلهي: ﴿ذلك بأنَّهم قالوا لن تمسَّنَا النارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾.

٢. ﴿معدودات﴾ بمعنى العدد الصغير القابل للعدِّ والإحصاء والحصر، والكلمة تستعمل فيما هو قليل عادةً، إذ الأشياء الكثيرة غير قابلة للإحصاء أو يعسر عدّها..

٣. المقصود من ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ إمّا ما يعادل الأيام التي عبدوا فيها العجل لدى غياب موسى عليه السلام، وهذا ذنب عظيم لا يسعهم إنكاره أبداً.. أو لعلَّ المقصود بقولهم أَيَّامًا معدودات من عمرهم؛ أنهم ارتكبوا فيها المحارم الفظيعة.. وهم ما زالوا عاجزين عن إنكارها أو تبريرها..

الآية ٢٥

فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ
لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. لا ريب في حضور جميع الناس يوم القيامة، وأن كلاً منهم سيحصد ما زرع في عالم الدنيا، بعد أن يسلّموا صحائف أعمالهم فلا يظلمون شيئاً، وهنالك يدركون أن لا ميزة لأحد على أحد؛ إذ يعتمهم عدل الله تعالى.

٢. عبارة (ما كسب) توضّح بجلاء أنّ الثواب والعقاب في عالم الآخرة، وأنّ النجاة والشقاء هناك سيكونان منوطين بأعمال الإنسان الدنيوية، وليس متعلقين بالآمال والتصورات الباطلة.

الكذب على الذات

٣. سؤال: ترى هل من الممكن أن يجترح الإنسان بدعة وكذبة، كما افترى اليهود على الله تعالى ثم يتأثر ويغتتر هو نفسه بها؟ ترى هل يُصدّق ذلك؟

ليس من الصعب الإجابة على هذا السؤال، ذلك لأنّ خداع الوجدان أمر مسلّم في علم النفس المعاصر؛ حيث يعمد الذهن إلى استغفال الضمير فيبدّل وجه الحقيقة، لا سيّما وأننا كثيراً ما وجدنا أشخاصاً ملوثين بكبائر الذنوب، كالقتل والسرقة والإدمان.. وهم يعون قبح هذه الأفعال، إلّا أنّهم يلجؤون إليها لتحقيق استقرار وجدانيّ كاذب، أو أنّهم يعمدون إلى ممارستها تحت غطاء مبرّر هو المشاكل والظروف الاجتماعية الضاغطة.

٤. يمكن أن يقال إنّ الإيمان بمحدودية البقاء في النار مقولة متسرّبة إلى المسلمين أيضاً،

حيث يذهبون إلى أنَّ الفرد الموحد لن يبقى في النار سوى مدّة محدودة ثمّ يصار به إلى النجاة.. ولكن ينبغي القول إنّ دين الإسلام يذهب إلى أنَّ الفرد المسلم الملوّث بأنواع الذنوب الكبيرة والصغيرة سيبقى في النار بما يعلمه الله تعالى من أحقاب، إلّا أن بقاءه في الجحيم لن يكون أبدياً كما هو واقع ومصير الكفّار.

٥. على فرض ورود هذا الإشكال على المسلمين أيضاً.. إلّا أنَّ المسلمين لا يرون لأنفسهم ميزة على غيرهم من الأمم، إذ يعتقد المسلمون بأنَّ كلّ أمة كان لها نبيّ واجب الاتّباع في عصره.. إلّا أنَّ اليهود يميّزون أنفسهم عن سائر الأمم.. وقد ردّ القرآن المجيد هذا المدّعى الباطل والكاذب إذ قال في الآية (١٨) من سورة المائدة الشريفة: ﴿بَلْ أَنْتُمْ .مَجْرَدٌ .بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾.

الآية ٢٦

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ
مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ
مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

شأن نزول هذه الآية

ذكر الطبرسي في (مجمع البيان) شأنين لنزول هذه الآية.. وكلّ منهما ينتهيان إلى حقيقة واحدة.

١. حينما فتح النبي الأعظم صلى الله عليه وآله مكة، أبلغ المسلمين بأن راية الإسلام سرعان ما ستعرف على أرض إيران والروم.. ولكن المنافقين الذين لم تستنر قلوبهم بنور الإيمان وروح الإسلام عدّوا الأمر مبالغة ومغالاة وقالوا بتعجب: إنّ محمّداً لم يقنع بالمدينة ومكة وها هو يطمع في فتح بلاد الفرس والروم.. فنزلت هذه الآية..

٢. حينما كان النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله منهمكاً مع المسلمين في حفر الخندق حول المدينة، وهم يسابقون الزمن لتجنب هجوم الأعداء.. صادفتهم صخرة بيضاء كبيرة عجزوا عن تحطيمها بمعاولهم.. فأخبر سليمان المحمّدي رضوان الله تعالى عليه النبي صلى الله عليه وآله بها، فنزل إلى الخندق وتناول معولاً من أيديهم وضرب الصخرة ضربة هائلة فقدحت منها شرارة، فكبر لها رسول الله صلى الله عليه وآله تكبيرة الفتح والنصر، فكبر المسلمون معه، ثم إنّ النبي صلوات الله عليه وآله ضرب الصخرة ضربة أخرى فانقدحت لها شرارة، فكبر لها تكبيرة النصر وكبر معه المسلمون، وهكذا حدث مرّة ثالثة..

فقال سلمان: رأيت أمراً عجيباً منك اليوم يا رسول الله.. فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: لقد رأيت في الشرارة الأولى قصور الحيرة والمدائن، وقد بشرني أخي جبرئيل أَنَّ راية الإسلام ستترف فوقها.. ثم رأيت في الشرارة الثانية قصور الروم، وأخبرني جبرئيل أَنَّها ستخضع للمسلمين، ورأيت في الشرارة الثالثة قصور صنعاء وأرض اليمن وبشرني جبرئيل بنصر المسلمين، فكبرت حينها بتكبيرة النصر وبشرت المسلمين بما رأيت..

وهناك اشترأت أعناق المؤمنين الصادقين وشكروا الله تعالى.. أما المنافقون، فعبست وجوههم واعترضوا بانزعاج بالغ وقالوا: ما هذه الآمال الباطلة والوعود المستحيلة! فهؤلاء الذين يموتون بخوفهم ويضطرون إلى حماية أنفسهم بخندق سرعان ما يتجاوزه أهل مكة وحلفاؤهم القادمون، يتخيّلون فتح أعظم البلدان.. وهناك نزلت هذه الآية المباركة ردّاً على تخرّصات المنافقين^١.

النقاط المستفادة من هذه الآية

ملك مطلق

١. واضح أَنَّ المقصود والمراد من المشيئة والإرادة الإلهية في هذه الآية الكريمة ليس أَنه سبحانه يعطي أو يسلب أحداً شيئاً بلا حساب وبلا حكمة.. بل إِنَّ الحكمة كلّ الحكمة تقف وراء غطاءه كما هي وراء منعه وسلبه، إذ يراعى في ذلك نظام الخليقة ومصالحها.. وتارة يكون إيتاء الملك لجدارة ما، وربما تقام حكومة الظالمين تبعاً لواقع الأمم المريـرة..
٢. كلمة (الخير) تعادل كلمة الأفضل. أفعـل التفضيل. وتذكر لترجيح شيء على آخر، ولكثرتها في كثير من الموارد تستعمل بمعنى الحسن (دون مفهوم صفة التفضيل) ويبدو أَنَّ الكلمة هنا استعملت في المعنى الثاني..

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٢٦ و ٧٢٧.

٣. في جملة (بيدك الخير) يفهم أنّ العزة والخير وكذلك الذلّ والعطاء والملك وسلب الملك.. كلّ ذلك خير في محلّه ويتمّ طبقاً للعدل.. ولا وجود للشرّ بين ذلك.. إذ الخير للأشرار أنّ يبقوا في السجن وقيد الاعتقال، فيما الحرّة خير للصالحين المؤمنين.. وعلينا أن نعلم بأن لا وجود للشرّ في عالم الوجود.. وأتينا نحن الذين نغيّر الخير شراً.. وحيث نقول: بيدك الخير، ولا نذكر الشرّ، فلأنّ ذاته المقدّسة لا يصدر عنها شرّ..

٤. قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ دليل على جميع ما ذكر في الآية، لأنّه حين يكون قديراً على شيء، فإنّ العزة والخير كلّ بيده. سبحانه وتعالى. أيضاً.

لا جبر ولا تفويض

٥. سؤال: إذا كانت الأمور كلّها بيد الله تعالى، فإنّ ذلك يقتضي أنّ من يبلغ سدّة الحكم أو يسقط عنها، إنّما كان بأمر الله سبحانه، ونتيجة ذلك: إمضاء حكومة الجبّارين والظالمين، ومصادقه أنّ يزيد لعنه الله كان يبرّر أفعاله وعظيم جرائمه بهذه الآية..

للإجابة على هذا الإشكال ينبغي أن يقال:

أولاً: بالإيضاح المتوفّر في هذه الآية يعلم أنّها إمّا أن تكون خاصّة بالحكومات العادلة، أو خاصّة بحكومة الرسالة المحمّدية والقضاء على حكومة جبّاري قريش..

ثانياً: الحقّ هو أنّ لهذه الآية مفهوماً كلياً وعماماً ينتهي إلى القول بأنّ جميع الحكومات الخيرة والشريرة بيد الإرادة الإلهية، ولكنّ ذلك منوط بأنّه تعالى قد جعل سلسلة عوامل وأسباب للنصر والتقدّم في هذا العالم، وأنّ توظيف هذه الأسباب والعوامل هو تبع المشيئة الإلهية، ولهذا؛ كانت إرادة الله عبارة عن الآثار المتوفّرة في الأسباب والعوامل؛ وعليه؛ فإذا عمد أفراد طغاة كفرعون وجنكيزخان ويزيد وأمثالهم. إلى الاستفادة من هذه الأسباب والعوامل واستسلمت لهم الأمم الخائفة والجبانة وتحملت وطأة جرمهم وظلمهم، فإنّما ذلك نتيجة أعمالها وقد قالوا: كلّ أمة جديرة ولأئمة بحكومتها.. أمّا إذا

كانت الأمم واعية وسلبت طغاتها تلکم الأسباب والعوامل وهيأتها للصالحين، فتأسست حكومة عادلة.. فإن ذلك أيضاً عبارة عن نتيجة أعمال الأمة . وليس ذلك إلا منوطاً بطبيعة استثمار العوامل والأسباب الإلهية.

الآية ٢٧

تُولِجُ اللَّيْلَ

فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ
وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. الولوج لغةً هو الدخول، والآية تقول بأنه سبحانه يدخل الليل في النهار والنهار في الليل (وقد وردت الإشارة إلى هذا المعنى في ثمانية موارد قرآنية).

واقع علمي

٢. المقصود من جملة إدخال الله تعالى الليل في النهار والنهار في الليل هو التغيير التدريجي المحسوس في الليل والنهار طيلة أيام السنة، ويحدث هذا التغيير التدريجي بتأثير انحراف الأرض بالنسبة إلى مدارها بما يقرب من (٢٣) درجة وتفاوت زاوية إشراق الشمس، ولذا، نرى في البلدان الشمالية الواقعة فوق خط الاستواء؛ أنّ النهار في بداية فصل الشتاء يطول شيئاً فشيئاً، فيما الليل يقصر إلى مطلع فصل الصيف ثم يحدث العكس، حيث يطول الليل ويقصر النهار إلى مطلع فصل الشتاء.. أما في البلدان الواقعة إلى أسفل خط الاستواء يكون الأمر معكوساً تماماً، وعليه؛ فإنّ الله تعالى يدخل الليل في النهار والنهار في الليل بشكل مستمر، أي: يقصر أحدهما ويطيل الآخر..

وهنا يمكن أن يرد إشكال، وهو:

أنّ في خط الاستواء وكذلك في النقطتين الأصليتين في قطب الشمال وقطب الجنوب؛ نرى الليل والنهار متساويين طيلة أيام السنة دون حدوث تغيير عليها.. ويكون الليل والنهار

متساويين دوماً في امتداد خط الاستواء، بمعنى أن الليل طيلة ستة أشهر بمقدار واحد وكذلك هو حال النهار، وعليه؛ لا بد من القول بأن الآية لا تشمل عامة بقاع الأرض.. للإجابة ينبغي أن يقال:

إنَّ خطَّ الاستواء الحقيقي ليس سوى خطِّ وهميٍّ، والناس يعيشون في الواقع في الطرف الأعلى منه أو الأسفل.. وكذلك الأمر بالنسبة لنقطة القطب التي لا تشكّل سوى بقعة صغيرة جدّاً، وحياة الناس في القطب (إن تسنّى ذلك) تكون في مكان أوسع من تلكم البقعة الحقيقية، وعليه؛ فإنَّ الاختلاف في الطول والقصر في المكانين حاصل في مدى الليل ومدى النهار..

٣. التدريب الحاصل في تغيّر الليل والنهار. مهما كان معناه. له آثاره المفيدة في حياة الكائنات الحيّة في الكرة الأرضيّة، ذلك لأنّ نموّ النباتات والكثير من الأحياء رهين بإشراق الشمس وتدرّج حرارتها، بمعنى أنّ بداية الربيع حيث تتصاعد مستويات النور والحرارة بالتدرّج تساعد على تكامل النباتات والأحياء الأخرى وتطوي بذلك مراحل تكاملها.. وبمرور الوقت ستحتاج إلى مزيد من الضوء والحرارة.. وهذا الأمر إنّما يتمّ بواسطة تغييرات الليل والنهار التدريجيّة حتّى تصل إلى غاية تكاملها.

٤. من ثمرات عدم تشابه واتّحاد الليل والنهار أنّهما لو كانا على شاكلة وطبيعة واحدة لحدث الاختلال في نمو وتكامل الكثير من النباتات والحيوانات، ولزال واقع الفصول الأربعة اللازمة لحدوث الليل والنهار وكيفيّة إشراق ضوء الشمس، ولحرم الإنسان من فوائد اختلاف الفصول...

٥. المقصود من قوله تعالى: ﴿ تَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتَخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ وأشباهه الواردة في عدّة آيات قرآنيّة هو الإشارة إلى قانون التبادل الدائم بين الحياة والموت وهو القانون الأعم والأكثر تعقيداً والأكثر إثارة. في الوقت نفسه. الذي يحكمنا ويتسلّط علينا نحن

المخلوقين.. ومعنى هذا: إخراج الحي من الميت وإيجاد الحياة في الموجودات غير الحية، ذلك لأننا نعلم أنّ ذلك اليوم الذي استقبلت فيه الأرض الحياة؛ أوجدت المخلوقات الموجودات الحية من مواد غير حية.. وفضلاً عن ذلك، ثمّ في أبداننا وفي جميع الموجودات الحية مواد غير حية ضمن الخلايا تتبدّل إلى موجودات حية، وها هي الموجودات الميتة تمثّل أمام أنظارنا في موجودات حية دوماً..

٦. هناك تفسير آخر لهذه الآية؛ ولعلّه لا يتنافى مع التفسير السالف، وهو: مسألة الحياة والموت المعنويّان.. بمعنى أنّ هناك من الأفراد المؤمنين؛ وهم الأحياء الحقيقيّون قد يولدون - يخرجون - من أفراد عديمي الإيمان؛ وهم الموتى الحقيقيّون، وتارة يحدث العكس حيث يولد الكافر من مؤمن؛ فيكون الأوّل سبباً لخروج الثاني إلى الحياة.

٧. كتّى القرآن المجيد. في آيات عديدة. الحياة والموت المعنويّين بالإيمان والكفر.. وطبقاً لهذا التفسير؛ يعلن القرآن عن مسألة تهافت قانون الوراثة الذي عدّه بعض العلماء الطبيعيين من جملة القوانين الطبيعية القطعية.. ذلك لأنّ الإنسان بتمتّعه بالحرية والإرادة يختلف عن الموجودات غير الحية الكائنة في الطبيعة التي تزج تحت وطأة الإجبار والانقياد إلى مختلف العوامل.. وهذا الأمر بحدّ ذاته يعد من جملة تجلّيات القدرة الإلهية، حيث يزيح أو يغسل آثار الكفر عن أولاد الكافرين (الذين يريدون أن يكونوا مؤمنين) كما يزيح عن أولاد المؤمنين (الذين يريدون أن يكونوا كفّاراً حقّاً) ويمنح الطرفين حرية اختيار الدين والمعتقد بقابلية الاستقلال، فيتفوّقون بها على العوامل المساعدة وغير المساعدة فيما يتعلّق بالموروث.. كما نقرأ في تفسير (مجمع البيان) عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام أنّ معنى آية: ﴿تخرج الحي من الميت..﴾ يخرج المؤمن من صلب الكافر والكافر من صلب المؤمن.^١

٨. قوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقْكَ مِنْ تَحْتِهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ من قبيل ذكر العام بعد الخاص، إذ ورد في الجمل السالفة نماذج من أرزاق ومواهب الله تعالى لعباده.. وفي هذه الجملة ورد الحديث بصورة أعم في جميع المواهب والأرزاق، أي: ليس أنَّ العزّة والسلطان والحياة والموت بيد الله تعالى فحسب، بل كل أنواع الرزق والمواهب.

٩. جملة (بغير حساب) إشارة إلى أنّ بحار المواهب الإلهية على قدر من السعة بحيث لا تتأثر بقلّة ونقصان مهما أعطي منها، كما أنّها أجلّ من أن تحصى بعد العطاء منها كما هو العطاء من أموال الناس التي تنقص بالعطاء.. ولكنّ الله تعالى لا تنقصه كثرة العطاء، باعتباره اللّامتناهي في الغنى والكمال والجود..

١٠. سؤال:

من وجهة نظر قانون الخلقة وحكم العقل ودعوة الأنبياء أنّ كلّ فرد حرٌّ مختار في تحقيق السعادة والعزّة والذلّة والسعي لكسب رزقه لنفسه، إذن كيف تنسب كلّ هذه الأمور. كما في هذه الآية. إلى الله تعالى؟

جواب هذا السؤال أنّ المصدر والمنبع الأصليّ في عالم الخلقة وجميع المواهب والقابليّات هو الله عزّ وجلّ، وهو الذي وضع القوانين وقعد القواعد في هذا العالم، ولو أنّه جرى تجاهل قوانين العالم الإلهية كانت النتيجة ذلّة وخوار للمخلوق، ولهذا؛ أمكن نسبة ذلك كلّّه إلى الله تعالى، وهذه النسبة لا تتنافى وحرّيّة وإرادة البشر، لأنّ الإنسان هو الذي يحسن أو يسيء الاستفادة من هذه القوانين والمواهب والقدرات والقابليّات..

الآية ٢٨

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّهُ وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية - في الواقع - بمثابة درس سياسي اجتماعي مهم للمسلمين، تحثهم على أن لا يتخذوا الغرباء عن دينهم حلفاء ناصرين أولياء، وأن لا يندفعوا بجمال خطابهم وما يظهرونه لهم من حبٍّ وودٍّ يبدو أنه خالص.. لا سيما وأن المسلمين طالما تعرّضوا للضربات الموجعة والخسائر الفادحة من هذه الجهة المريبة..
٢. مفردة (الاستعمار) مشتقة من الاتجاه إلى الإعمار وال عمران، ولهذا؛ يشير تاريخ الاستعمار أن المستعمرين يضيفون على أنفسهم مظهر المحبة والرغبة في إنقاذ (المستعمرين) من الفقر؛ فيطيلون الحديث عن الإعمار والإصلاح، ولكنهم سرعان ما تتكشف حقائقهم المخزية المجرمة؛ فيكيلون للمحرومين أقسى الضربات.
٣. قوله تعالى: ﴿مَنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أن الحياة الاجتماعية لكل فرد بحاجة إلى رفاق وأصدقاء ومعينين، إلا أن على المؤمنين أن يختاروا أولياءهم ومعينيهم من بين الأفراد المؤمنين، وبوجود هؤلاء تنتفي الحاجة إلى الكفار القساة، وبتمييز الإيمان والكفر إشارة واضحة إلى الهوية السحيقة التي تفصل - دائماً وأبداً - بين جبهتي الإيمان والكفر.
٤. إن الذين يوادون أعداء الله تعالى ويتعاونون معهم؛ تضعف علاقتهم بربهم إلا أن يتوبوا عن مودة أعداء الله أو أن يتقوا منهم تقاة حفظاً لكيانهم ومنعاً من أن تتلاشى إمكاناتهم إذا ما

جهروا بعدائهم ومواقفهم.. ﴿فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾.

آفاق التقية

٥. التقية عبارة عن التحفظ من شر العدو في مقابل القيام بعمل ما ليس من صفته التطابق مع ميل عامله، إما حفظاً من أضرار الطرف المقابل أو من الشر المقابل لذلك العمل، ويقال لفاعل الفعل هذا متقياً..

٦. ذكر فقهاء الشيعة للتقية - حسب الحكم أو الموضوع وباعتبارات مختلفة - أقساماً، مثل: التقية الواجبة والمستحبة والمكروهة والمحزومة والمباحة.. أو مثل.. تقية الخوف والمداراة والتقية الفردية والتقية السياسية.

٧. التقية الفردية هي التي ينظر إليها بالمنظار الفردي، ذلك لأن الفعل أو ترك الفعل، أو القول وترك القول - الصمت - هو تقية وطبقاً لميل الطرف المقابل لا طبقاً لميل المتقي ولكنه ينجز، والإنسان وفي حالات خاصة وظروف محدّدة يضطرّ إلى فعل ما هو مخالف لما يؤمن به.. وهذا القسم يسمى قضية فردية، وهو ليس التقية السياسية، أما التقية في الأمور الاجتماعية والسياسية؛ يقال لها تقية سياسية، ولعل (٩٠٪) من روايات باب التقية وأهميتها تعود إلى موضوع التقية السياسية.

٨. تارة يطرح السؤال أدناه:

ما هو الحكم الوضعي للتقية؟ ومعناه: هل أن العمل في حال التقية يعدّ صحيحاً أو باطلاً وفاسداً؟ وإن كان صحيحاً؛ فهل يتضمّن جميع آثار الصحة (فيكون عملاً صحيحاً - مقبولاً - في واقعه)؟ أم أن الآثار التي تركت بسبب التقية وحالتها وظرفها ستتضمّن الفعل دون باقي الآثار الأخرى؟

فإن اضطرّ أحدهم إلى الضوء بوضوء العامة مثلاً، فهل يكون وضوؤه جائزاً وتكليفاً صحيحاً، أو أنه إذا توضّأ بهذا الضوء، فهل تصحّ صلاته أم لا؟ أو أن آثار زمن التقية المترتبة

عليه ستكون صحيحة ولا حاجة إلى إعادة الوضوء أو الصلاة. أداء أو قضاء؟ في هذه الحالة لن يتضمّن العمل جميع آثار صحّته؟

٩. لأنّ التقيّة فعل من أفعال المكلف، ولأنّ كلّ فعل من أفعال المكلف. على سبيل القهر. داخل في الأحكام التكليفية الخمس، يمكننا القول إنّ التقيّة على خمسة أقسام: التقيّة الواجبة والتقيّة الحرام والتقيّة المستحبّة والتقيّة المكروهة والتقيّة المباحة..

ألف: التقيّة الواجبة: هي التي تكون حين القيام بعمل علنيّ عديم الفائدة، توجب تعريض حياة الإنسان للخطر، مثل وضع شيعة أمير المؤمنين عليه السلام في فترة حكم معاوية وأغلب حكام بني أميّة وبني العباس.. وفي مثل ذلك الوضع؛ كان الأسلوب الصحيح والأقرب للعقل عدم التفريط بطاقات الشيعة وإمكاناتهم وأفرادهم، ومواصلة المواجهة والصراع غير المباشر لتحقيق الأهداف، أو غير العلنيّة.. كأداء الصلاة بالتكفير. التكتّف. أو القيام بأعمال يعارضها الشيعة على سبيل الاضطرار.. فيكون الفعل المخالف للشيعة وفقههم واجباً، لأنّ «ما لا يمكن ولم يتحصّل الواجب إلّا به» واجب أيضاً.

ب: التقيّة المستحبّة: وفي تعريفها يمكن أن يقال أو يضرب لها مثل من المشاركة في صلاة جماعة المخالفين في المسجد الحرام.. فمن اشترك فيها. طبقاً للرواية الشريفة. كان كمن صلّى خلف الأئمة عليهم السلام..^١ وهنا تتحقّق تقيّة المداراة المرجّحة، ولذا؛ فهي مستحبّة.. ج: التقيّة المباحة: وهي التي يمكن العمل بها أو عدم العمل بها. مثل: ما أشير إليه في أقسام الروايات الواردة في باب أحكام تقيّة المداراة، حيث لا يجب مراعاتها، مثل: إمكانية الاشتراك في صلاة جماعة المسجد الحرام خلف إمام المخالفين مع إمكانية الصلاة في البيت..

د: التقيّة المكروهة: كما قال أمير المؤمنين عليه السلام وهو على المنبر: سرعان ما ستجبرون على سبّي، فإن كان ذلك فسبوني، وسرعان ما ستؤمرون بالبراءة منّي وإني لعلّ دين محمد!^١ وكأنّه عليه السلام يريد القول بأنّهم لا شأن لهم بالإسلام، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.. وفي هذه الحال؛ قال بعض الفقهاء: لا تنبغي البراءة وإنّه لا بدّ من مقاومة ذلك حتّى بالنفس.. ولكنّ فقهاء آخرين ذهبوا إلى أنّه حيث فصل بين السبّ والبراءة؛ فيعلم أنّ هذه التقيّة لا يحبّذها أمير المؤمنين عليه السلام، فلا تجوز البراءة منه مع أنّه لا يستفاد منها الحرمة..

هـ: التقيّة الحرام: ورد في الروايات أنّ التقيّة سارية إلّا في الدماء، إذ تحرم لدى سفكها،^٢ فلا يجوز للمسلم أن يختار العمل بالتقيّة ويلوّث يده بدم مسلم آخر ولو جرّ ذلك إلى مقتله هو.. كما ورد في روايات منعت التقيّة في المسح على الخفّين^٣، فإذا اضطرّ المؤمن إلى المسح على خفيه في وضوئه دون بشرة قدميه، لم يصحّ له المسح على الخفّين، إذ الصلاة أرقى مصاديق العبادة...

١٠. إذا ما أمعن المستشكلون النظر جيّداً على التقيّة؛ علموا أنّ الشيعة ليسوا الوحيدين القائلين بها، بل إنّ مسألة التقيّة عبارة عن حكم قطعيّ عقليّ موافق لفطرة الإنسان، لأنّ جميع العقلاء في العالم إذا ما وجدوا أنفسهم أمام مفترق طرق؛ بين أن يظهروا ويجهروا بعقائدهم الخاصّة مع تعرّضهم للخطر الماحق وبين أن يغضّوا الطرف عنها فلا يجهروا بها حفظاً لأنفسهم من ذلك الخطر الماحق.. هنالك يعمدون إلى التحقيق والتقييم بين الجهر وإعمال التقيّة والستر، فينتهون إلى الاختيار العقلاني بين التضحية بالغالي والنفيس أو أن يستتروا بالتقيّة

١- الكافي، ج ٢، ص ٢١٩

٢- المحاسن، ج ١، ص ٢٥٩

٣- راجع: الكافي، ج ٢، ص ٢١٧

فلا يجهروا بعقائدهم مع الحفاظ عليها قلباً وباطناً.

١١. إنَّ التَّقِيَّةَ أصل قرآنيٌّ مفروغ منه، ويعمد إليها في موارد معيّنة ومحسوبة وضمن ضوابط شرعيّة وعقليّة.. وما التهمة والافتراء الذي يرمي به بعض الجهّال أتباع أهل البيت عليهم الصلاة والسلام ويعدّونها بدعة عليهم، فلعدم اطلاعهم على الثقافة القرآنيّة، وعليه؛ فإنّ المدارس الإسلاميّة المتعلّقة والمنطقيّة تعدّ التَّقِيَّةَ نوع تغيير في طبيعة الصراع والمواجهة درءاً للفناء والانقراض، ومواصلةً للجهد وعاملاً حضاريّاً من عوامل النصر.. ولأنّ الذين يبطلون التَّقِيَّةَ ويرمون العاملين بها بالبدعة ليس لهم حظٌّ في مواجهة الطاغوت، كما يفتقرون إلى المنهجية في العمل الجهادي، وهم لا يعلمون ما إذا كان الأرجح دمار أنفسهم ووجودهم أم اتّخاذ الموقف الصحيح والمنطقي.. والطريق الثاني هو إعمال وممارسة هذه التَّقِيَّةَ الشرعيّة والحضاريّة، فيما الطريق الأول أمر لا يصحّ تجويزه أو فرضه فرضاً شرعيّاً وعليّاً...^(١)

١- وهناك من التَّقِيَّةَ ما يمكن أن يمارسها المؤمن تجاه أخيه المؤمن تبعاً لمستواه الذهني، أو خوفاً عليه من أن يطلع عليه شيء لا تطيقه نفسه؛ فيفترط فيها.. ولطالما اتقى أهل البيت عليهم السلام بعض شيعتهم — وهم كثر في هذا المجال — درءاً لإفشاء الأسرار وإزهاق النفوس أو مراعاة لعقولهم وغير ذلك [المترجم].

الآية ٢٩

قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. لاحتتمال أن يعتمد البعض إلى إساءة استخدام قاعدة التقيّة الواردة بعنوانها استثناءً لدى مواجهة أعداء الإسلام، فيتخذونها مبرراً لعقد أواصر المودّة والولاية لهم.. فقد ورد التحذير الصارم هذا في هذه الآية التي تحدّثت وكشفت عن علم الله تعالى بكل خفايا الإنسان وإسراه، بل وبجميع ما في السماوات والأرض..
٢. أنّ علم الله وإطلاعه غير منحصر بأسرار ابن آدم، بل هو عزّ وجلّ عالم مّطلع. كلّ العلم والإطلاع. على ما تحويه السماوات والأرض.. بل هو القادر على كلّ شؤون خلقه ﴿ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كلّ شيء قدير﴾.
٣. إنّ أصل الإيمان بعلم الله المطلق يمثّل مادّة إحياء الضمير الديني والمنع من ارتكاب الخطايا واحتمال تبرير ذلك.. ﴿يعلمه الله﴾.
٤. ما الذي يمكن إخفاؤه على الله العالم بأسرار السماوات؟ ﴿يعلم ما في السماوات﴾.

الآية ٣٠

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ
اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية وعشرات الآيات الأخرى تصرّح وتكشف عن أننا في يوم القيامة سنلقى عين أعمالنا كاملة، وهذا ما يسمّى بتجسّم أو تجسيم الأعمال الذي يذهب إليه علماء الإسلام وتشهد عليه نصوص روايات كثيرة صادرة عن أئمة الدين عليهم السلام، وهنا نكتفي بنموذج واحد من هذه النصوص، إذ ورد في الحديث النبوي الشريف الموجه لأحد الذين طلبوا الموعظة:

«وإنّه لا بدّ لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حيّ؛ وتدفن معه وأنت ميّت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لثيماً أسلمك، ثم لا يحشر إلا معك ولا تحشر إلا معه، ولا تُسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحاً؛ فإنّه إن صلح أنست به، وإن فسد لا تستوحش إلا منه، وهو فعلك»^١.

منطق المستقبل

٢. كلمة (تودّ) الواردة في هذه الآية إشارة إلى أنّ النفس الإنسانية لا تريد فناء عملها؛ لعلمها بعدم فناء شيء من هذا العالم، بل هي راغبة في الابتعاد عنه بعداً سحيقاً جداً: ﴿يوم تجد كل نفس... تودّ لو أنّ بينها وبينه عملها. أمداً بعيداً﴾.

٣. مفردة (تجد) من مادة وجدان المضادة للفقدان والفناء. وكلمتا (خير) و (سوء)

١- الأماشي، الشيخ الصدوق، ص ٣

الواردتان بصورة التنكير (بمعنى الدلالة على غير المعيّن) تفيدان العموم هنا، أي أنّ كلّ إنسان في يوم الحساب سيجد ما عمل - مهما كان قليلاً. ماثلاً أمام عينيه، سواء كان خيراً أم شراً.

٤. هذه الآية تصرّح أنّ ابن آدم سيرى عمله في يوم القيامة، كما نقرأ في ذيل الآية أنّ المذنب سيتمّى لو أنّ بينه وبين عمله السيّء فاصلاً كبيراً، ذلك لأنّ الآية تبحث وتشير إلى العمل نفسه لا إلى الصحيفة التي دُون فيها العمل أو طبيعة الحساب والعقاب، رغم أنّ جملة من المفسرين أصرّوا على أنّ هذه الآية والآيات المشابهة لها تقصد من حضور العمل حضور الثواب أو العقاب، أو لنقل: صحيفة العمل التي أثبت فيها كلّ ما صدر عن الإنسان من خير وسوء، ولكنّ الواضح أنّ هذا الفهم من الآية لا يتناسب وظاهرها ومنطوقها.. بدليل أننا نقرأ في الآية مورد البحث أنّ المذنب سيتمّى لو أنّ بينه وبين عمله فاصلاً كبيراً، ولا يتمّى فناء عمله، وهذا يثبت أنّ فناء العمل أمر مستحيل، ولهذا لا يطلبه ولو بأمنية.

٥. هذه الآية وآيات كثيرة أخرى تزيج الستار عن حقيقة أنّ في القيامة ستتجسّد أعمال الإنسان - الخيرة والسيئة - كلّاً على حدّة وبشكل يتناسب وطبيعتها لتحضر أمام عينيه، وتؤيّد هذه المطلب آيات قرآنية كثيرة أخرى، مثل الآية (٤٩) من سورة الكهف: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾ وقوله سبحانه: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾^(١).

٦. يفهم من بعض الآيات أنّ هذا العالم هو مزرعة لعالم آخر، وأنّ عمل الإنسان بمثابة البذرة التي ينثرها المزارع على الأرض أو يغرسها فيها، ثمّ إنّ هذه البذرة تبدأ بالنموّ حتّى تحصد وقد تكاثرت وكبرت.. وكذلك هي أعمال الإنسان في الدنيا تعود على الإنسان في الآخرة بعد أن سرى إليها التبديل والتغيير من حيث الشكل والتأثير، كما قال سبحانه في الآية (٢٠) من سورة

الشورى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾.

٧. كلمة (أمد) لغةً تعني الزمن المحدود، وتفاوتها مع كلمة (أبد) أنَّ هذه الأخيرة تعني الزمن غير المحدود، وغالباً ما تستعمل الأولى للإشارة إلى موعد الانتهاء الزمني، كما تستعمل أيضاً بمعنى الزمن المحدود (في مقابل اللامحدود).

٨. المذنبون والمحسنون، سيرى كلُّ منهم أعماله في يوم القيامة حاضرة، مع فارق أنَّ المحسنين سيسترون لدى رؤيتهم أعمالهم، فيما المذنبون سيجزعون لرؤية أعمالهم الطالحة حتَّى أنَّهم سيتمتّون لو أنَّ بينهم وبينها أمداً وفاصلاً بعيداً جداً.

٩. رغم أنَّ مصطلح (أمد) لم يرد إلّا بمعنى الزمن أو انتهاء الزمن المعين، إلّا أنَّه وكما ورد في تفسير (مجمع البيان) أنَّ المقصود من أمنية الكافرين في أن تكون بينهم وبين أعمالهم التي يعلمون بعدم صلاحها في يوم القيامة فاصلاً كبيراً من حيث المكان،^١ بدليل أنَّ في الفاصل المكاني يرد احتمال الحضور الآخر المتجدّد، ولكنَّ الفاصل الزمني لا يمكن تجدد الحضور والعودة، وأنَّ الفاصل الزمني بعيد عن إظهار النفرة من الفاصل المكاني فمثلاً: أن من كان يعيش بعيداً عن مشهد الحرب العالميّة، فإنَّه يشعر بشيء من القلق والاضطراب، لاحتمال انجرار الحرب إلى حيث يكون، ولكنَّا نحن الذين نعيش على بعد عشرات السنين من واقعة الحرب العالميّة، لا نشعر بقلق أن تصيبنا تلك الحرب بمصيبة (يمكن اندلاع حرب عالميّة أخرى) ولكن الحرب العالميّة السالفة وسريانها إلى حيث نحن أمر لا معنى له..

خوف ورجاء

١٠. في قوله تعالى: ﴿ويحدّركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ خليط من الخوف والأمل، فهو تعالى يعلن عن الخطر ويحدّر منه، ومن جهة أخرى؛ يحمل عباده على الأمل واللطف

لإحداث التعادل بين الخوف والرجاء الذي هو عامل تربوي مهم للإنسان، رغم أنَّ هذا الاحتمال وارد في أن تكون كل من الجملتين تأكيداً للأخرى، وكأنَّ المقالة هي قول أحدهم لآخر: احذرك من هذا الأمر، وما تحذيري إلا لللطفي ورأفتي بك..

ويفهم من بعض الآيات الأخرى أنَّ الأعمال الصالحة التي تنجز في هذا العالم ستجسد في العالم الآخر بهيئة نور ووضوح، حتَّى أنَّ المنافقين ليطمعون أن يطالبوا المؤمنين ذوي النور بأن يعطوهم من نورهم ووضوحهم، ويقولون لهم: ﴿أنظرونا نقتبس من نوركم﴾ فيقال لهم: ﴿ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا﴾^١.

نظريات الأجر والعقاب

١١. أهم آراء العلماء بخصوص الثواب والعقاب على الأعمال عموماً على ثلاثة أشكال:
الف: مجموعة منهم يذهبون إلى أنَّ جزاء الأعمال ثواباً أو عقاباً كما هو الجزاء في عالم الدنيا، بمعنى أنَّه كما وضع لهذا العالم قانون العقاب على السوء والثواب على الخير من قبل المقتن، فإنَّه سبحانه وتعالى قد عيّن عقاباً أو ثواباً خاصاً.. وهذه النظرية هي التي تسمى بنظرية الأجر والعقوبة المقررة..

ب: ونقرأ فيما يخص نعم الجنة وعذاب النار.. أن هناك من يذهب إلى أنَّه كما في جميع العقوبات والأجور فإنَّ لكم المخلوقات هي صفات الإنسان الجيدة والردئية؛ وليس شيئاً آخر، وما هي إلا مخلوقات النفس والروح الإنسانية التي تنتجها هذه الروح في ذلك العالم بلا اختيار.. بمعنى: أنَّ الأعمال الصالحة والردئية في هذا العالم توجد الملكات الصالحة والردئية، وهذه الملكات مادة الإنسان وجزء ذاته، وكلّ من هذه الملكات توجد ما يناسبها من صور العذاب والنعم، فالأشخاص ذوو السريّة الطيبة في هذا العالم متعلّقون بسلسلة من

الأفكار والتصورات والآراء الطيبة، أمّا الطالحون؛ فإنّما هم منغمسون في يقظتهم ومنامهم بالأفكار الباطلة والتصورات الخاطئة، وهذه الملكات ستكون في يوم البعث هي الخلاقة للنعم وللعذاب والألم والاستقرار..

ج: هناك مجموعة أخرى من علماء الإسلام العظام اختطت لرأيها مسلكاً آخر، وقد أدلوا بمجموعة كبيرة من الأدلة الكثيرة المستقاة من الآيات الشريفة والروايات الكريمة، وجذوتها هي أنّ كلّ سلوك لنا، خيرٌ كان أو رذيلًا؛ له صورة دنيويّة نشاهدها، كما له صورة أخرويّة، وهي دفينة في الوقت الحاضر في أعماق ذلك السلوك، وستظهر في يوم الحساب بعد جملة من التغيّرات بعد أن تفقد شكلها الدنيويّ وتبدو بشكلها الأخرويّ، وستؤدّي إلى اطمئنان صاحبها أو ألمه..

ومن بين الآراء المتقدّمة الذكر، هناك الرأي الثالث أكثر تناسباً وتطابقاً وظواهر العديد من الآيات القرآنية، وعلى هذا؛ فإنّ أعمال الإنسان ذات أشكال مختلفة من الطاقات. وطبقاً لقانون بقاء المادّة والطاقة؛ فإنّها لا تفتنى أبداً وهي باقية في هذا العالم، رغم أنّنا وبتحقيق بسيط نظنّ زوالها..^(١)

١٢. بقاء الأعمال وأبدّيّتها يسبّب - من جهة - أن يرى كلّ فرد من الناس أعماله في يوم القيامة حين يحاسب على ما فعل في الدنيا واعتقد، ولا يبقى ثمّ مناص لإنكار شيء منها، ومن جهة أخرى ستتسبّب له أن يعيش بينها في الآخرة، فيتألّم أو يسعد، رغم أنّ آليات الإنسان ووسائله المتاحة غير قادرة على كشف الحوادث الماضية باستثناء ما هو متعلّق باللحظات القليلة الماضية، ولكنّ المسلّم في الأمر أنّه لو صنع جهاز أكثر تطوّراً وتكاملاً ولو حصل لنا الإدراك الأكمل، لاستطعنا الإحساس بكلّ ما وقع في الماضي ولأدركناه (ولا ريب في عدم المانع من

١- قد يفصل القول بفنائها وانعدامها تماماً عند فناء كلّ شيء قبيل حلول الآخرة كما تصرّح الآيات القرآنية، ثمّ الله تعالى يعيدها تارة أخرى [المترجم].

أن يكون قسم من الثواب والعقاب له حالة من التوافق المسبق..).

١٣. لإثبات إمكانية تجسّم الأعمال من وجهة نظر العلم المعاصر، يمكن الاستفادة من الأصول الفيزيائية المسلّم بها، لأنّ الفيزياء تذهب إلى إمكان تكاثف الطاقات والقوى تارة أخرى وأن تأخذ لنفسها شكلاً جسيماً ملموساً، وأنّ بالإمكان ضغط الطاقات المستنفذة والمستعملة في طريق الإصلاح أو الظلم، لتتصور بشكل جسم خاص في يوم القيامة، فلو كانت الطاقة قد صرفت في إطار الخير، تحوّلت هنالك إلى صورة نعمة رائعة الكمال والجمال، وإن كانت قد صرفت في الشرّ والسوء، تجلّت بهيئة وسائل تعذيب وعذاب في الجحيم..

الآية ٣١

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾

شأن نزول هذه الآية

ورد لهذه الآية شأنان في نزولها كما في تفسير (مجمع البيان) و (المنار):

١. أن جماعة ادّعت حبَّ الله تعالى في محضر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، في حين أن أفرادها قلّمَا كانوا يلتزمون بأوامره سبحانه ومناهيه، فنزلت هذه الآية وردّت مدّعاهم^١.
٢. أن جماعة من نصارى نجران جاؤوا رسول الله صلوات الله عليه وآله في المدينة وذكروا أنهم إن كانوا يقدّسون المسيح عليه السلام فلأنهم يقدّسون الله تعالى في الأصل، فنزلت هذه الآية وما قبلها وردّت ادّعاهم^٢.

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. أن المحبّة ليست مجرد علاقة قلبيّة ضعيفة، وأنّه لا بدّ من اقترانها بعمل الإنسان، أو لنقل إنّ العمل يجب أن يكون انعكاساً لتلك المحبّة.
٢. أن من يدّعي الحبّ والعلاقة بالله تعالى، عليه - كخطوة أولى - أن يتّبع رسوله، فالمحبّة الحقيقيّة لها آثارها العمليّة على سبيل الحتم، فيتّصل بمحبوبه ويسير ضمن إرادته ويواصل سعيه، والحقّ أنّ أول أمارات الحبّ لله اتّباع نبيّه ورسوله وحجّته، وهذا - بطبيعة الحال - نتيجة وأثر طبيعي أن ينجذب المرء إلى محبوبه والمخلوق لخالقه.. ولعلّ من المحبّة ما تكون ضعيفة وبسيطة حتّى أنّ شعاعها لا يتعدّى حدود القلب ولكّنها يصعب أن تسمّى محبّة حقيقيّة مؤثّرة..

١- تفسير المنار، ج ٣، ص ٢٨٤.

٢- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٣٣.

٣. حب الإنسان وتعلقه بشيء ما لا بد أن يكون بداعي قناعته بكمال ما فيه، ذلك لأن الإنسان لا يتعلق بما لا يجد فيه نقطة كمال وقوة، وعليه؛ فإن حب الإنسان وتعلقه بالله سبحانه وتعالى لإيمانه أنه مصدر ومنبع كل كمال، ولا ريب أن هكذا وجود يفيض بكل الكمال؛ منهجاً وتعاليماً، وفي هذه الحال؛ كيف يمكن للإنسان أن يتمرد على إرادته وكماله وهو الذي يدعي أو لا يجد مناصاً من حبه والتعلق به، فإن تمرد عليه؛ دل على عدم جدّيته في الحب وعدم مصداقيته في التعلق؟!

٤. أن هذه الآية لا تعالج مدعى نصارى نجران ومدعى الحب لله في العصر النبوي فحسب؛ بل هي عبارة عن أصل عام يتضمّنه المنطق الإسلامي وتخاطب الناس في جميع الأعصار والأمصار.. هؤلاء الذين لا ينفكون عن الحديث عن حب الربّ الجليل أو التعلق بنبي الإسلام وأئمّته الصالحين والمجاهدين في سبيل الله تعالى، بينما هم أبعد ما يكون عن المشروع الإلهي في الأرض.. إذ هم ليسوا سوى كاذبين مفترين!..

٥. أن الملوّثين من قمة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم بالذنوب ويعدون أنفسهم مفعمين بحب الله ونبيه أو بأمر المؤمنين والأئمة العظام عليهم السلام، أو يؤمنون بالاكْتفاء بالحب القلبي دون اقترانه بالعمل والاتباع، هم في الحقيقة غرباء عن منطق الإسلام.. كما ورد في (معاني الأخبار) عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام القائل: «ما أحبّ الله من عصاه» وقد تلا عليه السلام الأبيات القائلة:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه	هذا لعمرى في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته	إنّ المحبّ لمن يحب مطيع

٦. يستفاد من قوله تعالى: ﴿يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أَنَّ الْحَبَّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَوْ يَتَصَوَّرَ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، لِأَنَّ كُلَّ مُحَبَّةٍ تَدْعُو إِلَى الْإِلْتِزَامِ بِمَا يَأْمُرُ الْحَبِيبُ بِشَكْلٍ وَاقِعِيٍّ.. وَحِينَئِذٍ يَعْمَدُ الْحَبِيبُ إِلَى حَبِّهِ.

الحب والمغفرة

٧. من الممكن للسؤال أدناه أن يرد هنا، وهو: لو أَنَّ امرئاً كان دائماً الطاعة لأمر حبيبه، فإنه لا يبقى ثَمَّ ذنب يرتكبه ليغفر له من جهة المحبوب، فما معنى قوله سبحانه: (يغفر لكم ذنوبكم) الوارد في منتهى الآية الشريفة، فما المقصود من ذلك؟
للإجابة نقول: أولاً: يمكن أن تكون هذه الجملة إشارة إلى غفران جميع الذنوب السابقة، وثانياً: أَنَّ الشخص المحبَّ لا يستمرّ في عصيان محبوبه، ولكن من الممكن أن ينزل أحياناً في ارتكاب ذنب ما حين تغلب عليه الشهوة، إلّا أَنَّ الطاعة الغالبة تؤدي إلى غفرانه..
٨. المقصود من الروايات العديدة المنقولة عن أئمة الإسلام والقائلة بأنَّ الدين ليس إلّا الحبّ، أَنَّ روح الدين وحقيقته هو الإيمان والحبّ والتعلّق بالله تعالى، ولا ريب أن نور هذا الحبّ يضيء جميع الوجود الإنساني ويؤثّر في جميع أعضائه وأجهزة بدنه، والتأثير الأبرز هنا هو الطاعة والاتباع لأمر الله.

كما روي في كتابي (الخصال) و(الكافي) عن مولانا الصادق ومولانا الباقر عليهما السلام «وهل الدين إلّا الحبّ» ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾^(٢) (٣)

١- المحاسن، ج ١، ص ٢٦٣

٢- الخصال، ج ١، ص ٢١ والكافي، ج ٨، ص ٨٠

٣- وهناك روايات أخرى تؤدي إلى التوازن في المعتقد حيث أشارت إلى أَنَّ مجرد الحبّ لأهل البيت عليهم السلام والبراءة من أعداء الله تعالى لهما قيمتهما الخاصة.. وَأَنَّ المحبّ لهم عليه السلام سيحاسب في يوم القيامة على ذنبه.. أمّا غير المحبّ أو الميغض لهم عليهم السلام سيحاسب حسب ما: عدم الحبّ لهم عليهم السلام مضافاً إلى ارتكاب الذنوب.. وبالتالي، فإنّ حبّ أئمة الدين - وإن لم يقترب بعمل - له قيمته وحسنه الخاصة المميزة، لأنّه يؤدي في نهاية المطاف إلى النأي بالنفس عن الجبت والطاغوت، ويتوقّع له أن

الآية ٣٢

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. إن كنتم تدعون حب الله؛ عليكم إطاعته وإطاعة رسوله لإثبات هذا المدعى.

﴿فإن تولّوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾.

٢. التمرّد على الأحكام الإلهية يشير إلى أنّ هؤلاء المدّعين مفتقرون إلى الصدق والمصداقية في حبّه سبحانه وتعالى، وعليه؛ ليس في المتوقّع أن يحبّهم الله، لأنّ الحب لا يكون من جانب واحد.

٣. يستفاد من قوله تعالى: ﴿أطيعوا الله والرسول﴾ أنّ إطاعة الله والرسول أمر غير قابل للانفصال، ولهذا؛ كان الحديث في الآية السالفة عن اتّباع وإطاعة الرسول، وهنا صار الحديث عن إطاعة الله ورسوله معاً..

الآية ٣٣

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ

وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ذكر آل عمران إشارة مجددة للسيدة مريم عليها السلام والنبى عيسى عليه السلام، والتكرار لهذا الأمر ليكونا منطلقاً للحديث عنهما في الآيات القادمة، وباعتبارهما مصداقاً حقيقياً وواقعياً من الحب لله وتجلي آثار هذا الحب الذي وردت الإشارة إليه في الآيات السالفة.. وبالإضافة إلى ذكر اسم آدم عليه السلام، فقد ذكر جميع أولي العزم، حيث صُرح باسم نوح عليه السلام وآل إبراهيم عليهم السلام، ومنهم إبراهيم نفسه وموسى وعيسى والرسول الأعظم وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين..

في معنى الاصطفاء

٢. (اصطفى) من مادة صفو (على وزن عفو) بمعنى تخلص الشيء، وصفوة بمعنى خلوص الشيء، والحجر الصافي لغةً يوصف من حيث خلوصه من الشوائب، وعليه؛ فهذا الاصطفاء يعني انتخاب الجزء الخالص من الشيء.

٣. يمكن أن يكون هذا الاصطفاء والاختبار لآدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران عليهم السلام من بين الخلائق اختباراً تكوينياً أو تشريعياً، بمعنى أنه تعالى قد اختارهم منذ البداية، فجعل خلقتهم خلقة ممتازة مميزة، علماً أن هذه الممنازية لا تعني إجبارهم على اختيار طريق الحق والهدى، بل إن ذلك يتم بإرادتهم وحرّيتهم، ثم بداعي إطاعتهم لأمر الله وتقواهم وورعهم وسعيهم في طريق هداية الناس، قد اكتسبوا ميزات جديدة، وعجنت هذه الميزات الجديدة بامتيازاتهم الذاتية حتّى انتهوا إلى صورة بشر مصطفين..

لماذا الاصطفاء؟

٤. سؤال: ترى هل أن هذا الامتياز الذاتي.. وإن لم يكن موجِباً للسلوك في طريق الحق ولا منافاة بينه وبين مسألة الاختيار والإرادة الحرّة.. ولكن ألا يحسب ذلك نوعاً من التمييز اللا مبرّر؟! مبرّر؟!

يجب أن يقال لدى الإجابة: إنّ عمليّة الخلقة الخليطة والقائمة على النظام الصحيح لا توجب تفاوتاً ولا تمييزاً غير مبرّر.. مثال ذلك: إنّ بدن الإنسان عبارة عن خلق منظم ولا بدّ من وجود أو إيجاد تفاوت ما بين أعضاء هذا البدن لضمان وجود النظام.. فلو كانت جميع خلايا جسم الإنسان بنفس الدقّة التي تمتاز بها خلايا شبكية العين، أو كانت سائر الخلايا بذات القوّة والصلابة التي تمتاز بها خلايا عظم الساق، أو كانت كلّ الخلايا تمتاز بما تمتاز به خلايا الدماغ من شعور واستشعار، أو كانت كما هي خلايا القلب في الحركة، لعمت الفوضى في جميع خلايا بدن الإنسان، وإنّما كانت الحكمة وضرورة حفظ البدن سبباً في إيجاد التفاوت في طبيعة ومميزات الخلايا.. فكان لا بدّ من تمييز خلايا الدماغ عن غيرها لتقود خلايا العضلات وسائر أعضاء البدن، كما كان لا بدّ من إيجاد خلايا مميزة بميزات أخرى خاصّة بالنظام لحفظ قوّتها ومتانتها، فيكون التوجيه من خلايا الدماغ، وتكون الحركة والفاعلية في العضلات والعظام.. ولا يمكن لشخص أن يعترض قائلاً: لم تكن جميع خلايا بدن الإنسان كما هي خلايا دماغه.. وكذلك لا ينبغي الاعتراض على عدم التشابه بين عامّة خلايا النبات كما هي خلايا أوراق الزهرة وما تمتاز به من لون وجمال ودقّة.. إذ التشابه والتماثل بين جميع خلايا النبات يؤدّي إلى تخريب هيكلية النبات وسوقه إلى الفناء بسرعة لا تتصوّر..

٥. علينا أن نعلم بأنّ هذا الامتياز الذاتي المجعول لإيجاد النظم كان أمراً في غاية اللّزوم والضرورة، وبأنّه لم يكن أمراً بسيطاً، وقد استوجب تحمّل المسؤولية العظمى التي تناهز ذلك الامتياز، وهذا التعادل والمناهزة بين الأمرين هو الذي يحفظ التعادل بين كفتي ميزان

الخلقة.. وهذا يعني أنه كما يمتاز الأنبياء وأئمة البشر على غيرهم، كذلك هم يتحملون المسؤولية بحجم ما أعطوا من ميزات، فيما الآخرون الذين يتمتعون بامتياز أدنى؛ تكون مسؤوليتهم أقل وأبسط، ثم إنَّ الامتياز الذاتي ليس لوحده كافياً في مقام القرب والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى؛ بل لابد من ميزات اكتسابية أيضاً^(١).

٦. لا شك أنَّ هذه الآية ليست بصدد بيان وذكر جميع المصطفين الإلهيين، بل هي إشارة إلى مجموعة منهم، فإن كان البعض ممن هم ليسوا من هذه الذرية ولم يذكروا في هذه الآية الشريفة، فذلك لا يعدّ دليلاً على عدم اصطفتائهم ودخولهم في هذه القاعدة.. كما لا بد من الالتفات إلى أنَّ آل إبراهيم ينضمُّ إليهم موسى بن عمران عليهما السلام ونبينا الخاتم وآل بيته الطاهرين عليهم الصلاة والسلام؛ لأنَّهم كلُّهم من ذرية إبراهيم عليه السلام.

٧. ورد في (المفردات) للراغب أنَّ كلمة (آل) مأخوذة من الأهل، والتفاوت الوحيد بين الكلمتين أن كلمة الآل غالباً ما تطلق على المقرَّبين والأشراف، أمَّا الأهل؛ فلها معنى أكثر شمولاً وسعة وأنها قد تطلق على كلِّ شيء، وكذلك الآل تضاف إلى أفراد الإنسان، فيما الأهل تضاف الزمان والمكان وكلِّ شيء، كما يقال: أهل المدينة الفلانية، ولا يقال: آل المدينة الفلانية..^٢

٨. من الواضح أنَّ المقصود من المصطفين من آل إبراهيم وآل عمران عليهم السلام ليسوا جميع أولاد إبراهيم وعمران عليهم السلام، ذلك لأنَّ من بين ذرية إبراهيم أشخاصاً كافرين أيضاً.. فيكون المعنى هو اصطفاء بعض ذرية إبراهيم وعمران عليهما السلام.

١- هذا باستثناء المعصومين الأربعة عشر، وهم النبي الأكرم وآل بيته الطاهرون سلام الله عليهم أجمعين، إذ كانوا في غنى عن اكتساب شيء جديد في عالم الدنيا، كما ورد في عديد الروايات والزيارات التي تؤكد هذا المعنى ومن أنَّهم قد امتحنهم الله الذي خلقهم قبل أن يخلقهم فوجدهم — أعدَّهم — في كمال مطلق يغنيهم عن كلِّ ما يمكن أن يستمى اكتساباً دون سائر الخلق المميزين - الأنبياء - الذين لا يحظون بكمال ما إلَّا ضمن إطار معرفتهم وقربهم من آل النبي الخاتم صلوات الله عليه وعليهم [المترجم].

٢ مفردات ألفاظ القرآن، ص ٩٨

٩. عمران الوارد اسمه في الآية أعلاه هو والد مريم عليهما السلام وليس والد موسى عليه السلام، لا سيّما وأنه أينما ذكر عمران في القرآن كانت الإشارة إلى شأن مريم عليها السلام.

١٠. هناك روايات عديدة بلغتنا عن أهل البيت عليهم السلام وخاصة بهذه الآية؛ أكدت عصمة الأنبياء والأئمة عليهم السلام،^١ لأنّ الله عزّ وجلّ لا يختار من عباده من هم عصاة ملوثون بالشرك والفسق، بل يختار المعصومين المنزهين منهم (وهناك مراحل من العصمة يمكن أن تُستقى من الآية أيضاً).

١- راجع: عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٩٣

الآية ٣٤

ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. أنَّ هؤلاء المصطفَّين الإلهيّين من حيث الدين والطهر والتقوى والجهاد . وقد اختيروا لهداية البشر. بعضهم مثل بعض . وهم كنسخ متعدّدة من كتاب واحد وقد اقتبس بعضها من بعض.
٢. استدَلَّ بعض الكتاب المتأخّرين بهذه الآية على نظريّة تكامل الأنواع، فقالوا. فيما قالوا: إنّ هذه الآية تدلّ على أنَّ آدم عليه السلام لم يكن الإنسان الأوّل في الأرض، وإنّما سبقه صاحبه بشر كثيرون، وإنّ الله تعالى قد اصطفاه من بينهم وأخرج من نسله جيلاً مميّزاً، وإنّ عبارة (على العالمين) الواردة في الآية أعلاه شاهد على هذا المعنى.. وأضاف هؤلاء الكتاب قائلين: كان أناس كثر في عصر آدم، وعليه؛ فلا مانع أنَّ الإنسان الأوّل كان قد خلق قبل ملايين السنين وقد تكامل من حيوانات أخرى. وما آدم إلّا الإنسان الوحيد الذي جرى اصطفاؤه..
- ولكن! في مقابل هذا الرأي؛ يجب أن يقال: لا دليل متوفّر على أنَّ المقصود من (العالمين) هنا هو وجود أجيال من البشر كانوا معاصرين لآدم عليه السلام، بل يمكن أن تكون الكلمة إشارة إلى مجموع المجتمعات الإنسانيّة على امتداد التاريخ، وعليه؛ يكون معنى الآية: أنّه سبحانه قد اختار من بين الناس وعلى مرّ التاريخ أفراداً؛ كان أولهم آدم ثمّ نوحاً ثمّ آل إبراهيم وآل عمران، وكان كلّ من هؤلاء الأفراد يعيش في فترة معيّنة.. فيكون المقصود بـ (العالمين) جميع المجتمعات والأجيال البشريّة في جميع العصور والقرون.. فلا لزوم في الاعتقاد بأنّ جماعات بشريّة كثيرة كانت تعيش في عصر آدم عليه السلام وأنّه قد اختير من بينهم.. لاحظوا جيّداً...

الآية ٣٥

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾

قصة هذه الآية

يستفاد من النصوص التاريخية والروايات ومقولات المفسرين أن (حنّة وأشيع) كانتا أختين، وأن الأولى كانت امرأة عمران، وهو أحد شخصيات بني إسرائيل، فيما الثانية كانت امرأة زكريّا عليه السلام..

ومرّت سنون عديدة ولم تلد حنّة امرأة عمران.. فحدث أن كانت جالسة تحت شجرة، فرأت طائراً يزقّ فراخه طعاماً، فتولّاه قلبها عشقاً لأن يكون لها ولد، وطلبت من ربّها أن يرزقها الولد.. فلم تمرّ فترة حتّى استجاب الله لها وسرعان ما حملت بجنين..

وطبقاً لبعض الروايات، فقد أوحى الله تبارك وتعالى لعمران أنّه سيهبه ولداً ذكراً مباركاً يشفي المرضى ويحيي الموتى بإذنه سبحانه وسيرسله نبياً في بني إسرائيل.. فأخبر عمران زوجته حنّة.. فتصوّرت.. حين حملت.. أنّها قد حملت بهذا الابن الموعود، غافلةً عن أنّ ما في بطنها هي والدة ذلك الابن الموعود (مريم عليها السلام) ولهذا؛ نذرت أن يكون وليدها خادماً في بيت المقدس.. ولكتّها حينما وضعت جنينها وراثة أنثى، قلقت واضطربت وقالت في نفسها: كيف تكون الأنثى خادماً في بيت الله مع وجود الأولاد الذكور خدماً في بيت المقدس؟!١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. حين حملت زوجة عمران، ولأنّها كانت تظنّ جنينها ولداً ذكراً، قالت في وصفه: (محزراً)

(أو ما يعادل ذلك في لغتها) ولم تقل: محرّرة، وطلبت من الله تعالى أن يتقبّل نذرها..

٢. مفردة (محرّراً) من مادّة تحرير، وهو العتق، وللکلمة معنيان أو تعريفان:

الأوّل: يطلق على الأولاد الذين ينخرطون في خدمة بيوت الله ليزاولوا أعمال النظافة وغيرها، فإذا فرغوا انشغلوا بالعبادة، وهم بذلك يكونون محرّرين من أداء أي خدمة لآبائهم وأمهاتهم، أو من جهة اعتاقهم من الشؤون الدنيويّة..

التعريف الثاني: أنّ الأولاد يكونون تحت ولاية آبائهم وأمهاتهم إلى سنّ البلوغ، فإذا بلغوا تحرّروا من هذه الولاية واختاروا لحياتهم ومصيرهم ما يشاؤون، فإن اختاروا الخدمة في المعابد؛ كان لهم ذلك إلى ما يشاؤون من وقت بعد ذلك، فيقال لهم محرّرين لحرّيّتهم في البقاء في خدمة المعابد إلى حيث يشاؤون..

٣. نذر زوجة عمران كان بسبب أن عمران توقّاه الله تعالى في فترة حملها، ولو كان على قيد الحياة؛ ما كانت تعتمد إلى النذر بمعزل عن رأيه.

الآية ٣٦

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ
وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ثم احتمال في علل قول والدة السيدة مريم عليها السلام بعد ولادة مريم عليها السلام أن الله تعالى يعلم بأن نذرهما كانت لخدمة وليدها في بيت المقدس. والحال أن الناس يندرون أبناءهم دون بناتهم لهذا الغرض وأنه ليس الذكر كالأنثى لأمر عدة:
الف: أن البنت بعد بلوغها تكون لها عاداتها الشهرية فلا تستطيع البقاء في المسجد.
ب: إضافة إلى عدم تساويهما في القدرة البدنية.
ج: كذلك هناك مسائل متعلقة بالحجاب والعفة والحمل والولادة؛ مما يتسبب للأنثى بمشاكل تعرف من القرائن المتوقعة في الآية وروايات وردت في تفسيرها. (وليس الذكر كالأنثى) وردت على لسان والدة مريم عليها السلام.. هذا بالرغم من أن البعض احتمل أن العبارة أعلاه لله تعالى دون والدة مريم، ولكنّه احتمال بعيد..
٢. هناك إشكال يرد في جملة والدة مريم عليها السلام في تقديم وتأخير الكلام في قولها (ليس الذكر كالأنثى) وهو متعارف في عبارات العرب، ولعلّه ورد بداعي الانزعاج أو الاضطراب المفاجئ حين وضع الحمل الذي أدى بها إلى القول هذا لرغبتها السالفة في أن ترزق بالذكر ليكون خادماً في بيت المقدس فوجدت نفسها تقدّم ذكر الذكر على الأنثى، والحال كان المعروف أو المتوقع أن تقول: وليست الأنثى كالذكر؛ لأنها ولدت أنثى وليس ذكراً..
٣. مريم في اللغة بمعنى المرأة العابدة الخادمة، ومن هنا اختارت والدة مريم لها هذا الاسم

بعد وضعها، ممّا يشير إلى عميق إيمان والدّة مريم وحبّها لأداء نذرّها لتكون عابدة خادمة في المسجد، وهكذا عمدت بعد تسميتها إلى إعادتها وإعادة ذريّتها من الشيطان الرجيم..

الآية ٣٧

فَنَقَّبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
 حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
 زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا
 قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

شرح نزول هذه الآية

ذكر في التاريخ أن والد مريم كان قد توفي قبل ولادتها، فجاءت بها إلى بيت المقدس حيث علماء اليهود وقالت: هذه الصغيرة هدية إلى بيت المقدس، فليتكفلها أحدكم.. ولما كانت تنضح بالنور والعظمة وقد ولدت في بيت وأسرة أصيلين.. فقد تسابقوا إلى رعايتها وتنازعوا في كفالتها ليفخر كل منهم على غيره بهذا الشرف..

وبعد تفاوض وحوار وردت الإشارة إليه في الآية (٤٤) من هذه السورة المباركة صارت كفالتها إلى النبي زكريا عليه السلام.. وكان من أمر مريم أنها كانت تزاد بهاءً وشرفاً وجلالاً كلما تقدّم عمرها حتى بلغ بها الأمر بما ذكرته الآية القرآنية الشريفة: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ فكانت تقول وقد ملأها الإيمان والتوكل واليقين: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

فترعرت مريم عليها السلام في كنف النبي عليه السلام وكانت تزاد عبادةً لله في كل يوم حتى أن ابن عباس روى أنها حين بلغت سنّ التاسعة بدأت تصوم نهارها وتقوم ليلها وفاقت

على رهبان زمانها في الورع والتقى والمعرفة بالله تعالى^١.

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية تتمة لبحث الآية المتقدمة فيما يتعلق بقصة مريم عليها السلام ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً﴾.

كرامة مريم الإلهية

٢. طبقاً للآية أعلاه، فإنَّ الله تعالى قد جعل مريم الفتاة الأولى التي يتقبلها للخدمة الروحانية، ذلك لأنَّ والدتها ما كانت لتصدق بأنَّ ابنتها مريم ستقبل خادمة عابدة في المعبد (بيت المقدس) ولهذا؛ كانت تتمنى لو أنَّ وليدها كان ولداً ذكراً، لا سيمًا وأنه لم يكن متعارفاً للفتاة أن تكون خادمة المعبد، إلاَّ أنه وطبقاً لهذه الآية فإنَّ الله تعالى قد اصطفاها وطهرها لتكون أول فتاة عابدة خادمة في بيت المقدس.

٣. قال بعض المفسرين: كانت علامة قبولها أنَّها بعد بلوغها وخلال تواجدتها في بيت المقدس لم يأتيها ما يأتي النساء أبداً لئلا تضطرَّ للمغادرة أو القعود عن العبادة والصلاة، هذا بالإضافة إلى نزول طعام الجنة إليها في محرابها، مع وجود الاحتمال بأنَّ والدتها قد ألهمت قبول نذرها إلهاماً.

٤. التعبير بـ (أنبتها) من مادة الإنبات بخصوص رعاية وتربية مريم عليها السلام إشارة إلى ناحية التكامل المعنوي والأخلاقي لها.

٥. لعلَّ التعبير بكلمة (أنبتها) إشارة إلى مسألة دقيقة، وهي أنَّ فعل الله تعالى هو الإنبات، بمعنى أنَّه كما يشرف البستاني والفلاح على نمو البذرة حتَّى تنبت وتخرج إلى سطح الأرض وتورق.. كذلك هو ابن آدم الذي تتوقَّر ذاته على فطرة نزيهة وقابليات شتى

١- تفسير الامثل، ج ٢، ص ٥٢٨ و ٥٢٩.

في أعماق روحه، فإذا تسنى للإنسان مربّي إلهي يكون بمثابة بستانيّ لبستان عالم الإنسانية؛ فإنّه سرعان ما ينمو وتتضح فيه القابليّات الإلهيّة التي يمتاز بها ويصير مصداقاً تامّاً للإنبات المشار إليه.

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وكفلها زكريّا﴾.

٦. (كفلها) من مادّة الكفالة، وهي في الأصل بمعنى ضمّ الشيء إلى شيء آخر، ولهذا سمّي من يحتضن طفلاً صغيراً كافلاً أو كفيلاً لأنّه في الواقع قد ضمّه إلى نفسه..

٧. متى ما استعملت مادّة (كفلها) بهيئتها الثلاثيّة (كفل) بلا شدّة، تكون بمعنى الكفالة والحضانة، وحينما ترد بهيئة الثلاثي المزيد (كفل) بالتشديد، تكون بمعنى الانتخاب وتعيين الكفيل لشخص آخر.

٨. (المحارب) موضع خاصّ في المسجد والمصلّي يكون لإمام الجماعة أو أفراد خاصّين، وقد ذكرت ثلاثة أسباب لتسميته بذلك:

الف: أنّ المحارب مشتقّ من مادّة الحرب، وذلك أنّ المؤمنين يخوضون الحرب في هذا الموضع ضد الشيطان والوساوس النفسيّة.

ب: أنّ المحارب أصلاً يرد بمعنى قمّة المجلس وأعلاه، فسمّي بذلك لكونه في أعلى المعبد، هذا بالإضافة إلى التفاوت المذكور. تاريخياً. في وضع المحارب لدى بني إسرائيل.. إذ كانوا يبنون المحارب أعلى من سطح أرضيّة المعبد، بينما يكون ما حوله أشبه بجدران الغرفة الحافظة له، بحيث قلّ أن يمكن للإنسان أن يرى من في داخله..

ج: (المحارب) بمعنى جميع نواحي المعبد، وهو الموضع الذي يحارب ويصارع فيه الشيطان وهوى النفس.

٩. كبرت مريم عليه السلام تحت كفالة النبيّ زكريّا عليها السلام واستغرقت في العبادة والعبوديّة لله تعالى، ولم تصب بما تصاب به النساء عند بلوغهنّ لثلاً تضطرّ

لمغادرة بيت المقدس أو تنقطع عن العبادة، حتَّى روي أنَّها سبقت عباد زمانها ورهبان بني إسرائيل^{١٠}.

فكانت تجيب قائلة: ﴿هو من عند الله إنَّ الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

١٠. بخصوص الطعام الذي كان يسألها زكريَّا عليه السلام عنه لم ترد الإشارة إلى نوعه ومصدره في الآية القرآنيَّة، إلَّا أنَّه . كما ذكرت الرواية الواردة في (مجمع البيان) وغيره من كتب الشيعة والمخالفين أنَّه كان فاكهة من الجنَّة في غير فصلها، فيقدِّم لها في المحراب بأمر الله تعالى^{١١}. وليس من العجب أن يرعى الله تعالى عبده ووليه بهذا النحو..

١١. يستفاد من القرائن القرآنيَّة في هذه الآية أنَّ المقصود من جملة (رزقاً) الواردة في هذه الآية أنَّ الطعام كان طعاماً من الجنَّة وذلك لأنَّ:

أولاً: أنَّ كلمة (رزقاً) وردت بصيغة النكرة ولا تدلُّ على طعام محدَّد ومعروف بالنسبة لزكريَّا عليه السلام.

ثانياً: أنَّ جواب مريم عليها السلام وأنَّ الرزق الذي بين يديها هو من عند الله تعالى إشارة أخرى إلى هذا المطلوب.

ثالثاً: تأثّر زكريَّا عليه السلام وطلبه من الله تبارك وتعالى الولد والذريَّة الذي ستتناوله الآية التالية قرينة أخرى على هذا المعنى.

١٢. ذهب بعض المفسّرين (مثل مؤلّف تفسير المنار) إلى أنَّ المقصود من كلمة (رزقاً) هو الطعام الدنيويّ العادي. وذلك لما نقل عن ابن جرير أنَّ بني إسرائيل أصيبوا بقحط، وأنَّ زكريَّا لم يعد قادراً على توفير الطعام لمريم، وحينذاك عمدوا إلى القرعة؛ فخرجت باسم رجل نجار، فكان يتشرف بتهيئة الطعام لمريم من ماله، وحينما وقف زكريَّا عند محرابها تعجّب لرؤية

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٣٩

٢- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٤٠

الطعام عندها في ذلك الظرف الصعب، فأجابته بأن ما عندها من طعام هو من عند الله تعالى الذي سخر لها رجالاً مؤمناً راغباً في تقديم الخدمة لها.^١ ولكن هذا التفسير لا يتفق مع القرائن المتوفرة في الآية، ولا مع الروايات التي وردت في تفسيرها...

١- تفسير المنار، ج ٣، ص ٢٩٣.

الآية ٣٨

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً
طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾

سبب نزول هذه الآية والآيات التي تليها

هذه الآيات الكريمة تصوّر ناحية من حياة النبي الإلهي وما يرتبط بقصة السيدة مريم عليها السلام. وقد قدّمنا القول بأنّ زوجة زكريّا عليه السلام ووالدة مريم كانتا أختين، وقد اتّفق أنّهما كانتا عاقرين في البداية، وحينما حملت أمّ مريم بجنين بلطف من الله تعالى ولاحظ زكريّا عليه السلام كلّ الإيمان والإخلاص؛ هنالك تمنّى أن يكون له ولد طاهر مطهر كما هي مريم، ولد يطفح بالعظمة الإلهيّة.. ومع أنّ السنين قد مرّت عليه وعلى زوجته، وكان يبعد عليهما أن يكون لهما ولد طبقاً للمعايير الماديّة، إلّا أنّ إيمانه بقدرة الله تعالى وما شاهده من توفّر الطعام والرزق عند مريم في غير فصلهما؛ ملأ قلبه الطاهر بالأمل بأن يكون له ولد بعد تلك السنين المديدة من عمره، فيكون بمثابة الفاكهة المتوفّرة في غير فصلها.. ولهذا، وحين كان منشغلاً بالدعاء والمناجاة.. طلب من الله تبارك وتعالى أن يرزقه الولد.. ﴿هنالك دعا زكريّا ربّه قال ربّ هب لي من لدنك ذرّيّة طيّبة إنّك سميع الدعاء﴾ ﴿وحيث كان يعبد ربّه ويناجيه في المحراب؛ سمع من يبشّره باستجابة دعائه وأنه تعالى سيرزقه ولداً طيباً سيّداً يصدّق بكلمة الربّ الجليل عيسى بن مريم ويدعو إلى الإيمان به، وسيكون بعيداً جدّاً عن وساوس الشيطان ونبيّاً عظيماً لم يكن له من قبل سمياً: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^١.

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. طلب الولد (يحيى) تمّ بعد مشاهدة سموّ مريم المتواصل، والملفت أنّ الله قد استجاب لذكرّيّا ووهبه يحيى وكان شديد الشبه بولد مريم من جهات عديدة.
٢. أنّ حالات الإنسان وساعات الدعاء أمور مؤثرة في الاستجابة ﴿هنالك دعا ذكرّيّا﴾.
٣. أنّ الغبطة من الكمال، فيما الحسد نقص.. وحينما رأى ذكرّيّا مقام مريم وعبادتها في صغرها غبطها لفقده الولد، فأراد من ربّه ذرّيّة صالحة طيبة.
٤. حتّى أنّ مقام المرأة المقربة من الله تعالى يمكن أن يوجب غبطة الرجل النبيّ، كما هو الحال في ذكرّيّا عليه السلام بحيث أثرت فيه تأثيراً بالغاً: ﴿هنالك دعا ذكرّيّا﴾.
٥. أنّ طلب الولد والذرّيّة الطيبة من سنن وسيرة الأنبياء: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.
٦. قيمة الذرّيّة ووجود الأولاد واستمرار النسل منوط بطهارته ﴿ذرّيّة طيبة﴾.
٧. ينبغي مراعاة جملة أمور لدى الدعاء، منها الحمد والثناء على الله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

الآية ٣٩

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ
يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ
اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. لم يكتفِ الله تعالى بإجابة دعاء زكريا والإخبار عن ذلك عبر الملائكة، بل وذكر خمسة أوصاف لوليد زكريا الطاهر:

الأول: أنه مؤمن بكلمة الله الذي هو عيسى بن مريم عليهما السلام، فكان إيمانه ودعمه سبباً لتقوية مكانة النبي المسيح (يلاحظ أن المقصود من الكلمة هنا هو النبي عيسى بقرينة الآية الخامسة والأربعين من هذه السورة والآية الحادية والسبعين بعد المئة من سورة النساء، كما أنه سرعان ما سيتضح سبب التسمية هذه) وكما ورد في التاريخ، فإن يحيى يكبر عيسى بستة أشهر وقد كان أول من آمن بنبوته وصدق به ودعا إلى التسليم له، وحيث كان مشهوراً معروفاً بين الناس بالزهد والعفاف، فقد كان لتصديقه بعيسى أثر عميق في إيمان الناس بآبائهم مريم عليهما السلام.^١

الثاني: أنه سيكون له مقام السيادة والتقدم من حيث العلم والعمل.

الثالث: أنه يحفظ نفسه عن الهوى والوساوس والتمرد والعصيان والتلوث بعبادة الدنيا، وهذا المعنى يستفاد من كلمة (حصوراً).

الرابع والخامس: أنه سيكون نبياً عظيماً (يلاحظ أن وصف النبي ورد هنا بصورة التنكير؛

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٤٢

تعميماً لعظمته) كما سيكون من الصالحين.

٢. مفردة (حصور) من الحصر وهو الحبس، وهنا جاءت بمعنى من يمنع نفسه عن الهوى والرغبة، والمفردة تستعمل تارة فيمن يمتنع عن الزواج، ولهذا؛ ذهب إلى هذا المعنى جمع من المفسرين، كما أشارت إلى ذلك جملة من الروايات.

في معنى (الحصور)

٣. سؤال: إذا كانت كلمة (حصوراً) تعني ترك الزواج، فهل يعدّ هذا ميزة تحسب لصالح الإنسان؟

للإجابة نقول: لا دليل قاطعاً على أنّ المقصود من الحصور في الآية هو ترك الزواج، كما أنّ الرواية الواردة بهذا الصدد غير مسلمة السند، كما لا يبعد أن يكون المقصود هو ترك الشهوات والرغبات الدنيوية.. هذا أولاً.

وثانياً: يمكن أن يكون يحيى كعيسى الذي كان يضطرّ ضمن ظروف خاصّة إلى كثرة السفر والتنقل على سبيل الإجبار لتبليغ دينه.. وهذا قانون عامّ قد لا يشمل الجميع.. وحيث أنّ الله تعالى قد مدحه لهذه الصفة والميزة فبداعي عدم زواجه لظروف خاصّة مضافاً إلى حفظ نفسه وصونها عن السقوط في الذنب؛ فلم يتلوّث أبداً..

وعلى العموم، فإنّ قانون الزواج قانون فطري، ولا يمكن لدين من الأديان أن تشرّع حكماً يخالف الفطرة، وعليه؛ فلا دين الإسلام ولا غيره كان يعدّ ترك الزواج. في الحالات الطبيعية. أمراً مطلوباً..

٤. أنّ الصلاة كانت مشرّعة في الأديان السالفة (يصلّي في المحراب).

٥. كلمة (يحيى) مشتقة من الحياة، أي أنّه سيبقى حيّاً، وهو اسم اختير لهذا النبي العظيم من جهة الله تعالى، ولعلّ المقصود من الحياة؛ الحياة المعنوية والمادّية المقرونين بالإيمان ومقام النبوة والعلاقة الوطيدة جدّاً بالله عزّ اسمه، كما يفهم ذلك من هذه الآية والآية السابعة

من سورة (مريم): ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ كما يعلم أنَّ هذا الاسم قد وضع لأول مرة على إنسان ما..

وكما عرف من الآيات الماضية؛ فإنَّ طلب زكريَّا الولد من ربِّه كان بعد مشاهدته سمِّ مريم المتواصل، والملفت للنظر أنَّه تعالى قد وهب زكريَّا الولد بفعل دعائه، وكان الولد الموهوب شبيهاً جداً بولد مريم.

٦. يحيى وعيسى عليهما السلام صارا نبيَّين منذ صغرهما، كذلك اسمهما يعنيان الحياة لغّة، كما شملهما الله تعالى بالسلام عليهما في ولادتهما وموتهما وبعثهما.. وهناك أوجه شبه أخرى بينهما.

٧. أنَّ الله تعالى يعلم بمستقبل جميع عباده: ﴿سَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾.

٨. العقّة وضبط الميول الجنسيّة محطّ ثناء الله (حصوراً).

الآية ٤٠

قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ
وَأَمْرَانِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. التفاوت في التعبير في هذه الآية عن قول زكريا ﴿وقد بلغني الكبر﴾ عن قوله في الآية الثامنة من سورة (مريم): ﴿وقد بلغت من الكبر عتياً﴾ إشارة إلى أنه كما الإنسان يتجه إلى الشيخوخة، كذلك هي الشيخوخة تقبل وتتجه إليه، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا كنت في إدبار والموت في إقبال؛ فما أسرع الملتقى»^١.

٢. (غلام) لغة تعني الابن اليافع.

٣. (عاقراً) لغة من العقر بمعنى الجذر والأصل، أو بمعنى الحبس، وإذا يقال للمرأة عاقراً؛ إما لأنها بلغت النهاية، أو لحبسها عن الولادة.

٤. هنا تم سؤال: لماذا بدر التعجب من زكريا من قدرة الله اللامتناهية؟ ولكن الإجابة واضحة بالالتفات إلى الآيات القرآنية الأخرى..

فهو أراد أن يعرف كيف يتأتى الحمل والولادة لامرأة كانت قد تجاوزت مرحلة عادتتها الشهرية منذ سنين، وأن يعرف طبيعة التغيرات التي ستطرأ على بدنها، وما إذا ستعود مرة أخرى إلى مرحلة الشباب، أم أنها ستشهد في نفسها حالة خاصة تؤهلها للحمل والولادة، هذا بالإضافة إلى أن الإيمان بقدرة الله تعالى لا يقتصر على الشهود والمشاهدة فقط. إنه في الحقيقة. أراد لإيمانه أن يبلغ مستوى الشهود كما كان إبراهيم عليه السلام مؤمناً

بالمعاد، فطلب من الله أن يبلغ به مرحلة الشهود ليحصل له الاطمئنان المناسب للأنبياء، ومن الطبيعي أن كل إنسان يواجه حالة مخالفة للقوانين الطبيعية يضطر إلى التفكير والرغبة في علامة حسية..

٤. لدى بيان حالات الضعف؛ لا بدّ من البدء من النفس: ﴿بلغني الكبر وامرأتي عاقر﴾.

٥. عند اليأس من استجابة الدعاء؛ لا بدّ من العود والتحلي بالرجاء والأمل بالله تعالى: ﴿أتى يكون لي غلام... كذلك الله يفعل ما يشاء﴾.

٦. أن إرادة الله عزّ وجلّ فوق الوسائل والأسباب الطبيعية الدنيوية: ﴿كذلك الله يفعل ما

يشاء﴾.

الآية ٤١

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً
قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَأَذْكُرَ
رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. كان طلب زكريا عليه السلام من الله تعالى المبني على أن يجعل له آية على ولادة يحيى عليه السلام ليس لعدم ثقته واعتماده على الوعد الإلهي، وإنما كان لمزيد من التأكيد وليكون إيمانه إيمانا شهوديا وليكون قلبه مفعما بالاطمئنان، كما كان جدّه إبراهيم عليه السلام قد طلب مشاهدة صورة المعاد وإحياء الموتى ليطمئن قلبه..

٢. يعلم من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ذَكَرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أنه في الوقت الذي سيعجز عن التكلم مع الناس طيلة ثلاثة أيام. علامة حمل أم يحيى عليه السلام به. إلا أنه كان قادرا على ذكر الله تعالى وتسبيحه، ليكون الانقطاع عن الناس في تلك المدة والإقبال المطلق على ربه عز اسمه عاملا لمزيد التقرب وكذلك ليكون ذلك الانقطاع آية واضحة على قدرة رب العالمين.

٣. الرمز في اللغة هو الإشارة بالشفاه، وكذلك يطلق على الهمس، وهذه الكلمة لها معنى أشمل في الحوار العادي، إذ يقال لكل حديث هامس وإشارة إلى مسألة خافية أو بغير ما هو صريح رمزا..

٤. أن يكون زكريا عليه السلام عاجزا عن التكلم مع الناس طيلة ثلاثة أيام مع قدرته على ذكر الله تعالى وتسبيحه؛ فهو العلامة على قدرة الرب على كل شيء.. والله القادر على إطلاق اللسان بذكره وتسبيحه فحسب، هو قادر على خلق جنين في رحم أم عاقر، بل وأن يكون هذا

الجنين المؤمن تجلياً ومظهراً لذكره سبحانه، ومن هنا تتضح العلاقة بين ما طلب زكريّا عليه السلام وبين العلامة المشار إليها.

٥. رغم ما ذهب إليه بعض المفسرين؛ مثل الفخر الرازي نقلاً عن أبي مسلم من احتمال امتناع زكريّا عليه السلام عن الكلام مع الناس كان على سبيل الاختيار لا الجبر والاضطرار، أي أنّ زكريّا كان مأموراً مكلفاً من جهة الله عزّوجلّ أن لا يتحدّث ولا يتكلّم خلال الأيام الثلاثة إلّا ما كان ذكراً لله وتسبيحاً، أي أنّه كان مكلفاً بصوم الصمت كما كان متعارفاً في بعض الأمم.. فكان الرازي يعدّ هذا الرأي رأياً مناسباً ومعقولاً،^١ إلّا أنّ من الواضح أنّ هذا التفسير لا يتفق ومضمون الآية، لأنّ زكريّا نفسه طلب آية وعلامة على البشارة الإلهية، والسكوت الاختياري لا دليل فيه على هذا المعنى أبداً.

٦. مفردة (العشي) تطلق عادةً على الساعات الأخيرة من اليوم، كما تستعمل كلمة (الإبكار) على ساعات النهار الأولى.. ويذهب البعض أنّ العشي هو الوقت الممتدّ من بداية الظهر إلى الغروب، وأنّ الإبكار هو ما بين طلوع الصبح إلى الظهر.. مع أنّ الراغب الإصفهاني قال في (مفرداته): العشي من وقت الظهر إلى صبح الغد^٢ والإبكار من طلوع الصبح إلى الظهر، وعليه؛ فإنّ العشيّ والإبكار مجموع الليل والنهار، ولكن وكما قلنا فإنّ المفردتين تستعملان في المعنى الأول عادةً.

٧. سؤال: هل يتناسب عقد لسان نبيّ مع مقام النبوة ووظيفة الدعوة والتبليغ؟

الإجابة على هذا السؤال ليست عسيرة، لأنّ هذه الحالة لا تكون مناسبة حينما تمتدّ وتطول، إلّا أنّ قصر فترتها بحيث يتمكن النبيّ أن يغيب عن قومه وينشغل أو يتفرّغ لعبادته ربّه بشكل تام أمر غير ممنوع، بالإضافة إلى أنّه قادر في فترة الأيام الثلاثة على التواصل مع الناس

١- التفسير الكبير، ج ٨، ص ٢١٥

٢- مفردات ألفاظ القرآن، ص ٥٦٧

بالإشارة والإيماء أو عبر تلاوة بعض آيات الله التي لا تخرج عن نطاق الذكر بطبيعتها.. وهذا بالذات ما عمد إليه زكريا عليه السلام أصلاً..

الآية ٤٢

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِيئُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ

وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. أيّ عزة أرقى من أن يتحدّث الإنسان مع الملائكة.. بل وأن يكون الحديث عن بشري الاصطفاء والتطهير من قبل الله تعالى، وأن يكون هذا التطهير والاصطفاء على نساء العالمين.. وهذا ما لا يكون إلا تحت مظلة التقوى والورع والإيمان والعبادة من قبل هذا الإنسان.. إنّ مريم قد تمّ اصطفاؤها لتكون أهلاً بإنجاب شخص كعيسى عليه السلام.

٢. كلمة (اصطفاك) تكررت مرتين في الآية، واحدة لبيان الاصطفاء بشكل مطلق، وأخرى لاصطفائها على جميع نساء العالمين.

٣. هذه الآية تشهد على أنّ مريم عليها السلام كانت أعظم نساء أهل عالمها وزمانها.. وهذا الأمر لا يتنافى مع العقيدة الفدّة القائلة بأنّ الصديقة فاطمة الزهراء سلام الله عليها هي خير وسيّدة نساء العالمين على الإطلاق، ذلك لأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال - كما صرح مولانا الإمام الصادق عليه السلام -: «أما مريم؛ كانت سيّدة نساء عالمها، أما فاطمة؛ فهي سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين»^١.

٤. كلمة (العالمين) لا تتنافى أبداً مع قول الإمام الصادق عليه السلام، لأنّ هذه الكلمة وردت في القرآن والعبارات العادية بمعنى الناس في زمان وبرهة معيّنة، كما جاء في بني إسرائيل من قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ومعلوم أنّ المقصود هو تفضيل المؤمنين منهم على أهل زمانهم..

الآية ٤٣

يَمْرِيْمُ أَقْنِيْ لِرَبِّكِ وَاسْجُدِيْ وَارْكَعِيْ مَعَ الرَّاكِعِيْنَ ﴿٤٣﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. في هذه الآية صدرت ثلاثة أوامر من جهة الملائكة لمريم عليها السلام: الأول: القنوت للرب المتعال، والثاني: السجود لله تعالى، والثالث: الركوع لله سبحانه مع الراكعين.
- ومعنى القنوت هو الخضوع ودوام الطاعة.. ومعنى السجود هو نوع من الخضوع المطلق لله عز اسمه، فيما الركوع هو نوع آخر من الخضوع وعلامة الطاعة والتواضع.
٢. قوله تعالى: ﴿واركعي مع الراكعين﴾ يمكن أن يكون إشارة إلى المشاركة في صلاة الجماعة، وكذلك يمكن أن يكون إشارة إلى الانضمام إلى جموع المصلين والخاضعين لله سبحانه.. أي: كما يركع العباد المخلصون لله تعالى كذلك على مريم أن تركع.
٣. أشير في بدء الآية إلى السجود ثم إلى الركوع، وهذا لا يعني أن سجود الناس إذ ذاك كان يسبق ركوعهم في الصلاة، بل لعل المقصود هو أداء الفعلين العباديين دون النظر إلى الترتيب بينهما، كما لو قلنا: صلّ وتوضّأ وتطهّر، بمعنى: عليك أداء هذه الأمور، والعطف بحرف الواو لا دلالة حتمية فيه على لزوم الترتيب.. هذا فضلاً عن أنّ الركوع والسجود في الأصل يعنيان التواضع والخضوع، والركوع والسجود في الحالات العادية يعدّان من مصاديق التواضع والخضوع والطاعة...

الآية ٤٤

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ
مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

شرح نزول هذه الآية

طبقاً لوحي القرآن، فقد جاءت أمّ مريم بوليدتها . بعد وضعها ولّفها بخرقه . إلى المعبد وخاطبت علماء وكبار بني إسرائيل بالقول بأنّها قد نذرت هذه الوليدة لخدمة المعبد، وطلبت إليهم أن يتكفلوا برعايتها.. ولما كانت مريم تنتمي إلى أسرة عظيمة عريقة ومعروفة بالعقّة والسداد (آل عمران) فقد تراحم علماء بني إسرائيل على رعايتها، فاضطّروا في نهاية الأمر إلى إجراء القرعة، فتقدّموا إلى نهر ورموا إليه أقلامهم بعد أن كتبوا أسماءهم عليها، فمن رسب قلمه في الماء كان فاشلاً في القرعة، أمّا الفائز؛ فهو الذي يطفو قلمه فوق الماء.. وكان الفوز من نصيب زكريّا عليه السلام.. فتكفلها، وليس الأمر ببعيد عن إرادة الله تعالى في أن تحظى مريم بكفالة زكريّا الذي كان زوج خالتها، فضلاً عن كونه من أنبياء الله الأجلاء^١.

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. تفصيل هذه القصّة بالشكل (الصحيح والخالٍ عن الخرافة) غير متوفّر في أيّ من الكتب القديمة المحرّفة، أمّا سندها الحقّ، فهو الذي ورد في القرآن المجيد.. إذ قال تعالى ضمن تنمّة للسياق: ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ

١- تفسير الامثل، ج ٢، ص ٥٤٤ و ٥٤٥.

يختصمون ﴿٢﴾.

٢. يعلم من هذه الآية والآيات الخاصة في سورة (الصافات) عن النبي يونس عليه السلام فيما يتعلق باللجوء إلى القرعة لحل المشاكل أو فض النزاعات وحين تعثر الأمور والوصول إلى طريق مسدود.

٣. الآيات الدالة على إباحة الاستفادة من القرعة لحل المشاكل مع روايات المعصومين عليهم السلام أدت إلى أن يكون اللجوء إلى القرعة من ضمن القواعد الفقهيّة المذكورة في الكتب الدينيّة، مع اشتراط الوصول إلى طريق مسدود، وعليه؛ متى ما أمكن الوصول إلى حلّ للمشكلة؛ انتفت الحاجة إلى القرعة.

٤. ليس لإجراء القرعة شكل وصيغة خاصّة في الشرع الإسلامي، وإنّما يمكن استعمال أعواد أو أحجار أو ورق وأمثال ذلك بحيث يمتنع الغش والخديعة لدى الاختيار..

٥. واضح أنّ في الإسلام لا يمكن تحديد الربح أو الخسارة عن طريق الاقتراع والقرعة، لأنّ هذا الموضوع لا يصل إلى مستوى المشكلة التي لا يتوصّل إلى حلّها إلا بالقرعة، ولا ريب أنّ اتّخاذ أمر القرعة وسيلة للكسب يعدّ أمراً غير مشروع.

٦. القرعة ليست وسيلة مثاليّة لحلّ الخلافات والنزاعات بين الناس، ومعلوم أنّ ثمّ وسائل وطرق أخرى قد رسمت وعيّنت لذلك كما هو الوارد في النصوص الشرعيّة، فلو أنّ إنساناً منحرفاً وطأ خروفاً. مثلاً. ثمّ أطلقه مع الخراف حتّى لم يعد يميّز من بينها، فاللازم هو إجراء القرعة عليها لإخراجه ثمّ الامتناع عن التناول من لحمه، لأنّ ترك جميع الخراف أمر بالغ الضرر جدّاً، لا سيّما لدى القول بتحريم جميع لحومها.. هنا يصحّ اللجوء إلى القرعة..

الآية ٤٥

إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ

عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. في هذه الآية والآيتين التاليتين قد ذكر المسيح عليه السلام باعتباره كلمة من الله.. وهذا ما ورد في الإنجيل أيضاً.

٢. ذكرت علل وأسباب عديدة لهذه التسمية من قبل المفسرين:

النبى الكلمة!

الف: ولادته الاستثنائية المشمولة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾.

ب: أو لعلّه قبل ولادته، كان الله تعالى قد بشر به والدته بكلمات.

ج: أنّ الكلمة يقصد بها في الاصطلاح القرآنيّ - المخلوق - مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جُنُثًا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾.

٣. المقصود بكلمات الله في هذه الآية مخلوقاته، ولما كان المسيح أحد مخلوقات الله الجليلة فقد أطلق عليه هذه التسمية، وهذا الإطلاق يتضمّن الردّ على مدّعي ألوهيته المزعومة.

٤. إطلاق كلمة (المسيح) على عيسى، لأنّه كان يمسح بيده المباركة على أبدان المرضى فيحصل لهم الشفاء بإذن الله، ولأنّ هذه الميزة والبركة كانت مصاحبة له منذ صغره، فقد سمّاه الله بالمسيح حتّى قبل ولادته، أو لعلّ الله قد مسح وأزال عنه كلّ دنس وجعله طاهراً.

٥. صرّح الله في هذه الآية وغيرها بأنّه ابن مريم لردّ ادّعاء ألوهيته المزعومة، إذ من يولد لأم

ويشمل بجميع أطوار ومراحل الحياة في رحم أمه لا يمكن أن يكون إلهاً، ولأن الله منزّه عن التغيّر والتحوّل والتأثر.

الآية ٤٦

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾

قصة نزول هذه الآية

كما سيأتي في سورة (مريم) فإنها قد أشارت . لدفع التهمة عن نفسها حيث حملت وجاءت بولد من غير أب وبأمر الله تعالى . إلى ولدها عيسى عليه السلام، فنطق بلسان فصيح وأعلن عبوديته لله سبحانه، كما أعلن عن نبوته، فأثبت بالإعجاز طهارة رحم والدته القديسة، مؤكداً أنَّ النبي لا يمكن أن يولد من رحم غير طاهر.

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. كلمة (المهد) تعني الموضع الخاص بنوم الطفل والمعدّ لراحته، وللکلمة مفهوم عام يشمل كل ما ورد في المعنى.
٢. ظاهر آيات سورة (مريم) المتعلقة بقصتها وولدها، أنه قد نطق بإذن الله تعالى منذ اليوم الأول لولادته، وهو الفعل غير المتاح لأي وليد كان، وهذا بحد ذاته يجسد معجزة عظيمة.. ولكن التكلم في أواسط العمر والكهولة أمر طبيعي جداً، ويمكن أن يكون ذكر هذين الأمرين معاً للإشارة إلى أنه عليه السلام ينطق في المهد كنطقه في أواسط أو كهولة عمره حيث يبلغ مرحلة الكمال في العمر.. نطقاً بليغاً مفعماً بالحكمة والعلم؛ لا نطقاً كما هو نطق الأطفال..
٣. ويحتمل لقوله سبحانه: ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أنه كان ينطق بالصدق والحق منذ كان طفلاً وصغيراً، وقد استمر في هذا المنطق حتى شبت وصار رجلاً، إذ لم يكف عن الإرشاد ودعوة الناس إلى الحق.. كما لعل الآية تتضمن معنى التنبؤ إلى سيرته في مستقبل العمر.. لا سيما وأننا نعلم بأن عيسى عليه السلام لم يبلغ مرحلة الشيخوخة، بل رفعه الله إليه

وهو في سنّ الثالثة والثلاثين تقريباً، طبقاً للمنقول من الروايات الشريفة..^١
٤. التعبير بالقول: ﴿ومن الصالحين﴾ يفصح عن أنّ الكون من الصالحين أمر من أعظم الشرف الذي قد يكون من نصيب الإنسان في دار الدنيا، ولعلّ اصطلاح الصلاح يشمل ويتضمّن جميع القيم الإنسانية الفدّة..

الآية ٤٧

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ
 اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

تفسير: كيف يكون لي ولد بلا زوج؟!

تستمر قصة مريم عليها السلام في هذه الآية.. فهي حينما سمعت الملائكة تبشّرها
 بإنجابها عيسى عليه السلام قالت التالي: ﴿رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾؟
 نعلم أنّ هذا العالم هو عالم الأسباب.. وهكذا خلق الله الدنيا وقد جعل لوجود كلّ موجود
 جملة أو سلسلة من العوامل والعلل والأسباب.. مثال ذلك: ولادة الولد بحاجة إلى مقاربة
 جنسيّة بين رجل وامرأة وتركيب من النطفة والبويضة، وعليه؛ فليس من العجب أن تذهل مريم
 لدى سماعها هذه البشارة الملائكيّة وأنها ستنجب ولداً بلا أب؛ أي: من دون أن تتزوَّج..
 ولكنّ الله تعالى أنهى ذلك التعجّب والذهول الذي أصابها فقال لها: ﴿كذلك الله يخلق
 ما يشاء﴾.

إنّ نظام عالم الطبيعة برمّته مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى ومحكوم ومنقاد
 لأمره، ومتى ما شاء أن يغيّر هذا النظام كان له ذلك، فخلق موجودات بطريقة غير الطريقة
 المعهودة.

ثمّ ليتمّ الله قوله العزيز في هذا المعنى وليسمو بمريم إلى عظمة المشيئة الربانيّة
 ومطلقيّتها، قال لها: ﴿إذا قضىٰ أمراً فإنّما يقول له كن فيكون﴾.

وبديهي أنّ كلمة (كن) في الحقيقة بيان لإرادة الله القطعيّة وإلّا فإنّه سبحانه غني عن
 استعمال هذه الكلمة، أي أنّه بمجرد إرادته القدسيّة وتعلّقها بشيء ما، لبس هذا الشيء رداء

الوجود وخرج إلى العلن..

جدير بالذكر؛ وفيما يتعلّق بخلقة عيسى عليه السلام وردت كلمة (يخلق) أمّا عن خلقة يحيى عليه السلام فقد وردت كلمة (يفعل) في الآيات السالفة.. ولعلّ التفاوت في العبارة إشارة إلى التفاوت في خلقة هذين النبيين إذ كانت خلقة أحدهما عادية دون خلقة الآخر.. كما ينبغي أن يلاحظ أنّ بداية الآيات هنا تناولت حديث الملائكة لمريم، ولكننا نلاحظ هنا أنّها - مريم - صارت تتكلّم إلى ربّها المتعال وربّها يجيبها.. فكأنّها عليها السلام انجذبت إلى ذات الله المقدّسة فارتفعت الحجب حتّى اتّصلت بمعبودها العظيم الذي هو مبدأ الخلق.. فتحدّثت - بلا واسطة - بما أرادت، وسمعت ما شاء الله لها أن تسمع.. ويشار هنا إلى أن حديث غير الأنبياء مع الله تعالى متى ما تمّ بغير وحي النبوة فإنّه أمر متصوّر ولا إشكال ولا مانع دونه..

الآية ٤٨

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ



النقاط المستفادة من هذه الآية

١. تتممة للصفات الأربع التي بينتها الآيات السالفة للنبي عيسى عليه السلام: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿وردت الإشارة إلى صفتين أخرتين من أوصاف هذا النبي العظيم. وكلّ منهما تشكّل مجموعة من الأوصاف المهمة..

٢. بديهي أنّ الأشخاص الذين يختارهم الله تعالى لقيادة المجتمع البشري، ينبغي أن يكونوا أولاً على درجة من العلم والمعرفة، وأن يأتوا بجملة قواعد وقوانين حيّة، ثم أنّ يحملوا معهم الدلائل والبراهين الواضحة على ارتباطهم وصلتهم بالله سبحانه.. وبهاتين الوسيلتين يتممون ويثبتون مهمّتهم في هداية الناس..

الآية ٤٩

وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِثَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
 أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ
 فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ
 وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ
 فِي بُيُوتِكُمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. في هذه الآية وضمن الإشارة إلى المعاجز العديدة للنبي عيسى المسيح عليه السلام ورد القول: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ على وجه الخصوص..

المسيح وأنبياء أولي العزم

٢. يمكن أن يستفاد. بدءاً. من عبارة ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أنَّ مهمّة النبي المسيح عليه السلام كانت دعوة بني إسرائيل.. الذين تورّطوا في جملة من الخرافات والفساد في الأخلاق والعقائد والاختلافات والتنازع الشديد.. وهذا ما لا يتنافى مع كونه عليه السلام نبياً من الأنبياء أولي العزم، ذلك لأنّ النبي من هذا الطراز هو من يحمل شريعة جديدة وقد توكل إليه مهمة عالمية شاملة أو لا توكل (مع أنّ تفسير نور الثقلين نقل رواية شريفة مفادها أنّ النبي عيسى عليه السلام قد أرسل إلى بني إسرائيل فحسب).^١

٣. روى بعض المفسرين أو المحدّثين مثل العلامة المجلسي في (بحار الأنوار) جملة من

١- نور الثقلين، ج ١، ص ٣٤٣

الأخبار والروايات في تفسير معنى (أولو العزم) فذهبوا إلى أنهم أنبياء لعموم الناس،^١ وطبقاً لهذين الفريقين ينبغي القول بأن دعوة المسيح عليه السلام كانت دعوة عالميّة غير منحصرة في بني إسرائيل.

٤. ذكر التنوين في قوله تعالى: ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بَآيَةً مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يصيّر المعنى إلى أنه كان مكلفاً بالتصريح لبني إسرائيل أنه سيعرض لهم معجزة.. والتنوين هنا يفيد بيان عظمة هذه الآية المعجزة وليس باعتبارها معجزة واحدة فقط.. والآية هنا تتمثل في قوله: ﴿ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفَخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾.

٥. حيث أن دعوة الأنبياء في حقيقتها دعوة إلى الحياة الواقعيّة، فقد وردت الإشارة باديء ذي بدء إلى معجزة عيسى عليه السلام في نفخ وإيجاد الحياة في الموجدات الجامدة بإذن الله تعالى.

٦. أن مسألة نفخ الحياة وإيجادها في الجماد إذا ما حصلت بصورة تدريجيّة فإنّها لا تبعث على العجب، لأننا نعلم أن جميع الموجدات الحيّة الحاليّة قد وجدت من ماء وتراب..
٧. المعجزة هي أنه تعالى يجمع ذات العوامل التي تحصل طيلة آلاف أو ملايين السنين بسرعة فائقة وموضع واحد، فيتبدّل تمثال طير إلى طير حيّ حقيقيّ، وهذا ما يمكن أن يشير إلى صدق دعوى الآتي والفاعل لهذه المعجزة والقائل بصلته بالقدرة المطلقة التي تتصرّف بالموجدات بدءاً واستمراراً..

٨. لا ريب في أن ذكر المعجزة الثانية للنبيّ عيسى عليه السلام في معالجة المصابين بالأمراض العضال وغير القابلة للعلاج بالطرق الطبيعيّة يبيّن موضوع أن معالجة هذه الأمراض ولا سيّما بالنسبة لأطباء ذلك الزمان معجزة غير قابلة للإنكار ﴿ وَأَبْرَأَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ﴾ كما

أن إحياء الموتى أمر معجز في كل زمان ويعدّ من الأمور الخارقة للحالة الطبيعية ﴿ وأحيى الموتى بإذن الله ﴾.

سرّ المعاجز

٩. عرض موضوع الإخبار عن الأسرار الخفية للناس. في المرحلة الرابعة. يوضح حقيقة أن كل فرد. عادة. له أسرار الخاصة في حياته والتي لا يعلمها سواه.. فإن عمد أحدهم. وبلا سابق إنذار. إلى إخباره بما أكل أو بما ادّخر من طعام في بيته بشكل مفصل ودقيق؛ فإن ذلك يعدّ دليلاً على أن هذا المخبر يأخذ عن مصدر غيبي ملهم.. وهكذا قال المسيح عليه السلام لقومه: ﴿ وأنبئكم بما تاكلون وما تدّخرون في بيوتكم ﴾.

١٠. حاول بعض المفسرين مثل مؤلف (تفسير المنار) تحييد أو التقليل من شأن المعاجز التي أثبتتها القرآن بصراحة للنبي عيسى عليه السلام، فقالوا مثلاً: إن عيسى ادّعى أنه قادر على فعل ما ادّعى؛ ولكنّه لم يخرج مدّعه إلى الفعل والواقع أبداً^١، ولكن على فرض هذا الادّعاء من ظاهر هذه الآيات، إلا أن الآية (١١٠) من سورة المائدة تقول: ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير ﴾ فهذا تصريح لا يقبل الإنكار والمناقشة بأنّ إحدى نعم الله تبارك وتعالى على عيسى عليه السلام أنّه مكّنه من صناعة تمثال طير من طين ثم النفخ فيه حتّى تبعث فيه الحياة بإذن الله.. هذا بالإضافة إلى أنّ هكذا إصرار. من جهة هؤلاء المفسرين. أمر لا مبرّر ولا دليل له، لأنّه إن كان المقصود هو إنكار المعاجز والأفعال الاستثنائية التي صدرت عن الأنبياء، فإنّ القرآن المجيد طالما صرّح بمعاجز الأنبياء.. وعلى فرض إمكانية إنكار نموذج أو نموذجين من ذلك؛ فما بال البقية من المعاجز؟! وبعيداً عن ذلك.. فإننا حينما نؤمن بحاكمية الله تعالى المطلقة على القوانين الطبيعية. التي كان هو سبحانه قد وضعها بنفسه. ونؤمن بأنّه غير مقيد

١- تفسير المنار، ج ٣، ص ٣١١.

بها، فما المانع من إرادته في إعمال التغيير فيها بأمره في حالات استثنائية، فيقوم الأنبياء ومن يشاء الله بفعلها؟!!

١١. يمكن أن يرد إشكال قائل بأنَّ تغيير شكل القوانين الطبيعية، مثل إحياء الموتى من قبيل غير الله، أو خلق الطيور ونفخ الروح في طينتها كما ورد في الآية (١١٠) من سورة (المائدة) يخالف عقيدة التوحيد في الأفعال وخالقية الله أو نفي الشريك عنه..

ولكن يجب أن يقال بأنَّ القرآن الكريم قد ردَّ هذا الإشكال بالتأكيد على أنَّ وقوع هذه الحوادث. المعاجز. مشروط دائماً وأبداً بإذن الله تعالى، بمعنى أنه لا أحد لديه القدرة المستقلة عن إرادته سبحانه لدى القيام بالمعاجز والكرامات.. وهذا عين التوحيد وليس فيه شائبة شرك والعياذ بالله تعالى..

١٢. يستفاد من هذه الآية وشبهاتها أنَّ أنبياء الله وأوليائه لهم القدرة على التصرف في تكوين الخليقة بإذن الله وأمره حين اللزوم وخلافاً للحالة الطبيعية، ذلك لأنَّ كلمة (أبرئ) و (أحيي الموتى) وأمثال ذلك وردت بصيغة فعل المتكلم، وهي دليل على صدور مثل هذه الأفعال من الأنبياء أنفسهم، وتفسير هذه العبارات باعتبارها دعاءً من الأنبياء وليست فعلاً حقيقياً تفسير بلا دليل.. بل إنَّ ظاهر هذه العبارات يؤكِّد أنهم قد تصرفوا في عالم التكوين حقاً حقاً فأوجدوا هذه الحوادث.

١٣. ممَّا تقدَّم من قول تتضح الإجابة والردُّ على منكري الولاية التكوينية لرجال الله تعالى والذين عدّوا ذلك نوع شرك، ذلك لأنَّه لا أحد يذهب إلى أنَّ نبيّاً أو إماماً له قدرة مستقلة في مقابل الله تعالى، وإنَّما هؤلاء يفعلون ما يفعلون بإذن الله وأمره.. ولعلَّ السبب في إيراد كلمة (بإذن الله) هو لدرء احتمال أي شرك وازدواجية العبادة في الخلقة، كما ورد مرتين في الآية محظ البحث وفي الآية (١١٠) من سورة (المائدة) أربع مرّات كلمة (بإذني) رغم أنَّ منكري الولاية التكوينية يقولون إنَّ مهمّة الأنبياء منحصره في الدعوة إلى الله والتبليغ لشرعه، ورفع الأيدي

بالدعاء تارة لبعض الأمور التكوينية، وإلا فإنهم عاجزون عن فعل يتعدى ذلك، والحال أن الآية أعلاه ومثيلاتها تقول وتؤدي إلى غير ذلك.

١٤. يعلم من الآية أعلاه أن كثيراً من المعاجز قد جرت بأيدي الأنبياء أنفسهم رغم أن الأصل الذي يعود إليه العجز هو إرادة الله وإذنه وتوفيقه المباشر ومدده، وهكذا يمكن القول بأن المعجزة هي فعل الأنبياء (لأنها تتم بواسطتهم) وكذلك هي فعل الله عز وجل، لأن الأنبياء والأئمة لا يقومون بمعجزة إلا بالاستعانة بالله سبحانه وإذنه.

١٥. الاعتماد على إذن الله تكرر في هذه الآية لسد الباب بوجه تبريرات مدعي الوهية المسيح، وأن لا يعدّه البعض رباً.. أما عدم التكرار في إخبار عيسى بالغيب فلوضوح الأمر وعدم وجود من يبرز ألوهيته لمجرد إخباره بالغيب..

الآية ٥٠

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ
بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا



النقاط المستفادة من هذه الآية

١. يبيّن النبيّ عيسى عليه السلام شيئاً من أهداف بعثته، قال: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ وتثبيت مبانيها وأصولها.
٢. إعلان النبيّ عيسى عليه السلام عن أنّه قد جاء ليحلّ بعض المحرّمات على بني إسرائيل بداعي ظلمهم وذنوبهم، إشارة إلى ما كان قد منع عليهم، مثل لحم البعير وبعض شحوم الحيوانات وبعض الطيور والأسماك، كما ورد في الآية (١٦٠) من سورة (النساء): ﴿ فَبُظْلِمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَهُمْ ﴾ فأزيلت تلك الممنوعات بظهور النبيّ عيسى عليه السلام فكان ذلك التحليل يوجب شكراً وإيماناً به من جانب بني إسرائيل..

الآية ٥١

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. في هذه الآية ولدفع كل إبهام وشبهة، ولكي لا تكون ولادة عيسى عليه السلام الاستثنائية باعثاً للاعتقاد بألوهيته، فقد نقل القرآن عن قوله عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

عيسى نبي لا ابن الله

٢. نقرأ في القرآن المجيد مكرراً أنَّ النبيَّ المسيح عليه السلام طالما اعتمد مسألة عبوديته وعبادته لله تعالى، وهذا ما يخالف ما ورد في الإنجيل المحرّف الذي نقل فيه عن عيسى القول بأن الله أبوه الذي في السماء، ولكنّ القرآن أكّد على لسان عيسى بأنّ الله ربّه وربّ الجميع وليس أباه، وهذا أنصع وأوضح دليل على مدى اهتمام القرآن وجدّيته في الصراع مع الشرك، وكذلك هو ردّ صريح على ادّعاء ألوهية المسيح عليه السلام.

٣. طبقاً لاعتراف المحقّقين النصارى، فإنّ أحداً لم يجرؤ على ادّعاء القول بأنّ المسيح هو الربّ أو كونه أحد الآلهة، بل إنّ تعاليم النبيّ عيسى عليه السلام وآثار هذه التعاليم فيما يتعلّق بالتوحيد لم تسمح للمنحرفين وحسب بعد مرور قرنين من الزمان بإدخال عقائد الشرك في الديانة النصرانية، علماً أنّ مسألة التثليث والاعتقاد بالآلهة الثلاثة قد ابتدعت في القرن الميلادي الثالث.

الآية ٥٢

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ
الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ
أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. طبقاً لتنبؤ النبي موسى عليه السلام وبشارته؛ كان اليهود ينتظرون ظهور النبي المسيح عليه السلام، ولكنّه حينما ظهر ورأوا فيه تعرّض مصالح بعضهم للخطر لم يلتفت حول المسيح منهم إلا القلة القليلة، وتخلّفت عنه الأكثرية لإيمانهم بتعرّض مصالحهم للخطر.. مضافاً إلى المعروف عنهم سلفاً من انحراف واعوجاج.
٢. حينما شعر عيسى عليه السلام كفرهم ومخالفتهم له ﴿ قال من أنصاري إلى الله ﴾ فلم يجبه إلا ثلّة بسيطة، وهم الأفراد الطاهرون الذين سمّاهم الله تعالى بالحواريين.

الحواريون الأنصار

٣. الخواريون جمع حواريّ، من مادّة الحور بمعنى الغسل والتبويض، وتارة تطلق الكلمة على كلّ شيء أبيض، ولذا؛ تسمّي العرب الأطعمة البيضاء حواري، أمّا الحور العين في الجنة؛ فقد سمّيت بذلك لأنهنّ بيضاوات البشرة، أو لسعة بياض عيونهنّ ولسانهنّ (وسواد عيونهنّ فيه مطلق السواد).

٤. يجب أن نعلم بأنّ الحواريين لدى إجابة النبي عيسى عليه السلام لم يقولوا بأنهم أنصاره، بل إنهم أفصحوا عن منتهى وغاية توحيدهم وإخلاصهم، وكان خطابهم نزيهاً عن رائحة الشرك، فقالوا: نحن أنصار الله وقد آمنا بالله ونشهدك على هذه الحقيقة.. وكأنّهم بذلك

قد شعروا بأنّ المستقبل سيشهد انحرافاً عميقاً عن هذه الديانة وأنّ أفراداً سيّدعون ألوهيّة المسيح عليه السلام ولا بدّ من عدم الاستسلام لمّدعاهم.

٥. أمّا السبب في تسمية تلامذة المسيح عليه السلام بهذا الاسم، فهناك احتمالات عدّة، ولكنّ الأقرب إلى الذهن قد ورد في روايات المعصومين عليهم السلام أنّهم وفضلاً عن طهارة قلوبهم وأرواحهم، فإنّهم كانوا يحرصون كلّ الحرص على تطهير قلوب الناس من لوث الشرك ودرن المعصية.

٦. روي في كتاب (عيون أخبار الرضا) عنه عليه السلام أنّه سئل عن سبب تسمية أصحاب وتلامذة عيسى بالحواريّين، فقال الإمام عليه السلام: من الناس من يحسب أنّهم كانوا يشتغلون في غسل ثياب الناس، ولكنّنا نعرف أنّهم قد طهّروا قلوبهم من درن الذنوب وكانوا يسعون في تطهير الآخرين.^١

٧. تحدّث القرآن المجيد في الآية (١٤) من سورة (الصفّ) عن الحواريّين وأشار إلى إيمانهم، ولكنّ العبارات التي استعملها الإنجيل المتوقّرة بخصوص الحواريّين تفيد بأنّهم قد انحرفوا في تصوّرهم عن المسيح عليه السلام..

وقد وردت أسماء الحواريّين في إنجيل متى ولوقا في الباب السادس كالتالي: ١. بطرس ٢. اندرياس ٣. يعقوب ٤. يوحنا ٥. فيلوس ٦. برتولولما ٧. توما ٨. متى ٩. يعقوب بن حلفا ١٠. شمعون الملقّب بالغيور ١١. يهوذا أخو يعقوب ١٢. يهوذا الاسخريوطي؛ الذي خان بالمسيح عليه السلام. ٨. نقل المفسّر المعروف المرحوم الطبرسي في (مجمع البيان) أنّ الحواريّين كانوا يتنقلون ويسافرون مع النبيّ عيسى عليه السلام، وكانوا متى ما عطشوا أو جاعوا تنزّل عليهم الشراب والطعام، فكانوا يتفاخرون بذلك ويقولون لعيسى عليه السلام: هل هناك أرقى وأسمى منّا؟

١- عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٧٩

فِي جَيْبِهِمْ قَائِلًا: بَلَى، أَفْضَلُ مِنْكُمْ مَنْ يَعْمَلُ بِيَدِهِ وَيَأْكُلُ مِنْ كَسْبِهِ.. فَرَاخُوا يَعْمَلُونَ فِي غَسْلِ
الْمَلَابِسِ وَتَحْصِيلِ الْكَسْبِ (وَقَدْ عَلَّمُوا النَّاسَ دَرْسًا أَنَّ الْعَمَلَ وَالْكَسْبَ لَيْسَ عَيْبًا أَوْ عَارًا).^١
٩. اسْتَعْمَالَ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ فِي الْآيَةِ أَعْلَاهُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ دِينُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ
السَّلَامُ.

الآية ٥٣

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ

الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. في هذه الآية نقلت عبارات تبين مدى إخلاص الحواريين، فهم .بعد قبول دعوة المسيح عليه السلام وإعلانهم الاستعداد لنصرته . أعربوا عن إيمانهم بالله وبما أنزل من تعاليم، وعن اتّباعهم للرسول الذي بعث، داعين أن يكتبهم في زمرة المشاهدين ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

٢. بناءً على هذه الآية الكريمة، فقد كشف الحواريون عن إيمانهم بما أنزل الله تعالى.. وحيث كان الإيمان غير كاف لوحده، فقد أتبعوا ذلك بمسألة العمل بالتعاليم السماوية واتباعهم للنبي عيسى عليه السلام باعتبار أن العمل بالتعاليم شاهد حي على الإيمان والإخلاص.. لأن الإيمان إذا ما رسخ في روح الإنسان ووجدانه ظهر على هيئة التزام وعمل، أما إذا تجرّد الإيمان عن العمل، أو لم يكن العمل بمستوى الإيمان، كان الأخير مجرد حالة نظرية. ثم إنهم طلبوا من الله تعالى أن يكتبهم في عداد الشاهدين، وهم قادة البشر المعصومين في هذا العالم، مضافاً إلى ما سيحظون به من المقام المحمود، وهو مقام الشفاعة والشهادة والحجّة على الأعمال في يوم القيامة.

الآية ٥٤

وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. المكر في لغة العرب هو التخطيط والبحث عن طريق للحل، وهو أشمل من أن يكون حكرًا على التخطيط السيئ (التأمر) أو التخطيط الصالح، فهو تارة يكون ذا نتائج سلبية أو إيجابية..

٢. ذكر المكر في القرآن المجيد مقرونًا بكلمة الخير ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ كما ذكر مقرونًا بكلمة السوء ﴿ وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾.

٣. لا ريب أن مكر الله وتخطيطه وتقديره يفوق مكر المخلوقين، لقلة معلوماتهم ومحدوديتها؛ فيما العلم الإلهي محيط بكل شيء.. فإذا أراد الناس تحقيق وتنفيذ مخططاتهم استعانوا بقدراتهم ومعلوماتهم المحدودة والناقصة أو الخاطئة، في حين أن قدرة الله تعالى لا حدود لها..

معنى المكر الإلهي

٤. سؤال: ما المقصود من المكر الإلهي؟

طبقاً للمقصود من هذه الآية والآيات العديدة الأخرى التي نسبت المكر إلى الله سبحانه، فإن أعداء المسيح عليه السلام وبمخططاتهم الشيطانية أرادوا منع هذه الدعوة الإلهية، ولكن الله بحفظه حياة نبيه وإنجازه دينه خطط ونفذ جملة أمور أدت في النهاية إلى إفشال تلك المخططات الشيطانية.. ويسري الأمر هذا إلى موارد عديدة أخرى..

الآية ٥٥

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ
فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

المسيح حي لم يموت

١. المعروف لدى مفسري الإسلام وبالأستناد إلى الآية (١٥٧) من سورة (النساء) فإن النبي المسيح عليه السلام لم يقتل أبداً (وقد نجا من مؤامرات اليهود وأعوانهم من خونة النصارى) فرفعه الله تعالى إلى السماء.

٢. مع أن النصارى يدعون -استناداً إلى الأناجيل الموجودة- مقتل المسيح ثم دفنه ثم قيامه من بين الموتى، وأنه بقي لفترة قصيرة في الأرض ثم صعد به إلى السماء، فإن هذه الآية تؤكد بقاء عيسى عليه السلام على قيد الحياة: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ..﴾. ٣. (توفى) على وزن ترقى، من مادة وفي بمعنى تكميل الشيء، وأن يقال للعمل بالعهد وفاءً لتكميله والبلوغ به إلى التنفيذ والالتزام، وكذلك إذا استوفى أحد ماله من مال في ذمة آخر بشكل تام؛ قيل: توفى دينه، أي: أخذ واسترجع دينه بشكل كامل.

٤. يتصور البعض أن مفردة (متوفيك) مأخوذة من مادة الوفاة وهي الموت، ولذلك يظنون المنافاة بين العقيدة المعروفة بين المسلمين في عدم موت المسيح عليه السلام وبين القول ببقائه على قيد الحياة، في حين أن الأمر خلاف ذلك.. لأن مادة الفوت بمعنى الفقد للشيء.

٥. استعمل القرآن كلمة (توفى) بشكل مكرّر بمعنى الأخذ والاستيفاء ﴿ وهو الذي يتوفاكم في الليل والنهار ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ وهنا؛ استعملت حالة النوم بمعنى استيفاء الروح.. وهذا المعنى جارٍ في الآية (٤٢) من سورة (الزمر) وآيات قرآنية أخرى.

٦. صحيح أنّ مفردة (توفى) تستعمل بمعنى الموت أيضاً، وأنّ المتوفى هو الميت، ولكنها حتّى في هذا المورد لا تستعمل على سبيل الحقيقة، وإنّ مادّة الفوت بعيدة عن مادّة (وفي) بشكل عام.. ومما تقدّم، يكون معنى الآية محطّ التفسير واضحاً في أنّه سبحانه يقول: يا عيسى! إنّني آخذك ورافعك إليّ (وطبعاً إذا كانت كلمة (توفى) بمعنى أخذ الروح فقط، فإنّها تستلزم موت الجسم أيضاً).

٧. المقصود من قوله تعالى: ﴿ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ أنّ التطهير بمعنى التطهير من درن الكفّار أو التخليص من براثن غير المؤمنين وسطوتهم، أو من التهم الباطلة والمؤامرات الجبّانة.. وهذا كلّ قد حصل وتمّ تحت مظلة انتصار عقيدته ودينه.. كما يمكن أن يكون المقصود هو إخراج المسيح عليه السلام من الأجواء الملوّثة بالكفر التي كانت محيطة به، كما نقرأ فيما يتعلّق بنبيّ الإسلام صلّى الله عليه وآله: ﴿ إنّنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ﴾ أي: الذنوب التي نسبها الكفّار إليك زوراً وبهتاناً، كما أنّه تعالى سيخلّص نبيّه من الأجواء الملبّدة التي اصطنعها الكفّار بمؤامراتهم ومكائدهم ضدّه صلّى الله عليه وآله..

٨. هذه الآية من الآيات الإعجازيّة ومن جملة الإخبارات الغيبيّة الواردة في القرآن، حيث تؤكّد بأنّ أتباع المسيح عليه السلام سيرجحون على اليهود المعارضين له دوماً: ﴿ وجاعل الذين اتّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾.

٩. في عالمنا المعاصر نلمس هذه الحقيقة بصورة تامّة، وهي أنّ اليهود والصهاينة لا يستطيعون الصمود يوماً واحداً دون الاتّكاء على دعم النصارى، إذ ستسقط. دون هذا الدعم

الهائل . حياتهم وكيانهم السياسي والاجتماعي . فيكون من الواضح أنّ المقصود من ﴿ الذين كفروا ﴾ هم جماعة اليهود الذين كفروا بالمسيح عليه السلام ورسالته المبشرة بنبي الإسلام صَلَّى الله عليه وآله .

١٠. سؤال: ترى هل ستبقى الديانة النصرانية . وإن كانت لا تعبر عما جاء به عيسى عليه السلام . إلى نهاية العالم وبدء يوم القيامة ؟ وهل ستواصل الديانة اليهودية والنصرانية حياتهما إلى ذلك التاريخ ؟

مما يفهم من الأخبار والروايات الخاصة بظهور الإمام المهدي الموعود عجل الله تعالى فرجه الشريف أنّ جميع الأديان والمذاهب ستخضع لسلطته ونفوذه لدى الظهور الشريف،^١ ذلك لأنّ الروايات المتعلقة بدولة أهل البيت عليهم السلام تشير إلى أنّ عقيدة التوحيد (الإسلام) سوف لن تبقى بيتاً أو مدينة أو بلداً إلّا ونفذت إليه، وهذا يعني أنّ الديانة الإسلامية ستحكم العالم باعتبارها الديانة الرسمية، ولن تبقى سلطة لأيّ ديانة أخرى.. ولكن ذلك لا يمنع من أن تبقى أقلية يهودية أو نصرانية تخضع لحماية الحكومة المهدوية ضمن شروط أهل الذمة المعروفة.

١١. نحن نعلم بأنّ الإمام الحجة عجل الله ظهوره الشريف لن يجبر الناس على اعتناق الإسلام، وإنّما الناس سيقبلون على الديانة المحمدية الحقّة حين يرون المنطق والعدالة المهدوية، أمّا استعماله القوة العسكرية؛ فإنّما لبسط العدالة وإسقاط حكومات الجور والاستكبار وإخضاعها لراية العدل الإسلامي وليس للإجبار على اعتناق الإسلام، وإلّا فإنّ الحرية والاختيار لن يكون لهما مفهوماً..

١ - راجع: الكافي، ج ١، ص ٤٣٢

الآية ٥٦

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. في هذه الآية؛ فضلاً عن العذاب الأخروي الذي هو نتيجة الحكم الإلهي في يوم القيامة، فقد أُشير إلى العذاب الدنيوي أيضاً، حيث سيحقيق بالكافرين ومخالفي الحق والعدالة، هذا في الوقت الذي يعجز الجميع عن نصرهم وحمايتهم من حكم الله عز وجل.
٢. أن تقديم مصير الكافرين في هذه الآية على مصير المؤمنين الذي سيرد في الآية التالية يأتي بداعي أن الذين كفروا بالمسيح عليه السلام هم الأكثرية..
٣. إذ أُشير إلى العذاب الدنيوي في هذه الآية، يعني أن المقصود بالكافرين بعبسى عليه السلام (هم اليهود في هذه الآية) حيث سيتعرضون للعذاب والعقاب الأليم في هذا العالم.. وتاريخ الشعب اليهودي شاهد على هذا المدعى.

الآية ٥٧

وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. أن ورد في الآية السالفة الحديث عن الكفر ومصير الكافرين الدنيوي والأخروي فحسب، ثم يرد هاهنا الحديث عن الإيمان والعمل الصالح معاً، ففيه الإشارة إلى أن مجرد الكفر له أن يتسبب بالعذاب الإلهي، إلا أن الإيمان لا يكفي - لوحده - للنجاة؛ وإنما لابد أن يقرن بالعمل الصالح.

٢. قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ كأنه ناظر إلى أن جميع شعب الكفر وأعمال السوء يوجزان في الظلم بمعناه الواسع والشامل، ومعلوم أن الله الذي لا يحب الظالمين لن يظلم عباده، وكذلك هو يوفّيهم أجورهم كاملة غير منقوصة؛ بل ويزيدهم من فضله ورحمته..

الآية ٥٨

 ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية خطاب موجه إلى شخص الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.
٢. ورد بيان حقيقة سيرة النبيِّ المسيح عليه السلام في القرآن بعيداً عن الخرافات والأباطيل، في حين عمد الآخرون. وللأسف. إلى تلويث سيرة هذا النبيِّ الجليل بأشكال وأنواع الأساطير والأكاذيب والبدع ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾.

الآية ٥٩

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ
ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾

قصة نزول الآية

كما تقدّم مفصّلاً في بداية تفسير هذه السورة؛ فإنّ عدداً غير قليل من آيات هذه السورة كان عبارة عن ردٍّ على أقاويل نصارى نجران، وذلك أنّهم قدموا المدينة بوفد يتشكّل من ستّين شخصاً ومعهم كبار شخصيّاتهم للتباحث مع الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله.. ومن جملة المسائل التي طرحت في تلكم الحوارات أنّهم سألوا النبيّ صلّى الله عليه وآله قائلين: لأيّ أمر تدعوننا؟ فقال صلوات الله عليه وآله: أدعوكم إلى الله الواحد الأحد وأنّني رسول منه، وأنّني أخبركم عنه سبحانه وكيف خلق المسيح، وأنّه عبد من عباد الله، وأنّه كان كسائر البشر يأكل الطعام.. ولكنّ نصارى نجران لم يقبلوا كلام الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله وأصروا على القول بأنّ المسيح الذي ولد من غير أب شاهد بنفسه على كونه إلهاً.. فنزلت هذه الآيات، وكانت ردّاً وإجابة على دعاويهم.. وحيث لم يقبلوا الردّ القرآني بهذا الصدد، دعاهم القرآن على لسان الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله إلى المباهلة.. وسيأتي شرح هذه الدعوة لاحقاً.^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية والآيات التي تليها ناظرة إلى القائلين بأنّ ولادة المسيح عليه السلام بلا أب

دليل على كونه ابن الله أو أنه هو الألهة..

المسيح عبد مخلوق

٢. بالاستدلال الموجز والواضح الوارد من قبله سبحانه وتعالى وأن مثل عيسى عند الله كمثال آدم قد خلقه من التراب.. ورد الردّ على دعوى النصارى.. وهو يعني أن المسيح إذا كان قد ولد من غير أب، فإن أمره ليس بالعجيب، ولا يعدّ دليلاً على كونه ابن الله أو أنه هو الله بعينه، لأنّ قضية خلق آدم عليه السلام كانت أكثر عجباً من خلقه عيسى عليه السلام، إذ وُلد أبو البشر من غير أب وأمّ معاً.. ثم إنّ الآية تعتمد إلى إلفات نظر وقلوب الغافلين إلى أنّ كلّ فعل وكلّ شيء يكفي لله أن يقول له كن فيكون، فهو سبحانه لا يعجزه أمر ولا يعيق إرادته عائق ﴿إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

٣. إنّ قضية الصعوبة والسهولة أمر خاصّ بالمخلوقين تبعاً لقدراتهم وإمكاناتهم المحدودة، أما بالنسبة لذي القدرة المطلقة اللامتناهية؛ فلا مفهوم لتقسيم أشكال ومراحل الأفعال لديه.. إذ خلق ورقة بسيطة صغيرة لا يختلف لديه مع خلق غابة تمتدّ إلى آلاف وملايين الأمتار، كما لا يختلف لديه خلق ذرّة وخلق مجرّة..

٤. من هنا ندعوا المخالفين - الذين كانوا قد آمنوا بأنّ آدم مخلوق الله تعالى - إلى القبول ببشريّة عيسى، رغم أنّ آدم قد خلق من دون أب وأمّ..

٥. أنّ الاستناد إلى التاريخ والتجارب الماضية وعرض النماذج السالفة والأمثلة العينية يعدّ أفضل سبيل إلى الدعوة والإقناع..

الآية ٦٠

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية تأكيد على ما مرّ في الآيات السالفة من هذه السورة المباركة، إذ توضح بأنّ ما يُتلى من قصّة المسيح عليه السلام وكيفية ولادته ومقامه هو الحقّ من منزل القرآن، ولأنّه حقّ فلا تكن. أيّها المؤمن. من الشاكّين المتردّدين ﴿الحقّ من ربّك﴾.

٢. أنّ الثبات والحقانيّة غير متوقّرين إلّا في كلام الله وسبيله وقانونه ﴿الحقّ من ربّك﴾ سبحانه وتعالى.

٣. وضع المفسّرون لقوله تبارك اسمه: ﴿الحقّ من ربّك﴾ احتمالين:

الف: حيث العبارة مركّبة من مبتدأ وخبر (الحقّ مبتدأ، ومن ربّك خبر) فيكون المعنى: أنّ الحقّ من الله دوماً، لأنّ الحقّ يعني الواقع، والواقع عين الوجود، والوجود كلّه عائد ويفيض عنه سبحانه، فيما الباطل عدم، والعدم غريب بعيد عن ذاته المباركة المتعالية.

ب: أو تكون العبارة المشار إليها خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: تلك الأخبار، أي: أنّ ما يتلى عليك يارسول الله حقائق كلّها تنزل من جهة الله تعالى. والمعنيان والاحتمالان يناسبان سياق الآية.

٣. كلمة (الممترين) من المرية بمعنى الشكّ والترديد، ومثل هذه الآية؛ الآية (١٣٧) من سورة (البقرة)، وبهذه الآية يتّضح ويتأكّد بأنّ الحديث الحقّ والثابت لا يصدر إلّا عنه سبحانه وتعالى الذي هو الحقّ والثابت أصلاً، وإلّا فإنّه لا يتوقّع صدوره عن البشر المعرّضين لعواصف وأعاصير الرغبات والغرائز..

٤. لا ينبغي أن نسمح لكثرة المخالفين ولمساعيهم وثرواتهم وإعلامهم بالتأثير في إيماننا وعقائدنا: ﴿فلا تكن من الممترين﴾.

الآية ٦١

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ
أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ
ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾

شأن نزول هذه الآية

قالوا إنّ هذه الآية والآيات السابقة عليها تتعلق بالمباهلة مع النصارى الذين قدموا من منطقة نجران وكان يتقدمهم اثنان من كبارهم وهما: عاقب وسيّد فنزلت هذه الآيات في هذه الحادثة العظيمة.. إذ قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا: هل رأيت ولدًا قد ولد من غير أب؟ فنزل قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ...﴾ ﴿٦١﴾ وحينما دعاهم النبي إلى المباهلة، طلبوا منه المهلة إلى غد.. وحينما رجعوا إلى عظماء نجران، قال لهم الأسقف (كبيرهم الديني): انظروا إلى محمد غداً، فإن جاء بأولاده وأهل بيته للمباهلة؛ فاشعروا بمباهلته، وإن جاء مع أصحابه فبأهلوه واعلموا أنّه ليس على شيء..

حينما حلّ الغد، قدم رسول الله صلوات الله عليه وآله وقد أخذ بيد علي بن أبي طالب عليه السلام يتقدمهما الحسنان عليهما السلام، فيما كانت الصديقة الزهراء عليها السلام تمشي خلفهم.. [أو تتوسطهم] فتقدم النصارى فيما كان الأسقف يتبعهم، وحين نظر؛ رأى النبي وقد جاء بأهل بيته فحسب، سأل عنهم، فقليل له: هذا ابن عمّه وأحبّ الخلق إليه، وهذان ولداه من ابنته وابن عمه، أمّا السيّد التي معهم فهي ابنته فاطمة؛ وهي أعز الناس لديه وأقربهم إلى قلبه..

فقال السيّد للأسقف: تقدّم للمباهلة.

فقال الأسقف: لا أتقدم، وإني أرى رجلاً قد تجرّأ على المباهلة بلا وجل وأخشى أن يكون محققاً صادقاً، والله إن كان محققاً صادقاً فإنه لن يمضي علينا عام حتى لا يبقى نصراني على وجه الأرض يشرب الماء.

وجاء في رواية أخرى:

قال الأسقف للنصارى: إني أرى وجوهاً لو طلبت من الله أن يزيل الجبال لأزالها لأجلهم، فلا تباهلوه أبداً لئلا تهلكوا ولا يبقى نصراني على وجه الأرض إلى يوم القيامة.

ثم إن الأسقف قال للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله: نحن لا نباهلك على أن تصالحنا، فصالحهم رسول الله صلوات الله عليه وآله على ألفي حلة (قطعة قماش فاخرة) وكانت قيمة كل حلة أربعين درهماً، وعلى أن يعيروا المسلمين ثلاثين درعاً وثلاثين رأس رمح وثلاثين من الخيل، وقد ضمن النبي صلى الله عليه وآله هذه العواري حتى تعاد إليهم وكتب معهم كتاباً بمثابة العهد بين الطرفين..^١ هذا والحال أن اليمن كانت تشهد حياكة مؤامرة ضد المسلمين..

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. نزل في هذه الآية الأمر إلى النبي صلى الله عليه وآله بعدم الاستمرار في مجادلة القائلين بالوهية عيسى عليه السلام بعد الاستدلال لهم بالأدلة الواضحة والقاطعة وتحديدهم بمقترح المباهلة وأن يأتوا بأولادهم ونسائهم وأن يأتي النبي بأبنائه ونسائه ونفسه، فيدعو الطرفان ليفتضح الكاذب..

٢. رغم عدم ورود التصريح بنتيجة وتأثير المباهلة، إلا أن هذه العملية باعتبارها السلاح الأخير، وبعد عدم تأثير المنطق والاستدلال لدى الحوار، فإن الهدف من المباهلة ظهور الأثر الخارجي للعن والملاعنة، وأنه ليس مجرد لعن بسيط وبلا هدف.. ولم يكن الهدف منها.

بطبيعة الحال . جمع الأفراد والتلاعن فيما بينهم ثم التفرّق عن بعضهم.. لأنّ هذا العمل لوحده غير ذي فائدة.. بل كان المقصود منه هو اللّعن المؤثّر، وباتّضاح تأثيره.. يتورّط الكاذبون بالعذاب ويفتضحون..

٣. لا ريب أنّ خوض هكذا ساحة أمر خطير جدّاً، فما لم يستجب دعاء المباهل ولم يتّضح أمر العقوبة على المخالفين المعاندين، فإنّه لن يعود عليه بغير الفضيحة.. ترى كيف يمكن لمُدّعي الارتباط التامّ والمطلق بالربّ وهو لا يؤمن بحتميّة إجابة دعائه أن يخوض هذا التحديّ، وأن يدعو مخالف في دعوته إلى التلاعن والطلب من الله تعالى أن يفضح الكاذب، وأن يعهد إليهم أنّهم سرعان ما سيرون نتيجة خلافهم وعنادهم، وأنّه عزّ وجلّ سيعاقب الكاذب؟ وكيف يمكن لعقل ناضج أن يضع قدمه في ساحة التحديّ دون أن يكون مطمئناً سلفاً للنتيجة؟ من هنا قالوا إنّ الدعوة النبويّة للمباهلة من الدلائل على صدق النبيّ وإيمانه القاطع؛ بغضّ النظر عن النتائج التي ستحصل بعد وقوع المباهلة.

المباهلة والكشف عن منازل أهل البيت عليهم السلام

٤. المباهلة وثيقة حيّة تؤكّد عظمة أهل البيت عليهم السلام، وذلك أنّ أكثر المفسّرين والمحدّثين الشيعة وغيرهم قد صرّحوا بأنّ آية المباهلة قد نزلت بحقّ أهل بيت النبيّ صلوات الله عليه وعليهم أجمعين وأنّ النبيّ لم يصطحب معه إلى موضع المباهلة إلّا ولديه الحسين عليهما السلام وابنته الصديقة الزهراء سلام الله عليها ونفسه المتمثلة بعليّ عليه السلام، وعليه؛ يكون المقصود من (أبنائنا) في الآية الكريمة منحصرّاً في الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، كما أن المقصود من (نسائنا) منحصرّاً في الزهراء فاطمة عليها السلام، والمقصود من (أنفسنا) منحصرّاً في أمير المؤمنين عليه السلام، وقد نقلت روايات كثيرة جدّاً بهذا الصدد.

٥. رغم أنّ بعض مفسّري المخالفين . وهم القلّة القليلة . سعوا إلى إنكار ورود أخبار وروايات

في موضوع المباهلة وأنها خاصة بأهل البيت عليهم السلام وفضلهم، كقول صاحب تفسير (المنار) في ذيل هذه الآية بأن هذه الروايات وردت جميعاً من طرق الشيعة^١ والهدف من مساعي هذا المفسر وأضرابه واضح معلوم، حتى أنهم أوقعوا العديد من علماء المخالفين في شبهة... ولكن عملية مراجعة للمصادر الأصلية للمخالفين توضح أنه على الرغم من كلّ النصب والعداوة والتعصب. كما هي لدى صاحب (المنار) فإنّ العديد من طرق تلك الروايات لا تنتهي بالشيعة وكتب الشيعة أبداً، ولو تقرّر إنكار ورود هذه النصوص عن طرق المخالفين، فإنّ جملة ما رووا وجملة كتبهم ستسقط عن الاعتبار.

٦. لإيضاح هذه الحقيقة، عمد الشهيد قاضي نور الله الشوشتري في كتابه (إحقاق الحق) المجلد الثالث، الصفحة (٤٦) من الطبعة الحديثة إلى ذكر قسم من روايات المخالفين في هذا الباب مع مصادرها، فقال: اتفق المفسرون على أنّ كلمة (أبناءنا) أريد بها الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام، وأنّ المراد من كلمة (نساءنا) فاطمة الزهراء عليها السلام، وأنّ المقصود من كلمة (أنفسنا) هو عليّ عليه السلام، كما ذكر الشوشتري في هوامش كتابه المذكور حوالي (٦٠٠) من علماء المخالفين ممن صرحوا بأنّ آية المباهلة قد نزلت في فضل أهل البيت عليهم السلام، كما ذكر أسماءهم وصفاتهم كتبهم من الصفحة (٤٦) إلى (٧٦) من كتابه الشريف.

ومن جملة الأشخاص المبرزين الذين نقل عنهم القول في هذا الموضوع:

* مسلم بن الحجاج النيشابوري صاحب كتاب (الصحيح) المعروف، وهو من الصحاح الستة المعتمدة عند المخالفين، ذكر ذلك في المجلد السابع؛ الصفحة (١٢٠). طبعة محمد علي صبيح - مصر.

- * أحمد بن حنبل في كتابه (المسند) ج ١، ص ١٨٥، ج ٣، ص ١٩٢، ط الميمنة، مصر.
- * الحاكم في كتابه (المستدرک) ج ٣، ص ١٥٠، ط حيدر آباد، الدکن.
- * الفخر الرازي في تفسيره المعروف: ج ٨، ص ٨٥، ط البهية، مصر.
- * الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في كتابه (دلائل النبوة) ص ٢٩٧، ط حيدر آباد.
- * الواحدي النيشابوري في كتابه (أسباب النزول) ص ٧٤ الهندي، مصر.
- * ابن الأثير في كتاب (جامع الأصول) ج ٩، ص ٤٧٠ ط السنة المحمدية، مصر.
- * ابن الجوزي في (تذكرة الخواص) ص ١٧، ط النجف.
- * القاضي البيضاوي في تفسيره ج ٢، ص ٢٢ ط المصطفى محمد، مصر.
- * الألوسي في تفسير (روح المعاني) ج ٣، ص ١٦٧، ط المنيرية، مصر.
- * الطنطاوي؛ المفسر المعروف في تفسير (الجواهر) ج ٢، ص ١٢٠ ط المصطفى البابي الحلبي، مصر.
- * الزمخشري في تفسير (الكشاف) ج ١، ص ١٩٣ ط المصطفى محمد، مصر.
- * الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني في كتابه (الإصابة) ج ٢، ص ٥٠٣، ط المصطفى محمد، مصر.
- * ابن الصبّاغ في كتاب (الفصول المهمة) ص ١٠٨ ط النجف.
- * العلامة القرطبي في تفسير (الجامع لأحكام القرآن) ج ٣، ص ١٠٤، ط مصر، سنة ١٩٣٦.
٧. نقل في كتاب (غاية المرام) عن (صحيح مسلم) في باب فضائل عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّ معاوية قال لسعد بن أبي وقاص ذات يوم:
- لَمْ لَا تَلْعَنُ وَتَسَبُّ أَبَا تَرَابٍ. وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ؟ فَقَالَ سَعْدٌ: صَرَفْتُ النَّظَرَ عَمَّا تَرِيدُ مِنْذُ أَنْ تَذَكَّرْتُ قَوْلَ النَّبِيِّ فِي عَلِيٍّ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ، إِحْدَاهَا حِينَ نَزَلَتْ آيَةُ الْمَبَاهِلَةِ وَلَمْ يَصْطَحِبْ غَيْرَ فَاطِمَةَ

والحسن والحسين وعليّ وقال: «اللهم هؤلاء أهلي»^١.

٨. قال مؤلف تفسير (الكشاف) وهو من أعظم المخالفين في ذيل هذه الآية: هذه الآية أقوى دليل على إثبات فضيلة أهل الكساء.^٢

٩. أجمع مفسرو ومحدّثو ومؤرّخو الشيعة عموماً على نزول هذه الآية في أهل البيت عليهم السلام، وقد أورد صاحب تفسير (نور الثقلين) روايات جمّة بهذا الصدد،^٣ مثل الرواية التي نقلها الشيخ في (عيون أخبار الرضا عليه السلام) فيما يتعلّق بمجلس مناظرة أقامه المأمون العباسي بخصوصه، فكتب: قال الإمام الرضا عليه السلام: قد حدّد الله تعالى الطاهرين من عباده في آية المباهلة وأمر رسوله بالقول: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا...﴾ فاصطحب النبي صلى الله عليه وآله بعد نزول هذه الآية عليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام إلى المباهلة، وهذه خصيصة لم يسبق أهل البيت عليهم السلام أحد، وهي فضيلة لم يبلغها إنسان، وهي شرف لم يحظ به أحد قبلهم.^٤

إشكال ناصبي ساذج

١٠. هنا يرد سؤال معروف؛ وهو: أنّ الفخر الرازي الشافعي وبعض آخر ذكروا في نزول هذه الآية أنّه كيف يمكن أن يكون المقصود من قوله تعالى: ﴿أبناءنا﴾ هما الحسن والحسين عليهما السلام، والحال أنّ الأبناء كلمة جمع؛ والجمع لا يقال للثنين؟ وكيف يمكن أن يكون المقصود بكلمة (نساءنا) التي سيّدة الإسلام فاطمة الزهراء سلام الله عليها؟ وإن كان المقصود من كلمة (أنفسنا) عليّاً عليه السلام فقط؟ ترى ما السبب في استعمال صيغة الجمع هنا؟!

١- تفسير الامثل، ج ٢، ص ٥٨٤ و ٥٨٥

٢- نفس المصدر، ص ٥٨٥.

٣- نور الثقلين، ج ١، ص ٣٤٩

٤- عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ٢٣١ و ٢٣٢

الجواب:

أولاً: نحن نعلم أنَّ من جملة القرائن التي تفسر آيات القرآن هي السنَّة وشأن النزول القطعي، ولهذا؛ وطبقاً لإجماع علماء الإسلام والأحاديث والروايات المستفيضة الواردة في العديد من المصادر المعروفة والمعتبرة والأعمَّ من كونها شيعية أو سنيَّة - بخصوص ورود هذه الآية في فضائل أهل البيت عليهم السلام ممَّا وصلنا، وقد جاء فيها التصريح بأنَّ النبي صَلَّى الله عليه وآله لم يصطحب غير علي وفاطمة والحسن والحسين سلام الله عليهم أجمعين إلى موضع المباهلة، وهذه قرينة واضحة وجلية لتفسير هذه الآية، وعلى هذا؛ فإنَّ الإشكال الموجود لا يرد على الشيعة، بل إنَّ علماء الإسلام يتوجَّب عليهم الإجابة على ذلك.

ثانياً: أنَّ استعمال صيغة الجمع للمفرد أو للمثنى ليس بالأمر الجديد، وقد وردت في القرآن المجيد نماذج عديدة استعمل فيها الجمع للمفرد؛ وكان مصداقها منحصرأ في فرد من الأفراد لجهة من الجهات.. مثل قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم...﴾^(١) وكان المقصود من (الناس) هنا وطبقاً لتصريح جمع من المفسرين هو (نعيم بن مسعود) الذي كان أخذ أموالاً من أبي سفيان ليأتي المسلمين ويخيفهم من المشركين.. وكذلك قوله تعالى: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إنَّ الله فقير ونحن أغنياء﴾^(٢) وكان المقصود من (الذين) الوارد في هذه الآية؛ وطبقاً لتصريح جمَّ من المفسرين هو (حي بن أخطب) أو: (الفتحاص).

ثالثاً: أنَّ استعمال صيغة الجمع للمفرد أو المثنى في غير القرآن من الجاري في الأدب العربي وحتى غير العربي، وهو كثير الوقوع، وطالما يحدث لدى بيان مسألة قانونية؛ أو تدوين معاهدة؛ فإنَّ الصيغة ترد بصورة عامَّة وبصيغة الجمع، ذلك أننا في مثل هذه الموارد نواجه

١- سورة آل عمران / ١٧٣.

٢- سورة آل عمران / ١٨١.

مرحلتين: مرحلة العقد؛ حيث ترد الألفاظ وتذكر بصورة الجمع لتنطبق على جميع المصاديق، ولكن في مرحلة التنفيذ يمكن أن ينحصر المصداق في فرد واحد، وهذا الانحصار في المصداق لا يتنافى مع كَلْيَّة المسألة، فيكتب في ذيل المعاهدة أو مسودة العقد العبارة التالية: مسؤول تنفيذ هذه المعاهدة أو هذا العقد؛ الموقعون وأولادهم، في حين أنَّ من الممكن أن يكون طرفا المعاهدة أو العقد شخصاً أو شخصين..

رابعاً: أنَّ جهة الخطاب في هذه الآية كانت جموع المسلمين والنصارى، وكان من المتوقع أن تشترك المجموعتان في عملية المباهلة، ولهذا؛ وردت الضمائر بصيغة الجمع حيث كان المخاطبون نصارى نجران والمسلمين، ولكن من وجهة النظر الأدبية ولأنهم كانوا جمعاً، فقد وردت العبارة لإضفاء هيئة جميلة؛ فجاءت جمعاً، رغم أنَّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله مكلف وطبق المعاهدة التي كتبها مع نصارى نجران أن يأتي بجميع أبناء ونساء أهل بيته وجميع الذين هم بمنزلة نفسه إلى موضع المباهلة، ولكنَّ مصداق هؤلاء لم يكن سوى ابنين وامرأة واحدة ورجل واحد.

خامساً: تطلق صيغة الجمع على الفرد الواحد للتبجيل والاحترام، كما نقرأ عن النبي إبراهيم عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ وكلمة أمة هنا اسم جمع أطلقت على فرد واحد..

١١. يفهم من آية المباهلة صحة إطلاق كلمة ابن على ابن البنت بهيئة الحقيقة خلافاً لما كان مرسومًا في الجاهلية، حيث كان ابن البنت محروماً من هذا الإطلاق، إذ كان الجاهليون يقولون:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا
بنوهن أبناء الرجال الأبعد

إنَّ هذا الشكل من التفكير وليد هكذا سَنَة خاطئة لا تعتبر الجاهلية العربية النساء

والبنات أعضاء أصليّات في البناء الاجتماعي، بل وتعدّها مجرد أوعية للإنجاب والخدمة، كما قال شاعرهم:

وَإِنَّمَا أَمْهَاتُ النَّاسِ أَوْعِيَةٌ
مُسْتَوْدَعَاتٌ وَلِلْأَنْسَابِ آبَاءُ

ولكنّ الإسلام أَدَان هذه الثقافة الجاهليّة وعمل وأمر بتهديمها، وعدّ أبناء البنات كأبناء الأبناء، كما نقرأ في قوله تعالى عن أولاد إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾^(١).

وفي هذه الآية اعتبر القرآن الكريم النبيّ عيسى عليه السلام من ذرّيّة إبراهيم عليه السلام، في حين أنّ عيسى ينتسب إليه من البنت (مريم) حيث لم يكن له أب..

١٢. وردت روايات عن طرق الشيعة والمخالفين بخصوص الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام وأطلق فيها مصطلح (ابن رسول الله) مراراً، ونقرأ في آيات متعلّقة بالنساء اللّاتي يحرم الزواج منهنّ: (وحلائل أبنائكم) ومعروف بين الفقهاء أنّ زوجات الأبناء والأحفاد. الأبناء منهم والبنات. يحرم الزواج منهنّ، وكونهنّ مشمولات بهذه الآية.

تري هل أنّ المباهلة حكم عام؟!

١٣. لا شك أنّ الآية أعلاه تتضمّن أمراً عاماً للدعوة إلى المباهلة من جهة المسلمين، بل إنّ وجهة الخطاب هي للنبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله فحسب، ولكنّ هذه المسألة لا تمنع أن تكون المباهلة مع المخالفين حكماً عاماً، وأن يعمد المؤمنون والمتّصفون بتقوى الله إلى مباهلة مخالفينهم وأعدائهم لدى إصرارهم وعنادهم رغم ما يستدلّون به لهم.

١٤. يستفاد من الروايات الواردة في المصادر الإسلامية عمومية حكم المباهلة تجاه الأعداء المعاندين، وقد نقل في تفسير (نور الثقلين) عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام قوله أن لكم أن تدعوا مخالفيكم ممن لا يقبل الحق إلى المباهلة.. قال الراوي: فسألته عن كيفية المباهلة؟ فقال: انصحه. المخالف. في ثلاثة أيام.. وأظنه قال: صم يوماً واغتسل واخرج إلى الصحراء مع من تريد مباهلتة، ثم اشبك أصابع يدك اليمنى في أصابع يده اليمنى وابدأ بنفسك وقل: إلهي! أنت رب السماوات السبع والأرضين السبع والعالم بخفايا أسرار الخلق، وأنت الرحمن الرحيم، فإن أنكر مخالفي الحق وكانت دعوته باطلة فأنزل عليه بلاءً من السماء وابتله بعذاب أليم.. ثم أعد هذا الدعاء وقل: إن أنكر هذا الحق وادّعى الباطل فأنزل عليه من السماء بلاءً وابتله بعذاب أليم، ثم قال عليه السلام: لن يمضي وقت حتى تجد ثمرة هذا الدعاء الصريح.. والله لم أجد من يقوى على مباهلتني بذلك..^١

١٥. يفهم من هذه الآية وخلافاً لمن يذهب إلى أن الإسلام هو دين الرجال وأنه لا يكرم النساء ولا يجلّهنّ، فإنّ الإسلام يشرك النساء في تحقيق الغايات الإسلامية الفدّة بمعيتة الرجال في مواجهة الأعداء.. وخير شاهد على ذلك الصفحات المشرقة التي سطرتها سيّدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام وابنتها زينب الكبرى عليها السلام ونساء أخريات عشن التاريخ الإسلامي..

الآية ٦٢

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. كلمة (هذا) الواردة في هذه الآية إشارة إلى القصص الواردة عن عيسى عليه السلام، والمعنى يكون أنَّ المطالب التي ذكرها القرآن بخصوص عيسى عليه السلام هي الحق، وليس ما ادَّعاه النصارى بهذا الصدد..
٢. استعمال حرف (إنّ) وحرف اللّام في الضمير المنفصل (هو) في الآية (فهو) لتأكيد المطلب بشكل تام، وبالنتيجة هو: تشجيع للنبي الأكرم صلّى الله عليه وآله على المباهلة ليقوم بإيمان كامل ويقين وبصيرة وثقة مطلقة بوحى الله النازل عليه..
٣. مفردة (القصص) كلمة بمعنى القصة، ولغةً هي من مادة: (قَصَصَ) على وزن صَفَّ بمعنى البحث عن الشيء، كما الوارد في قصة النبي موسى بن عمران عليه السلام: ﴿وقالت لأخته قصّيه﴾ لتبحث الأخت عن أخيها موسى عليه السلام، كما تستعمل في استيفاء القصص، حيث يبحث عن حقّ صاحب الدم.. كما يقال: قصة للبحث والتحقيق في قصص الماضين.
٤. مفاد جملة ﴿وما من إله إلا الله﴾ تبعاً للتأكيد السابق؛ تأكيد للمرة الثانية ينتهي إلى حقيقة الانتصار في المباهلة أو الأمور الأخرى وأنها بعهدة الله تعالى، بالإضافة إلى أنَّ القصص المذكورة بمثابة دليل قاطع على وحدانيّة المعبود وتوحيد الربوبية.
٥. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ عطف على مبدأ كلمات الآية، أو تأكيد شديد وتشجيع آخر بالنسبة للرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله، وكأنّه تعالى يريد القول بأنّه غير

عاجز عن نصره الحق وتأييده، وهو غير غافل عن هذا العمل ولا يهمل أمور المخلوقين وهو العالم بكل شيء، لأنه العزيز الجبار..

٦. مما تقدّم يتّضح السبب في إيراد هذين الاسمين الجليلين من بين جميع أسماء الله الحسنى في هذه الآية، لأنه ذو العزة المطلقة وغير العاجز عن تحقيق ما يشاء، ومن له الحكمة المطلقة، لا يجد الجهل طريقاً إليه ولا يهمل أمراً من الأمور (فالله العزيز الحكيم هو المعبود الحق، وليس الآلهة التي ادّعاها أعداء الحق بأوهامهم) (العزيز الحكيم).

الآية ٦٣

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. معلوم أنَّ الجماعة التي لا تستسلم للحقَّ مع كلِّ الدلائل المنطقية القرآنية الواردة عن المسيح عليه السلام ورغم هزيمتهم في واقعة المباهلة فهم جماعة معاندة للحقَّ ولا يرغبون في الكفِّ عن عنادهم، بل هم جماعة مفسدة وباحثة عن الفساد وهدفها تخدير عقول الناس وتخريب العقائد الصحيحة، ولا ريب أنَّ الله تعالى عارف بهم وعالم بأحوالهم ونياتهم وسيعاقبهم في الوقت المناسب..

٢. إنَّ الذين يحجمون عن قبول واستيعاب هذه الحقائق يعرِّضون أنفسهم للتهديد والإنذار لطبيعتهم وسلوكهم الفاسد ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

٣. قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ بيان للحقيقة القائلة بأنَّ الهدف والغرض من المباهلة مع ذوي العقائد الباطلة هو إيضاح الحقِّ للطرف المقابل أو لعموم الناس ليقبلوا على الحقِّ.. وطبيعي - من الناحية العقلية - أن لا يُتصوَّر لمن يتبع هذا الهدف أن لا ينحرف عنه.. إذن؛ فنصارى نجران إن كانوا يهدفون من مباہلتهم للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله إظهار الحقِّ وكانوا يعلمون أنَّ الله تعالى هو الوليُّ الحقَّ ولم يكونوا على استعداد لزوال الحقِّ أو إضعافه، فقد كان لابدَّ لهم في أن لا يولَّوه ظهورهم.. أمَّا إذ لم يقبلوا الحقَّ، فليعلم أنَّ هدفهم من المباهلة لم يكن إظهار الحقِّ، وإنَّما كانت نواياهم منها تحقيق الغلبة على الإسلام والتشبُّث بدينهم المنحرف وسننهم وتقاليدهم البالية وجرَّ الناس والتاريخ إلى الضياع.. وهنا ينبغي القول بأنَّ إعراضهم عن الحقِّ حين تبين لهم يستوجب وصفهم ﴿بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

٤. قوله عز وجل: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ تأكيد على أنه سبحانه عليم بأنّ صفة الإفساد قد تجذّرت في قلوبهم.. ولهذا رأيتهم قد أعرضوا عن خوض المباحلة مع علمهم بحقانيّة نبيّ الإسلام صلوات الله عليه وآله، وقبلوا تقديم الجزية عليها، وعلى هذا الأساس ومع معرفتهم بالحقّ لم يقبلوه، فكان سلوكهم وموقفهم هذا تأييداً وتصديقاً لمفهوم ومنطوق الآية الجليلة..

الآية ٦٤

قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا

مُسْلِمُونَ

نموذجان تاريخيتان من الوثائق النبوية الخاصة بما قام به رسول الله صلى الله عليه وآله بعد نزول هذه الآية الشريفة بهدف تبليغ ونشر الإسلام ودعوة النصارى إليه:
النموذج الأول: كتاب النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله إلى المقوقس؛ عظيم أقباط (نصارى) مصر:

«بسم الله الرحمن الرحيم؛ من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم؛ يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾»^١.

حينما كان المقوقس يحكم مصر والمصريين، وكان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يبعث بالكتب والرسائل إلى ملوك وحكام الأرض يدعوهم فيها إلى الإسلام.. فكان أن أمر صلوات الله عليه وآله أحد المسلمين وكان يسمى (حاطب بن أبي بلتعة) أن يحمل كتابه إلى المقوقس حاكم مصر.. فانطلق هذا المبعوث السفير إلى أرض مصر.. وعلم هنالك أن المقوقس في

١- مكاتيب الرسول صلى الله عليه وآله، ج ٢، ص ٤١٦ و ٤١٧.

مدينة الإسكندرية، فدخلها حتى جاء قصر المقوقس وسلم رسالة النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله له، فقرأها المقوقس فأطرق مفكراً لفترة ثم قال: إن كان محمد رسولاً من الله حقاً، فلم أخرج أعداؤه من مسقط رأسه (مكة) واضطُرَّ إلى الإقامة في يثرب؟ فلم لم يلعنهم ويدعو ربّه عليهم فيصيبهم الهلاك؟

فقال حاطب مجيباً: ولكن عيسى عليه السلام كان رسولاً من الله وأنت تعلم صدقه وحقانيته، فلم لم يلعن بني إسرائيل حينما تأمروا لقتله ولم لم يدعو عليهم فيهلكوا؟ فأعجب هذا الجواب المقوقس واستحسنه حتى قال لحاطب: «أحسنْتَ؛ أنت حكيم من عند حكيم».

ثم أضاف حاطب قائلاً: كان فرعون يحكم هذه الأرض قبلك وكان يدعي الألوهية، فدّمّه الله وأهلكه لتكون عبرة لكم، فعليك أن تحرص على أن لا تكون سيرتك عبرة لمن يأتي بعدك.. إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد دعانا إلى الإسلام ولكن قريشاً حرصوا على منازعته، وكذلك فعل اليهود، ونعلم أنّ النصارى أقرب الناس إلى الإسلام.. وإنّي لأقسم بأنه كما بشر موسى عليه السلام بعيسى المسيح عليه السلام، كذلك بشر المسيح عليه السلام بمحمد صلى الله عليه وآله.. وها نحن ندعوكم إلى الإسلام كما دعوتهم أهل التوراة إلى الإيمان بالإنجيل.. وإنّ كلّ قوم يسمعون دعوة النبي الحقّ وجب عليهم اتّباعه.. وقد أبلغتُ أهل هذه البلاد نداء ودعوة محمّد صلى الله عليه وآله، فمن الجدير بكم وبرعتكم أن تستجيبوا وتلبّوا هذه الدعوة الحقّة...

وانتظر حاطب فترة حتى يسمع ردّ المقوقس على كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله.. ومَرَّتْ بضع أيّام حتى استدعاه المقوقس إلى قصره وطلب إليه مزيداً من الإيضاح والتوضيح عن دين وأحكام الإسلام..

فأجابه حاطب قائلاً: لقد دعانا محمد صلوات الله عليه وآله إلى عبادة الله الواحد الأحد، وأمر الناس أن يصلوا في اليوم واللييلة خمس صلوات، وأن يصوموا شهراً من كل عام، وأن يحجوا إلى بيت الله، وأن يفوا بعهودهم، وأن يكفوا عن أكل الميتة... ثم إن حاطباً راح يحدث المقوقس بأمور عن أخلاق النبي وصفاته وسيرته..

فقال المقوقس: هذه صفات طيبة، ولقد كنت أظن أن خاتم الأنبياء يظهر في بلاد الشام باعتبارها أرض الأنبياء، فاتضح لنا أنه ظهر في الحجاز..

ثم إن المقوقس أمر كاتبه أن يكتب كتاباً بالعربية لرسول الله صلى الله عليه وآله يرد فيه: «إلى محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، لك التحية، قد قرأت كتابك وعلمت قصدك وعرفت حقيقة دعوتك، وإني لأعلم أن نبياً قد ظهر ولكن كنت أتصوره في أرض الشام.. وقد أجللت رسولك» ثم إنه أرفق مع الكتاب هدايا للنبي الأكرم صلوات الله عليه وآله وأشار إليها في كتابه، ثم ختمه بعبارة: «السلام عليك»..

وقد ذكر في التاريخ أن المقوقس بعث إلى النبي صلوات الله عليه وآله إحدى عشرة هدية، وقد ذكرها بعض المؤرخين بخصوصياتها.. وكان من جملتها طبيب بعثه المقوقس إلى النبي ليعالج مرضى المسلمين.. ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله الذي قبل الهدايا؛ لم يقبل هذا الطبيب وقال: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع، وهذا يكفي لسلامتنا..» (وفضلاً عن هذا الأسلوب الصحي العظيم، فلعل النبي لم يقبل هذا الطبيب الذي كان نصرانياً متطرفاً حسب القاعدة، فلم يرغب النبي في تسلطه على سلامة المسلمين أو سلامته).

أما تبجيل المقوقس للمبعوث النبوي وإرساله كل تلك الهدايا، وتقديمه اسم الرسول الأكرم على اسمه، يحكي استجابته الباطنية لدعوة النبي الحق، أو ميله إلى الإسلام على

الأقل، إلا أنه أحجم عن إعلان ذلك حفاظاً على ملكه وسلطته..

النموذج الثاني: كتاب النبي صلى الله عليه وآله إلى قيصر الروم:

بسم الله الرحمن الرحيم؛ من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم؛ سلام على من اتبع الهدى، أما بعد؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم؛ يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الاريسين ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^١.

وكان المكلف بحمل الكتاب النبوي إلى قيصر رجل يدعى (دحية الكلبي) فاتجه إلى روما، ولكنه قبل أن يصل القسطنطينية مركز الحكومة القيصريّة. الصيفيّة. علم أنّ هذا الأخير قد غادر القسطنطينية إلى بيت المقدس، ولذا؛ فقد اتصل دحية الكلبي بحاكم مدينة بصرى؛ الحارث بن أبي شمر وأفصح له عن مهمته، ولعلّ النبي صلى الله عليه وآله كان قد أذن بتسليم الكتاب إلى حاكم بصرى ليقوم هو بإيصاله إلى القيصر.. وبعد أن اتصل سفير النبي بحاكم بصرى، استدعى هذا الأخير واليه (عدي بن حاتم) وأمره بالانطلاق مع دحية الكلبي نحو بيت المقدس لإيصال الكتاب إلى القيصر.. وقد حدث اللقاء في مدينة حمص.. وقبل اللقاء كان أفراد حاشية القيصر قد أشاروا عليه بالسجود في محضر القيصر لضمان احترامه واستقباله له.. فقال دحية الذي كان نبهاً: إنما قطعت كلّ هذه المسافة المديدة لإزالة هذه العادات الباطلة.. ولقد جئت بهذا الكتاب من صاحبه لأحمل القيصر على ترك عبادة البشر وأن لا يعبد إلا الله.. فكيف لي أن أسجد لغيره سبحانه وتعالى، فأعجب هذا المنطق الرصين حاشية القيصر، وقال له أحدهم: إذا كان الأمر كذلك؛ لك أن تضع الكتاب على طاولة مخصوصة

١- نفس المصدر، ص ٣٩٠ و٣٩١.

للقيصر ثم تعود إلى ورائك، فإن القيصر وحده هو الذي سيرفع الكتاب.. فشكر له دحية هذا الاقتراح ووضع الكتاب على الطاولة وعاد.... حين فتح القيصر الكتاب أثارت انتباهه عبارة «بسم الله» التي تصدّرت الكتاب، فقال: لم أر غير رسالة سليمان كانت على هذا النحو، ثم استدعى المترجم ليقرأ عليه نصّ الكتاب ويترجمه له..

ظنّ حاكم روما أنّ كاتب الكتاب هو نفسه النبيّ الموعود والمذكور في التوراة والإنجيل؛ فرغب في مزيد الاطلاع على صفاته وخصوصيّاته، فأمر بالبحث في الشام كلّها عمّن يتّصل بالرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله بصلة قرابة أو معرفة.. وصادف أن كان أبو سفيان وبعض من صحبته في سفرة تجارية إلى الشام التي كانت جزءاً تابعاً لروما الشرقية، فخاطبهم مأمور القيصر وجاء بهم إلى بيت المقدس حيث كان القيصر، فسألهم هذا الأخير عمّا إذا كان فيهم من تصله القرابة بمحمد صلوات الله عليه وآله، فقال أبو سفيان: أنا من أقارب محمّد، فراح القيصر يسأله عن النبيّ الخاتم، وكان ممّا دار بينهما أن سأله القيصر:

.كيف هو نسب محمّد؟

أبو سفيان: هو من العوائل الأصيلة والشريفة.

القيصر: هل كان من أسلافه من حكم الناس؟

أبو سفيان: لا.

القيصر: هل كان يمتنع عن الكذب قبل ادّعائه النبوة؟

أبو سفيان: نعم؛ إنّ محمّداً هو الصادق الأمين.

القيصر: من من قريش عارضه، ومن منهم آمن به؟

أبو سفيان: الأشراف كفروا به؛ والضعفاء والبسطاء آمنوا له.

القيصر: هل من أتباعه من ارتدّ عنه؟

أبو سفيان: لم يرتدّ عنه أحد.

القيصر: هل أتباعه في زيادة أم نقصان؟

أبو سفيان: بل في زيادة.

ثم إنَّ القيصر قال لأبي سفيان ومن كان معه: إذا كان كلامكم صحيحاً، فلا بدَّ أن يكون محمدٌ هو النبيُّ الموعود، وإني لعلی علم بأنَّ نبياً كهذا سيظهر، ولكتني لم أعرف أنه سيكون من قريش.. وإني لعلی استعداد للخضوع له وغسل قدميه (وكان غسل القدم من جملة التقاليد النصرانية آنذاك في تلك الفترة للإشارة إلى مطلق الاحترام) وأتوقع أنَّ دين محمد وحكومته سيعمَّان أرض الروم..

ثم استدعى القيصر دحية الكلبي واستقبله بكلَّ احترام وحمله كتاباً للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآله وهدايا وأعرب له عن حبه واحترامه لنبيِّ الإسلام.^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. دعا القرآن من خلال الآيات السالفة النصارى بالاستدلال المنطقي، ثم دعاهم إلى المباهلة بعد رفضهم الإيمان بالإسلام.. وبعد نسبة التأثير التي تركتها حادثة المباهلة فيهم، وحيث لم يقبلوا الوقوف في المباهلة وقبولهم للخضوع لشرائط أهل الذمة.. استغلَّ القرآن هذه الفرصة واستعدادهم الروحي؛ وراح يستدلُّ لهم بشكل آخر ضمن دعوته لهم بالهداية..

مشاركات عقائدية

٢. الآيات السالفة تضمَّنت الدعوة إلى الإسلام بكلِّ خصوصياته وشؤونه، إلَّا أنَّ هذه الآية كانت الدعوة فيها إلى النقاط المشتركة بين الإسلام وديانات أهل الكتاب الأخرى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾.

٣. يعلِّمنا القرآن بهذا الأسلوب الاستدلالي، أنَّ أحداً إذا لم يكن على استعداد للاشتراك في

١- راجع: نفس المصدر، ص ٣٩٩ إلى ٤٠٤

جميع الأهداف، فلا بدّ من التنزّل إلى مقدار معيّن ومحدّد من الأهداف، لتكون بمثابة القاعدة إلى التقدّم نحو المشتركات والأهداف الأخرى.

٤. هذه الآية الشريفة بمثابة نداء دعوة إلى محوريّة الوحدة مقابل جميع الديانات السماويّة، ولذا؛ خاطبت النصارى بالقول: أنتم تدّعون التوحيد، بل وتقولون إنّ مسألة (التثليث) وهي الإيمان بثلاثيّة الآلهة لا تتنافى والتوحيد، ولذا؛ فأنتم قائلون بالوحدة في التثليث.. وكذلك هم اليهود؛ حيث في الوقت الذي يقولون بأنّ العزيز ابن الله، إلّا أنّهم يدّعون التوحيد.. وعليه؛ فإننا - المسلمون - وأنتم نشترك في أصل التوحيد.. ثم لنعمل على إحياء هذا الأصل والابتعاد عن التفسير الباطلة المؤدّية إلى الشرك والبعيدة عن التوحيد الخالص..

٥. جرى التأكيد في هذه الآية بعبارات ثلاث مختلفة على مسألة وحدانيّة الله تعالى.. في البدء قالت الآية: ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ وفي الوسط قالت: (لا نشرك به شيئاً) وفي العبارة الثالثة قالت: ﴿وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

٦. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إشارة لطيفة إلى حقيقة أنّ المسيح عليه السلام واحد من أفراد الإنسان ولا يجدر اتّخاذة ربّاً..

صور من الشرك

٧. حيث أنّ كلمة ﴿أَرْبَابًا﴾ صيغة جمع، وعليه؛ لا يمكن حصر الاستفادة من هذه الآية الكريمة فقط في النهي عن عبادة عيسى عليه السلام، ولكن من الممكن أن يكون المقصود من هذه الآية هو النهي عن عبادة المسيح عليه السلام وعن عبادة العلماء المنحرفين أيضاً.

٨. يستفاد من الآيات القرآنيّة أنّ من بين أهل الكتاب من حرّف أحكام الله تعالى طبقاً لمنافعه وغاياته.. والمنطق الإسلامي يعدّ من يتّبع هؤلاء العلماء المنحرفين المحرّفين بلا قيد أو شرط شكلاً من أشكال العبوديّة، ذلك أن عمليّة التقنين والتشريع أمر عائد إلى الله وحده لا شريك له، ومن يعدّ أحد الناس له صلاحية التشريع - على سبيل الاستقلال عن حكم الله

وإرادته . فهو قائل بالشريك لله تعالى ﴿ لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾.

٩. تبعاً لهذه الآية، نقل المفسرون أنّ عدي بن حاتم كان نصرانياً ثمّ أسلم، ففهم بعد نزول هذه الآية التي أوردت كلمة ﴿ أرباباً ﴾ أنّ القرآن المجيد يشير إلى أنّ أهل الكتاب يعبدون بعض علمائهم وأحبارهم، ولذا قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: نحن لم نكن نعبد علماءنا.. فقال صلوات الله عليه وآله: هل تعلم أنّهم كانوا يسوقون أحكام الله بأهوائهم وقد كنتم تتبعونهم؟ فقال عدي: نعم، فقال صلى الله عليه وآله: هذه هي العبادة والعبودية^١.

١٠. يعتبر الإسلام الاستعمار الفكري والاستعباد نوع عبودية، ولهذا تراه يواجه الشرك وعبادة الأصنام بكلّ عزم وشدة، ويصارع الاستعمار الفكريّ الشبيه بعبادة الأصنام.

١١. إذا ما أصرّ أهل الكتاب على بغض الدعوة المنطقية إلى نقطة التوحيد المشتركة، فقولوا . أيها المسلمون : اشهدوا بأننا مسلمون ومسلمون للحقّ وليس لكم، وعليه؛ فإنّ كفركم بدعوة القرآن لن تؤثر فينا بمقدار أنملة.. وها نحن صامدون في طريق الإسلام، ولا نعبد إلا الله ولا نقترّ إلا لشرعه وشريعته، ونرفض عبادة البشر بكلّ صورها ﴿ فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾.

الآية ٦٥

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي
إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا



تَعَقُّلُونُ

شأن نزول الآية

بعد البعثة النبوية الشريفة شرع أهل الكتاب في التنازع فيما بينهم حول دين النبي إبراهيم عليه السلام، فقال اليهود: قد كان إبراهيم يهودياً، وقالت النصارى: قد كان إبراهيم نصرانياً.. وهكذا ادعى كلٌّ منهم أن النبي إبراهيم عليه السلام منهم لتكون لهم الميزة العظيمة، نظراً لعظمة إبراهيم عليه السلام ويقر به جميع أتباع الديانات السماوية.. فنزلت الآية أعلاه وكذبت ادعاءهم بهذا الصدد.^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. يا أهل الكتاب! هل يعقل القول بأن يكون النبي السابق تابِعاً للأديان اللاحقة أو الكتب السماوية التي نزلت بعده؟!
٢. حين الموعظة؛ من الجدير أن تستعمل الأسماء والألقاب والعناوين الثقافية للمخاطبين: ﴿يا أهل الكتاب﴾.
٣. العلم والكتاب لهما قيمتهما الخاصة التي تسري إلى المنسويين إليهما: ﴿يا أهل الكتاب﴾.
٤. بدلاً من الإصرار على النزاع في الانتساب إلى الأشخاص أو العكس لإثبات الحق، يجب الاتباع الصحيح لمنهج أفكار أولئك الأشخاص لإثبات الحق.

الآية ٦٦

هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ
 عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ
 لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية:

- ١- تقول الآية الكريمة؛ كيف لكم أن تتحدثوا في أمر تجهلونه؟ ثم تدعون من الأقوال ما لم يسبقكم إليه أحد في التاريخ.
- ٢- لقد تحدث أهل الكتاب بما يخص دينهم، مما يفترض بأنهم يعلمونه، وتبين مع ذلك بأن كلامهم يفيض بالشبهات والمغالطات، فكيف بهم وهم يتناولون بالحديث أموراً ليست من اختصاصهم ودينهم؟! { هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ }.
- ٣- يؤكد تعالى على ما سبق من الآيات السابقة ويمهد السبيل للتالية؛ من خلال الإشارة إلى علم الله وجهل العاصين، فأين هم من علم الله الذي يحيط بتاريخ الدين الإبراهيمي، فيما هم يجهلونه.

الآية ٦٧

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ
حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. مفردة ﴿حَنِيفًا﴾ من مادة «حنف» على وزن أنف، بمعنى الشخص أو الشيء الذي يميل إلى جهة، وعلى حد المنطق القرآني؛ يقال لمن مال عن منهج الباطل إلى منهج الحق: حنيفاً أو حنيفياً.
٢. وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بعنوان: الحنيف، ذلك لأنه هو الذي أزاح حجب التقليد والتعصب، ولم يسجد للأصنام في الوقت الذي كانت عبادة الأصنام هي المستولية على الواقع..
٣. حيث كان الجاهليّون العرب من عبّاد الأصنام يعدّون أنفسهم على دين إبراهيم الحنيف، وحيث كان هذا المعتقد شائعاً إلى الحدّ الذي عدّ فيه اليهود والنصارى أنفسهم حنفاء (وهكذا استخدم الدين الحنيف في المعنى المناقض لمعناه الأصليّ حتّى صار مساوياً لعبادة الأصنام) ولكنّ الله تعالى بعد وصفه إبراهيم عليه السلام حنيفاً مسلماً قال: ﴿وما كان من المشركين﴾ لينفي كلّ علاقة له مع عبدة الأوثان من العرب.
٤. سؤال: يمكن أن يقال هنا: إذا لم نستطع. أو لم يصحّ لنا. وصف إبراهيم عليه السلام بأنّه كان على دين موسى والمسيح عليهما السلام فمن الأولى أن نعدّه مسلماً، ذلك لأنّه كان قد عاش قبل ظهور الإسلام بألاف السنين.. إذن؛ فلماذا عرّفه القرآن على أنّه كان مسلماً؟

الجواب:

جواب هذا السؤال واضح، وهو أن المسلم في الاصطلاح القرآني ليس محصوراً على من هو على دين خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله. عنواناً. بل الإسلام هو المعنى الواسع للكلمة.. فهو التسليم لأمر الله الحق تعالى وهو التوحيد التام والخالص من أي شائبة شرك وعبادة وثن أو طاغوت، وقد كان إبراهيم عليه السلام حامل راية هذا النوع من التوحيد الصادق.

٥. لما كان النبي إبراهيم عليه السلام غير تابع لأحد هذه الأديان؛ فإن الشيء المتبقي هو القول: من الذين لهم أن يثبتوا علاقتهم بدين إبراهيم عليه السلام (باعتبار أن العلاقة معه وثيقة فخر وشرف)، وبعبارة أخرى: كيف يمكن إثبات التبعية لهذا النبي العظيم الذي تجلّه جميع الأديان السماوية؟

الآية ٦٨

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ
بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُؤْمِنِينَ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. مسألة القرابة والرحم، أو مسألة العنصر والقومية التي يطبل لها أتباع الديانات المختلفة لإثبات صلتهم بإبراهيم الخليل عليه السلام؛ لا قيمة لها أبداً، وإنما الولاية والعلاقة بالأنبياء والرسل تثبت وتصح حين الإيمان الخالص بالله سبحانه وتعالى واتباع منهجهم.. وهكذا يصح القول بأنَّ العلاقة الصحيحة والصادقة هي العلاقة الدينيّة، سواء كانت هذه العلاقة قد صدرت أو تمت ممّن كانوا يعيشون في عصر هذا النبيّ أو ذاك، أو ممّن تلوه في الحياة في غير زمانه.. مثل خاتم الأنبياء صلوات الله عليه وآله ومن هم على دينه القويم من المؤمنين الصادقين: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾.
٢. كيف يمكن للوثنيين وأهل الكتاب وبتجاهلهم أهم أصل في الدعوة الإبراهيميّة أن ينسبوا أنفسهم لإبراهيم عليه السلام ويدّعوا انتماءهم إليه؟
٣. الأتباع الحقيقيّون الصادقون لمنهج الأنبياء العظام عليهم أن يعلموا بأنّ الله تعالى هو وليّ المؤمنين ﴿والله وليّ المؤمنين﴾.
٤. الحقيقة الواضحة والنورانية هي أنّه لا علاقة أشرف وأسمى من العلاقة الدينيّة، ولا يتمّ الاتصال بأولياء الله تعالى إلا عبر هذه العلاقة وهذا الطريق، كما هي العلاقة بخاتم الأنبياء وأوصيائه الشرعيّين المعصومين سلام الله عليهم أجمعين.

٥. لطالما جرى التأكيد الشرعي في النصوص الدينية على لزوم إيجاد وتوطيد العلاقة بين الأنبياء والأئمة سلام الله عليهم عبر الإيمان بهم وبمنهجهم والعمل والطاعة لهم، كما ورد عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «إن أولى الناس بالأنبياء أعملهم بما جاؤوا به» ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ...﴾ وقال: «إن ولي محمد صلى الله عليه وآله من أطاع الله؛ وإن بُعدت لحمته، وإن عدوّ محمد من عصى الله وإن قرّبت قرابته»^١.

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٧٠

الآية ٦٩

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ
وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. كلمة ﴿طائفة﴾ تعني الجماعة من الناس، ولهذا سُمِّيت الجماعة من الناس طائفة، والعرب كانوا في ماضي الأحقاب وقبل أن يستوطنوا المدن، كانوا يعيشون على هيئة شعوب وقبائل متفرقة متباعدة عن بعضها، كما كانوا يحلّون في منطقة في الصيف غيرها التي يسكنونها في الشتاء، ويسوقون معهم حيواناتهم من الأنعام والدواب طلباً للماء والغذاء.. فيتنقلون بين منطقة وأخرى.. كما كانوا ينتقلون خشية الأعداء وغاراتهم المباغته.. ولذا؛ كانت الجماعة منهم تسمى طائفة؛ أي: متنقلة متحركة غير مستقرة في موضع معين، وشيئاً فشيئاً صارت الطائفة اسماً ووصفاً للجماعة المتنقلة منهم.. وقد أصبحت هذه الكلمة في الوقت الحاضر تعني الجماعة من الناس ولا يفهم منها شيء آخر..

ضلال وتربية

٢. تربية المسلمين ضمن المنهج النبوي أمر محسوب ومحدّد وواع. ولا يحتمل العود والردة.. فالمسلم قد رضي الله عنه بالإسلام ديناً ومعتقداً، وهو محبّ ومتعلّق به، وعليه؛ فلا يستطيع الأعداء إضلالهم...

٣. الذين يعمدون إلى إلقاء الشبهات وينسبون التناقض والتضادّ إلى الإسلام والنبّي صلّى الله عليه وآله، إنّما يكرسون الروح السوداء في أنفسهم قبل غيرهم.. ومن الطبيعي للذي يحرص على تتبّع العيوب أن يغفل عن رؤية نقاط القوّة.. وتراه تارة؛ وبداعي العناد والتعصّب والتطرّف يعدّ نقاط القوّة والوضوح مظلمةً سلبيةً، ولهذا؛ تجده يضاعف من ابتعاده عن الحقّ

يوماً بعد يوم.

٤. إنّما السبب في إشارة الآية الشريفة إلى أنّ أهل الكتاب لا يضلّون إلّا أنفسهم، هو أنّ أوّل وأوضح الفضائل الإنسانية هي الميل إلى الحقّ وإتباعه، ومعلوم أنّ كلّ عمل وكلّ عقيدة تخلو من الحقّ والصدق هي محض ضلال وضياع، وعليه؛ فإنّ رغبة أهل الكتاب وحرصهم على إضلال المؤمنين. الذين يسيرون ضمن الطريق المستقيم. هو عين الضلالة والانحراف النفسي الباطني.. ضلالة هم غافلون عنها.. وكذلك من حيث العمل، فلو فرضنا تمكّنهم من إضلال أحد المؤمنين بما يلقون إليه من شبهات.. فإنّهم في واقع الأمر إنّما أضلّوا أنفسهم، ذلك لأنّ الإنسان. أيّ إنسان. لا يقوم بفعل من الأفعال؛ فإنّه لا يعدو أن يعود عليه بنفع أو ضرر.. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾ وأولئك المؤمنون الذين ضلّوا الطريق بفعل شبهات أهل الكتاب وغيرهم؛ إنّما كان ضلالهم. في الحقيقة والأصل.. بداعي ما ارتكبوا من فعال سيئة، وليس بسبب النقص والإشكال المحتملين في الدين الإسلامي وذلك لأنّ سوء الفعل وإرادة الإنسان تحقيق به حتّى تجزّه إلى الضلال والكفر، كما قال عزّ وجلّ: ﴿من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهّدون﴾ وكذلك قوله سبحانه: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾.

٥. قوله تعالى: ﴿وما يشعرون﴾ كأنّه الإشارة إلى هذه القضية النفسية حيث يتأثر الإنسان بلا وعي وإدراك بما يقول.. وحين يحاول إضلال الآخرين بأكاذيبه وتهمه وسفسطه فإنّها تحقيق به قبل غيره، وهذا التصادّ في الحديث يؤثّر في روحه ونفسه تدريجياً، حتّى يتحوّل التصادّ والتناقض إلى عقيدة ومنهج حياة فيه ولديه، فيؤمن به حتّى يضيع وإلى الأبد..

الآية ٧٠

يَتَّأْهِلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

الكفر على شعبتين أساسيتين:

ألف: الكفر بالله عز وجل عبارة عن الالتزام بالاعتقاد والقول بعدم وجود الله، كما هو حال عبادة الأوثان المنكرين لله تعالى..

ب: الكفر بآيات الله الذي هو عبارة عن إنكار حقيقة من حقائق الدين بعد الإطلاع والعلم بها.. وأهل الكتاب لا ينكرون معنى وجود الله ولا ينكرون أنَّ لعالم الوجود إلهاً ومعبوداً، ولكنهم ينكرون جملة من الحقائق، مثل نبوة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، كما ينكر النصارى حقيقة أنَّ عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله، وكما ينكر اليهود نبوة عيسى عليه السلام، وكما ينكر الطرفان أنَّ إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً أو نصرانياً، وكما ينكرون أنَّ الله تقدست أسماؤه قادر أبداً أو أنه غنيّ دوماً..

كفر أهل الكتاب

٢. أهل الكتاب . حسب القرآن المجيد . كفروا بآيات الله تعالى، وليسوا كافرين بالله، وهذا المعنى لا يتنافى مع قوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة التوبة الجليلة: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ حيث ينفي عنهم الإيمان بصراحة.. ولا يظنُّ أحد بأنَّ عدم الإيمان بالله هو كفر بالله، ذلك لأنَّ قوله تعالى: ﴿ لَا يُحَرِّمُونَ وَلَا يَدِينُونَ ﴾ لو لم يكن، لكانت المنافاة بين الآية الشريفة وبين قولنا، ولما كان ثمَّ فرق بين الكفر بالله والكفر بآيات الله.. إلّا أنَّ هاتين الجملتين تشهد على أنَّ المراد من وصف هؤلاء بعدم الإيمان هو وصف بلازم حالهم، لأنَّ لازم حالهم؛ أي:

كفرهم بآيات الله؛ عدم إيمانهم بالله وبيوم الجزاء، مع أنهم لم يعوا هذه الملازمة وظنوا أنهم يؤمنون بالله تعالى.. ولكن الظاهر هو أن كفرهم بآيات الله منحصر بالكفر بالآيات فحسب، وهو ليس كفراً صريحاً بالله..

ولا منافاة ولا تناقض بين تعريف هذه الآية وبين الوارد في الآيتين (١٥٠.١٥١) من سورة النساء المباركة حيث قالت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ... عَذَاباً مُهِيناً﴾ لأن المقصود من الكفر الحقيقي هنا؛ إما الكفر بقسمه الثاني؛ وهو الكفر بالحقائق الجليلة المعلومة، وإما بهذا المعنى؛ وهو الإيمان ببعض والإنكار للبعض الآخر من الأنبياء، وإما التوقف في الاعتراف برسالة هؤلاء، ونتيجة ذلك الكفر والإنكار الحقيقي لله تعالى.

أقسام الكافر

٣. الكافر على عدة أقسام:

القسم الأول: الكافر الحربي، وهو الكافر المنهمك في محاربة المسلمين.

القسم الثاني: الكافر الذمي، وهو الكافر الذي يعيش في البلاد المسلمة، ومع كونه غير منشغل في محاربة المسلمين، فإنه يؤدي الجزية لحاكم المسلمين، وهذا الأخير يضمن له حرمة ماله ونفسه وكرامته.

القسم الثالث: الكافر (المعاهد)، وهناك العديد من الدول من يربطها بالبلدان المسلمة علاقات سياسية، ولا تخوض حرباً ضد المسلمين.. فهي دول كافرة معاهدة، وما دامت لا تحارب المسلمين بنحو من الأنحاء؛ فإن أموال وأنفس أتباع هذه الدول محترمة، إذ طبقاً للمعاهدات التي تنجز عن طريق العلاقات السياسية والقوانين الدولية المعترف بها تتضمنها تلك المعاهدات، وهنا ينبغي الالتفات إلى أن الكافر المعاهد، وخلافاً لما يقوله البعض، ليس له مدة محدّدة، وهي تشمل أهل الكتاب وغيرهم.. والمسألة الملفتة للنظر هي أن أهل الكتاب يعرفون بأنهم كفّار ذميون لدى دخولهم وإقامتهم وعيشهم في البلاد المسلمة، ولكن

أهل الكتاب الذين يعيشون في بلدانهم؛ فلا يمكن إلا أن يكونوا معاهدين فقط، ولا مفهوم لعهد الذمة بالنسبة لهم (إلا أن تكون بلادهم قد طلبت الحماية من بلد مسلم) ذلك لأنَّ في أحكام الذمة قرائن كثيرة تشر إلى الأقليات في البلدان المسلمة.

القسم الرابع: هناك كفَّار ليسوا من الذمَّيين ولا المعاهدين ولا الحربيين، وفي الواقع هم حياديون تماماً بالنسبة للمسلمين، ويمكن تسميتهم بالكفَّار المحايدون، وقد أشير إليهم في آيتين قرآنيتين. الأولى: الآية الثامنة من سورة الممتحنة الشريفة حيث قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَقْسِطِينَ﴾ والثانية حيث قال سبحانه في الآية التسعين من سورة النساء المباركة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ... لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾.

وعليه؛ فإنَّ (إلقاء السلم) هو اتخاذ السلام سبيلاً وليس عقد معاهدة الصلح، لأنَّ التعبير بإلقاء السلم يناسب هذا المعنى، والآية التالية شاهد على هذا المطلوب.. وعلى أية حال؛ فإنَّ الكافر المحايد يمكن أن يكون ماله ونفسه وناموسه محفوظاً.. والتفصيل الأكبر لموارد أقسام الكافرين الأربعة بحاجة إلى مزيد من البحث..

والمقصود من كلمة ﴿تَشْهَدُونَ﴾ هو: مع أنَّكم تلاحظون وترون الآيات والعلامات الخاصة بالنبيِّ الموعود الواردة في التوراة والإنجيل تنطبق على هذا النبيِّ الذي هو بين ظهرانيكم... إلا أنَّكم تصرَّون على إنكار نبوته ورسالته...

الآية ٧١

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْنُمُونَ الْحَقَّ

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. الآية السابقة أخذتهم بالانحراف عن طريق الحق مع سابق علم واطلاع، وفي الآية الثانية أخذتهم على إضلالهم الآخرين.
٢. كلمة (لبس) بفتح اللام، وقد اشتق منها فعلها المضارع ﴿تلبسون﴾ بمعنى إيجاد الشبهة وتزيين الباطل وتصويره حقاً أو بالعكس، حيث يصور الحق باطلاً.
٣. قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يدل أو يشير على الأقل إلى أن المراد من (لبس) كتمان أو إخفاء المسائل المتعلقة بالمعارف الدينية؛ وليس الآيات المشهورة بالعين المجردة، مثل تلك الآيات التي حرّفوها أو كتموها أو فسروها على غير مرادها ومفهومها.
٤. هذه الآية وسابقتها، أي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ... وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تتمة لكلام الله الذي قال: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ لَوْ يَضِلُّوكُمْ.. وَعَلَيْهِ؛ لَوْ أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَبِدَاعِي أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ الصَّادِرَةِ عَنْ بَعْضِهِمْ؛ وَبَخُوا وَعَوَّبُوا.. وَذَلِكَ مِنْ حَيْثُ أَنَّ عُنْصُرَهُمْ وَأَصْلَهُمْ وَجَذَرَهُمْ جَمِيعاً يَعُودُ إِلَى نَقْطَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَئِنْ جَمِيعُهُمْ يَتَّصِفُونَ بِصِفَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُمْ يَرْضُونَ بِفَعْلِ بَعْضِهِمْ.. وَهَنَّاكَ الْكَثِيرُ مِنْ هَذِهِ النِّسْبِ وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ...

الآية ٧٢

وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا
بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

شأن نزول الآية

رسم يهود المدينة وغيرهم خطة مأكرة لإضلال بعض المؤمنين وتخريب عقائدهم وإيمانهم، فكان أن تواطؤوا فيما بينهم على أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فيعلنوا إسلامهم في الظاهر، ثم يرتدون ويكفرون في آخر النهار.. وإذا ما سألهم أحد عن ذلك قالوا: لقد راجعنا كتبنا القديمة أو علماءنا واستشرناهم، فرأينا أنَّ ما هو موجود عن صفات نبي آخر الزمان، لا ينطبق مع صفات محمد وأفعاله.. وهذا ما يؤدِّي . حسب توقعاتهم . إلى أن يقول بعض المسلمين: لا بدَّ أنَّ ما يقول هؤلاء صدق وحقَّ لأنَّهم أعرف ممَّا بذلك.. وهكذا يضلُّون عن سبيل الله تعالى..^١ وقد ذكر المفسِّرون شأنًا آخر في نزول هذه الآية، ولكنَّ ما ذكر أعلاه أقرب إلى معنى الآية.

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. لمَّا قابلت كلمة ﴿ وجه النهار ﴾ كلمة ﴿ آخر النهار ﴾ يكون المقصود أوَّل النهار، لأنَّ وجه الشيء أوَّلُه وهو الذي يظهر بدءاً لمن يراه، فوجه النهار هو أوَّل اليوم.. ومفهوم كلام هذه الطائفة من أهل الكتاب يوحى بأنَّ أمراً قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله يتفق مع شيء من

عقيدة أهل الكتاب، كما أنّ وحياً آخر قد نزل عليه بما يخالفهم في آخر النهار، وهذا ما أدّى بهم إلى القول: نؤمن بما نزل على محمد في أول النهار، ونكفر بما نزل عليه في آخر النهار.

٢. واحتمل المفسرون بما يتعلّق بوجه النهار ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأول: ظرف الزمان ﴿ وجه النهار ﴾ متعلّق بكلمة ﴿ أنزل ﴾ وليس بكلمة ﴿ آمنوا ﴾ وهو صيغة أمر، والمقصود من جملة: ﴿ بالذي أنزل على الذين آمنوا ﴾ يجب أن يكون وحياً خاصاً من القرآن، وهو موافق لرأي أهل الكتاب.. وليس المقصود هو: آمنوا النهار ثمّ اكفروا آخر اليوم، بل الهدف والغاية هو الإيمان بما أنزل أول اليوم، ثمّ الكفر بما نزل آخر النهار؛ بدليل أنّ كلمة ﴿ وجه النهار ﴾ أقرب إلى كلمة ﴿ أنزل ﴾ من كلمة ﴿ آمنوا ﴾ كما هي جملة: ﴿ واكفروا آخره ﴾ بمعنى: ﴿ واكفروا بما أنزل في آخر النهار ﴾ نظير قوله تعالى: ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ إذ ليس المقصود من المكر الليل والنهار، بل إنّ مكر المستكبرين في الليل والنهار..

وبهذا الإيضاح هناك روايات وردت عن الأئمة المعصومين عليهم السلام في شأن نزول هذه الآيات تؤيد ذلك، حيث منها ما ورد في موقف اليهود من قضية تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة.. فحينما صلّى النبي صلوات الله عليه وآله صلاة الصبح إلى بيت المقدس الذي كان قبلة لليهود.. ثم غيّر صلّى الله عليه وآله القبلة بأمر الله تعالى إلى الكعبة المشرفة في صلاة الظهر.. قالت طائفة من اليهود: يا أيّها اليهود! آمنوا بما نزل من الوحي أول النهار. أي الصلاة باتجاه بيت المقدس. واكفروا بالحكم الذي نزل في آخر النهار. أي: الصلاة باتجاه الكعبة^١ والمؤيد الآخر لهذا الرأي؛ وهو ما حكاه القرآن الكريم لدى القول: ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ أي: لا تعتمدوا الذين لا يتبعون دينكم ولا تؤمنوا لدينهم ولا تتحدّثوا ولا تفشوا أسراركم لدى محمد (صلّى الله عليه وآله) ولا تخبروا أتباعه بما ورد في التوراة التي

١- تفسير القمي، ج ١، ص ١٠٥

بشّرت به وتحدّثت عن علائمه وصفاته.. مضافاً إلى أنّ كتابنا قد أخبرنا بأنّ القبلة ستتغيّر من بيت المقدس إلى مكّة..

الاحتمال الثاني: أنّ المقصود من كلمة ﴿وجه النهار﴾ المتعلّق بصيغة الأمر ﴿آمنوا﴾ أن تعتمد جماعة من اليهود إلى الإيمان بالقرآن فينخرطون بين أوساط المسلمين، ثمّ يرتدّون عن إيمانهم في آخر النهار ويصوّرون للناس أنّ إيمانهم في أوّل النهار كان لأنّهم لمسوا من ظاهر الدعوة الإسلاميّة أمارات ودلائل من الصدق والحقّ.. ولكنّهم.. هكذا يصوّرون.. كفروا بالإسلام لما ثبت لهم من بطلانه لما رأوا شواهد البطلان، ولما رأوا وفهموا أنّ هذا الدين الجديد ليس هو ما بشّرت به كتبهم، وأنّ هذا النبيّ ليس هو الذي بشّرت به التوراة ووصفته.. وهذا السلوك والموقف هو مؤامرتهم التي رجوا منها أن تزرع الشكّ في نفوس المسلمين لإضعاف إيمانهم، وبالنتيجة؛ تتشكّط كلمتهم ويبطل دينهم.. ولكنّ هذا المعنى وإن لم يبعد من اليهود الذين ما فتئوا من حياكة المؤامرات وكانوا حثيثي السعي إلى إطفاء نور الإسلام، إلّا أنّ لفظ الآية غير منطابق معه..

الاحتمال الثالث: معناه: أنّه بداعي الإقرار الذي بدا منكم بدءاً؛ وهو انطباق ما ورد من صفات نبويّة في كتب اليهود، ثمّ الكفر به لاحقاً.. ليكون تصوّر بأنّ الكفر جاء بعد التأكّد والتحقيق وعدم التطابق، فأريد بهذا السلوك الزائف زحزحة إيمان المسلمين وحملهم على الارتداد عنه..

لكنّ هذين الاحتمالين لا شاهد لهما من ظاهر العبارة القرآنيّة، وعلى أيّة حال؛ لا نقطة مبهمة في الآية.

هجمة عقائدية

٣. الآيات أعلاه إشارة إلى قسم من هجومهم العقائدي والثقافي الذي كان يشنّه اليهود ضد الإسلام؛ ممّا يفضح نواياهم وخططهم الأخرى المدمّرة لليهود، وتؤكد الحقيقة الواقعيّة القائلة

بأن اليهود لا يمتنعون عن زلزلة عقائد المسلمين بأي وسيلة، مثل الهجوم العسكري أو السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي..

٤. لعل المقصود من بداية النهار وآخر النهار هو أن الفاصلة بين الإيمان والكفر الخاص باليهود فاصلة قصيرة، وهذا القصر في الفاصلة سبب في أن يقولوا: هؤلاء ظنوا أن الإسلام أمر مهم، ولكنهم رأوا. عن قرب. شيئاً آخر، ولذا تراهم سرعان ما ارتدوا.

٥. هؤلاء كانوا يظنون أن مؤامرتهم ستؤثر. أول ما تؤثر. في الأفراد ضعيفي الإيمان، لا سيما أولئك الذين كانوا يتظاهرون بالإسلام وهم بعض علماء اليهود، وكان الجميع يعلم أن هؤلاء على اطلاع تام بكتب الأديان الأخرى وعلامات خاتم الأنبياء، وهذا الأمر من شأنه أن يزلزل إيمان هؤلاء الذين آمنوا للتو.

٦. قوله تعالى: ﴿لعلهم يرجعون﴾ يشير إلى أنهم كانوا يرجون التأثير لمخطّطهم، ولكن لكي لا يفرطوا بأتباعهم، تراهم أكدوا على أن إيمان هؤلاء يجب أن يكون إيماناً شكلياً فحسب..

الآية ٧٣

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ
عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ

عَلَيْمٌ ٧٣

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. يفهم من بعض التفاسير أنَّ يهود خيبر كانوا قد أوصوا يهود المدينة بأن لا يزيدوا من اقترابهم من النبي صلى الله عليه وآله أو يتأثروا بما دعا إليه من إيمان، ذلك لأنَّ فريقاً منهم كانوا يذهبون إلى أنَّ النبوة لا تكون إلا في شعب اليهود، ولو أنَّ نبياً ظهر؛ فلا بدَّ أن يكون من بين اليهود.

٢. لكي لا يفقد اليهود أتباعهم، فقد راحوا يؤكِّدون عليهم أن لا يكون إيمانهم إلا إيماناً شكلياً ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبَعَ دِينَكُمْ﴾.

٣. الغاية من عبارة ﴿لَا تُؤْمِنُوا﴾ هو لزوم أن تكون المؤامرة سرّية تماماً، وأن لا يتحدثوا بها إلا لليهود العقائديين. دون المشركين من حلفائهم حتّى. لئلا يفتضح أمرهم وتفشل خطّتهم، ولكنَّ الله العالم بالخفايا كشف سرّهم وفضح أمرهم ليكون ذلك عبرة للمؤمنين ووسيلة هداية للكافرين.

٤. قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ جملة اعتراضية توسّط حديث اليهود المتأمرين.. فقد ردّهم سبحانه وتعالى بقول مختصر بليغ يتضمّن القول بأنَّ الهدى مسألة إلهية وتوفيق ربّاني وليس حكراً على طائفة أو قومية خاصّة، ولا لزوم أبداً في أن يكون خاتم

الأنبياء صلوات الله عليه وعلى آله وعليهم من اليهود. كما يتضمن القول أيضاً بأن الذين هداهم الله تعالى بفضله لا يتزحزح إيمانهم بمثل هذه المؤامرة..

عنصرية الضلال

٥. لَمَّا كَانَ الْيَهُودُ الْمَغْرُورُونَ يَقُولُونَ: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾
أي: لا تتصوّروا أن يكون لأحد كتاب سماوي كما هو كتابكم - التوراة - وأن النبوة شأن خاص بكم وحدكم، وكذلك: لا تتصوّروا أن أتباع الدين الجديد قادرون على محاججتكم عند ربكم..
فإن هذه الأقاويل والأراجيف اليهودية تعدّ دليلاً بحدّ ذاتها على توزّطهم في ثقافة التكبر والعنصرية وكونهم العنصر الأسمى من بين شعوب الأرض، وفي ظلّهم الباطل بكونهم الأجدر بالنبوة والعقل والدراية ومنطق الاستدلال.. وهم بمنهجهم الجاهل والأحمق هذا أرادوا تخصيص وتمييز أنفسهم وتفضيلها على غيرها..

٦. ليس الفضل والتوفيق إلا بيد الله سبحانه وتعالى، وإنّ إرادة غير الله تتزاحم وتتضادّ مع إرادته تعالى.. ومنهج اليهود يتعارض كلياً مع قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

٧. ختم الله تعالى القول في الآية مورد البحث بجملة: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وهذا - في الحقيقة - بمثابة تعليل لجميع المطالب السابقة.. فحين يكون فضل الله عظيماً، بل وعظيماً على الإطلاق، وليس من جهة أو جهتين، فيكون لازمة أنّه بيده دون سواه، بالإضافة إلى عدم محدوديته وتناهيته.. لأنّ ما ينتهي غير عظيم، ثم إنّ صاحب الفضل العظيم عالم بحال عباده الذين يتفضّل عليهم، أمّا لو لم يكن كذلك فليس أنّ فضله غير عظيم فحسب، بل وسيكون فاقداً لخصوصيته، كما أنّه تعالى قادر على الاختصاص بفضله بمن يشاء.

٨. يردّ الله تعالى على هؤلاء العنصريين في نهاية الآية بشكل قاطع، فهو لدى تجاهله إياهم؛ يخاطب رسوله الحبيب مؤكّداً له على أنّ المواهب الإلهية الشاملة لمقام النبوة العظيم وللعقل

والمنطق والشرف وسائر المواهب الأخرى إنما هي تنزل من ناحيته هو تبارك وتعالى وتنال الجديرين بها ﴿ قل إنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾.

الآية ٧٤



يَخْنَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. قال الراغب الإصفهاني. اللغوي الشهير. لدى تعريفه معنى الفضل: كل عطية لا تلزم من يعطي يقال لها الفضل.^١
- أما المفسرون؛ فقد اختلفوا في معنى الفضل، فذهب بعضهم إلى أنه الدين، وقال آخرون بأنه النعم الدنيوية، وعرفه بعض بأنه الغلبة، فيما قال غيرهم بأن معنى كلمة الفضل هو الزائد عن حدّ الاقتصاد والتوسط، وهذه الكلمة تستعمل في المعاني والأمور المحمودة، كما تستعمل كلمة (الفضول) في الأمور غير المحمودة.
٢. أنّ الغاية من جملة الفضل في الآية السابقة: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أو جملة ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ وجملة ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ في هذه الآية هو النعم الإلهية المادية، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ وجملة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ العائدة إلى الأمور المعنوية.
٣. إذا ما عدّت جميع النعم المادية والمعنوية الإلهية فضلاً من الله، فلغير المستحقّ أيضاً شيء عنده سبحانه، وكلّ ما يعطي فبفضله، أي زائد عن الاستحقاق.
٤. حين يكون الفضل لجماعة دون أخرى، فذلك ليس من نقص أو محدودية فيه، بل هو بداعي التفاوت في الجدارة..

الآية ٧٥

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ
يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا
مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ
سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

شأن نزول الآية

هذه الآية نزلت في رجلين من اليهود، وكان أحدهما أميناً والآخر خائناً حقيراً، أما الأول؛ فكان يدعى (عبد الله بن سلام) وكان غنياً وقد أؤتمن على ثروة مقدارها (١٢٠٠) أوقية ذهب، فحفظها ثم ردها كاملة سالمة إلى صاحبها حين طالبه بها، فامتدحه الله تعالى في هذه الآية لأمانته.. وأما الثاني فكان يدعى (فنحاص بن عازورا) وكان من قريش، إذ أؤتمن على دينار واحد فخان أمانته، فذمه الله تعالى على خيانتته.

وقال البعض: إنَّ المقصود من العبارة الأولى جمع من الأنصار، وأما الذين خانوا الأمانة؛ فهم اليهود..^١ ولا مانع من أن يكون المراد الاثنين معاً، لعلمنا بأن آيات القرآن - عموماً - وإن نزلت في مورد خاص، إلا أنَّ لها عمومية أيضاً، وحسب الاصطلاح: لا مورد واحد لها.

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. القنطار لغةً بمعنى الشيء المحكم، ثم أطلقت الكلمة على المقدار الكثير من المال، ويقال للجسر قنطرة لمتانته، ويقال لمن كان ذكياً نبهاً (قنطر) لمتانة تفكيره عادةً، والمقصود

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٧٧

من القنطار في هذه الآية؛ المال الكثير. والمقصود من الدينار؛ المال القليل.

٢. ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ بمعنى الذين لم يتعلموا ولم يدرسوا ولا يحسنون القراءة والكتابة، ولكن المقصود هم مشركو العرب والأعراب الذين كانوا لا يحسنون القراءة والكتابة في المطالب، أو أن يكونوا جميع الذين لا علم لهم بقراءة التوراة والإنجيل. حسب أهل الكتاب.

٣. هذه الآية الشريفة تشير إلى الاختلاف الفاحش لدى أهل الكتاب في حفظ الأمانات والعهود، وهي تعني أن أهل الكتاب كانوا في تضادّ وعلى نقطتين متقابلتين.. فالبعض يخون دينار واحد؛ والبعض الآخر يبتلع الجمل بما حمل..

٤. يمكن أن يقال: مع أن بحث هذه الآيات وما سبقها قد ذكر أهل الكتاب بالاسم، فلماذا أعيد استعمال هذا اللقب مرّة أخرى هنا، مع إمكانية استعمال الضمير هنا، كأن يقال: ومنهم؟

ثم احتمالان للإجابة على هذا السؤال:

الاحتمال الأول: ذكر اسم أهل الكتاب في هذه الآية بسبب أنه لو اكتفي بإيراد الضمير لأمكن أن يتصور بأن هاتين الطائفتين اللتين ذكرتا في الآية (٧٥) هما نفس الطائفة الكتابية التي ذكرت في الآية (٧٢) حيث قالت: آمنوا بما أنزل من القرآن في أول النهار... في حين أن هذا المعنى لم يكن هو المقصود، ولهذا فقد ذكر اسم أهل الكتاب مرتين، واستعمل الاسم دون الضمير.

الاحتمال الثاني: أن علماء الأدب العربي يقولون بأن تعليق الحكم على الوصف يشير إلى العلّية، أي أن يقال في موضع: احترام الشخص الفلاني، ولو قيل: احترام الشخص العالم، فإن علّة لزوم احترامه قد توضّحت أيضاً.. وفي الآية مورد البحث التي ذكرت مقولة أهل الكتاب وكيف أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل وعدم أمانتهم، إنما أرادت إيضاح علّة ذمهم باعتبارهم أهل كتاب.. ولو أنهم كانوا جهّالاً ولم يدرسوا ولم يطلعوا على الكتاب السماوي،

لكان لهم أن يقولوا: لا حق لأحد في الاعتراض علينا.. وتبعاً لذلك؛ كان لهم - جدلاً - أن يبرروا أكلهم السحت والربا ومال الآخرين.. ولكنَّ العجب أن يعمد أهل الكتاب السماوي إلى أحاديث الباطل وأعمال السوء، مع علمهم بأن كتابهم السماوي لا يجيز لهم ارتكاب ما شاؤوا من مساوئ بعد أن بيَّن لهم كتابهم حكم الله وشرعه.. وهم يعلمون بعدم حلّية أكل مال الناس بالباطل.. ولذلك وردت إدانتهم وذمهم، وكانوا يستحقّون ما هو أشدّ من اللوم والتوبيخ..

تكبر اليهود

٥. هذه الآية تشير إلى أنّ الطائفة الخائنة منهم - مع أنّ خيانتها عمل قبيح ومضّر، وأنّه فعل شائع بين الأمم الأخرى - إلّا أن منشأ هذا العمل القبيح بينهم يعود إلى رذيلة أخرى، وهي ما تتضمّنه عقيدتهم من الأباطيل، ومنها مذهبهم الذي عبّر عنه قولهم: ﴿ليس علينا في الأمّيين سبيل﴾ أي أنّهم كانوا يعدّون غيرهم من الناس جهّالاً، ولمّا كانوا جهّالاً؛ فهم غير جديرين بمؤاخذتهم ومحاسبتهم وإدانتهم.. فلا حقّ لغير بني إسرائيل في أن يتسلّطوا على بني إسرائيل.. وهكذا تفشّت فيهم العنصريّة والتكبر واستحقار غيرهم من الأمم.. ولهذا قال القرآن تبعاً لذلك: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾.

٦. حيث أنّ القرآن المجيد لم يدين اليهود جميعاً في هذه الآية لجريرة طائفة منهم.. فهذا يتضمّن درساً أخلاقياً هاماً لجميع المسلمين، ويشير إلى أنّ ذلك الفريق اليهودي الذي يبيح لنفسه التصرف بأموال الناس وغصبهم حقوقهم.. لا يفهم منطقاً غير منطق القوة.. ويشهد لذلك سلوكهم ومنهجهم على مرّ العصور، إذ لا معنى للحقّ والعدل والرحمة في قاموسهم الفكري والأخلاقي.. وهذا.. في الحقيقة من جملة المسائل الملفتة للنظر التي تحدّث عنها القرآن وتنبأ بها في الآية أعلاه، ولهذا؛ ليس للمسلمين غير الإعداد ما استطاعوا من قوة لاسترداد حقوقهم من طريق...

الآية ٧٦

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ ۖ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. كلمة ﴿أوفى﴾ فعلٌ ماضي من مصدر باب الأفعال بمعنى إيفاء، والوفاء بالعهد يعني إتمامه وحفظه من أيّ تبرير ونقص، والتوفية من مصدر باب التفعيل بمعنى البذل بشكل كامل ووافي، والاستيفاء من مصدر باب الاستفعال بمعنى الأخذ بالتمام وبالوافي.

حقيقة القيمة الإنسانية

٢. معيار أفضلية الإنسان ومقياس قيمته: الوفاء بالعهد وعدم الخيانة في الأمانة والتقوى والورع في جميع الأمور. ولا ريب في أنه تعالى يحب هكذا أشخاص دون الكذابين الخائنين الذين يجيزون لأنفسهم التطاول على حقوق وأموال غيرهم وينسبون فقر الناس إلى الله تعالى.

الإسلام ينبذ الخيانة

٣. سؤال: يمكن أن يستشكل هنا ويقال بأنّ الإسلام ينسب هذا الحكم إلى أموال الآخرين، لأنّ الإسلام يجيز للمسلمين أن يملكوا أموال غيرهم!

الجواب: لا ريب أنّ نسب ذلك إلى الإسلام تهمة باطلة، وإنّ ما ورد في الآية أعلاه فيما يتعلّق بتعمّد اليهود الخيانة في الأمانة ومنطقهم في تبرير هذه الخيانة المذكورة؛ لا تعني الإباحة للمسلمين في التجاوز على حقوق غيرهم، بل قد أمر الشارع المقدّس المسلمين أن لا يخونوا أمانات الناس عندهم مهما كانت شاكلتهم وبلا استثناء، ذلك لأنّ من جملة الأحكام الإسلاميّة القطعيّة التي دوّنت في العديد من النصوص القرآنيّة والروايات المعصوميّة هي: حرمة الخيانة في الأمانة، سواء كانت هذه الأمانة لمسلم أو لغيره بمن فيه المشرك وعابد الوثن، وقد روي عن مولانا الإمام السجّاد عليه السلام أنّه قال:

«عليكم بأداء الأمانة، فوالذي بعث محمداً بالحق نبياً؛ لو أن قاتل أبي؛ الحسين بن علي بن أبي طالب ائتمنتني على السيف الذي قتله به لأدّيته إليه»^١.

وعن مولانا الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إن الله لم يبعث نبياً قط إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة؛ مؤدّة إلى البرّ والفاجر»^٢.

٣. كلمة ﴿بلى﴾ لغة تستعمل لإثبات المطلب، ولكنها في الغالب ترد في الحالات التي يطرح فيها السؤال بصيغة النفي، مثل قوله تعالى: ﴿ألمست بربكم قالوا بلى﴾^٣ وكذلك هي كلمة (نعم) ترد عند جواب السؤال الإثباتي، مثل: ﴿فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً قالوا نعم﴾^٤.

٤. الكرامة من الله والاحترام في محضره ليس مبذولاً ويسيراً بحيث يجند كل فرد على نسبته إليه أو بلوغه إياه، أو أن يعمد كل متكبر مخادع إلى نسب كل كرامة خاصّة بالصالحين من بني إسرائيل إلى نفسه؛ فيظنّ - مثلاً - أنّ مجرد اتّصاله - نسبياً - ببني يعقوب فضيلة من الفضائل.. وهذا مجرد وهم بعيد عن الحقّ.. وإنّما الشرف والنبل يكون حين الكرامة الإلهيّة الحقيقيّة التي لها شروطها؛ ومنها التزام الوفاء بالعهد الإلهي وإحراز التقوى والورع.. فإذا ما تمّ ذلك؛ حصلت الكرامة وصارت مستحقّة..

وهذا يعني أنّ الإنسان الذي يحظى بحبّ الله تعالى وولايته إنّما هو من العباد المتّقين، وآثار التقوى: نصره الله والتمتّع بالحياة الطيّبة التي تؤدّي وتنتهي إلى إعمار الدنيا وأهل الدنيا والتسامي في درجات آخرتهم..

١- الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ٢٤٦

٢- مشكاة الأنوار، ص ٤٦

٣- سورة الأعراف / ١٧٢.

٤- سورة الأعراف / ٤٤.

الآية ٧٧

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا
خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

شأن نزول الآية

عمد جمع من أحبار اليهود وعلمائهم أمثال (أبي رافع) و(حي بن أخطب) و (كعب بن أشرف) حينما رأوا أنَّ موقعهم الاجتماعي بين اليهود قد تعرّض للخطر؛ إلى تحريف النصوص الواردة في التوراة بخصوص خاتم الأنبياء صلوات الله عليه وآله، وكان من ضمنها ما كانوا قد دونوه بأنفسهم من قبل، بل وأقسموا على أنَّ ما حرّفوه هو من عند الله سبحانه.. فنزلت هذه الآية وحذرتهم بشدّة.

وقال جمع من المفسرين إنّ هذه الآية نزلت في (الأشعث بن قيس) الذي أراد. كذباً. تملك أرض شخص آخر.. وحينما استعدّ للقسم على ذلك نزلت هذه الآية، فخاف الأشعث وأقرّ بالحقّ وأعاد الأرض إلى مالکها الحقيقي^١.

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية تبين علّة حكم الآية السابقة التي تقول إنّ الكرامة الإلهيّة خاصّة بمن يفي بعهد الله ويتّقيه.. فيكون أنّ الآخرين الذين يستخفّون بعهد الله ويحرزون ثمناً قليلاً ومادّيات بسيطة بما يعتقدون من أيمان باطلة كاذبة.. ليس لهم كرامة عند الله، لأنّهم خانوا العهد الإلهيّ وتركوا التقوى لأجل بعض الملذّات الدنيويّة ورجّحوا شهوات النفس السيّئة على النبل والشرف

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٧٨

وعلى لذائذ الآخرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ ﴾.

٢. كلمة (اشترأ) التي هي مصدر فعل ﴿ يشترون ﴾ بمعنى يبيعون، وهي عكس كلمة شراء..

٣. من يبيع عهد الله تعالى بالمتاع الدنيوي الزائل، فعمله يشبه معاملة وعقدًا تجاريًا، باعتبار أنَّ عهد الله بضاعة، فيما المتاع الدنيوي قليل كلّه وبسيط: ﴿ يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا ﴾ فهم يبادلون أو يستبدلون عهد الله بمتاع الدنيا الذي هو قليل مهما بدا عظيمًا.

٤. كلمة ﴿ خلاق ﴾ بمعنى الفائدة والربح، وكلمة (التركية) بمعنى التربية وإنماء الشيء بما يناسبه..

عاقبة الخيانة

٥. قوله تعالى: ﴿ أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ﴾ إيضاح للنقاط أدناه:

الأولى: السبب في أنَّ من بين جميع أسماء الإشارة تمَّ استعمال اسم ﴿ أولئك ﴾ المخصوص للإشارة إلى البعيد، هو ليفهم أنَّ هذا الفريق بعيد عن الله تعالى، على عكس الأوفياء بعهودهم المقرَّبين من ربِّهم والمشمولين بحبِّ الله سبحانه وتعالى..

الثانية: أنَّ أفراد هذا الفريق محرمون في الآخرة من أيِّ نصيب محمود، ونفهم من ذلك أنَّ أفراد الفريق المقابل لهم هم الموصوفون بالقول الشريف: ﴿ من أوفى بعهده وأتقى فإنَّ الله يحبَّ المتّقين ﴾ وهم المأجورون في الآخرة، وهذا من أثر حبِّ الله تبارك وتعالى.

الثالثة: أنَّ تكون هذه الطائفة محرومة من تكليم الله تعالى، فإنَّه يعلم أنَّه سبحانه سيكلّم الطائفة المقابلة، لأنَّ التكلم من نتائج حبِّه سبحانه.

الرابعة: أنَّ الله تعالى في الآخرة لا ينظر إلى أفراد هذا الفريق بعين الرحمة، باعتبارهم خائنين للأمانة غير أوفياء للعهد وحاشين بأيمانهم بالله؛ فلا يزكّيهم ولا يغفر لهم.. ومن هذا يعلم أنَّ

أفراد الفريق الآخر سينظر إليهم ربهم بعين رحمته وسيركيهم ويغفر لهم وسيزيح عنهم العذاب، وهذه الخصائص وغيرها نتيجة محبة الله، أما سلب التوفيق والمحبة فتابع وناتج عن سوء السلوك والسرية.

خصائص الخائنين

٦. الخصائص التي ذكرها الله تعالى لعديمي الوفاء بعهودهم وللخائنين بأيمانهم بالله؛

ثلاث؛ هي:

الأولى: أنهم لا نصيب لهم في الآخرة، والمراد بالآخرة؛ دار الآخرة، والمقصود بدار الآخرة الحياة بعد الموت والقيامة الكبرى، كما أن المقصود بالدنيا؛ دار الدنيا والحياة قبل الموت، والعلة في افتقار هؤلاء وحرمانهم من النصيب الأخروي؛ أنهم فضّلوا نصيب الدنيا وربحها على نصيب الآخرة وربحها، فاختاروا الأولى دون الثانية، ومن هنا يعلم أن المراد من الثمن القليل هو الدنيا.

الثانية: أن الله عز وجل لا يكلمهم ولا ينظر إليهم في الآخرة، وهاتان الخاصيتان ستكونان من نصيب المتقين إلى جانب المحبة الإلهية حيث قالت الآية في ذلك: ﴿فإن الله يحب المتقين﴾ لأن الحب والمحبة يؤديان لأن يكون حب المحب مجرداً عن أي قيد وشرط، ومتى ما رأى محبوبه حاضراً؛ شرع في التكلم إليه، ولما كان سبحانه لا يحب بائعي الآخرة، فمن الطبيعي أن لا ينظر الله إليهم ولا يكلمهم في يوم القيامة، وهو يوم الحضور والمحضر الإلهي ويوم إحضار الخلق واستدعائهم.. أما عدم التكلم المذكور في المرحلة الأولى، وعدم النظر المذكور في المرحلة الثانية؛ فلأجل أن الأمرين متفاوتان في الدرجة لإيصال المحبة، بل هما يختلفان قوة وضعفاً، إذ التكلم أقرب إلى إعلان وإيصال رسالة المحبة من النظر.. وعليه؛ يكون المراد أنه تعالى لا يكتفي بعدم تشريفهم بالتكلم معهم، بل إنه سيحرمهم أيضاً من كرامة النظر إليهم..

الثالثة: أنه سبحانه قد أكد على عدم تزكيتهم من جانبه وأنَّ العذاب الإليم سيكون في انتظارهم، ولمَّا لم يقيّد الله تعالى كلامه بعذاب الدنيا أو الآخرة؛ فيعلم أنَّ عدم التزكية والعذاب الأخروي سيتضمّن عدم التزكية والعذاب الدنيوي.

٧. المراد من عهد الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ ﴿ إِنَّمَا الْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ عِبَادَتِهِمْ لَهُ وَحْدَهُ وَالْإِيمَانُ بِهِ رَبًّا فِيهِ كُلُّ صِفَاتِ الرَّبُّوبِيَّةِ الْمَطْلُوقَةِ.. وَإِنَّمَا جَمِيعُ الْعُهُودِ، وَعَهْدُ اللَّهِ الْمَشَارِإِلَيْهِ هُنَا وَاحِدٌ مِنْ مَصَادِيقِ ذَلِكَ.

٨. لا يفهم من التعبير بالثمن القليل في الآية أنَّهم لو باعوا عهد الله بثمن كبير، لكانوا قد فعلوا حسناً، بل المقصود والهدف من هذا التعبير هو أنَّ كلَّ ثمن مادي في مقابل هذه الذنوب العظام التي ترتكب يعدّ قليلاً لا قيمة له، حتّى إن كان سلطة ونفوذاً يشملان جميع الدنيا..

الآية ٧٨

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ
مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ
مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. المعيار في تشخيص الحق من وجهة نظر الإسلام هو دين الحق، وبعبارة أخرى: هو دين التوحيد، وسواء كان متبع الحق مسلماً أو غير مسلم من أهل الكتاب وكان يعيش تحت حماية ومظلة الإسلام ويدفع الجزية، والذي لا دين توحيداً يعتنقه ولا يسلم لحكومة هذا الدين، بل ويقف منه موقف المنازع والمحارب.. فعلى أساس فطرة كل إنسان نزيه منصف، فإن هذا المجرد عن دين الحق، المنازع المحارب لحياة ومعيشة الآخرين، وهذا النوع من الناس ليس لهم حق الحياة الاجتماعية في المجتمع الإنساني.

٢. في تعريف كلمة ﴿يلوون﴾ يجب أن يقال إن هذه الكلمة مشتقة من (اللي) بفتح اللام وتشديد الياء، ومصدر الفعل المضارع ﴿يلوون﴾ بمعنى لَفَّ الحبل وطيّه، وإذا ما استعملت الكلمة للرأس أو اللسان أعطت معنى غير طبيعي لحالتهما.. وقد استعمل القرآن هذا المعنى للرأس أيضاً ﴿لَوْ رَأَوْهُمْ﴾ وقد ورد في اللسان قوله تعالى: ﴿لَيَأْخُذُنَّ أَلْسِنَتُهُمْ﴾.

وظاهر المراد من جملة: ﴿يلوون ألسنتهم﴾ أنهم كانوا يقرؤون غير الخطاب السماوي الذي كتبوههم بأيديهم بلحن كانوا يقرؤون التوراة به، ليصوّروه على أنه جزء من التوراة، مع أنه ليس منها ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

الكتاب ﴿٥﴾.

٣. قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يبطل ادعاء اليهود المؤدّي إلى أنّ الأُمِّيَّينَ لا حقّ لهم في الاعتراض عليهم، ويدلّ هذا النصّ الشريف أيضاً على أنّهم كانوا ينسبون هذا الادعاء الباطل الكاذب إلى الوحي الإلهيّ وكونه حكماً دينيّاً قد شرع من قبل الله سبحانه..

٤. السبب في تكرّر كلمة ﴿الكتاب﴾ ثلاث مرّات في هذه الآية الشريفة لدرة الوقوع في الشبهة والخطأ، ذلك لأنّ كلّاً من الثلاث ليست بمعنى واحد.. ولهذا؛ كان المراد من الكتاب الأوّل الخطاب البشريّ اليهودي، حيث كانوا يكتبونه بأيديهم ثمّ ينسبونه إلى الله.. والمعنى الثاني هو كتاب الله.. وإنّما التكرار كان لمنع الاشتباه، وكذلك للإشارة إلى أنّه بداعي كونه كتاب الله؛ فإنّ مقامه أسمى وأشرف وكونه منزّهاً عن مثل تلكم الافتراءات والأباطيل، ويفهم هذا المعنى من لفظة الكتاب نفسها.

٥. نلاحظ تكرّر اسم الجلالة الشريف ثلاثاً كما تكرّرت كلمة الكتاب، حيث ورد بدءاً: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ إذ كان يمكن أن يقال في الجملة الثانية: وما هو من عنده، ولكن لم يتم ذلك؛ وإنّما تكرّر لفظ الجلالة المقدّس ليعلم أنّ القرآن حين صرّح بأنّ تلكم الافتراءات والأباطيل ليست من ﴿الله﴾ لأنّه هو الله جلّ وعلا، أي أنّه هو إله الحقّ، ومعلوم أنّ إله الحقّ لا يقول غير الحقّ كما قال هو نفسه تقدّست أسماؤه: ﴿وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾.

٦. تكرار كلمة ﴿الكتاب﴾ مرّتين في جملة ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تكذيب بعد التكذيب السابق، والتكذيب في الوحي الذي اخترعه اليهود من عند أنفسهم ونسبوه إلى الله تعالى، وهذا التكرار لتوعية الناس وتجنّيبهم الوقوع في الشبهة التي تتسبب قراءة اليهود لأكاذيبهم باللّحن الذي كانوا يقرؤون به التوراة.. وقد أبطل الله تعالى هذا اللّحن

في القول بقوله: ﴿ وما هو من الكتاب ﴾ علماً أنّ اليهود المزورين كانوا يصرّحون للناس بأنّ ما يقرؤونه جزءٌ من التوراة.. فكذب الله تعالى هذا الأمر مرّة أخرى بقوله: ﴿ وما هو من الكتاب ﴾ وتكذيب آخر بقوله: ﴿ ويقولون على الله الكذب ﴾ ليكون قد أشار بهذه النقطة إلى أنّ الكذب على الله من عادة اليهود ومسلّكهم، وليؤكّد سبحانه وتعالى أنّ هذه الأكاذيب التي يسطرونها لم تحصل بداعي اشتباه الأمر عليهم، بل إنّهم يعلمون الحقيقة، وإنّما يكذبون على الله عن سابق علم وعمد؛ لعنهم الله أنى يؤفكون!!

الآية ٧٩

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ
وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

روي أنَّ رجلاً جاء رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وقال له: إِنَّا نَحْيِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَنُسَلِّمُ عَلَيْكَ كَمَا يَسَلِّمُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، وَهَذَا مَا يَبْدُو غَيْرَ لَائِقٍ بِكَ، فَأَذِنَ لَنَا أَنْ نَمَيِّزَكَ عَنَّا وَنَسْجُدَ لَكَ، فَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُسْتَنْكَرًا: لَا يَجُوزُ السُّجُودُ لغيرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكُمْ أَنْ تَجْلُوا الرِّسُولَ كونه بشراً؛ وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا حَقَّهُ وَتَتَّبِعُوهُ...^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. نزول هذه الآيات فيما يلي الآيات المتعلقة بقصة النبي عيسى عليه السلام يشير إلى أنَّ هذه الآيات تمثل فصلاً ثانياً في إيضاح الدلائل على نزاهة المسيح عليه السلام في العقائد الخرافية التي ينسبها النصارى له، كما تحدّثهم وتنبّههم إلى أنَّ هذا النبي الجليل لم يدّع الألوهية لنفسه أبداً، وما قيل فيه بهذا الصدد مجرد أكاذيب وأباطيل قيلت فيه بعد رفعه إلى السماء، وكذلك هي - هذه الآيات - ردٌّ ودحض لرغبات من أراد نسبة مثل هذه الأكاذيب والأباطيل إلى نبي الإسلام أيضاً (كما ورد في شأن نزول هذه الآية)..
٢. يا أهل الكتاب! إنَّ حقيقة عيسى عليه السلام ليست كما تدّعون، فهو ليس ربّاً، وهو لم

يدّع الربوبية.. ودليل كونه ليس ربّاً؛ أنّه مخلوق بشريّ قد نما في رحم أمّه التي ولدته ورعته في المهد صبيّاً.. ومع ذلك؛ فهو لم يكن مخلوقاً عادياً، بل كانت خلقته كخلق آدم عليه السلام أبي البشر؛ صار من غير أب ولا أم، وتكوّن من غير العلل الطبيعية.. فمثله مثل آدم، ودليل عدم ادّعائه الربوبية أنّه كان نبياً رسولاً أعطي الكتاب والحكم والنبوة.. ونبيّ بهذه الهيئة لا يخرج عن نطاق العبودية فيسلك غير سبيلها.. وكيف يمكن له أن يقول للناس: اتّخذوني إلهاً وكونوا عباداً لي من دون الله أو مع الله؟! أو كيف يمكنه نفي نبوة أحد من الأنبياء كان الله قد اصطفاه لها؟ كأن ينفي المسيح عليه السلام رسالة ونبوة موسى عليه السلام.. والخلاصة: كيف يثبت المسيح عليه السلام حقّاً لأحد ما كان الله أعطاه له؟ أو كيف له أن يسلبه حقّاً وقد أعطاه الله إياه؟ إنّ هذه الآيات تنفي أباطيل فريق من أهل الكتاب وتصلح أفكارهم ومعتقداتهم.

٣. ﴿رَبَّانِيَيْنِ﴾ جمع ربّاني، وتقال لمن كانت صلته بالله تعالى قويّة وعميقة جداً.

٤. لما كانت كلمة (ربّ) تطلق على من يتحمّل مسؤولية إصلاح وتربية الآخرين، يكون مفهومها في هذه الآية: أنّه ليس من المناسب للأنبياء أن يدعوا الناس إلى عبادتهم، وإنّما الجدير واللائق بهم . في ظلّ تعليمهم الناس آيات الله والحقائق الدينية . أن يكونوا علماء ربّانيتين إلهيين . منسويين إلى الربّ الإله . فلا يعبدون غير الله، ولا يدعون إلاّ للعلم الإلهي، فيكونون الأسوة الحسنة التي يرتضيها الله تعالى لهم.

٥. من قوله تعالى: ﴿كونوا ربّانيتين﴾ يعلم أنّ هدف الأنبياء لم يكن تربية الناس فحسب، بل وتربية مصلحين وقادة للناس، وهم الذين يكونون قادرين على خلق البيئة الاجتماعية المتنوّرة بالإيمان والعلم والنضوج العقلي..

الآية ٨٠

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ
وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

شأن نزول الآية

جاء أحد اليهود ويدعى (أبو رافع) مع وفد نجران إلى المدينة وقال للنبي صلى الله عليه وآله: أتحب أن نعبدك ونقول عليك قولنا في الإله؟

(ولعل هذا وأمثاله كانوا يظنون بأن معارضة الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله للقول بالوحيّة عيسى عليه السلام بدافع كونه ليس له نصيب بهذا الصدد، ولو أنّ أهل الكتاب عدّوه إلهاً كما عدّوا المسيح عليه السلام من قبل لكنّ عن تلكم المعارضة المشار إليها... ولعلّ هذا الاقتراح كان مؤامرة لتشويه سمعة النبي صلى الله عليه وآله وإضلال الرأي العام تجاهه).

ولكنّ رسول الله صلى الله عليه وآله استعاذ بالله تعالى بأن يسمح ويرضى بأن يعبد الناس ربّاً غير الله الواحد الأحد، مؤكداً لأبي رافع ومن هم على شاكلته بأنّ الله تعالى لم يبعثه ليكون ربّاً أو يصدّ عن سبيل الله..^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآيات تدين بكلّ صراحة كلّ أنواع الشرك وعبادة الأصنام والطواغيت وتنمّي في الإنسان روح التجرّد واستقلال الشخصية، تلك الروح التي لا تناسب اسم الإنسان ما

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٨٢

لم تتحرّر وتستقل.

الشرك مرفوض كلّ

٢. كيف يمكن أن يدعو النبي الناس إلى التوحيد والإيمان ثمّ يعلمهم طريق الشرك.. أو كيف يمكن لنبيّ أن يذهب نتائج دعوات الأنبياء وجهودهم هباءً ويدعو الناس إلى الكفر والشرك؟!

٣. نعرف أشخاصاً كثيرين عبر التاريخ كانوا قبل بلوغهم الحكم والسطوة والنفوذ يتظاهرون بالنزاهة ويدعون الناس إلى الحقّ والعدالة والحرّيّة والإيمان، ولكنّهم سرعان ما غيّرُوا مسارهم بعد أن ثنيت لهم الوسائل وبسطوا نفوذهم حتّى انتهوا إلى الفرديّة المقيتة وراحوا يدعون إلى أنفسهم فحسب..

٤. أن من أساليب وطرق معرفة دعاة الحقّ وكشف دعاة الباطل هو أنّ دعاة الحقّ وفي مقدّمتهم الأنبياء والأئمّة عليهم السلام أنّهم كانوا منذ البداية يتمتّعون بأعظم القوى ويدعون الناس إلى الخير والأهداف المقدّسة الدينيّة والإنسانيّة؛ مثل التوحيد وأحدية الخالق والتحرّر.. إلّا أنّ دعاة الباطل حينما يبلغون مرحلة القوّة؛ فإنّ أوّل ما يدور في أذهانهم هو الدعوة إلى أنفسهم ويشجّعون الناس إلى نوع عبوديّة تتمخّض عن تملّق الناس وإذلالهم حتّى ينتهي الأمر بالأتباع إلى عبوديّتهم..

٥. ثمّ رواية منقولة عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام تعكس حقيقته المقدّسة، وهي بمثابة شاهد في هذا البحث.. إذ ورد أنّه عليه السلام مرّ بأرض الأنبار. إحدى مقاطعات العراق. فاستقبله جماعة الدهاقنة واصطفوا أمامه منحنين متدلّلين (ولعلّهم هووا ساجدين له) كما هي العادة آنذاك.. ولكنّ الإمام عليه السلام استاء للغاية من هذا التصرف واشتدّ اضطرابه حتّى صاح بهم قائلاً:

«ما هذا الذي صنعتُموه؟».

فقالوا: خُلِقَ مِنَّا نَعْظٌ بِهِ أَمْرَاءُنَا.

فقال: «والله ما ينتفع بهذا أَمْرَاؤُكُمْ، وَإِنَّكُمْ لَتَشَقُّونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَتَشَقُّونَ بِهِ فِي

آخِرَتِكُمْ، وَمَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابُ! وَأَرْبَحَ الدَّعَةَ مَعَهَا الْأَمَانُ مِنَ النَّارِ!»^١.

الآية ٨١

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي
قَالُوا أَأَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ﴿مِيثَاقٌ﴾ لغةً من مادة وثوق وهو بعض الاطمئنان والاعتماد، ولهذا؛ يقال للعهد المؤكدة الباعثة على الاطمئنان: موثيق.
٢. ورد الذم والتهديد في هذه الآية لخائني العهود، وقد أكدت على أنّ من ينحرف ولا يقتر بالنبِيِّ الذي تضمنت الكتب القديمة البشارة بظهوره وإنّما هو فاسق خارج عن طاعة الله الخالق: ﴿فمن تولّى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ ومعلوم أنّه سبحانه لا يهدي من كان فاسقاً معانداً؛ كما ورد في الآية (٨٠) من سورة (التوبة) الشريفة: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ ومن لا يستظلّ بهدى الله كان صائراً إلى الجحيم والعذاب الإلهي الشديد.

عهد إلهي قديم

٣. كما أنّ الأنبياء والأمم اللاحقة مكلفون باحترام الأنبياء السابقين ورسالاتهم وإجلال أصولهم العقائدية وكذلك كان الأنبياء والأمم السابقين مكلفين بالإيمان واحترام من سيليهم من الأنبياء والرسول.. ولطالما أشارت الآيات إلى وحدة هدف أنبياء الله تعالى، وهذه الآية نموذج حيّ من تلكم الآيات.

٤. قطع العهد مع الأنبياء يكون مع قطع العهد على أتباعهم، وقد كان موضوع العهد أنّ نبياً

إن ظهر وكانت دعوته متطابقة مع دعوة الأنبياء من قبله، وكانت كتب هؤلاء السابقين له قد ذكرت علاماته وصفاته (وهكذا تثبت حَقَانِيَّتُهُ). فلا يجب الإيمان به فحسب، وإنما يتوجب ويتعين نصرته أيضاً.

٥. ترى هل أن هذه الآية متعلقة ببشارة الأنبياء الماضين وعهدهم الذي قطعوه بخصوص خاتم الأنبياء عليهم السلام؟ أم هي متعلقة بكل نبي يأتي بعد نبي آخر؟
ظاهر تعبير الآية أنها مسألة كَلِّيَّة وعموميَّة؛ مع أن خاتم الأنبياء هو المصداق البارز لها، وهي تنسجم مع روح مفاهيم القرآن بالمعنى الواسع والشامل، وعليه؛ إذا وجدنا أخباراً تصرِّح بأنَّ المقصود من الآية هو النبي الأعظم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فهو من قبيل تفسير الآية وتطبيقها على مصداق واضح، دون أن يكون منحصرًا فيها.

٦. معلوم أن تلاميذ مدرسة ما إذا ما تعلَّقوا بها وأحبَّوها حبًّا جمًّا حتَّى أنَّهم امتنعوا عن الحضور في مدرسة إعداديَّة أعلى درجة؛ فإنَّ هذا لا يدلُّ إلَّا على التراجع والتخلُّف عن قافلة الترقِّي والتقدُّم.. وهكذا يكون الإصرار والتأكيد الوارد فيه أعلاه بخصوص أخذ العهد المؤكَّد على الأنبياء الماضين والأمم السالفة تجاه من يأتي من بعدهم من أنبياء.. كأنه لاجتناب التعصُّب والجمود والعناد.. إلَّا أنَّ المؤسِّف في الأمر هو إصرار الأمم المتلاحقة والمتعاقبة على عنادها ورفضها من يبعث فيهم من الأنبياء المتعاقبين ورفض ما يأتيهم من حقائق جديدة.

٧. رغم أن هذه الآية وردت في الأنبياء، ولكنَّ البديهيَّ فيها أنَّها تشمل أوصياء الأنبياء أيضاً، ذلك لعدم انفصالهم عنهم، ولأنَّ الجميع يجهدون في تحقيق هدف واحد.. ولطالما عمد الأنبياء إلى تعيين أوصيائهم وبشَّروا بهم ودعوا الناس إلى الإيمان والافتداء بهم ونصرتهم والتبرُّوء من أعدائهم ومناوئهم.. فإذا ما وجدنا روايات وردت في كتب التفسير أو الحديث

تؤكد على أنّ كلمة ﴿ ولتنصرت له ﴾ يقصد بها أمير المؤمنين عليه السلام وأنها تشمل مبدأ الولاية،^١ فهي إنما تشير إلى هذا المعنى..

٨. نقل الرازي في تفسيره عن الإمام علي عليه السلام قوله بأنّ الله تعالى حينما خلق آدم عليه السلام وجميع الأنبياء أخذ عليهم جميعاً العهد والميثاق بنصرة خاتم الأنبياء صلوات الله عليه وآله والإيمان به متى ما بعث.^{٢ (٣)}

٩. سؤال: مع الأخذ بنظر الاعتبار بمضمون هذه الآية فهل يمكن أن يبعث نبي من أولي العزم في فترة نبي آخر من أولي العزم أيضاً فيؤمر باتّباعه؟
ينبغي أن يقال هنا: كما أشير في تفسير الآية إلى أنّ الميثاق لم يؤخذ ولم يقطع على الأنبياء فحسب، وإنما سرى ذلك إلى أتباعهم أيضاً، والحقيقة هي أنّ المراد من أخذ الميثاق من الأنبياء هو أخذه من أممهم والأجيال التي تليهم والعصر الذي يأتي بعد النبي.. ولو أنّ نبياً أدرك نبياً آخر بعثه الله تعالى بعده، فإنّه لا ريب سيؤمن له، بمعنى استحالة حصول التفاوت بين أهداف الأنبياء أو حصول الخلاف فيما بينهم.

١- تفسير القمي، ج ١، ص ٢٥

٢- تفسير الامثل، ج ٢، ص ٦٤٠

٣- بل إنّ بعثة جميع الأنبياء والمرسلين ما كان أساسها وقاعدتها إلّا القول والتسليم لوحدة الله تعالى ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وولاية أمير المؤمنين والأنمة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين، وقد صرح بهذه الحقيقة حتّى في العديد من كتب المخالفين، كما في (ينابيع المودة) للقندوزي الحنفي [المترجم].

الآية ٨٢

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. يكشف التاريخ أنَّ أتباع دين ما؛ ليس من اليسير عليهم أن يعرضوا عنه ثمَّ يسلموا لنبيٍّ جديد قد بعثه الله تعالى فيهم، بل إنَّهم يستميتون في البقاء على جمودهم وتشبُّثهم بدينهم القديم والدفاع عنه، حتَّى لكانَّهم يرون في دينهم جزءاً أساسياً مصيرياً من وجودهم، كما يرون أنفسهم جزءاً أساسياً ومصيرياً من دينهم، ويعتقدون أيضاً أنَّ تركهم عقيدتهم فناءً لهويَّتهم.. ولذا؛ تراهم بالكاد يؤمنون لما هو جديد عليهم، ولعلَّ أساس وسبب الكثير من الحروب والصراعات الطاحنة التي وقعت طيلة التاريخ، كان التعصُّب والتطرُّف الديني والجمود على العقيدة، في حين إنَّ قانون التكامل يقول: لا بدَّ من تعاقب الأديان ليتطور الناس وأجيالهم في ظلِّ مسار معرفة الله والحق والعدالة والإيمان والأخلاق والفضيلة والإنسانية حتَّى يصلوا إلى دين خاتم الأنبياء.. كما هو شأن الطفل الصغير الذي يلزمه أن يتدرَّج في مراحل التعليم والتربية حتَّى يصل إلى الغاية من تأسيس المدارس والجامعات.

الآية ٨٣

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

بين التشريع والتكوين

١. لقد فسر القرآن المجيد الإسلام بالمعنى الواسع الشامل وأكد على أن جميع من في السماوات والأرض هم مسلمون مسلمون لأمر الله، ذلك لأن روح الإسلام هو التسليم للحق، والفارق بينهم؛ أن فريقاً منهم سلموا وأسلموا اختياراً ﴿طَوْعاً﴾ لقوانين الله التشريعية، وفريق آخر سلموا ﴿كَرْهًا﴾ لقوانين الله التكوينية، وذلك بسبب أن نوعين من الأمر الإلهي موجودان في عالم الوجود:

فمنه ما كان على صورة قوانين طبيعية وما فوق الطبيعية؛ وهي التي تحكم الموجودات في هذا العالم.. وكلها مجبرة على الخضوع ولا تتخلف لحظة واحدة، ولو أنها. على سبيل الفرض. تخلفت لانتهدت إلى الفناء والمحو، فأشعة الشمس التي تشرق على البحار وتتسبب في صعود البخار ثم بتشكيل الغيوم ثم بهطول الأمطار ثم بنمو النباتات والأشجار والأزهار.. كل هذه الحالات والمخلوقات مسلمة لأمر الله تعالى، لأن كلاً منها خاضع لقانون الخلقة المحدد والمرسوم لها.

والنوع الآخر من أمر الله تعالى، وهو المسمى بالأمر التشريعي، فيقصد به القوانين التشريعية السماوية وتعاليم الأنبياء، والتسليم لها تسليماً اختيارياً، والمؤمنون وحدهم هم من يستحقون اسم المسلم لتسليمهم، ولا ريب أن التمرّد عن هذه القوانين ليس بأقل من التمرّد على قوانين الخلقة، وهذا التمرّد مما يؤدي إلى الانحطاط والتراجع والفناء..

٢. حيث كانت كلمة ﴿أسلم﴾ في هذه الآية إشارة إلى المعنى الواسع للإسلام ويشمل قسمي الإسلام التكويني والتشريعي، ولذا قالت الآية بأنَّ جمعاً يسلمون ﴿طوعاً﴾؛ مثل المؤمنين، وجمع آخر يسلمون ﴿كرهاً﴾؛ مثل الكافرين في خضوعهم للقوانين التكوينية، وعليه؛ فهناك احتمالان في معنى الآية:

الاحتمال الأول: أنَّ الكافرين ومع عدم قبولهم الإسلام في مقابل قسم من التعاليم والأوامر الإلهية، فإنَّهم مجبرون على قبول القسم الآخر، فما الداعي لأن لا يسلموا لجميع القوانين الإلهية والدينية الحقّة؟

الاحتمال الثاني: أنَّ كثيراً من المفسرين ذكروا بأنَّ الأفراد المؤمنين يتجهون إلى الله تعالى في حال الرفاه والاستقرار برغبة واختيار، وأمّا غير هؤلاء؛ فيلجؤون إلى ربّهم حين العسرة ومواجهة المشاكل المستعصية، فيدعونه ويطلبون منه أن ينقذهم؛ مع أنَّهم يجعلون له شركاء في الظروف الطبيعية..

٣. يُفهم ممّا تبين من تعريف الإسلام أنَّ كلمة ﴿من﴾ الواردة في قوله تعالى: ﴿من في السماوات والأرض﴾ تشمل الموجودات العاقلة وغير العاقلة (وحسب الاصطلاح: إنَّ هذه المفردة خاصّة بالموجودات العاقلة بعنوان التغليب وبالمعنى الواسع للإطلاق والاستعمال) وكلمة ﴿طوعاً﴾ إشارة إلى الموجودات العاقلة المؤمنة، وكلمة ﴿كرهاً﴾ إشارة إلى الكافرين والموجودات غير العاقلة.

الآية ٨٤

قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. نحن غير قائلين بفرق في الحقائق بين رسل الله وأنبيائه، بل نقرّ بهم ونؤمن بهم جميعاً كونهم قادة إلهيين قد بعثهم الله تعالى لهداية خلقه، ونحن مسلمون لهذا الأمر الإلهي بروقته، وعليه؛ فإننا بذلك نقطع الطريق على دعاة الفرقة والاختلاف.

٢. في هذه الآية عُدّ الإيمان بجميع الأنبياء والرسل وكتب السماء معياراً للإيمان؛ لا سيما وأن التاريخ قد أثبت أنّ المتدينين بديانة يندران يؤمنوا بدين جديد أو نبّي جديد ويسلموا له بعد أن ينفضوا أيديهم عن الديانة القديمة، بل غالباً ما يواجهونهم باستماتة واضحة وجمود صارخ وتحجّر بغیض، فيدافعون عن ديانتهم وكأنّهم يدافعون عن أنفسهم، ويعدون تركها دماراً لقوميتهم، ولذا تراهم أصعب شيء بالنسبة لهم اعتناق الديانة الجديدة؛ وهذا الواقع كان سبباً مباشراً لاندلاع الكثير من النزاعات والحروب على مرّ التاريخ، وإنّ من أقسى الوقائع التاريخية وأمرها كان هذا التطرّف والجمود على الأديان القديمة.

٣. يقول قانون التكامل: لا بدّ من تعاقب الأديان الواحد بعد الآخر ليسير البشر ضمن مسار معرفة الله والحقّ والعدالة والإيمان والأخلاق الفاضلة والإنسانية حتّى يبلغوا إلى حيث خاتم الأديان، وإنّما حالهم في ذلك حال الطفل الذي يطوي المدايح بالتعاقب حتّى يصل إلى منتهى دراسته ويطوي طريقها.

الآية ٨٥

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ

دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٨٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. قال جمع من المفسرين إنّ هذه الآية قد نزلت في (١٢) رجلاً من المنافقين؛ كانوا أظهروا الإيمان ثم ارتدوا وعادوا من المدينة إلى مكة، فأعلنت لهم هذه الآية بأن من لم يعتنق الإسلام سيكون في الآخرة من الخاسرين.
٢. كلمة ﴿يَبْتَغِ﴾ من مادة الابتغاء بمعنى السعي، وتستعمل في الموارد الصحيحة وغير الصحيحة، وهي في الموردین تابعة للقرائن المتوفرة لدى استعمالها..
٣. استعرضت الآية الإسلام في مفهومه العام، وعدّته أصلاً كلياً؛ وهو التسليم للحق بالمفهوم الخاص؛ أي الديانة الإسلامية باعتبارها النموذج الكامل والأكمل، فتؤكد الآية على أن ميزان القبول في الآخرة هو اعتناق الإسلام في الدنيا.. ومع احترامنا لجميع الأديان الإلهية؛ فإنّ الإسلام المحمّدي هو الديانة الحقّة..
٤. كما يتوقع للطالب الجامعي أن يخوض مرحلة الدكتوراه مع احترامه لجميع الدروس التي قرأها في مختلف المراحل الدراسية الابتدائية والمتوسطة والإعدادية ومرحلة الليسانس والماجستير؛ فإنّ الدرس أو المرحلة الأخيرة المتبقية أمامه هي مرحلة الدكتوراه، ولو أنّه انشغل أو تشاغل عنها فإنّه لن يكون سوى خاسر بالقياس إلى ما تحمّله من تعب ومشقة طويلة سنيّه الدراسية المتقدّمة.. وهكذا هو حال المتهاكلين على التقليد الأعمى والتعصّب الجاهليّ والعنصريّ والخرافات التي اختلقوها بأنفسهم، حيث لن يجدوا سوى الندامة وضياع العمر بانتظارهم.

٥. نقرأ عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: يؤتى بأعمال الناس كلهم في يوم القيامة (المحكمة الإلهية) فتُسأل الأعمال فتقول كل واحدة منها: أنا الصلاة.. أو: أنا الصيام.. ثم يؤتى بالإسلام فيقول: يا رب! أنت السلام وأنا الإسلام، فيقول الله تعالى: اليوم أؤخذ الناس بك، وأثيب بك..^١

الآية ٨٦

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا
أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ

شأن نزول الآية

روي أنَّ رجلاً من الأنصار (حارث بن سويد) قتل شخصاً بريئاً وكان يدعى (محذر بن زياد) ولَمَّا خاف العقوبة ارتدَّ عن الإسلام وارتدَّ معه أحد عشر رجلاً من قومه، وفَرَّوا جميعاً إلى مكَّة.. وبعد فترة من دخوله مكَّة شعر بندم شديد وحار فيما يفعل.. فقَرَّر أن يرسل شخصاً إلى قومه في المدينة ليسألوا النبيَّ صلوات الله عليه وآله عما إذا كان ثَمَّ سبيل له إلى العودة أم لا.. فنزلت هذه الآية وكشفت عن قبول التوبة ضمن شروط محدَّدة.. فعاد الحارث بن سويد وجاء النبيَّ صلوات الله عليه وآله واعتنق الإسلام مجدداً وبقي وفيّاً للدين إلى آخر لحظة من حياته (إلا أنَّ الذين ارتدَّوا معه عن الإسلام لم يعودوا عن كفرهم وبقوا على حالهم)^١ وقد ورد في (الدر المنثور) وبعض التفاسير الأخرى شؤوناً أخرى للنزول، وليس فيها كثير تفاوت مع ما نقلناه..^٢

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ...﴾ استفهام إنكاري؛ والغاية منه هداية قوم ارتدَّوا عن إسلامهم على أنَّها هداية غير يسيرة، والمراد من استبعادها عدّها محالةً، كما قال سبحانه في آخر الآية: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٨٩

٢- راجع: الدر المنثور، ج ٢، ص ٤٩

٢. المراد بالكفر في هذه الآية: الرجوع إلى الكفر بعد اتّضح الحقّ وثبتت الحجّة، وهذا الكفر في نهاية المطاف كفر ناشئ عن العناد والعداء للحقّ واللّجاجة مع أهل الحقّ.. وهذا كلّ ظلم للغير، وهو ظلم لا ينتهي بصاحبه إلى النجاة والفلاح..

٣. كان الحديث في الآيات السالفة عن الديانة الوحيدة المقبولة من جهة المولى سبحانه، وفي هذه الآية صار الحديث عن الذين ابتغوا الإسلام ثمّ رجعوا عنه، وهو ما يسمّى في الاصطلاح الشرعيّ والعقائديّ: الرّدّة والارتداد.

الرّدّة والارتداد

٤. من هو المرتدّ؟ وهل تقبل توبة المرتدّ؟

المرتدّ هو الذي قبل الإسلام ثمّ رجع عنه. وهو على قسمين: مرتدّ فطريّ ومرتدّ ملّيّ.

أمّا المرتدّ الفطريّ؛ فيقال لمن كان أبواه مسلمين، وعلى حدّ قول البعض؛ هو من كان أبواه مسلمين حين انعقاد نطفته ثمّ قبل الإسلام ورجع عنه.

ولكنّ المرتدّ الملّيّ، فيقال لمن لم يولد لأبوين مسلمين؛ فقبل الإسلام بعد بلوغه ثمّ رجع عنه.

وتوبة المرتدّ الملّيّ تقبل؛ وتخفّف عنه العقوبة، دون المرتدّ الفطريّ الذي يشدّد عليه في الحكم وإن قبلت توبته عند الله تعالى، ولو أنّ ارتداده ثبت في محكمة الحاكم الشرعيّ؛ حكم بالإعدام عند أغلب فقهاء الإسلام، وورث عند وارثه المسلم وطلّقت عنه زوجته المسلمة، ولا تحول توبته دون تنفيذ هذه الأحكام المشدّدة بحقّه.. ولكن كما قلنا؛ فإنّ هذا التشديد مخصوص بالمرتدّ الفطري حين يكون رجلاً..

٥. يمكن للبعض أن يمتلئ عجباً من هذا التشديد في الحكم الشرعي بحقّ تاركي الدين؛ فيعدّونه شكلاً من أشكال العنف غير المبرّر وغير المفهوم والذي لا يتناسب وروح العطف الإسلامي.. ولكن يجب أن يقال إنّ لهذا الحكم فلسفة أساسيّة؛ وهي حفظ الجبهة الداخليّة

للبلاد المسلمة، ومنع تلاشيها والحيلولة دون نفوذ الغرباء والمنافقين فيها، ذلك لأنَّ الارتداد - في حقيقته - نوع ثورة وتمرد على نظام الحكم الإسلامي، والحكم شبيه بما هو معمول به في القوانين الدنيوية المعاصرة، حيث العقوبة هي الإعدام.. ولو أبيع للأفراد أن يعلنوا اعتناقهم الإسلام ذات يوم، ثم يستقيلون عنه في آخر النهار أو في اليوم التالي، فلا ريب أن المجتمع المسلم وجبهته الداخلية سيضمحلان ويتلاشيان، وسيكون ذلك تمهيداً لنفوذ الأعداء وعملائهم، وسيستبب ذلك بتكريس الفوضى في عموم المجتمع المسلم، وعلى هذا؛ فإنَّ الحكم المذكور عبارة عن حكم سياسي شُنَّ لحفظ الحكومة والمجتمع المسلمين ومواجهة الأيادي الأجنبية، وهو حكم ضروري كما يتضح.. إضافة إلى أنَّ من يعتنق ديناً كالدين الإسلامي بعد التحقيق ثم يرتد عنه ويتجه إلى دين آخر، فلا ريب أنَّه لا تبرير علمياً ولا عقلياً له، وعليه؛ فإنَّ ترك الدين لا بدَّ أن تتبعه عقوبة شديدة، وإذا ما رأينا في هذا الحكم تخفيفاً تجاه النساء؛ فذلك لأنَّ عموم الأحكام لها طابع التخفيف تجاههنَّ.

٦. واضح أنَّ علّة عدم هداية المرتدّين هي أنَّهم بمعرفتهم النبيّ صلى الله عليه وآله وشهادتهم له بالرسالة الحقّة وبالدلائل الواضحة؛ فإنَّ ارتدادهم وعدولهم عن الإسلام عبارة عن ظلم واستكبار، ومن يعمد إلى ممارستهما عن علم غير جدير بالهداية، بل إنَّه قد خرب أرضيّة الهداية من وجوده.

٧. المراد من ﴿البينات﴾ في الآية أعلاه؛ هي القرآن المجيد وسائر المعاجز النبويّة، والمراد من ﴿الظالمين﴾ هم الذين يظلمون أنفسهم بالدرجة الأولى باتخاذهم طريق الارتداد، وتسببهم في ضلال الآخرين بالدرجة الثانية.

الآية ٨٧

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. اللعن لغة بمعنى الطرد والإبعاد المقترن بالغضب، وفيما يتعلق بالله تعالى يكون معناه الطرد من رحمته، وأما فيما يرتبط بالملائكة والناس؛ فتعني الغضب والنفرة والطرد المعنوي، أو الطلب من الله تعالى أن يطرده من رحمته.
٢. لا شك في أن المرتدين هم تاركون لله تعالى وللدّين، وبترك العبوديّة لله وبظلمهم أنفسهم ومجتمعهم المسلم، سيسيروا عن سابق علم وعهد في طريق الضلال والعصيان والانغماس في الذنوب والمعاصي بحيث يكونون موضع تنفّر جميع العقلاء الذين يشملهم عنوان الإنسان والملك، بل وسيتعرضون لغضب الله تعالى.

الآية ٨٨

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. إنَّ كان هذا اللَّعْنُ والطرد غير أبديٍّ، أو كان أحياناً ثمَّ يحظى بالتخفيف والعفو التدريجي، أو يعطى مستحقَّوه المهلة على الأقلِّ، فإنَّ تحمُّله سيكون أيسر.. ولكن أياً من هذه الصفات غير سارية في هؤلاء الذين سيُعَذَّبون ويتألَّمون بخلودهم الأبديِّ في الجحيم، وعذابهم هذا لن يشمل بتخفيف أو مهلة.. فلا يقلِّل عذابهم وليست له نهاية.. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

الآية ٨٩

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ

بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. الهدف من قيد ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ هو أنَّ التوبة ليست مجرد ادّعاء، وإنما لابد أن تقرر بجبر ما فات والتطهر من قذارة الكفر التي علقت بالمرتد التائب، تطهراً باطنياً وظاهرياً، وهذه هي التوبة النصوح.
٢. أنَّ فتح الطريق لعودة المرتد المَلِيّ والإذن له بالتوبة؛ باعتبار أنَّ الإسلام هادف إلى الإصلاح والتربية، ومن أهم سبل الإصلاح والتربية إتاحة المجال للمذنبين والملوثين للرجوع إلى ربهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
٣. هذه الآية مثل كثير من الآيات القرآنية الأخرى.. إذ بعد القول بمسألة التوبة؛ صرحت بكلمة ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ للتأكيد على أنَّ التوبة ليست الندم على ما فات والعزم على عدم العود للذنوب في المستقبل فحسب؛ بل إنَّ قبول التوبة مشروط بالقيام بالأعمال الصالحة في القابل، ولذا؛ وردت الإشارة في بعض الآيات إلى الإيمان والعمل الصالح بعد إعلان التوبة، وفي هذه الآية والآية الستين من سورة (مريم) قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾.
٤. من قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ يعلم أنَّ ارتكاب الذنب يؤدي إلى حصول نقص في الإيمان، ولا بد من جبر هذا النقص الحاصل بعد التوبة.

الآية ٩٠

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ
تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾

شأن نزول الآية

قال بعض: إنّ هذه الآية تخصّ حال أهل الكتاب قبل البعثة النبويّة الشريفة، حيث آمنوا بالنبيّ الخاتم، ولكنهم كفروا به بعد ظهوره وبعثته فنزلت فيهم الآية. وقال آخرون: نزلت في الحارث بن سويد وأحد عشر رجلاً من أصحابه ارتدّوا عن الإسلام، ولكنّ الحارث ندم وتاب.. والأمر كما أشير إليه في بحث الآية السالفة، حيث لم يتب من كان معه من الذين ارتدّوا، حتّى أنّهم قالوا للحارث الذي دعاهم للتوبة: سنبقى في مكّة منازعين لمحمّد ونتوقّع هزيمته، فإنّ تمّ ما نتوقّعه وإلاّ فإنّ سبيل التوبة متاح، ومتى ما رجعنا قبلنا محمد، وسينزل فينا ما نزل في الحارث.. وحينما فتح رسول الله صلّى الله عليه وآله مكّة، رجع بعض هؤلاء إلى الإسلام وقبلت توبتهم. وصاروا في عداد الطلقاء. فيما البعض الآخر بقوا على حالهم حتّى ماتوا كفّاراً، فنزلت الآية الثانية..^(٢)

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٩٠

٢- وهناك من نقل عن آل البيت عليهم السلام القول بأنّ من أهمّ مصاديق الارتداد هو الردّة عن بيعة الغدير والكفر بمعنى (الإخفاء) بحقّ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، لا سيّما وأنّ الآية الخاصّة النازلة بشأن بيعة الغدير قد صرّحت بوجوب الإبلاغ النبويّ بما أنزل من الله بشأن الولاية العلوية وأنّ الله تعالى لا يهدي الكافرين بهذا الشأن، وعدم الهداية هي الضلال الذي يقع فيه من يكفر بعد الإيمان - الذي هو عبارة عن الإيمان بالولاية العلوية - وهي الزيادة في الكفر، وهي الضلال المبين. [المترجم]

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. بمزيد الالتفات إلى قوله سبحانه: ﴿أولئك هم الضالّون﴾ نصل إلى أنّه وبدليل شمول الآية لعدّة خصوصيّات فإنّها تحمل تأكيداً على ضلال الأفراد المذكورين؛ بحيث ينقطع الأمل بهدايتهم.

الخصوصيّة الأولى: أنّ الجملة وردت اسميّة.

الخصوصيّة الثانية: يفهم من كلمة ﴿أولئك﴾ الموضوعية للإشارة إلى البعيد أنّهم بعيدون أو مبعدون عن التكلّم والحوار.

الخصوصيّة الثالثة: استعمل فيهم الضمير المنفصل ﴿هم﴾.

الخصوصيّة الرابعة: ورود الألف واللام في كلمة ﴿الضالّون﴾ حيث الإخبار الموحى بانتهاء أمرهم باعتبارهم الضالّين المبعدين.

لقد كان الحديث في الآية السالفة عن الذين يندمون ويتوبون حقّاً ويرجعون عن ردّتهم، فقبلت توبتهم، ولكن حديث هذه الآية عن الذين لا تقبل توبتهم، وهم الذين آمنوا في البدء ثم كفروا وأصروا على كفرهم وصرّحوا بعدم استعدادهم لاتباع الحقّ وتعاليمه إلّا أن الأمور تضيق بهم وحيث لا يجدون طريقاً ومناصاً إلّا بالتوبة والرجوع. ولا ريب في أنّه تعالى لا يقبل توبة هكذا أفراد...

٢. فيما يتعلّق بسبب عدم قبول توبة هؤلاء الأشخاص ﴿لن تقبل توبتهم﴾ هناك ثلاثة احتمالات:

الأول: لأنّ توبتهم توبة ظاهريّة منافقة، وعدم تغيير بواطنهم وقلوبهم.. إذ تراهم يضطّرون اضطراراً إلى الاستسلام حيث يرون الحقّ وقد انتصر وسيطر، ومن الطبيعي والمعقول أن لا تقبل هكذا توبة.. بل إنّها ليست توبة أساساً.

الاحتمال الثاني: أنَّ هكذا أشخاص إنّما يظهرون ندمهم وتوبتهم حينما يبلغون حاقّة الموت.. ونعلم أن باب التوبة يغلق في تلك الساعة الرهيبة، وهذا هو منطوق ومفهوم قوله سبحانه: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ في حسابات الله عزّوجلّ ﴿أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(١).

الاحتمال الثالث: أنَّ المراد من التوبة غير المقبولة؛ التوبة عن الذنوب العادية في حال الكفر، مثل أن يصرّ أحدهم على كفره ولكنّه يمتنع عن ذنوب كالظلم والغيبة والفحشاء؛ فتكون توبته عديمة الفائدة، ذلك لأنّ غسل القذارة السطحيّة والظاهرية لن يؤثّر ولن يكفي في تطهير الروح والقلب من القذارة الشديدة التي لحقت بهما.

جدير بالذكر؛ أنَّ الاحتمالات والتفسيرات الثلاثة المذكورة لا منافاة بينها، ويمكن أن تكون الآية الشريفة ناظرة إلى جميع هذه التوبات عديمة الفائدة، مع أنَّ التفسير الأول أقرب إلى مفهوم الآيات السالفة وشأن نزولها.

الآية ٩١

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ
أَفْتَدَىٰ بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. واضح أنَّ الكفر يحبط أعمال الإنسان الصالحة، وهي لن تقبل منه ولو أنفق ما يعادل حجم الأرض ووزنها ذهباً، ولا ريب في أنه لو كان له مثل ذلك في يوم القيامة؛ فافتدى به؛ ما قبلت منه أعماله..

٢. معلوم أنَّ المراد من قوله تعالى: ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ هو الإيحاء بأنَّ هكذا أشخاص سيحرمون من شفاعة الشافعين، وهذا المعنى يفهم من نتيجة الجملة، وذلك لأنَّه تعالى لو كان قال: وما لهم من ناصر، ما استطعنا القول بأنَّ ثَمَّ ناصرًا في يوم القيامة، ولكنَّهم لا ناصر لهم، إلَّا أنَّه سبحانه قال: ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ واستعمال صيغة الجمع يوحي أنَّ ثَمَّ نصرًا وناصرين في القيامة؛ ولكنَّهم لا ناصرين لهم.

٣. في هذه الآية؛ فضلاً عن نفي وجود الناصر؛ فإنَّها نفت إمكانية أو قبول الفداء والكفارة أيضاً، لأنَّ للناصر والفدية وجهة بدليّة، والبدل إنّما يكون في مقابل شيء فات الإنسان (ككفارة الصوم في شهر رمضان) والمراد من نفي البدل في الآية الشريفة أنَّه لا مجال مجبر للفئات الدنيويّة في الآخرة؛ وهذا الفئات هو التوبة، ولا مجال لجبرها والتعويض عنها في القيامة.

٤. بديهي أنَّ الغاية من هذا التعبير ﴿ ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ أنَّ الإنفاق مهما تعاضم؛ فهو عديم الفائدة ما دامت الروح والنفس ملوثتين ومعاديتين للحق، وإلَّا فإنَّ الأرض لو

كانت ملؤها ذهباً فهي غير ذات فائدة إذ ذاك، وعليه؛ صارت العبارة كناية لبيان اتساع دائرة الإنفاق والعطاء..

٥. كلمة ﴿ ملء ﴾ في قوله سبحانه: ﴿ ملء الأرض ذهباً ﴾ بمعنى امتلاء الظرف بشيء يسكب فيه، وعليه؛ شَبَّهت الأرض بظرف مملوء بالذهب.. وهذا التعبير من قبيل الاستعارة التخيلية والاستعارة للكناية. أمّا الاستعارة التخيلية؛ فللقول بأن وجود هكذا ظرف هو ضرب من الخيال ولا وجود له في الدنيا. وأمّا الاستعارة للكناية؛ فللقول: على افتراض وجود هكذا ظرف؛ فإنّه لن يداوي جرحاً. كما يقال. لأنّ الذهب له قيمته في هذا العالم، ولا قيمة له في عالم القيامة الذي هو عالم من الملكوت؛ ولا قيمة للمادّيات في عالم الملكوت.

٦. واضح أنّ المقصود من قوله تعالى: ﴿ وماتوا وهم كفّار ﴾ هو موتهم وقد فاتتهم التوبة.. وعليه؛ لا يتناقض هذا الحصر الوارد في الآية مع قوله تعالى في الآية (١٨) من سورة النساء الذي جاء فيه: ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتّى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفّار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ لأنّ المقصود من حضور الموت هو اتّضح حلول ومجيء آثار الآخرة وزوال الدنيا بالنسبة إلى هذا الشخص.. وهنا تنعدم إمكانية قبول التوبة، وبالنتيجة؛ فالموت في حال الكفر يساوي التوبة في حال حضور الموت.. والحصر المستفاد من الآية مورد التفسير والبحث لا يتناقض مع الآية من سورة النساء.

٧. وضع المفسّرون احتمالين للمقصود من الإنفاق فيما إذا كان في هذا العالم أو في العالم الآخر، ولكنّ من الممكن أن تكون الآية ناظرة إلى العالمين، حيث لا يقبل الفداء بإنفاق جميع الدنيا ذهباً في حال الحياة أو في يوم القيامة، مع أنّ ظاهر الآية يشير إلى أنّه متعلّق بالعالم الآخر، ذلك لأنّ ظاهر الآية يصرّح بأنّ الكافر إذا مات وهو كافر. أي بعد الموت. فلو كان يملك جميع الدنيا وتصور قدرته على التخلّص من العقوبة الإلهية بالذي يملكه، وهو ملء الأرض ذهباً، فإنّما تصوّره هذا ضرب من الخيال والمحال، إذ لن ينفعه ما يملك وما يقدم شروى نقيير.

٨. مضمون الآية شبيه بما ورد في الآية (١٥) من سورة الحديد إذ قال تعالى: ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾.

٩. وردت الإشارة في خاتمة هذه الآية الجليلة بالقول: ﴿أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ أي: ليست الفدية وحدها هي التي لا تنفع. على فرض إمكانية تقديمها. بل إنّ شفاعة الشافعين لن تنال الكافرين الذين ماتوا وهم كفّار، إذ للشفاعة شروط ومساحة، وأهمّها: الإيمان بالله. وبالرسول وبالإمام المعصوم. ولهذا؛ لو أنّ جميع الشفعاء جمعوا في يوم القيامة ليشفعوا لرجل كافر، فلن تقبل شفاعتهم، بل إنّ الشفاعة إنّما تحصل طبقاً لأمر الله وإذنه، وهذا الكافر غير جدير بأن يشمل بالشفاعة المأذونة..

وفقنا الله تعالى للقدرة على تفسير الأجزاء القرآنية الأخرى..

الآية ٩٢

لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ
فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

أمثلة ونماذج من الإنفاق في سبيل الله عبر نفوذ القرآن إلى قلوب المسلمين

١. كان لأبي طلحة الأنصاريّ - وهو من الصحابة - بستان من نخيل في المدينة، وكان بستاناً رائعاً يلهم بذكره الناس، وكانت فيه عين ماء صافية، وكان النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله يشرب ويتوضأ منها كلّما مرّ بها، فضلاً عن كلّ ذلك، كان البستان هذا يدرّ على أبي طلحة المال والريح الوفير.. وبعد نزول الآية الكريمة أعلاه جاء أبو طلحة إلى رسول الله صلوات الله عليه وآله وقال: تعلم يا رسول الله أنّ هذا البستان هو أحبّ مالي إليّ، وإني عزمْتُ على إنفاقه في سبيل الله ليكون ذخراً لي في يوم القيامة. فقال له النبيّ صلّى الله عليه وآله: «بخ بخ؛ ذلك مال رابح لك» ثمّ أضاف القول: أرى أن تنفق من ثمنه على أولي قرباك.. فامثل أبو طلحة الأنصاريّ أمر النبيّ وقسمه بين أقربائه المحتاجين.^١

٢. دخل على أبي ذر رضوان الله عليه ضيف ذات يوم.. وحيث كانت معيشة أبي ذر معيشة بسيطة، فقد اعتذر من ضيفه لشغل كان يهتمّه، وأخبره بأنّ له بعض الجمال، وطلب إليه أن يتجشّم عناء الإتيان بأفضلها (لينحره له) فذهب الضيف وجاء ببعير ضعيف البنية، فقال له أبو ذر: لقد خنتني؛ لم جئت بهذا البعير النحيل؟! فأجابه الضيف: ظننت أنّك ستحتاج جمالك ذات يوم.. فقال أبو ذر: إنّ يوم حاجتي هو اليوم الذي أفارق فيه الحياة (وما أجمل أن ادّخر لذلك اليوم) وقد قال الله سبحانه: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.^٢

١- الكشف والبيان، ج ٣، ص ١١٠

٢- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٩٣

٣. قيل إنّ زبيدة زوجة هارون العباسي كان لها مصحف مزين بالذهب ومرصع بالجواهر الثمينة جداً، وكانت تحبه كثيراً، وذات مرة حيث كانت تقرأ منه، صادفها قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبون﴾ ففكرت في نفسها وقالت: لا شيء أحب إليّ من هذا المصحف ولابد أن أنفقه في سبيل الله، فأرسلت خلف بائعي الجواهر وباعتهم جواهره وذهبه وأنفقت ثمن الجواهر والذهب في صحراء الحجاز على مواضع للماء الذي يحتاجه الحجاج والمسافرون..^١ وقيل إنّ تلك المواضع لا تزال مشهودة وتسمى باسمها...

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. رغم عدم وضوح العلاقة بين هذه الآية والآيات السابقة إلا أنّ بعض المفسرين احتملوا أن يكون الخطاب في هذه الآية مثل الآية التي سبقتها والآية التي ستليها بخصوص بني إسرائيل، حيث جرى التنديد بإقبالهم وتعلقهم الشديد بالمال، وبمدى ترجيحهم له على دين الله عزّوجلّ مع ادّعائهم العلاقة بالله تعالى والانتساب إلى الأنبياء وأنهم من أهل البرّ والتقوى.. فقرعتهم على عبادتهم للمال والبخل في إنفاقه، وعلى أنهم إذا ما أنفقوا فإنّما ينفقون ممّا لا فائدة فيه ولا ينتفع به أحد من المحتاجين، هذا والحال أنّ أحداً لا ينال الخير إلا إذا أنفق ممّا يحبّ.. هذه كانت خلاصة التبرير والاحتمال بخصوص العلاقة بين هذه الآية وما قبلها وما بعدها.. ولكن يبقى هذا الاحتمال مجرّد احتمال قرين بعدم وجود الدليل الكافي..

آفاق البرّ

٢. مصطلح ﴿البرّ﴾ بفتح الباء لغةً بمعنى الوسع والسعة، فيقال للصحراء الواسعة ﴿برّاً﴾ حيث ينتفع منه الآخرون. ولعلّ التفاوت بين البرّ والخير في لغة العرب واستعمالهم؛ أنّ البرّ هو: فعل الخير المقرون بالالتفات والقصد والاختيار، فيما الخير هو ما يطلق على كلّ فعل

١- كشف الأسرار، ج ٢، ص ٢٠١

صالح وإن كان صدر من غير قصد..

٣. ممَّا يفهم من آيات القرآن أنَّ للبرِّ معنىً واسعاً ويطلق على جميع الصلاح ويعمَّ الإيمان والخير القلبي والأعمال الصالحة، كما ذكرت الآية (١٧٧) من سورة البقرة حيث عدّدت أنواع ومصاديق البرِّ وحقيقة الصلاح قالت: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

وللمفسرين تفصيل كبير في المقصود من البرِّ.. بعض ذهب إلى أنه الجتة، وبعض وصفه بالورع والتقوى، وبعض عدّه الثواب الجزيل.

٤. إنَّ لبلوغ مقام الصالحين الحقيقيين شروطاً ومقدمات كثيرة، أحدها الإنفاق من الأموال التي يحبّها الإنسان، ذلك لأنَّ الحبَّ الحقيقيَّ يجب أن يكون لله تعالى واحترام الأصول الإنسانية وفضائل الأخلاق، وهنالك يتّضح أنَّ الإنسان يقف عند مفترق طرق.. طريق المال والثروة والمنصب والجاه؛ وهي الأمور التي يحبّها ابن آدم حبّاً جمّاً.. وطريق آخر؛ حيث الله والحقيقة والعواطف الإنسانية النبيلة والصلاح.. فإذا ما غَضَّ ابن آدم الطرف عن الطريق الأوّل لصالح الطريق الثاني؛ علّم أنه صادق في عشقه وعلاقته.. أمّا إذا غَضَّ طرفه عن بعض الأمور الجزئية البسيطة - غير المكلفة - علّم أنَّ حبّه وعلاقته المعنوية بمقدار توجّهه واهتمامه، وهذا هو المقياس الذي يحدّد به مقدار إيمانه وشخصيته.

٥. لمّا كان كلّ إنسان - بشكل غريزيّ - متعلّقاً بجمع المال والثروة، وحريصاً على عدّ ما حصل عليه اليوم وغداً، فإذا ما فرّط بجزء بسيط ممّا جمع، صار كمن فرّط في جزء من نفسه وكيانه.. فإنَّ جهاد الإنسان في إنفاق ماله المتشبّث به أصعب وأشدّ من سائر العبادات والأعمال، إذ ليس في العبادة ما يعتبر نقصاً وزوالاً واضحاً كما هو الحال في الثروة والمال..

٦. ﴿وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ هذا النص الشريف دافع ومشجع للمنفقين، فما داموا يمارسون عملية الإنفاق؛ فعليهم أن يقروا عينا بأن أموالهم العزيزة الحبيبة لن تضيع ولن تذهب هدرًا، ولن يكون إنفاقهم بلا عوض وأجر، إذ أن الله الذي أمر بالإنفاق عليم بما ينفقون..

الآية ٩٣

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي
إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ
التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

شأن نزول الآية

يعلم من الروايات الشريفة ونقل المفسرين أنّ اليهود أشكلوا على النبي الأعظم صلوات الله عليه وآله عدّة إشكالات؛ مثل الإشكالين أدناه خلال حواراتهم معه صلى الله عليه وآله:

الف: أنّه كيف حلّل نبي الإسلام لحم ولبن البعير مع أنّهما كانا محرّمتين في دين إبراهيم عليه السلام وقد حرّمهما اليهود على أنفسهم اتّباعاً لدين الخليل عليه السلام بل وديانة نوح عليه السلام. فكيف لمن لم يحرمهما أن يتحدّث وينادي بدين إبراهيم عليه السلام؟!

ب: كيف يعدّ نبي الإسلام نفسه وفيّاً للديانات الإلهيّة العظيمة؛ ولا سيّما دين إبراهيم عليه السلام، مع أنّ جميع الأنبياء الذين كانوا من ذرّيّة إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام يجلّون بيت المقدس^(١) ويصلّون باتجاهه، إلّا أنّ نبي الإسلام غير قبلته واتّخذ الكعبة قبلة له ولأتباعه؟

هذه الآية الشريفة ردّت على الإشكال اليهوديّ الأوّل وكشفت أكاذيبهم، فيما الآيات القادمة ستردّ إشكالهم الثاني^٢.

١- بيت المقدس عبارة عن بقعة تقع في شرق مدينة القدس الفلسطينية؛ كان الأنبياء يصلّون ويتعبّدون فيها، أمّا المسجد المعروف؛ فقد شيّده الأمويّون في عهد عبد الملك بن مروان في حوالي السنة المئة الهجرية، ولم يكن من قبل، وذلك لحمل الشاميين على الحجّ إليه دون المسجد الحرام في مكّة المكرمة لئلا يتصلّوا بآبائهم الزبير [المترجم].

٢- مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٩٤ والتفسير الكبير، ج ٨، ص ٢٩٤ و ٢٩٥.

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. كلمة ﴿الطعام﴾ تعني كلّ غذاء يؤكل وله صفة غذائية، ولكنها كانت تطلق في أهل الحجاز على الحنطة فقط، بمعنى أنها إذا تجرّدت عن قيد أو قرينة فإنّها تعني الحنطة أينما قيلت.

وكلمة ﴿حلاًّ﴾ في مقابل الحرمة، فكأنّ هذا المعنى تكوّن من هذه الجهة، وقيل للحلال حالاً لأنّ كلمة الحلّ بمعنى الانفتاح وفتح العقدة، كما هي كلمة العقد بمعنى عقد العقدة وربطها.. وحلّ العقدة نوع من التحرير، وحلّية الشيء نوع تحرّر للإنسان.

٢. كلمة ﴿إسرائيل﴾ لغة؛ اسم ليعقوب النبيّ عليه السلام، وسمّي بإسرائيل لجهاده المبرير في سبيل الله وظفّره وتوفيّقه، ويطلق أهل الكتاب هذه التسمية على من يغلب الله (!!) ولأنّهم يؤمنون بأنّ يعقوب تصارع مع الله ذات يوم في موضع يقال له (فئيل) حتّى أسقطه أرضاً، فقد سمّوا يعقوب؛ إسرائيل (!!) وهذا ما كذّبه القرآن المجيد، ويعدّه العقل السليم محالاً وكفراً...

٣. فيما يتعلّق بإسرائيل وأيّ طعام حرّمه على نفسه؛ وعلة ذلك التحريم.. لم يرد إيضاح له في الآية الشريفة، ولكن ممّا يعلم من الروايات الإسلامية أنّه حينما كان تناول من لحم البعير ذات مزة أصيب بعرق النساء، أو أنّه كان يعاني من ذلك فاشتدّ عليه، فقرّر أن يمتنع عنه دائماً، فتبعه في ذلك من كان يتبعه، حتّى اشتبه الأمر على من جاء بعدهم وظنّوا أن امتناع يعقوب عليه السلام عن الأكل عن لحم البعير من تحريم إلهي، فاتّخذوه حكماً شرعياً ونسبوه إلى الله سبحانه وتعالى...^١

٤. لم يكن من الطعام الطيّب ما هو محرّم على بني إسرائيل قبل نزول التوراة، وقد أشير إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ إلا أنّ بني إسرائيل الذين أسرفوا في

١- تفسير القمي، ج ١، ص ١٠٧ و ١٠٨

الظلم عاقبهم الله تعالى عند نزول التوراة وبعثة موسى بن عمران عليه السلام؛ فحرمت عليهم بعض الأطعمة..

٥. في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أمر سبحانه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أن يدعو اليهود لأن يأتوه بالتوراة المتوفرة بين أيديهم، وأن يقرأ منها ليثبت كذبهم في ادّعائهم تحريم بعض الأطعمة، ولكنهم أحجموا عن خوض هذا التحدي لعلمهم بعدم وجود ما ادّعوا في توراتهم..

الآية ٩٤

فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. حيث أنهم لم يكونوا على استعداد للإيمان بالتوراة، وعدّوا الافتراء على الله تعالى أمراً مسلماً ولا إشكال أو لا مناص منه.. عليهم أن يعلموا بأن الذين يكذبون على الله ظالمون.. ظالمون لأنفسهم حيث عرّضوا أنفسهم للعقاب والعذاب الإلهي، وظالمون لغيرهم حيث أضلّوهم: ﴿فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾.
٢. من ظاهر هذه الآية يعلم أنّ كلام الله تعالى والخطاب الصادر عنه لرسوله صلى الله عليه وآله هو لطمأنة قلبه حيث أعلمه بأن اليهود.. طبقاً للإيضاح المذكور.. ظالمون، لجرأتهم على الكذب على الله تعالى، وهو تعريض باليهود.. والكلام هو على سبيل الكناية.
٣. هنا يطرح سؤال؛ وهو أنّ المفترى والكذاب ظالم دوماً.. فلم جرت الإشارة بعد بيان كونهم مفترين إلى أنهم ظالمون؟

الجواب؛ وما قال آخرون: الظلم لا يثبت ولا يتحقّق قبل اتّضاح الحقيقة، والاقتصار والحصر في عبارة ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ اقتصار وقلب، سواء كان من كلام الله تعالى أو كان تتمّة لكلام رسول الله صلى الله عليه وآله. وبدلاً عن أن يكون عمل هؤلاء منحصر في الظلم والتأكيد على أنّه لا يمكن تسميته بغير الظلم؛ فهو من باب المبالغة، والظلم منحصر في عمل هؤلاء وسلوكهم، وأنّ عنوان الظالم منحصر فيهم.. فقال ﴿هم الظالمون﴾.

الآية ٩٥

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. الآن حيث ترون أنني صادق في دعوتي، فلا بد لكم من الاستجابة لدعوتي التي هي دعوة إبراهيم عليه السلام الحنيفة، أي أنها كانت بعيدة عن الأديان الباطلة، وقد خلت عن الأحكام الضالة التي لا دليل عليها: ﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾.

٢. أن إبراهيم عليه السلام لم يكن من المشركين أبداً، وإنه لا معنى لأن يعد هؤلاء المشركون أنفسهم على دين الخليل عليه السلام.. وأين عبادة الأصنام من محطّم الأصنام؟!
٣. السبب في تكرار القول القرآني بأن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً ولم يكن من المشركين هو - كما أشرنا سالفاً - أن الصنميين الجاهليين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام، حتّى أنهم أمعنوا في هذا الادّعاء الكاذب بحيث سمّاهم الناس بالحنفاء (الإبراهيميين) فما كان من القرآن إلّا أن أصرّ على تكذيبهم تأكيداً مطلقاً.

٤. قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا..﴾ يبيّن أنّ ما يدعو النبيّ إليه ويخبرهم به هو الحقّ الذي لا يفارقه أبداً، فوجب عليهم اتّباعه والإقرار بدينه والاعتراف بحلّة لحم البعير، وكذلك جميع الطيّبات التي أحلّها الله تعالى، وإن كان قد حرّم شيئاً منها عليهم - اليهود - فلجهة العقوبة على ظلمهم.. وهذا ما أخبر الله تعالى به..

٥. قوله سبحانه: ﴿فَاتَّبِعُوا...﴾ بمثابة الكناية عن اتّباع دين رسول الله صلّى الله عليه وآله، وإن كان القرآن لم يذكر اسماً لدين إبراهيم عليه السلام وقال بدلاً من ذلك: دين إبراهيم،

فبداعي أنّ المخاطبين بقول القرآن كانوا يقبلون دين إبراهيم عليه السلام، وأوحى بأنّ دين الإسلام الذي يدعون إليه هو نفسه دين إبراهيم عليه السلام الحنيف والفطري، لأنّ دين الفطرة لا يمنع الإنسان من تناول اللحم الطاهر الطيب أو البحث عن الرزق الحلال..

الآية ٩٦

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. أشكل اليهود على النبي صلى الله عليه وآله إشكالين؛ وقد ورد الردّ على إشكالهم الأوّل فيما يرتبط بتحريم لحم البعير في الآيات السابقة، فيما ورد الردّ على الإشكال الثاني فيما يتعلق بفضيلة بيت المقدس وأرجحيّته على الكعبة المشرفة في هذه الآية وما يليها.^١
٢. يصرّح القرآن في هذه الآية بأن لا عجب في اتخاذ الكعبة قبلّة للمسلمين، باعتبارها أوّل بيوت التوحيد، وأنّها أقدم موضع عبادة الله تعالى على وجه الأرض، ولم يوضع قبلها بيت للعبادة ومناجاة ربّ العالمين.. فهي بيت للناس ولصالح البشريّة وتمثّل مركزاً لاجتماعهم، وهي موضع مبارك.
٣. تؤكّد لنا المصادر الإسلاميّة والتاريخ أنّ الكعبة شيّدت بيد أبينا آدم عليه السلام، ثمّ إنّ الضرر لحق بها في طوفان نوح عليه السلام، ثمّ أعيد بناؤها بيد إبراهيم الخليل عليه السلام، وعلى هذا؛ يكون اختيار أقدم بيوت الله تعالى قبلّة هو الفعل والحكم الأجدر؛ من كلّ ناحية.
٤. استعملت هذه الآية الاسم الآخر للكعبة؛ وهو: بيت الله وأنه بيت للناس، وهذا الاستعمال في التسمية يبيّن ضرورة جعل ما كان باسم الله والله تعالى لصالح الناس وعباد الله، وأنّ ما كان لصالح الناس وعباد الله يحسب لله أيضاً، مع أنّ من هذه الآية تتأكّد أهميّة دور السابقة في المسار الإلهي وفعاليتها.

١- راجع: مجمع البيان، ج ٢، ص ٧٩٤ والتفسير الكبير، ج ٨، ص ٢٩٤ و ٢٩٥.

سرّ الحجر الأسود

٥. أول فضيلة ذكرت للكعبة في هذه الآية تاريخها الأقدم، ويتجلى الردّ على الإشكال الذي يتناول موضوع إجلال الحجر الأسود (الأسعد) ذلك لأنّ من الناس من يتساءل عن السبب في قيمة قطعة الحجر هذه، بحيث صار ملايين البشر يتسابقون على استلامه وتقيله في كلّ عام، حتّى أنّهم ليعدّونه من الأفعال المستحبة المؤكّدة بالنسبة لكلّ زائر حاجّ..

ولكن بالالتفات إلى تاريخ هذا الحجر المميّز يتّضح أنّ خصوصيته غير متوقّفة بحجر آخر في العالم، ومن ذلك أنّه يمثل الحجر الأقدم الذي استخدم في بناء مركز عبادي.. لأننا نعلم بأنّ جميع مراكز العبادة ـ بما في ذلك الكعبة نفسها ـ قد تعرّضت للخراب والإعمار، وقد تغيّرت لدى ذلك أحجار البناء، أمّا الحجر الأسود؛ فهو الشيء الوحيد الذي بقي صامداً رغم مرور آلاف السنين وتعاقب الخراب وعمليّات التجديد، وعلى هذا؛ فإنّ أهميّة الحجر الأسود تتأكّد في كونه الأول والأقدم في أبنية مراكز العبادة ومصالح الناس، هذا بالإضافة إلى كونه قد ازداد بركة بتناول الأنبياء والأئمّة والأولياء له عبر آلاف السنين؛ حيث كانوا يتعبّدون ويناجون الله تعالى عنده؛ فهو إذن؛ يمثل إرثاً تاريخياً ودينياً وثقافياً لا مثيل له بالنسبة لأجيال المسلمين والمؤمنين عبر القرون التي لا تحصى..

٦. المسألة الجديرة بالاهتمام في هذه الآية هي أنّ الكعبة كانت وما تزال أول بيت وضع لعبادة الناس ربّهم، وعليه؛ لا مانع أن يكون قد سبقه بيوت بشرية للسكن على الأرض، وهذا التعبير ردّ واضح على من أشكل (كصاحب تفسير المنار المخالف) إذ قال بأن الكعبة بنيت للمرّة الأولى من قبل إبراهيم عليه السلام، وإن نسبة بنائها إلى آدم عليه السلام ضرب من الخرافة والخيال...^١ والحال أنّ إبراهيم قد سبقه من الأنبياء، ولا ريب أنّهم كانوا

١- راجع: تفسير المنار، ج ٤، ص ٦ و ٧.

يتعبّدون ربّهم المتعال في مواضع خاصّة، وعليه؛ كيف تكون الكعبة التي بناها إبراهيم باعتبارها البناء الأول لها. على حدّ تعبير صاحب المنار. فيما الأنبياء السالفون قد سبقوه في العبادة في محالّ خاصّة؟!!

٧. سؤال: ما المقصود من كلمة ﴿بَكَّة﴾؟

﴿بَكَّة﴾ لغة مأخوذة من مادّة البكّ (على وزن فكّ) بمعنى الاجتماع والازدحام، وقيل للكعبة أو للأرض التي بنيت عليها الكعبة ﴿بَكَّة﴾ لاجتماع الناس وازدحامهم فيها، ولا يبعد أن يكون هذا الاسم لم يطلق عليها في البداية، ولكنّها بعد أن عرفت وعدّت مركزاً للعبادة بشكل رسميّ سُمّيت ببكّة.. وقد روي عن مولانا الصادق عليه السلام أنّ مكّة هو اسم لمجموع المدينة، أمّا بكّة؛ فهو اسم لموضع الكعبة الذي بنيت فيه..^١ رغم أنّ بعض المفسّرين احتملوا أن تكون بكّة هي مكّة، وقد بدّلت الميم باءً، مثل كلمتي لازم ولازب اللّتين تفيدان معنى واحداً في لغة العرب...

وذهب بعض في تسمية الكعبة ببكّة إلى وجه آخر، وهو: أنّ كلمة بكّة تعني أو مأخوذة من تحطّم صفة التعصّب والغرور، فصارت الكعبة؛ هذا المركز العباديّ العظيم موضعاً لتجاوز جميع أشكال التعصّب والعنصريّة والتكبر والغرور، ووجب على جميع من يتّصف بهذه الصفات الرذيلة وأشباهاها أن يحجّوا كغيرهم من عامّة الناس تحطيماً لغرورهم وعنصريّتهم وبكاً لتكبرهم وتعاليتهم..

روايتان عن الكعبة

٨. روايتان عن الإمام الصادق عليه السلام حول توسعة المسجد الحرام:

قبل إيراد الروایتين يجب أن يقال إنّ هاتين الروایتين تتضمّنان استدلالاً لطيفاً متطابقاً

١- تفسير العياشي، ج ١، ص ١٨٧

والموازنين الحقوقية المعاصرة، وهو أنّ معبدًا. كما هي الكعبة. حينما يشيّد على مساحة أرض بكر، يكون شعاع الحاجة والضرورة هو المقدّم والمأخوذ بعين الاعتبار، وذلك في يوم البناء والتشييد، فيكون بمقدور الناس ومتاحاً لهم أن ينتفعوا من حدوده، أمّا في اليوم الذي تتضاعف الحاجة إلى اتّساع مساحة هذا المركز العبادي؛ فإنّ الحاجة إلى التوسعة تكون هي المقدّمة على حاجة الناس وعلى ما كان متاحاً لهم قبل ذلك..

الرواية الأولى

نقل في (تفسير العياشي) أنّ في عهد المنصور العباسي تقرّر العمل على توسعة المسجد الحرام لكثرة الحجيج، فاستدعى المنصور الساكنين حول المسجد الحرام ليشتري منهم بيوتهم ومحالّ أعمالهم، ولكنهم رفضوا أن يبيعوه بيوتهم ومحالّهم مهما عرض عليهم من الثمن.. فتحيّر المنصور (لأنّه لم يشأ تخريب بيوتهم ومحالّهم بالقوّة لئلا يثير من المشاكل ما لا يرغب، ولأنّهم رفضوا بشكل قاطع عرض المنصور) فما وجد إلّا أن يستفتي الإمام الصادق عليه السلام، فقال له الإمام: لا بأس عليك.. فهناك دليل واضح لك أن تستدلّ به.. فقال: وأيّ دليل؟

فقال عليه السلام: إنّ كتاب الله. فقال المنصور: وأيّ موضع من كتاب الله؟ فقال عليه السلام: قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ فإن كانوا بنوا بيوتهم ومحالّهم قبل بناء الكعبة؛ كان ما حول الكعبة لهم، ولكن إن سبقتهم الكعبة إلى ذلك؛ فما حول الكعبة عائد لها (ولمن يزورها ويحجّ إليها). فاستدلّ المنصور بما علّمه الإمام الصادق عليه السلام على من كانت بيوتهم ومحالّهم تراحم مشروع توسعة البيت الحرام، فقالوا مضطّرين: نوافقك على ما ترى!^١

١- تفسير العياشي، ج ١، ص ١٨٧

الرواية الثانية

ونقل في التفسير أيضاً نظير هذه الحالة والحادثة التي تكررت في زمن المهدي العباسي أيضاً، إذ سأل الفقهاء عنها، فقالوا جميعاً: ما لم يرَضَ مالكو البيوت والمحال؛ فإنه لا يجوز ضمّ ما هو مغصوب إلى بيت الله، فاستأذنه علي بن يقطين. وكان من الشيعة ووزيراً للمهدي العباسي. أن يسأل الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام في ذلك، فكتب المهدي إلى واليه على المدينة أن يسأل الإمام موسى الكاظم عليه السلام عن حلّ هذه المعضلة، فقال له الإمام عليه السلام: اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، إن كانت الكعبة هي أول البناء ثم تلاها الناس فبنوا حولها؛ فما حول الكعبة لها، وإن كانوا قد حلّوا في الموضع قبل الكعبة؛ فهم أولى..

وحين ورد جواب الإمام الكاظم عليه السلام على المهدي العباسي؛ سرّ له كثيراً حتّى أنّه قبل الكتاب ثم أمر بتخريب البيوت المجاورة لبيت الله.. فما كان من أصحابها إلّا أن قدموا على الإمام عليه السلام وطلبوا إليه أن يكتب كتاباً بهذا الصدد للمهدي ليعطيهم أثمان بيوتهم فكتب إليه أن يعطيهم ما يرضون به..^١

وهكذا يتّضح ما تتضمّنه هاتان الروايتان من استدلال لطيف متطابق والموازين القانونية والحقوقية المعاصرة، وهو أنّ مركزاً عبادياً كالكعبة المشرفة له أولويّته إذا ما كان قد بني. أول ما بني. ضمن حاجته..

وما لم تستدع الحاجة إلى التوسعة فإن لمن كان حوله من الناس أن ينتفعوا.. أمّا إذا تأكدت الحاجة إلى التوسعة؛ فإنّ حاجة الكعبة كمركز عبادي مميّز هي ذات الأولويّة وحقّ التقدّم.

١- تفسير العياشي، ج ١، ص ١٨٧

خاصيتان للكعبة

٩. ذكرت هذه الآية ميزتين أخريين للكعبة بعد ميزتها بكونها أول بيت وضع للناس:

الف: ﴿مباركاً﴾.

المبارك بمعنى عظيم النفع والفائدة، والكعبة مباركة من حيث الجهة المعنوية وكذلك الجهة المادية، فهي إحدى أعظم المراكز العالمية نفعاً وبركة.. وليس خافياً على أحد مدى بركة هذه البقعة المقدسة وجاذبيتها الإلهية وطبيعة الحركة الحاصلة فيها ومستوى الشعور بالوحدة والاجتماع؛ لا سيما في موسم الحج.. ولو لم يُكتَفَ بملاحظة الجوانب الشكلية للحج وعُمل على إحياء روحه وفلسفته.. لتكشفت للناس آفاق البركة الواقعية بشكل أكبر. وأما من الجهة المادية؛ فهي الكعبة. مع كونها في أرض قاحلة جرداء ولا تتناسب بشكل من الأشكال مع ظروف الحياة الطبيعية، إلا أن مكة - بفضل وجود بيت الله الحرام - صارت بمثابة المدينة العامرة الكثيرة النشاط والحركة المهيأة لممارسة الحياة والتجارة أيضاً.

ب: ﴿هدى للعالمين﴾.

الكعبة مصدر لهداية الناس، وهم ينحدرون إليها من المواضع القريبة والبعيدة بعد أن يقطعوا لها المسافات ويتجاوزون أشكال الصعاب ليحضرُوا مراسم الحج العظيمة التي انطلقت بالدعوة الإبراهيمية.. ولطالما أدى الناس شعائر الحج رغم تعرضها للخرافات الجاهلية من قبل، وهم لدى ذلك يمتنعون عن ممارسة الأفعال الخاطئة ولو كان ذلك مؤقتاً.. فكانوا - بمن فيهم عبّاد الأصنام - ينتفعون بهدى الكعبة، وجاذبية بيت الله الحرام المعنوية تؤثر في الناس حتّى أنّهم ينقادون لها في كلّ الأحوال والظروف..

الآية ٩٧

فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ
وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ
إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. فضلاً عن ميزة الكعبة في كونها أول بيت وضع للناس والميزتين الأخريين المذكورتين في الآية السابقة، ها هي الآية أعلاه تشير إلى ميزتين هنا:

الف: ﴿ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ﴾:

في هذا البيت دلائل واضحة عن عبادة الله والتوحيد والمعنوية، وإحدى الآيات البينات التي في هذا البيت؛ دوامه وبقاؤه على مر التاريخ رغم هجمات الأعداء وحرصهم على هدمه.. وهناك آثار نبيٍّ عظيم كإبراهيم عليه السلام إلى جانب ما بقي عندها مثل زمزم والصفاء والمروة والركن الحطيم حيث الحجر الأسود وحجر إسماعيل عليه السلام إذ كل واحد من هذه الآثار تمثل تاريخاً عريقاً يمتد إلى أبعد الأزمنة، وهي كلها بمثابة ذكريات جليلة خالدة..

ومن بين الدلائل والآيات البينات؛ مقام إبراهيم عليه السلام الذي ذكر بخصوصه، ذلك لأن موضوع وقوفه يذكر بعملية بناء البيت، أو بالقيام بمراسم الحج، أو بدعوة الناس لأداء هذه المراسم العظيمة، وعلى أي حال؛ فهو من أهم الآيات المذكورة والذكريات النادرة عن الفداء والإخلاص والتجمع..

فأن يكون المراد بمقام إبراهيم على وجه الخصوص تلك النقطة أو موضع قدمي إبراهيم عليه السلام المنحوت في الحجر، أو أن يكون المقصود به جميع الحرم المكي أو جميع مواقف الحج.. جرى الاختلاف بين المفسرين، ولكن الرواية المنقولة عن مولانا الإمام الصادق

عليه السلام في كتاب (الكافي) الشريف تشير إلى الاحتمال الأول..^١

ب: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾.

إبراهيم عليه السلام وبعد انتهائه من بناء الكعبة طلب من ربه المتعال الأمن لمدينة مكة وقال: ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾^(٢) فاستجاب الله تعالى له وجعل مكة منطقة أمن وأمان واطمئنان وروحي واجتماعي للناس حيث يزورون البيت الحرام ويحجّون إليه ويستلهمون منه، مضافاً إلى ما شرع من الأحكام الدينية، فصار أمنها مصاناً بحيث حرمت فيها الحرب، لاسيما وأن الكعبة أصبحت . من وجهة النظر الإسلامية . مأمناً ملجأً لا يجوز التعدي عليه، بل إن الحيوانات أيضاً صارت محرمة الصيد والمزاحمة.. وقبل ذلك؛ صار اللاجئون إلى البيت الحرام والمستجرون به محصّنين بأحكام الأمان، ولو كانوا من القتلة والجناة، حيث لايجوز التعرض لهم ولا إخراجهم منه بشكل مباشر، ولكي تحفظ حرمة الكعبة بشكل خاص، ولئلا تساء الاستفادة منها، ولكي لا يضيع حقّ مظلوم بلجوء المجرمين إليها، شرع التضييق عليهم بالمطعم والمشرب حتّى يضطّروا إلى مغادرتها ثمّ معاقبتهم على جرائمهم..

الحج لغة واصطلاحاً

٢. مفردة (الحج) لغة تعني القصد، ولذلك قيل للجادة والطريق محجةً (على وزن مودة) لأنها تبلغ بالإنسان إلى الغاية والمقصد، كما يقال للدليل حجةً، إذ المراد يتّضح بالبحث.. وحيث قيل للمراسم الخاصة حجاً باعتبار أن لدى الحركة للاشتراك في هذه المراسم يقصد زيارة بيت الله، ولهذا؛ أضيف في هذه الآية الحج إلى البيت الحرام..

١- راجع: الكافي، ج ٤، ص ٢٢٣

٢- سورة إبراهيم / ٣٥.

٤. يعلم بوضوح من (نهج البلاغة - الخطبة القاصعة) . ومن بعض الروايات الشريفة أنَّ فريضة الحجَّ قد شرعت منذ زمن النبي آدم عليه السلام،^١ ولكنها ما أخذت طابعها الرسمي إلا في زمن النبي إبراهيم عليه السلام،^٢ ثم تحوّل إلى طقس وسنة وتقليد في زمن الجاهلية.. ولدى الإسلام شرع الحجَّ بشكل كامل ومجرّد عن أنواع الخرافات.

٥. الحجَّ واجب مرّة في العمر على كلّ فرد مستطيع، ولا يفهم من الآية أكثر وأبعد من ذلك، لورود الحكم مطلقاً، والأداء مرّة واحدة يحقّق الامتثال وبراءة الذمّة، وإتّما الشرط الوحيد الذي ذكرته الآية هو (الاستطاعة) حيث قال تعالى: ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ ولا ريب أنَّ روايات المعصومين والكتب الفقهية بيّنت الاستطاعة باعتبارها: توفرّ الزاد والراحلة والمركب والقدرة البدنية وأمن الطريق والقدرة على إدارة شؤون الحياة عند الرجوع من الحجّ،^٣ وهذه الفروع كلّها تختزل - كما في الآية الشريفة - بالاستطاعة التي هي القدرة الشاملة لجميع الأمور المذكورة.

٦. يفهم من الآية أعلاه أنَّ قانون وجوب الحجّ بعد الاستطاعة مثل سائر القوانين الإسلامية (كالصلاة والصيام...) لا يختص بالفرد المسلم، بل الجميع مكلفون بالقيام به، وذلك طبقاً للقاعدة المعروفة القائلة: (الكفّار مكلفون بالفروع ما أنّهم مكلفون بالأصول) رغم أنَّ اعتناق الإسلام يعدّ الشرط الأول في صحّة الأعمال والعبادات، ولكن ينبغي الالتفات إلى أنَّ عدم اعتناق وقبول الإسلام لا يعني سقوط التكليف (وسيتّم التطرّق إلى أهميّة هذه المراسم العظيمة وفلسفة الحجّ وآثاره الفردية والاجتماعية في تفسير الآيات ١٩٦ إلى ٢٠٣ من هذه السورة المباركة بشكل مفصّل).

١- نهج البلاغة، ص ٢٩٢ و ٢٩٣ ومن لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٢٣٥

٢- تفسير القمي، ج ١، ص ٦٢

٣- راجع: وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٣ إلى ٣٩

٧. قوله تعالى: ﴿وَكُفِّرْ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^١ الوارد في خاتمة الآية للتأكيد ولبيان

مسألة الحجّ.

٨. مفردة (الكفر) لغةً بمعنى التغطية والإخفاء، وفي الاصطلاح الديني لها معنى واسعاً شاملاً لكل ما يخالف الحقّ؛ سواء فيما يرتبط بأصل الدين أو لدى مرحلة التعاليم الفرعية، وإذا ما رأينا غالب الاستعمال يتوجّه إلى مخالفة الأصول، فهو لا يعدّ حصراً للمعنى، ولهذا استعمل في هذه الآية بخصوص ترك الحجّ، وقد روي عن مولانا الصادق عليه السلام أنّ الكفر في هذه الآية بمعنى «ترك»^٢.

٩. ينبغي أن يُعلم بأنّ الكفر والابتعاد عن الحقّ - كما هو الإيمان والاهتمام بالحقّ - له مراحل ودرجات؛ ولكلّ واحدة منها أحكام مخصوصة، وبهذا يمكن أن تحلّ كثير من المشاكل والإشكالات الواردة على معاني الآيات والروايات الخاصة بالكفر والإيمان. وعليه؛ إذا ما ورد وصف المرابين^(٢) والساحرين^(٣) بالكفر، فإنّما يقصد به هذا المعنى.

١٠. يفهم مطلبان من هذه الآية:

المطلب الأول: أهميّة الحجّ الفائقة، حيث عبّر عن تركه بالكفر.. كما نقل المرحوم الشيخ الصدوق في كتابه (من لا يحضره الفقيه) الحديث النبويّ القائل:

«يا علي! تارك الحجّ وهو مستطيع كافر، يقول الله تبارك وتعالى: والله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإنّ الله غنيٌّ عن العالمين. يا علي من سوف الحجّ حتّى يموت؛ بعثه الله يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً»^٤.

١- تهذيب الأحكام، ج ٥، ص ١٨

٢- سورة البقرة / ٢٧٥.

٣- سورة البقرة / ١٠٢.

٤- من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٦٨

المطلب الثاني: أنّ أداء هذه الفريضة الإلهية المهمة كما هو أداء الفرائض والتكاليف الدينية يصبّ في صالح الناس، وغرضه تربيتهم، ولا يؤثر تركه والغفلة عنه بشيء على الله تعالى؛ إذ هو الغني عن كلّ مخلوقاته..

الآية ٩٨

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ

عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾

شأن نزول الآيات الأربع الأخيرة

من مجموع كتب الشيعة والسنة بخصوص شأن نزول هذه الآيات يعلم أن رجلاً من اليهود يدعى (شأس بن قيس) وكان طاعناً بالسن شهيراً بالعناد والضلال، قد مرّ ذات يوم بجماعة من المسلمين، فرأى فيهم من هو من الأوس ومن الخزرج، وهما القبيلتان اللتان طالما تنازعتا وخاضتا المعارك الدموية، ثم إنهما اجتمعتا وزال ما كان بينهما من أحقاد وانطفأت نيران جاهليتهما.. فانزعج (شأس) أيما انزعاج حين رآهما على تلك الحال الطيبة، حتّى قال في نفسه: إن هؤلاء المسلمين إذا ما سلكوا سبيل الصلح تحت قيادة محمّد (صلوات الله عليه وآله) فإنّ مستقبل اليهود سيكون في خطر ماحق.. وهنالك بدا له أمر، إذ أمر مجموعة من شباب اليهود أن ينخرطوا في صفوف المسلمين من جماعتي الأوس والخزرج فيحدّثوهم بذكريات واقعة بغاث الدمويّة (موضع إحدى الحروب الشرسة التي وقعت بين الأوس والخزرج) وأن يمعنوا في مثل هذا الحديث ليأجّجوا نيران الحقد وطلب الثأر..

فنقذ أولئك الشباب اليهود أمر (شأس) بأفضل ممّا كان يتوقّع، وسرعان ما تعالت صرخات مسلمي الأوس والخزرج، بل راح بعضهم يهدّد بإعلان الحرب وتجديد مشاهد تلك الواقعة المريرة والدمويّة، وكاد التنازع اللفظي بين الطرفين أن يقدح نيران حربهما..

فبلغ خبر ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله، فقدم إليهم بجمع من الصحابة المهاجرين وتحدّث معهم وخطب فيهم بما يهدّئ خواطرهم.. وسرعان ما استجابوا لدعوة الرسول الأكرم وكفّوا عن تهديداتهم المتبادلة وألقوا أسلحتهم، وأقبلوا يعانقون بعضهم البعض ويبكون،

وعلموا أنَّ ما سقطوا فيه كان مجرّد مؤامرة خبيثة خطّط لها أعداؤهم.. ثمَّ إنّ الصلح والسلام فرض نفسه على الطائفتين وزالت الأحقاد عن قلوبهم المسلمة...

في تلك الأثناء نزلت الآيات الأربع أعلاه، وقد حدّرت الآيتان الأولتان اليهود المضلّين، فيما حدّرت الآيتان التاليتان المسلمين..^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. في هذه الآية توجّه الخطاب إلى أهل الكتاب؛ والمراد بهم هنا اليهود منهم، وقد أمر الله تعالى رسوله أن يتوجّه إليهم بلسان الملامة والتنديد وأن يسألهم عن الدافع الذي يدفعهم إلى الكفر بآيات الله عزّ اسمه؛ مع علمهم بأنّه سبحانه مّطلع تمام الاطلاع على أعمالهم..
٢. المراد من ﴿آيات الله﴾ هنا؛ إمّا الآيات التوراتية المتعلقة بذكر النبيّ ووصفه.. وإمّا مجموعة الآيات والمعاجز النبويّة الشريفة الحاكية حقانيّته صلوات الله عليه وآله..

الآية ٩٩

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ
 سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبَعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ
 بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. يا أهل الكتاب! إن لم تكونوا على استعداد لقبول الحق، فما الداعي لإصراركم على إضلال غيركم من الناس، فتصوّرون لهم صراط الله المستقيم مائلاً منحرفاً؟ هذا في الوقت الذي كان يفترض أن تكونوا أول من يلبي الدعوة المحمدية، لا سيما وأن كتبكم قد طفحت بالتبشير به قبل ظهوره، وأنتم على علم تام بذلك ﴿ وأنتم شهداء ﴾.
٢. يا أهل الكتاب! لم تعمدون إلى تسميم الأجواء وإلقاء الشبهات والوساوس الشيطانية وإلى إشعال نيران الأحقاد، فتضلّون الناس عن الصراط السوي.. وها أنتم تنحرفون بعقول الآخرين ناهيكم عن انحرافكم المسبق عن سبيل الله وما تتحملون من مسؤولية جسيمة في إضلال الآخرين وصدّهم عن الحق ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾.
٣. لعلّ السبب في صدور التهديد والتذكير بأن الله تعالى غير غافل عن أفعالكم الشيطانية أيها اليهود، يعود إلى أنهم غالباً ما يعمدون إلى التخطيط والتآمر الخفي.. ممّا يؤثر في ضعف النفوس وخفي في العقول، ولذا رأيت القرآن المجيد يصرّح قائلاً: ﴿ تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴾..

الآية ١٠٠

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا

فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠٠﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ورد في هذه الآية التحذير للمسلمين المخدوعين أنهم إذا ما تأثروا بخطاب الأعداء المسموم، وأتاحوا لهم النفوذ إلى صفوفهم وتجاوبوا مع ما يدعونهم إليه، فإنه لن يمضي عليهم وقت حتى يهدموا عليهم صرح إيمانهم ويردّوهم كافرين، ذلك لأن الأعداء يسعون إلى إشعال نار العداوة بين المسلمين فيحملوهم على التنازع والتناحر.. ولا ريب في أنهم لا يكتفون بذلك، وإنما يواصلون ويتابعون النفث في أوساطهم حتى يبتعد المؤمنون عن إيمانهم بشكل تام.

٢. واضح أنّ المراد من الردّة إلى الكفر الذي أشير إليها في الآية أعلاه؛ هو الكفر الواقعي والاغتراب المطلق عن الإسلام، ويمكن أن يكون المقصود بهذا الكفر هو العداوة والنزاع الذي كان محتدماً في الجاهليّة، وهو لا ريب. شعبة من شعب وعلامات الكفر.. ومعلوم أنّ الإيمان معين المحبّة والأخوة، فيما الكفر مصدر التفرّق والعداوة والبغضاء.

الآية ١٠١

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُ ۖ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ إشارة . في الحقيقة . إلى أَنَّ الآخرين إِنْ ضَلُّوا فلا تعجبوا، وإِنَّمَا العجب في أشخاص كان الرسول صَلَّى الله عليه وآله بين ظهرائهم وهو دائم الاتصال بالوحي، ومع ذلك تراهم قد ضلُّوا، ولا ريب أَنَّهُم هم المقصَّرين الحقيقيين في ضلالهم، كما سيكون عقابهم أليماً جداً.
٢. قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ جرت فيه الوصية للمسلمين أَنَّهُمْ إِذَا ما أرادوا النجاة من وساوس الشيطان . الإنسي والجنّي . ولكي يهتدوا إلى الصراط المستقيم، فما عليهم سوى التعلُّق بأذيال اللطف الإلهي، والتمسك بذات الحق المتعال وبآياته البينات، وقد صرَّح القرآن بأنَّ مَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.
٣. من النقاط الملفتة للنظر والرائعة في هذه الآيات أَنَّ الخطاب كان في الآيتين الأولتين موجَّهاً إلى اليهود بالواسطة، ذلك لأنَّ الله تعالى أمر رسوله الكريم صَلَّى الله عليه وآله بأن يبيِّن لهم هذه المطالب، ولذلك ترى الآيات قد بدأت بكلمة ﴿قُلْ﴾، أمَّا في الآيتين الأخيرتين؛ فقد توجَّه الخطاب إلى المؤمنين وبلا واسطة وبلا كلمة ﴿قُلْ﴾ وهذا الأمر يشير إلى منتهى اللطف الإلهي ويعكس توجَّهاً خاصاً من الله لعباده المؤمنين.

الآية ١٠٢

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۚ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ

مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

بين التقوى والوحدة

١. في البدء؛ صدرت الدعوة إلى التقوى لتكون مقدمة إلى الوحدة الدينية والمجتمعية، ذلك لأنَّ الحثَّ على الوحدة دون الاستعانة بالجذور الأخلاقية والعقائدية تكون بلا قيمة أو تأثير مطلوب.

٢. في هذه الآية جرى السعي إلى إضعاف أسباب وعوامل الاختلاف والتفرق، وذلك تحت مظلة الإيمان والتقوى، ولذا، خوطب الأفراد المؤمنون بضرورة التزام التقوى والورع بحدهما الأعلى ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾.

٣. طال الكلام بين المفسرين في معنى (حَقَّ التقوى)، إلا أنه ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ معناه هو الدرجة العظمى منه، وهو يشمل الورع عن ارتكاب أشكال الذنوب والخطايا والتعدي والانحراف عن الحقّ.. وقد ورد في كتاب (المحاسن) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في معنى (حَقَّ تَقَاتِهِ): «يطاع ولا يعصى ويذكر ولا ينسى ويشكر ولا يكفر»^١.

٤. لا ريب في أنَّ الالتزام بالتقوى ورعاية حرمة الحقّ منوطة بمستوى الإنسان ومدى قدرته.. وعليه؛ فإنَّ مفهوم ومنطوق قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(٢) متَّفِق وما تشير إليه الآية

١- المحاسن، ج ١، ص ٢٠٤

٢- سورة التغابن / ١٦.

محطّ التفسير، فلا أساس للقول بالتضادّ بينهما أو نسخ إحداهما بالأخرى.. ومعلوم أنّ الآية الثانية تبين شروط ومساحة التقوى؛ وهي مدى استطاعة الإنسان وقدرته..

٥. قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ تحذير. في حقيقته . موجه إلى الطائفتين الرئيسيتين اللتين كانتا في المدينة . الأوس والخزرج . في عهد رسول الله صلوات الله عليه وآله، وإلى جميع المسلمين عبر العصور، بإعلان الإسلام غير كاف لوحده، وإنّما المهمّ أن يصطحب المرء إسلامه وإيمانه إلى آخر لحظات حياته، وضرورة أن لا يفترّ بإيمانه وأعماله الصالحة بتأثير من العصبية الجاهلية، لئلا يكون سوء العاقبة من نصيبه، ولذا ورد التحذير من أن لا يغادر المرء دنياه إلّا بالإيمان والإسلام الحقّ.

الآية ١٠٣

وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ
 اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ
 بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ
 مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

شأن وعلة نزول الآية

من النجاحات النبوية الباهرة التي تحققت بُعيد الهجرة إلى المدينة؛ أنَّ الإسلام أرسى قواعد السلام في المجتمع المدني آنذاك، ممَّا أسفر عن تأسيس جبهة قويّة باتّحاد المسلمين.. وحيث كانت قبيلتا الخزرج والأوس تقطنان المدينة في الحقة الجاهليّة، وكانتا تتقاتلان طيلة قرن من الزمن تقريباً، وكانت الخلافات بينهما قد بلغت الذروة، حتّى أنّهما كانتا تتعرّضان لخسائر بشريّة ومادّيّة جسيمة.. وقد أشارت الآيات السالفة إلى ناحية منها، كما ألمحت إلى دور الأعداء في تأجيج الصراعات فيهم، ولكنّ هذه الآيات تكشف عن نوع آخر من النزاعات القبليّة المتطرّفة بفعل نفوذ الأعداء المتظاهرين بالموّدة وإثارتهم للعصبانيّات الجاهليّة فيهم.

وقد قيل إنّ رجلين من الأوس والخزرج وهما ثعلبة بن غنم وأسعد بن زرارة تنازعا فيما بينهما ذات يوم، وراح كلّ منهما يدلي بمفاخر قبيلته التي نالتها بعد الإسلام.. فقال ثعلبة: إنّ خزيمة بن ثابت (ذو الشهادتين) وحنظلة (غسيل الملائكة) منّا، وهما من مفاخر المسلمين، وكذلك عاصم بن ثابت وسعد بن معاذ.. وفي مقابل ذلك؛ قال أسعد بن زرارة؛ وكان من الخزرج: لقد كان لأربعة رجال منّا كلّ الشرف

في نشر القرآن وتعليمه، وهم: أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد، هذا فضلاً عن أن سعد بن عبادَةَ رئيس وخطيب الناس في المدينة مثلاً... ثم إنَّ هذا التراشق اللفظي تصاعد واحتدَّ شيئاً فشيئاً، فعلم رجال الطائفتين فامتشقوا سيوفهم ليواجهوا بعضهم البعض حتَّى خشي على المدينة من اندلاع الحرب وإراقة الدماء كما كان يجري في سالف الأيام. فأخبر النبي الأعظم صلوات الله عليه وآله بالأمر فأسرع إلى اتِّخاذ تدبير خاصٍّ وحكيم وأزاح ذلك الخطر الماحق حتَّى استتبَّ الأمن في المدينة. وهنا؛ نزلت الآية أعلاه ودعت جميع المسلمين إلى السلام والاتِّحاد بما حملت من تأثير بالغ في النفوس..^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. بحث هذه الآية - في غايتها - راجع إلى مسألة الوحدة ومواجهة كلِّ أشكال التفرق ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾
٢. ذكر المفسرون احتمالات عديدة ومتفاوتة للمراد من ﴿حبل الله﴾ الذي يجب الاعتصام به.

الاحتمال الأول: أنَّه القرآن المجيد.

الاحتمال الثاني: أنَّه الإسلام.

الاحتمال الثالث: أنَّه أهل البيت سلام الله عليهم.

٣. رغم أنَّ الروايات والأحاديث تضمَّنت عبارات عديدة في معنى ﴿حبل الله﴾ ما ورد في تفسير (الدر المنثور) عن النبي الأكرم صلَّى الله عليه وآله هو القرآن^٢، وورد في (تفسير العياشي) عن الإمام الباقر عليه السلام أنَّ حبل الله آل محمَّد صلَّى الله عليه وآله، وقد أمر

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٨٠٤

٢- الدر المنثور، ج ٢، ص ٦٠

الناس بالتمسك بهم..^١ إلا أن هذه الأحاديث وغيرها وهذه التفسير وأمثالها لا تختلف فيما بينها، ذلك لأن المراد بحبل الله كل ما يعد وسيلة ارتباط بالله عز وجل، سواء كانت هذه الوسيلة إسلاماً أو قرآناً أو نبياً أو أهل بيت، وبعبارة أخرى؛ فإن جميع ما قيل له معنى (حبل الله) في مفهومه الشامل لدى العلاقة بالله تعالى.

٤. واضح أن الهدف من معنى (حبل الله) وأن القرآن والإسلام ورسول الله صلى الله عليه وآله والمعصومين الثلاثة عشر من بعده، هو في واقعه إشارة إلى حقيقة واحدة، إذ الإنسان وضمن الظروف الطبيعية ولدى التجرد عن المربّي والدليل سيسقط في قعر وادي الطبيعة، وفي بئر الغرائز المتمردة، وسيقع في ظلمات الجهل... ولكي ينجو من ذلك الوادي وهذه البئر المظلمة؛ يلزمه التمسك بحبل متين، وهذا الحبل المتين هو العلاقة بالله عن طريق القرآن والناطقين باسم الخالق إلى خلقه، وهم الذين يأخذون بأيدي العباد إلى مدارج السمو والرفعة وإلى حيث التكامل المعنوي والمادي.

٥. القرآن الكريم في هذه الآية وبالإشارة إلى نعمة الاتحاد والأخوة الإسلامية، يكون قد دعا إلى التفكير القويم بالوضع المؤسف الذي كانوا عليه قبل الإسلام ومقارنته بواقع الوحدة الذي قيضه لهم الدين، فدعا - فيما دعا - إلى عدم نسيان الماضي والعداوة التي كانت متحكمة فيهم، وإلى تذكر أنه تعالى قد أَلَفَ بين قلوبكم حتى أصبحوا بنعمته وفضله متحابين: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فأَلَفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾.

٦. استعمال كلمة (النعمة) مرتين في هذه الآية، يشير إلى أهميّة نعمة الوفاق والأخوة بين

المسلمين.

٧. القرآن نسب قضية تأليف قلوب المؤمنين إلى الله تعالى، وهذا. في الحقيقة. إشارة إلى معجزة اجتماعية للإسلام، ذلك لأن ماضي العداء بين العرب إذا ما أمعنا النظر فيه؛ وفي كيفية تجذّر العداء في قلوبهم وتصرفاتهم طيلة السنين المتمادية، وكيف كان متاحاً لمسألة أو خلاف بسيط أن يوقد نار الحرب والفتنة الدموية، لا سيّما وأنهم كانوا يرزحون تحت نير الجاهلية واللجاجة والعناد وعدم التنازل والتسامح.. هنا تتضح أهميّة وعظمة هذه المعجزة الاجتماعية التي أنجزها الإسلام بنبيّه وقرآنه، ويثبت بجلاء أنّ من المستحيل بلورة واقع اجتماعيّ متحد خلال سنوات معدودة بعد أن تحكّمت فيه سنون من الجهل والحقّد والعداوة المريرة والعنصرية المقيّنة...

٨. ﴿شفا﴾ لغةً هو حافة الشيء كالبر والخندق وأمثال ذلك، ولعلّ إطلاق كلمة شفا على حافة الفم كان لهذا المعنى، كما تستعمل أيضاً لحالة الخلاص من المرض حيث يستقرّ المريض إلى جانب السلامة والصحة، والمراد هنا أنّ أهل المدينة كانوا على حافة منحدر النار التي يكادون يسقطون فيها في كلّ آن.. ولكنّه سبحانه وتعالى أنقذهم من حالهم المرير وانتقل بهم إلى موضع الأمان والسلام، وهو موضع الأخوة والمحبة.. ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾.

٩. وقع الاختلاف بين المفسّرين في المراد من ﴿النار﴾ وما إذا كانت نار جهنم أو نار الدنيا.. ولكن لدى الدقّة في سياق الآية يتّضح أنّ النار هنا كناية عن الحروب والنزاعات التي كانت مستعرة بينهم في حقبة الجاهلية، إذ كانت أوضاعهم المريرة مهدّدة بالانفجار في كلّ لحظة، فأنقذهم الله تعالى بنبيّه وكتابه من تلك الحالة الفوضويّة والدُمويّة، ولا ريب أنّهم إذا ما قيّموا هذا الإنقاذ الإلهيّ حقّ تقيّمه، كان لهم أن ينجوا من نار الآخرة أيضاً.

١٠. أنّ الهدف النهائيّ هو الهداية والنجاة للناس، وحيث كانت منافعهم ومصائرهم هي الأمر المطروح، فلا بدّ لهم من الاهتمام الكبير بذلك: ﴿كذلك يبيّن الله لكم آياته

لعلكم تهتدون ﴿١﴾.

١١. عبر ما تقدّم من حديث عن التأثير الإعجازي للاتحاد في تحقيق الأهداف الاجتماعية

السامية، يمكن القول بأنّ النتائج الحقيقية والواقعية لم تدرك حتى الآن.^(١)

١- ولكن يبقى أنّ الذين اقتصروا على تفسير معنى (حبلى الله) بالقرآن فقط، قد أرادوا تحييد أهل البيت عليهم السلام، ولعلّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يكون من ضمنهم في هذا التحييد، عن أن يكونوا المقصودين بحبلى الله، وذلك طبقاً لقول قائلهم — حسينا كتاب الله — وهذه منهجية أدت إلى تضيق الدين وإزالة المعصومين عليهم السلام عن مراتبهم التي رتبهم الله فيها، ومنها أن يكونوا عدل القرآن وخلفاء الرسول والمبينين لحقائق القرآن وتعاليمه التي أراد الله تعالى للناس أن يعرفوها ويلتزموا بها.. مع ملاحظة أنّ القرآن بلا عثرة يتحوّل إلى كتاب غامض تتحكّم فيه احتمالات المفسّرين وآرائهم ويفقد خاصيته.. بالإضافة إلى أنّ نبينا الأعظم صلوات الله عليه وآله طالما صرّح وأكد على أنّه قد خلف في أجيال المسلمين كتاب الله وعترته أهل بيته، وأنهما لن يفترقا إلى يوم القيامة، فكان من الباطل المرير أن يعمد إلى اتّخاذ أحدهما دون الآخر حبلاً إلى الله تعالى، أمّا بعض الشيعة الذين قد (يتسامحون) في القول بأنّ القرآن هو المراد بحبلى الله تعالى؛ فلعلّهم يقصدون بأنّ القرآن نفسه — إذا ما فسر ضمن المنهج المحمّدي والقواعد العلوية المباركة — دالّ على مقام العترة النبوية الطاهرة وعلى أنّها الشعبة الثانية لهذا الحبلى المتين، إذ أنّ إمامة آل البيت هي ضمان الوحدة، فيما الرضى لها مدعاة الفرقة كما قالت السيّدة الزهراء عليها السلام في خطبتها المعروفة بالخطبة الفدكية حين أكّدت أن إمامة أهل البيت (عم) هي صمّام الأمان من الفرقة... بما يعني تبخّر الاعتصام بحبلى الله والمسير نحو الوحدة دون الإقرار بشنائية القرآن والعترة، وما هذا الواقع المرير الذي عاشه المسلمون منذ رحيل المصطفى صلى الله عليه وآله وإلى الآن إلّا نتاج عدم الإقرار المشار إليه [المترجم].

الآية ١٠٤

وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. الأمة في الأصل من مادة الأم، وهي كل ما يضم الأشياء الأخرى إلى نفسه، ولهذا قيل أمة للجماعة التي تتحد وتنضم إلى بعضها، وسواء كانت وحدة زمنية أو مكانية، أو من حيث الهدف أو الشاكلة، وعليه؛ فلا يقال للمتفرقين أمة..

٢. تبعاً للآيات السابقة التي تناولت مسألة الأخوة والوحدة، فإن هذه الآية تناولت مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي هي في حقيقتها مظلة اجتماعية تحافظ على المجتمع، لأنه في حال عدم توفر هذه المسألة فإن البنية الاجتماعية تتعرض للتهديد المباشر في وحدتها، ويكون حالها حال حشرة الأرضة التي تنخر الجذور وتهدم الكيان، وعليه؛ فإن من غير الممكن حفظ المجتمع من دون الرقابة العامة.

٣. سؤال: مع أن ظاهر جملة ﴿منكم أمة﴾ يشمل جماعة من المسلمين لا كلهم، فإن مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تأخذ طابعاً عاماً، فتكون واجباً كفائياً لا عينياً ووظيفة طائفة خاصة، رغم أن تربية هذه الجماعة مسؤولية الناس جميعاً، مع أنه يفهم من آيات أخرى أن لهاتين المسؤوليتين أفقاً عاماً وبعداً عينياً كفائياً، مثل قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ أو ما ورد في سورة (العصر): ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ فطبقاً لهذه الآيات وأمثالها تكون هاتان الوظيفتان غير مختصتين بشريحة محددة من الناس.

الجواب: بملاحظة مجموع هذه الآيات يتضح الجواب، ويعلم أن للأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر مرحلتين:

الف: المرحلة الفرديّة، حيث يكلف كلّ فرد لوحده بمراقبة أعمال الآخرين بما يسعه.

ب: المرحلة الجماعيّة، حيث تكلف الأمة برمتها في المشاركة للقضاء على الفوضى الاجتماعيّة والتعاون والتعاقد في إطار حلّ المشاكل والأزمات العامّة، وهذا التكليف يأخذ طابع الواجب الكفائي، في حدّ القيام به إنجازاً عاماً لمساحة أدائه الواسعة وطبقاً لشؤون الحكومة الإسلاميّة، وهذان الأمران في مواجهة الفساد والدعوة إلى الحقّ من ورائه القوانين الإسلاميّة.. ثم إنّ مسألة تقسيم الوظائف ضمن نظام الحكومة الإسلاميّة وضرورة تأسيس فرق الرقابة على الأوضاع الاجتماعيّة والمؤسسات الحكوميّة يحسب كلّ ذلك من قبيل أداء هذا التكليف الكفائي..

٤. حيث أنّ بحث موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعدّ من المباحث القرآنيّة المهمّة، وقد أشير إليه في ما لا يحصى من الآيات والروايات، فاللّازم هنا إيراد نقاط عدّة:

حقيقة المعروف والمنكر

النقطة الأولى: ما هو المعروف وما هو المنكر؟

المعروف لغةً هو الواضح والمعلوم (من مادّة العرف) والمنكر هو المجهول (من مادّة الإنكار).

وبهذا؛ تكون الأعمال الطيّبة أموراً معروفة، فيما الأعمال الخبيثة السيئة أموراً مجهولة والحقيقة إنّ الفطرة النزيهة تعرف وتقرّ بالمجموعة الثانية وتجهل وتستنكر المجموعة الثانية.

النقطة الثانية: هل أنّ الأمر بالمعروف وظيفه عقلية أم تعبديّة ودينيّة؟

يذهب بعض العلماء المسلمين إلى وجوب هاتين الوظيفتين بالدليل النقلي الثابت فحسب، ويقولون بأنّ العقل لا يفرض على الفرد أن يمنع فرداً آخر عن ممارسة ما لا يلحق الضرر إلّا به وحده.

ولكن ينبغي أن يقال: حيث لا وجود لما يسمّى بالضرر الفرديّ في المجتمع، وإنّ كلّ ضرر فرديّ - يمكن أن يلحق بالآخرين ضرراً عاماً، وحيث لا ضرر محدوداً في موضع معيّن على الصعيد الإنساني، وإنّما الضرر يسري بين الناس كسراية النار في الهشيم، ولهذا؛ يتاح عقلاً. لأفراد المجتمع أن يسعوا كلّ جهدهم للمحافظة على نقاء بيئتهم..

النقطة الثالثة: فيما يتعلّق بالأهميّة العقلية للأمر بالمعروف؛ فقد أشير إليه في أحاديث جمّة؛ نذكر منها هنا بعض النماذج:

النموذج الأول: روي في الحديث النبوي الشريف أنّ العاصي بين الناس كالذي ركب سفينة مع جماعة، فلما سارت بهم إلى وسط البحر تناول فأساً وانشغل في ثقبها، ومتى ما أنكروا عليه فعله، قال: إنّما أعطب سهمي من السفينة، ولو لم يمنع من كان معه لأغرقهم وأغرق نفسه.^١

والنبيّ صلوات الله عليه وآله بهذا المثال الحكيم عدّد واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحقّ الجماعة في مراقبة الفرد حقّاً طبيعياً تابعاً للاشتراك في المصير الواحد..

النموذج الثاني: قال مولانا الباقر عليه السلام: «إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة؛ بها تقام الفرائض وتأمين المذاهب وتحلّ المكاسب وتردّ المظالم وتعمر الأرض ويتتصف من الأعداء ويستقيم الأمر».^٢

النموذج الثالث: عن نبيّنا الأعظم صلوات الله عليه وآله أنّه قال: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في الأرض وخليفة رسوله».^٣

ويعلم من هذا الحديث بوضوح أنّ هذه الفريضة الجليلة. وقبل كلّ شيء هي منهج إلهي،

١- تفسير الامثل، ج ٣، ص ٣٧ و ٣٨

٢- الكافي، ج ٥، ص ٥٥ و ٥٦

٣- مستدرک الوسائل، ج ١٢، ص ١٧٩

وما بعثة الأنبياء ونزول الكتب السماوية إلا جزء من هذا المنهج والمخطط.

النموذج الرابع: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله بينما كان جالساً على المنبر، فسأله الرجل قائلاً: من خير الناس؟ فقال النبي صلوات الله عليه وآله: «أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأرضاهم».^١

النموذج الخامس: ورد في حديث نبوي آخر أنه صلى الله عليه وآله قال: «لتأمرن بالمعروف ولتنهعن عن المنكر؛ أو ليسلطن الله شراركم على خياركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم».^٢

النموذج السادس: عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «وما أعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجي».^٣

وما هذا التأكيد على هاتين الوظيفتين العظيمتين إلا لأنهما ضامنتان للعمل بسائر الوظائف الفردية والاجتماعية، وهما بمثابة الروح بالنسبة للبدن، وبتعطيتهما تفقد جميع الأحكام والأصول الأخلاقية قيمتها.

بين التناصح والحرية

النقطة الرابعة: هل الأمر بالمعروف يوجب سلب الحرية؟

ينبغي القول لدى الإجابة: مع التسليم بأن حياة شريحة من الناس ذات فوائد وبركات للناس، مما أدى إلى أن هذا النوع من المزايا صار دفاعاً لتشكيل الحياة الاجتماعية، وفي مقابل ذلك؛ قد أدت هذه الحياة إلى جملة من القيود، ولكن الناس يتقبلون هذه القيود نظراً لما يكتسبونه من فوائد لا تحصى، ولذلك تراهم يواصلون حياتهم الاجتماعية ولا يعدّون بعض القيود شيئاً يذكر.. وحيث أن مصائر الناس -ضمن الحياة الاجتماعية- متعلقة ببعضها، وكما

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٨٠٧

٢- بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٣٧٨

٣- نهج البلاغة، ص ٥٤٢

يقال: إنَّ أفراد المجتمع مؤثرون في مصائر بعضهم.. فإنَّ حقَّ الرقابة على أعمال الآخرين حقٌّ طبيعيٌّ.. وهذا من خواصِّ الحياة الاجتماعيَّة، كما أكَّد ذلك ما مرَّ من الحديث النبوي الشريف بشكل ملفت للنظر، وعلى هذا؛ فإنَّ أداء هذه الفريضة ليس لا يتعارض والحرِّيَّة الفرديَّة فحسب، وإنَّما هو عبارة عن مسؤوليَّة متقابلة تقع على عاتق أفراد المجتمع.

النقطة الخامسة: هل الأمر بالمعروف يؤدي إلى الفوضى؟ إذ لو كان لجميع الناس أن يتدخلوا ويراقبوا أعمال بعضهم، لكان هذا سبباً في تفشِّي الفوضى والاضطراب في الوسط الاجتماعي، وهو الأمر الذي يتعارض وقاعدة تقسيم الوظائف والمسؤوليات ضمن النظام الاجتماعي..

يقال لدى الإجابة على هذا السؤال والإشكال:

هذه الحقيقة قد اتَّضحت لدى الالتفات إلى المباحث السالفة باعتبار أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لهما مرحلتان: المرحلة الأولى ذات الأفق العام والشعاع والمساحة المحدودة، وهي لا تتجاوز حدود النصيح والاعتراض والانتقاد وأمثال ذلك، ولا ريب في أنَّ المجتمع الحي يتحمَّل جميع أفرادَه مسؤوليَّة التصدي للمفاسد. ولكنَّ المرحلة الثانية؛ وهي الخاصَّة بجماعة معيَّنة وتعدَّ من شؤون نظام الحكم الإسلامي؛ تمتاز بمساحتها الواسعة جدًّا، بما يعني أنَّ الأمر إذا استوجب الإصرار وممارسة القوة وحتى تنفيذ القصاص وإقامة الحدود؛ فإنَّ للجماعة المذكورة أن يؤدِّوا وظائفهم تحت مظلة الحاكم الشرعي ومسؤولي الحكومة الإسلاميَّة.. وعلى هذا؛ وبالنظر إلى المراحل المختلفة والمستويات المتفاوتة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود وتنفيذ القوانين، فإنَّهما لا يتسببان بالفوضى الاجتماعيَّة، بل ويخرجان المجتمع عن كونه مجتمعاً ميتاً متخاذلاً إلى حيث الحياة والنشاط والفاعليَّة والتأثير..

المعروف والمنكر والعنف!

النقطة السادسة: هل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منفصلان عن ممارسة العنف؟ مع ضرورة القبول والإيمان لدى تطبيق هذه الفريضة الإلهية والدعوة إلى الحق ومواجهة الفساد، بأهميّة حسن النية والغيرة الاجتماعية ونزاهة الهدف، وأن تطبيق فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون بمعزل عن العنف والقوة إلا في حالات الضرورة وذلك ضمن التحويل والإذن الشرعي الصادر عن المحكمة الإسلامية، وهو ما يحدث في مواقع نادرة جداً.. وإلا فإنّ تنفيذ فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون بالطرق السلمية البعيدة عن العنف.. إلا أنّ المؤسف في الأمر أنّ بعض الأفراد لدى قيامهم بهذه الفريضة يتوسّلون بالقوة في غير مواقع الضرورة وبشكل فرديّ، ولعلّهم في بعض الأحيان يستعملون عبارات بذيئة نابية، ولهذا نرى ردّة الفعل من المأمورين بالمعروف أو المنهيين عن المنكر غالباً ما تكون سيئة ومعاكسة في بعض الأحيان، هذا في حين أنّ أسلوب النبيّ والأئمّة صلوات الله عليهم أجمعين كان في غاية اللطف والحكمة والمحبة لدى أدائهم وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذلك رأينا تسليم أعنف الأفراد وأشدّهم عناداً، حين لمسوا اللطف والمحبة والحكمة الصادرة عنهم صلوات الله عليهم أجمعين.

ونقرأ في تفسير (المنازل) في ذيل هذه الآية أنّ شاباً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: أتأذن لي يا رسول الله بالزنا؟! فما كان من الحاضرين إلا أن صرخوا بوجهه واعترضوا على هذا الاستئذان الوقح، إلا أنّ النبيّ الأعظم صلوات الله عليه وآله قال له بكلّ هدوء: اقترب منّي، فاقترب الشاب وجلس بين يديّ النبيّ، فسأله صلوات الله عليه وآله بالقول اللين: وهل تحب أن يفعل ذلك بأمّك؟! فقال الشاب: كلاً فديتك بنفسي. فقال النبيّ: كذلك الناس لا يحبّون أن يفعل ذلك بأمّهاتهم.. وهل ترضى أن يفعل ذلك ببنتك؟ فقال الشاب: كلاً فديتك بنفسي، فقال صلوات الله عليه وآله، كذلك هم الناس لا يحبّون أن يفعل ذلك ببنايتهم، وأضاف قائلاً:

هل ترغب بذلك لأخواتك؟ فأنكر الشاب ذلك (وندم على سؤاله ندماً بليغاً) ثم وضع النبي يده على صدر الشاب ودعا له الله تعالى أن يطهر قلبه وأن يغفر له ذنبه وأن يحفظه من وساوس النفس والشيطان وأن يتكرم عليه بالعفاف.. ثم إنَّ الشاب صار الزنا أبغض شيء إلى نفسه..^١ وهذه كانت نتيجة اللطف واللين والحكمة في النهي عن المنكر.^(٢)

١- تفسير المنار، ج ٤، ص ٣٣ و ٣٤.

٢- بعد الإشارة إلى موضوع الاعتصام بحبل الله تعالى، وأن القرآن والعتره هما الحبل الإلهي الذي يجب الاعتصام به.. هاهي الآيات تحدّثنا وترشدنا إلى ضرورة أن توجّه الأمة المسلمة — المؤمنة — إلى أن تكون من نفسها كتلة رصينة تعيش ضمن رحاب المعروف والأمر به ورحاب النهي عن المنكر... ولدى ذلك، نجد أهل البيت عليهم السلام طالما بيّنوا للمؤمنين أن حقيقة المعروف وأوّل وأرقى مصاديقه هو: ولايتهم عليهم السلام حتى قالوا: إن بالمعروف تقبل الأعمال.. فيما المنكر أعداؤهم الذين ينصبون لهم العداء.. فإذا ما أراد امرؤ أن يأمر بالمعروف، كان لابدّ له من التحديث بنعمة الله الكبرى وهي الولاية العلوية [وأما بنعمة ربك فحدّث] وإذا ما أراد النهي عن المنكر؛ فلا بدّ من جعل أعداء أهل البيت عليهم السلام أول من ينهى عن الانتماء إلى صفّهم.. فيكون المعصومون هم المعروف الأرقى والمنكر هم أعداؤهم ومخالفوهم [المترجم].

الآية ١٠٥

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. دعت هذه الآية الشريفة المسلمين مرّة أخرى إلى الوحدة وترك الخلافات والتفرقة والنفاق كما هم اليهود والنصارى، وحثتهم على دراسة التأريخ والاطلاع والاعتبار بما لحق بغير المؤمنين من مصير أليم بعد اختلافهم وتفرّقهم.
٢. إصرار القرآن المجيد وتأكيد هذه الآيات على ضرورة اجتناب الفرقة والنفاق؛ فيه الإشارة إلى أن مجتمع المسلمين سيتعرّض إلى ما تعرّض إليه غيرهم، ذلك لأنّ القرآن حتّى ما أصرّ على شيء وحذّر منه، فإنّما يشير إلى احتمال وقوعه القريب.
٣. طبقاً للروايات والأحاديث النبويّة؛ فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد تنبأ بوقوع الاختلاف في أمته من قبل، وقد صرح بذلك للمسلمين وأخبرهم بأنّ اليهود قد تفرّقوا إلى (٧١) فرقة، وأنّ النصارى تفرّقوا إلى (٧٢) فرقة، فيما ستفترق أمته إلى (٧٣) فرقة.^١
٤. يبدو أنّ العدد (٧٠) هو للمبالغة والتكثير، ولعلّه لم يرد هنا على سبيل الحصر، فيكون المعنى أن بين اليهود كانت طائفة محقّة وبقيةتهم على باطل، وقد تكثرت فرق النصارى الباطلة ولم يبق منها سوى طائفة محقّة واحدة، وستظهر. قد ظهرت من قبل. بين المسلمين خلافات شديدة كثيرة.

١- الخصال، ج ٢، ص ٥٨٥

٥. على أساس الإشارة وإخبار القرآن والرسول؛ فإن المسلمين بعد استشهاد الرسول صلى الله عليه وآله قد اتخذوا طريقاً غير طريقه^(١) وبدّلوا الوحدة والألفة، وهي رمز النجاح والفلاح، إلى نفاق واختلاف، حتى تبدّلت حياتهم الطيبة إلى شقاء، وفزطوا في شموخهم وعظمتهم، ففترقوا شيعاً وكفر بعضهم بعضاً، حتى بلغ بهم الأمر إلى القتال والتناحر، كما انخرطوا قبل ذلك في السباب والتلاعن، بل إنّ منهم من استحلّ دم ومال وعرض غيره.. فتفاقم العداء فيما بينهم إلى الحدّ الذي يبيح البعض لنفسه أن يتخذ من الكافرين أولياء في قتال أهل ملّته.. ولا ريب في أنّ هذا الاختلاف والنفاق لا يؤدّي سوى إلى الدّل والهوان.. بل إنّنا إذا أردنا اكتشاف أسباب ذل وشقاء أمة من الأمم، فما علينا إلّا البحث عنها في اختلاف أبنائها.. ومعلوم أنّ الأمة التي تتعرّض إلى الاختلاف والتفرقة ستكون غاية متاحة لغزو الأعداء الأجانب؛ وهذا هو حقّ الهوان والعذاب الأليم.. أمّا عذاب الآخرة؛ فقد صرّح به الله تعالى في القرآن المجيد واصفاً إيّاه بكونه أشدّ من عذاب الدنيا بما لا يقاس، وهو بالمرصاد لمن سبّب ويسبّب الفرقة والتشردم.

١- بل إنّ الفرقة قد حصلت في أخريات حياته صلوات الله عليه وآله، وذلك حين مرض مرضه الأخير، إذ تنصّل الكثير عن أوامره، فقالوا: حسبنا كتاب الله، إذ أمرهم صلى الله عليه وآله أن يأتوه بدواة وقرطاس ليكتب لهم كتاباً لا يضلّون بعده إن هم تمسكوا وعملوا به، ولكنهم فضّلوا الضلال على الهدى... فأحدثوا الفرقة وعافوا الألفة.. [المترجم].

الآية ١٠٦ و ١٠٧

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ
 أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾
 وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾

النقاط المستفادة من هاتين الآيتين

١. تشير هذه الآية إلى يوم القيامة وكيف ستكون النتيجة النهائية للكفر والتفرقة والنفاق والردة إلى الجاهلية موجة لاسوداد الوجوه، وكيف أنَّ الإيمان والوحدة والوفاء سيوجبان نورانية الوجوه!؟

٢. لكل عمل يصدر عن الإنسان في الدنيا آثار عميقة وشاملة في روحه، وهذه الآثار وإن كانت عسيرة الإدراك في دار الدنيا، إلا أنها في يوم القيامة ستكون أسهل شيء إدراكاً، لا سيما بعد تعرُّض الإنسان إلى مراحل التغيير آنذاك، ذلك لأنَّ ما بعد الموت ستكون حاكمية وتجلي الروح أشدَّ وأعمق ممَّا قد يطرأ على جسم الإنسان، وعليه؛ فإنَّ حالات الإنسان وثوابه أو عقابه في العالم الآخر سيكون تجسيدا جلياً واضحاً لأفكاره وأعماله في هذا العالم.

٣. كما أنَّ الإيمان والوحدة في هذا العالم هو مادة النورانية وبيضاض الوجه وإشراقه، كذلك هو نفاق الناس وتفرقهم يؤدي إلى الظلامية والاسوداد في العالم الآخر، وهذه النورانية والظلامية ستتجسدان بهيئتهما الحقيقية في القيامة بعد أن كانت مجازية في الدنيا، وإنَّما يحشر أصحابهما بوجوه بيضاء أو سوداء..

٤. تَمَّت الإشارة إلى هذه الحقيقة في آيات قرآنية أخرى أيضاً، كقوله تعالى فيمن يصرَّ

على ارتكاب الذنوب باستمرار: ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً﴾^(١) أو
فيمن يفترون على الله الكذب: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم
مسودة﴾^(٢).

١- سورة يونس / ٢٧.

٢- سورة الزمر / ٦٠.

الآية ١٠٨

تِلْكَ ءَايَاتُ


 اللَّهُ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية تشير إلى المباحث الماضية فيما يرتبط بالاتحاد والإيمان والكفر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونتائج ذلك وعواقبه.. وإنَّ ما يصيب المتخلف عن التعاليم الإلهية، فهو نتيجة أعماله، والله ليس بظلام للعبيد.
٢. أن نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وآله حق، وليس من نسيج الخيال والخرافة والافتراء ﴿وتلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾.

الآية ١٠٩

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية تشتمل دليلين على عدم صدور الظلم عن الله عز وجل:

الدليل الأول: أنّ الله الذي هو مالك جميع الوجود والموجودات في العالم لا مفهوم للظلم فيه، إذ من يتعدّى على آخر في شيء إنّما يشعر بفقدانه وحاجته إلى ذلك الشيء وهو عند ذلك الآخر، ولكن ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾.

الدليل الثاني: إنّما يكون للظلم مفهوم حينما يقع عمل ما وهو لا يرضاه أو يتمّ من دون إذنه، أمّا الذي ترجع إليه كلّ الأمور؛ فيعجز الجميع عن فعل شيء إلا بإذنه وعلمه، بمعنى كونه سبحانه هو الذي أعطى عباده القدرة على فعل الشيء، وهو الذي يعلم بالأفعال.. فهو إنّما يحاسب الفاعل المسيء على فعله السيئ ولا حاجة به إلى الظلم، وإنّ ذاته المقدّسة بعيدة عن أن ترتكب ظلماً على الإطلاق...

الآية ١١٠

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ
أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. جرت الإشارة مرة أخرى في هذه الآية الكريمة إلى مواجهة الفساد والدعوة إلى الحق وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله تعالى كما مرّ في تفسير الآية (١٠٤).

٢. ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الآية باعتبارهما وظيفتين عامتين، في حين أنّ الآية السابقة تحدّثت عنهما ضمن مرحلة خاصّة مؤكّدة أنهما وظيفتان خاصّتان وواجبان كفائيّان، وقد مرّ شرح ذلك مفصّلاً.

٣. ذكر المسلمون في هذه الآية باعتبارهم الأئمة الأفضل وكونهم معبّون لخدمة المجتمع الإنساني، وإنّما جاءتهم الأفضليّة لأدائهم وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، لا لخصوصيّة عنصريّة فيهم، وهذا ممّا يعني أنّ إصلاح المجتمع البشري لا يتأتّى من دون الإيمان بالله والدعوة إلى الحق ومواجهة الفساد، كما يعلم من ذلك أن هاتين الوظيفتين العظيمتين لم يشرعا في الأمم السالفة كما شرعا في الإسلام من حيث السعة والتفصيل..

٤. واضح أنّ أفضليّة الأئمة الإسلاميّة كانت بداعي انتمائها إلى آخر الأديان السماوية الذي

هو بدوره أكمل وأفضل الأديان.

٥. ينبغي الالتفات إلى نقطتين في هذه الآية:

النقطة الأولى: رغم أن المفسرين في إطار بحثهم في تفسير كلمة ﴿كنتم﴾ الدالة على الماضي (أي: أنكم كنتم أفضل الأمم) قد وضعوا احتمالات عديدة، ولكن الأوضح صورة . كما يبدو . أن استعمال صيغة الماضي أريد منه تأكيد هذه الحقيقة، ونظير ذلك في القرآن المجيد كثير، حيث يستعمل للموضوع المسلم به صيغة الماضي باعتباره أمراً واقعاً حقاً.

النقطة الثانية: تقدّم ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هنا على الإيمان بالله، ممّا يشير على أهميّة وعظمة هاتين الوظيفتين الإلهيتين، يضاف إلى ذلك؛ أن أداءها ضامن لاتّساع رقعة الإيمان وتحقيق كافّة القوانين الفرديّة والاجتماعيّة؛ فهما مقدّمتان على واجب تطبيق القانون.

٦. ما لم تنفّذ هاتان الوظيفتان؛ فإنّ الإيمان سيتزعزع في القلوب؛ وتهدّم قواعده؛ ولذلك؛ قدّمتا على الإيمان.

٧. يتّضح من هذا الأمر أنّ المسلمين سيقفون في مقدّمة الأمم حين دعوتهم للصالح ومواجهتهم للفساد، ومتى ما غفلوا عن ذلك؛ فلا هم أفضل الأمم ولا هم نافعون للمجتمع البشري..

٨. المخاطب في هذه الآية هم عموم المسلمين؛ كما هو الحال في غالب الخطابات القرآنيّة، ولا دليل على قول من قال بأنّ المخاطب هنا هم المهاجرون أو المسلمون الأوائل.

٩. لا مجال لإنكار فوائد هذا الدين الواضحة وقوانينه وتعاليمه الفدّة، وعليه؛ فإن آمن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) كان ذلك من صالحهم، إلّا أنّ المؤسف أنّ الأقلّيّة القليلة منهم من تجاهل واستنكر العصبية الجاهليّة واعتنق الإسلام، فيما الأكثرية منهم خرجوا عن أمر الله

وتجاهلوا ما ورد من تبشير الإسلام في كتبهم وأصروا على الكفر والميل إلى عصبيتهم.. ﴿ وَلَوْ
 آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(١)

١- كما ورد عن أهل البيت عليهم الصلاة والسلام أن الأمة الخير التي أخرجت — جعلت للناس — هم مجموع المعصومين الأربعة عشر سلام الله عليهم [المترجم].

الآية ١١١

لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى
وَإِنْ يُقَاتِلْوْكُمْ يُوَلَّوْكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١١١﴾

شأن نزول الآية

حينما عاف بعض شخصيات اليهود من أصحاب الضمائر اليقظة، مثل عبد الله بن سلام وأصحابه دينهم واعتنقوا الإسلام، جاءهم جماعة من رؤساء اليهود ولاموهم على ذلك، بل وهّدوهم على ما أقدموا عليه من تركهم دين آبائهم.. والآية أعلاه بمثابة تضامن معهم وتبشير لهم، كما هي بشارة للمسلمين أيضاً.^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. تبشّر هذه الآية المسلمين الرازحين تحت ضغط الكافرين أو ممّن يدينهم الكافرون أو يهدّدونهم على اعتناقهم الإسلام، تبشّرهم بأنّهم عاجزون عن إلحاق الضرر بهم، وما أذاهم إلّا أذىً بسيطاً لا أثر له في إيمانهم، ولا يتعدّى أذاهم إلّا كونه أذىً لفظياً..

٢. الآية أعلاه بذكرها تنبّئين وبشارة للمسلمين، وهي الأمور التي تحقّقت لهم في العصر النبويّ بشكل عملي:

ألف: أنّ أهل الكتاب عاجزون عن إلحاق الضرر البليغ بالمسلمين، وما أذاهم إلّا أذىً جزئي: ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى﴾.

ب: متى ما واجهتموهم، فإنّ النصر سيكون حليفكم، ولن يجد الأعداء نصيراً لهم: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلْوْكُمْ يُوَلَّوْكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾.

١- راجع: مجمع البيان، ج ٢، ص ٨١٣ وأنوار التنزيل، ج ٢، ص ٣٣.

الآية ١١٢

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيَنْ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ
وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ
الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. تتضمّن هذه الآية الكريمة تنبؤاً وبشارة أخرى للمسلمين، وهي انكسار اليهود من بني قريظة وبني النضير وبني قنيقاع ويهود خيبر وبني المصطلق المضادين للإسلام على أرض الحجاز، إذ سيلقون الهزائم المتتالية في الحروب، وسرعان ما سيتوارون عن الأنظار.
٢. لن يستقيم اليهود في مواجهتهم للمسلمين، ولطالما سيرزحون تحت الذلّة والبؤس، إلا أن يعيدوا النظر في مواقفهم ويتخذوا من الحقّ سبيلاً، أو أن يستعينوا بغيرهم ليؤجّلوا هزائمهم المحتومة شيئاً قليلاً ﴿١﴾ وضربت عليهم الذلّة أيما ثقفوا.. ﴿٢﴾.

حبل الله وحبل الناس

٣. ﴿١﴾ ضربت عليهم الذلّة أيما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴿٢﴾ في الأصل عن مادة ثقف (على وزن سقّف) والثقف بمعنى تحقيق الشيء بمهارة، وتقال لكلّ ما يحصل عليه الإنسان بدقّة ومهارة.

٤. رغم عدم التصريح باسم اليهود في قوله تعالى: ﴿١﴾ وضربت عليهم الذلّة أيما ثقفوا... ﴿٢﴾ إلا أنّ القرائن المتوفرة في هذه الآية وما سبقها، وبقرينة الآية (٦١) عن سورة (البقرة) ومثيلاتها: قد صرّحت باسم اليهود، فيعلم أنّ النصّ هنا يقصد اليهود.

٥. مع أن المفسرين جعلوا احتمالات عديدة لمعنى قوله سبحانه: ﴿حبل من الله وحبل من الناس﴾ إلا أن خلاصة مفهوم الآية يؤدي إلى أنهم إما أن يعيدوا النظر في منهجيتهم ويعودوا إلى الله تعالى فيتطهروا من نفاقهم وحقدهم وشيطنتهم، وإما أن يتعلّقوا بهذا أو ذاك ليواصلوا نفاقهم في الحياة.

المغضوب عليهم!

٦. ﴿بأؤوا﴾ لغة بمعنى رجعوا، وهو كناية عن الاستحقاق.. أي أنّ اليهود وبداعي معارضتهم وممارستهم الباطلة ضدّ الدين الجديد يستحقّون العقاب والغضب الإلهي، حتّى كأنّ هذين الأمرين صاروا بمثابة المكان الذي يختارونه للمقامة لأنفسهم ﴿وبأؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة﴾.

٧. ﴿المسكنة﴾ بمعنى البؤس، بل وأسوأ البؤس الذي يصعب الخلاص والانتعاق عنه، وهي لغة مأخوذة عن مادّة السكن، ذلك أنّ المساكين هم الذين يعجزون عن الحركة والنشاط لضعفهم وحاجاتهم، بالإضافة إلى أن المسكين ليس مجرد ذي الحاجة الماليّة، وإنّما هو كلّ بؤس مزيج بالضعف والعجز أيضاً..

٨. ذهب بعض اللغويين إلى أنّ التفاوت بين المسكنة والذلّة هو أنّ الذلّة تطفح عنها رائحة الإجبار الصادر عن الآخرين، فيما المسكنة تعكس حالة انهزام شخصي وذاتي، وعلى هذا؛ يكون معنى الجملة كالتالي: أنّ اليهود وبداعي ممارساتهم الخاطئة قد طردوا من قبل الآخرين وتورّطوا بغضب من الله، حتّى تكرر هذا الحال فيهم وصار صفة ذاتيّة، بحيث بدؤوا يشعرون بالحقارة الملازمة رغم ما يتمتّعون به عن الإمكانيات.. ولهذا؛ لانجد شيئاً من الاستثناء في ذيل هذه الجملة.

٩. ورطة اليهود باستشعار الحقارة والهزيمة الذاتية ليس بسبب عنصرهم أو خصوصية ذاتية أخرى، وإنما بداعي ما ارتكبوا من أعمال مشينة، فهم -أولاً- قد أنكروا آيات الله تعالى، ثم أصرّوا على قتل الأنبياء والأولياء ومنقذي البشر، ثم إنهم قد تلوثوا بأنواع الذنوب؛ لا سيما الظلم والجور والتعدي على حقوق الآخرين وتجاوز مصالحهم.. ولا ريب في أنّ كلّ جماعة وأمة لها هذه الصفات والأعمال الرذيلة والشنيعة تنتهي إلى ذات المصير هذا..

﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق... ﴾ أو يرضون بهذه الجرائم ويوالون من يقتربها..

غضب وذلّ ومسكنة!!

١٠. بناءً على ما قرأناه في الآيات أعلاه حيث ﴿ ضربت عليهم الذلّة ﴾ وما هو معروف من تأريخ يهوديّ مزعج، فإن واقعهم الراهن يشهد على هذه الحقيقة ويقرّها.. مع أنّ واقع الذلّة المفروض على اليهود - بناءً على كلام بعض المفسّرين - ليس حكماً تشريعياً بقدر ما هو أمر تكوينيّ وحكم تاريخيّ قاطع... نظراً لأنّ كلّ قوم يغرقون في ممارسة الذنوب وانتهاك الحرمات ويكون التعدي على حقوق الآخرين قاعدة لمنهجيتهم الفكرية والسلوكية؛ ويصرّون على قتل الأنبياء أو يرضون بمن فعل ذلك.. فإنّه سينالهم مثل هذا المصير، إلا أن يعيدوا النظر في واقعهم ويعودوا عن مسارهم، وهم لن ينجحوا بتجنّب الخيبة العظيمة إلى الأبد ولو تعلّقوا بأذيال هذا أو ذاك..

١١. لعلّه - بالبناء على التجارب المريرة الماضية، أو الحوادث الأخيرة التي غيّرت المسار التاريخي لليهود - لعلّها تكون سبباً في تجديدهم النظر في منهجيتهم العتيقة، ليتسالموا مع الآخرين ويكون لهم حياة سلام مع الآخرين قائمة على أصل الاحترام ورعاية الحقوق والامتناع عن التعدي..

الآية ١١٣

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ
آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾

شأن نزول هذه الآية

قيل إنه حينما أعلن عبد الله بن سلام . وهو أحد علماء اليهود البارزين . إسلامه مع جمع من أصحابه، انبرى إليه علماء اليهود لتشويه سمعته في أعين سائر اليهود، ولئلا يحذو يهود آخرون حذوه فيعتنقوا الإسلام، فأشاع علماء اليهود أنه لم يسلم منهم إلا ثلثة من الأشرار، وأنه لو كان هؤلاء صالحين لتمسكوا بدين آبائهم وأجدادهم، ولما خانوا الشعب اليهودي.. فنزلت هذه الآيات في معرض الدفاع عن هذه الجماعة التي أسلمت..^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. تتمّة للذمّ الشديد الذي نال اليهود في الآيات السالفة، عمد القرآن المجيد . ورعاية للإنصاف والاحترام لحقوق بعض أفرادهم المعتدلين، وإعلاناً للحقيقة . فأكد على أنه لا يمكن النظر إلى جميعهم بعين واحدة، ذلك لأنّ منهم طائعين لله تعالى صالحين النوايا والسرائر؛ وأنهم يتلون آيات الله ويسجدون لعظمته ويؤمنون بالله واليوم الآخر بوضوح، وينهضون بمسؤوليّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتنافسون في الأعمال الصالحة.. وبالنتيجة هم أفراد صالحون مؤمنون: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ...﴾

الآية ١١٤

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ
فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. امتنع القرآن الحكيم عن إدانة جميع اليهود، وعن عدّهم في السوء سواء، وإنّما وضع بصمته على أعمالهم، فأجل واحترم جماعة منهم لأنّهم لم ينخرطوا في صفّ الأكثرية الفاسدة.. إذ سلّموا للإيمان والحقّ، فذكرهم بخير.. وهذا هو المنهج القرآني الحكيم، حيث لا يعير أهميّة للموازن القومية والقبلية الباطلة لدى المواجهة، وإنّما المعايير الحقّة لديه هي العقائد والسلوك والنوايا..

٢. يعلم من بعض النصوص الروائيّة أنّ الذين مدحتهم الآيات لم يكونوا منحصرين في عبد الله بن سلام ورفاقه، فهناك أربعون رجلاً من نصارى نجران واثنان وثلاثون من نصارى الحبشة وثمانية من الروم كانوا قد أسلموا في تلك الفترة، فعَمَّهم نصّ الآية،^١ علماً أنّ مفردة (أهل الكتاب) لها مساحة واسعة وهي تحقّق هذا المطلب.

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٨١٥

الآية ١١٥

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية . في الحقيقة . متممة للآيات السابقة، إذ أشارت إلى أن هذه الجماعة الطيبة من أهل الكتاب سيكون لهم الجزاء الطيب على أعمالهم الصالحة ومواقفهم المنصفة، رغم أن ماضيهم لا يخلو من سوء فعالهم، ولكنهم الآن قد غيروا قناعاتهم إلى ما هو الأفضل ووقفوا إلى جانب الصالحين المتقين.. فهم سيشهدون ثمرة أعمالهم الطيبة، إذ لن يظلمهم ربهم العادل الرحيم ﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ﴾.

كفر وشكر

٢. استعمال كلمة (كفر) هنا؛ مقابلة للشكر، لأنّ الشكر في الأصل اعتراف بالنعمة والفضل، والكفر والكفران بمعنى الإنكار، فيكون المعنى أنّه تعالى لن يتجاهل قيمة أعمالهم الصالحة..

٣. قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ هؤلاء الصالحين المتقين ومع كونهم الأقلية في الغالب، ولا سيما في أوساط اليهود المعاصرين للعهد النبوي، ومع كونهم أقلية ضعيفة عادة ولا يشار إليهم، إلا أنّ ذلك لا يؤدي أن يسقطوا من العين الإلهية العليمة الخبيرة.. فالله . على هذا . لن يضيع أجرهم؛ سواء كانت أعمالهم الطيبة؛ قليلة أو كثيرة..

الآية ١١٦

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾

النقاط المستفادة في هذه الآية

١. غير المؤمنين والظالمين الذين اختاروا الكفر طريقاً لهم سيعجزون عن التحصن بثرواتهم وبأولادهم وإن تكاثروا عن عقاب الله تعالى، ذلك لأن الأعمال الصالحة والنيات الخالصة والعقيدة السليمة هي الوحيدة التي ستنتفع المرء في يوم القيامة، وليس الخصوصيات المادية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا.. ﴾.
٢. السبب في ذكر الإمكانيات المادية وحصرها في الثروة والأولاد في هذه الآية هو أن هذين الأمرين هما أهم الإمكانيات ويمثلان الطاقة الإنسانية الأقرب، فهما الامتداد الطبيعي للإنسان وقوته الاقتصادية، أما سائر الإمكانيات الأخرى فتأخذ عنهما.
٣. يصرح القرآن في هذه الآية بأن الخصوصية المالية والقوة الجمعية لا يشكّلان ميزة خاصة. لوحدهما. عند الله، وأن الاعتماد عليهما ضرب من الخطأ، إلا إذا كانا في مسار الإيمان والنية الطيبة والمنجية السلوكية، وفي غير ذلك تكون العاقبة عاقبة عذاب ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾.

الآية ١١٧

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا
صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا
ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. في هذه الآية مثال رائع حول البذل والإنفاق الصادر عن الكافر والغير المقرون بنية الإخلاص لله تعالى، فكأنه ريح شديدة تحمل برداً وجفافاً تمرّ بزرع فتحرقه!
٢. الصرّ والإصرار من جذر واحد، بمعنى غلق الشيء بشدة، وهنا ورد بمعنى الشدة في الريح، سواء بشكل ريح حارقة أو برد جاف جداً ﴿﴾ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌّ... ﴿﴾.
٣. رغم أنّ طبيعة الهواء والنسيم هي الإحياء، كنسيم الربيع الذي يؤدي إلى تفتح الأزهار وتغلغل الروح في الأشجار.. أمّا إذا تغيّر الهواء العليل والنسيم المنعش إلى عاصفة مدمرة أو برد قاتل، فإنّها تقتلع ما تمرّ به من نبات وزرع ﴿﴾ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌّ ﴿﴾.

الإنفاق المطلوب

٤. إذا صدر الإنفاق عن معين الإيمان والإخلاص كان إنفاقاً نافعاً نامياً حالاً للمشاكل الإجتماعية، كما كان له الأثر الأخلاقي الطيب في إحسان المنفق حتّى تتكرّس في روحه فضائل الأخلاق..
٥. غير المؤمنين والملوثين حيث لا دافع طيباً في إنفاقهم؛ كانت روح الرياء فيهم كما الريح

الباردة الجافة التي تمرّ بمزرعة فتسلبها حياتها.. وهذا النوع من الإنفاق لا يحلّ أزمة اجتماعيّة (حيث لا يكون الإنفاق في محلّه المناسب في غالبه) ولن يثمر النتيجة المرجوة بالنسبة للشخص المنفق.

٦. المراد من قوله سبحانه: ﴿حَرِثَ قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أنّ محور حركة هذه الريح الباردة سيتوجّه إلى زرع الذين ظلموا أنفسهم، وهذا إشارة إلى أنّ هذا الزرع لم يتمّ في الزمان والمكان المناسبين، وإنّما عمد زارعوه إلى نثر بذورهم في أرض معرّضة إلى العواصف الشديدة، أو أنّهم بذروه في فصل هو غير الفصل الذي تهبّ فيه رياح السموم.. فكانوا.. في هذه الحال.. قد ظلموا أنفسهم.

٧. بالنظر إلى القرائن المتوفرة في هذه الآية ضمن إطار بيان تشبيه الأفراد غير المؤمنين الذين ظلموا أنفسهم فيما يتعلّق بزمان ومكان إنفاقهم وفرّطوا في ثروتهم.. يعلم أنّ هذا التشبيه.. في الحقيقة.. قد جرى بين أمرين؛ أحدهما: تشبيه إنفاق هؤلاء بالزراعة التي تتمّ في غير محلّها المناسب، والآخر: تشبيه دوافع الإنفاق بالريح الباردة القاسية، وعليه؛ كان المثال هذا جديراً في موضع الحاجة إليه، ويكون معنى عبارة: ﴿مثل ما ينفقون﴾ أنّ دوافع الإنفاق هنا كالريح الباردة القاسية.

٨. قال جمع من المفسّرين لدى تفسير هذه الآية: إنّ هذه الآية إشارة إلى الأموال التي يخصّصها أعداء الإسلام في إطار مؤامراتهم ضده، وما يعمدون إليه من إثارات ضدّ نبيّ الإسلام صلوات الله عليه وآله، أو تلك الأموال التي كان يبذلها اليهود لتحريف آيات الكتب السماويّة، ولكن من الواضح أنّ للآية معنىً واسعاً يشمل هذا وذاك.

٩. قول الآية في خاتمتها إنّّه تعالى لم يظلم هؤلاء، وإنّهم هم الذين يظلمون أنفسهم وفرّطوا بأموالهم، ذلك أنّ العمل الفاسد لا ينتج إلّا أثراً فاسداً: ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾.

الآية ١١٨

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

شأن نزول هذه الآية

مما نقل عن ابن عباس أنَّ هذه الآيات حينما نزلت كان من المسلمين من هو قريب النسب من اليهود أو جاراً أو أخاً بالرضاع أو له معاهدة كان قد أمضاها مع اليهود أو علاقة صداقة تربطه بهم، فكان بعض المسلمين ممن تشملهم هذه الأسباب يخبر اليهود بأسرار المسلمين، فيما كان من هؤلاء اليهود من يستغل هذه العلاقات والأواصر فيطلع على الأسرار الخاصة بالجماعة المسلمة.. فنزلت هذه الآية الشريفة لتحذّر المسلمين من هذه الحالة وأمرتهم ألا يجعلوا من اليهود موضعاً لأسرارهم؛ لا سيّما وأنهم لا يكتفون للمسلمين غير الشرّ والحقد والعداء والرغبة في إصابتهم وتعرّضهم للعذاب والألم والهوان..^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ﴿البطانة﴾ لغةً بالمعنى اللباس المخفي، ويقابلها (الظهارة) بمعنى اللباس الظاهري والخارجي، وهنا وردت كناية عن موضع الأسرار ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾.

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٨٢٠

٢. ﴿خَبَالًا﴾ لغة بمعنى زوال الشيء، وغالباً ما تستعمل بالأضرار التي تؤثر في عقل الإنسان.

٣. ينبغي أن نعلم بأن الله تعالى يحذّر المؤمنين لئلا يكشفوا أسرارهم للكفار، وعموماً؛ فالأمر يتضمّن للخطر المحدق بالمسلمين في كلّ زمان وفي كلّ حال.

٤. ولكنّ المؤسف أنّ كثيراً من أتباع القرآن تراهم يتوزّعون في معرض الغفلة عن هذا التحذير القرآني الصريح في ضرورة كتم أسرارهم دون الكفّار وغير المسلمين، فيقعون في المشاكل والمصائب، وها هم أعداء المسلمين اليوم محيطون بهم ويتظاهرون بالعلاقات الطيبة معهم أو بتأييدهم، ولكنهم من الناحية العملية يكيّدون لهم المكائد، والمسلمون منخدعون بهم ويعتمدون عليهم، في حين أنّهم لا يؤدّون بالمسلمين إلّا للبؤس والخسارة والندم، ولا يقصّرون عن زرع الأشواك في طريقهم..

٤. هذه الآية كما الآيات الأخرى وبيان علاقات المسلمين بالكافرين وضمن الإشارة إلى واحدة من أهمّ المسائل الحسّاسة وبالتشبيه اللطيف؛ يكون من غير الجدير بالمؤمنين أن يختاروا موضع أسرار لهم من هم على غير شاكلتهم أو يطلعوا الأجانب والكفّار على أسرارهم الخاصّة.

٥. أنّ الكفّار لا يقصّرون في تعريض المسلمين للشّر والفساد ﴿لا يألونكم خبالًا﴾.

٦. العلاقة الطيبة القديمة التي كانت تربط الكفار بمن صار مسلماً لا تمنعهم من إلحاق الأذى بهم وإن افترقوا في الدين والأفكار بعد ذلك، بل تراهم يحرصون على أن يريزح المسلمون بالعذاب والأذى ﴿ودّوا ما عنتم﴾.

٧. الكفار لا يفشون أسرارهم ومكنونات ضمائرهم للمسلمين، ويحرصون كلّ الحرص على مراقبة سلوكهم ويحتاطون في خطابهم، ومع ذلك ترى العداوة والبغضاء تتسرّب من ثنايا كلامهم، فينطقون تارة بما ينضح عن نواياهم الشريرة تجاه المسلمين.. فيكون ذلك بمثابة

الشرارة التي تنقذ عن نيران أحقادهم الخفية.. ومن ذلك يعلم ما في قلوبهم من ضغائن: ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾.

٨. كشف أمير المؤمنين عليه السلام في كلام شريف له حقيقة هذه الآية، فقال: «ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه»^١.

٩. ألمح الله سبحانه وتعالى إلى الطريق لمعرفة باطن الأعداء وضمايرهم التي تتضمن أكبر مما تبدي ألسنتهم ﴿وما تخفي صدورهم أكبر﴾.

١٠. كانت رسالة هذه الآيات أن يتدبر المرء فيها ويفكر ليتمكن من خلال ذلك تمييز الصديق من العدو ويتلمس طريق النجاة من شر الأعداء ﴿قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾.

الآية ١١٩

هَآأَنْتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ
وَإِذَا الْقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ
مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. تهدف هذه الآية إلى القول للمسلمين الذين يحبون أعداء الله بداعي النية الطيبة أو بسبب الجيرة أو أي سبب آخر، إنما أنتم غافلون عن أنهم لا يحبونكم مع أنكم تؤمنون بالكتب السماوية النازلة من عند الله (بغض النظر عن كونها قرآناً أو توراة أو إنجيل) ولكنهم لا يؤمنون بكتابكم مطلقاً ﴿ها أنتم هؤلاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله﴾.
٢. هذه الجماعة من أهل الكتاب جماعة منافقة، وهم إذا ما لقوا المسلمين قالوا نصدق بكتابكم، أما إذا خلوا لأنفسهم تصاعدت حدة حقدهم وعدائهم وغضبهم على المسلمين ونبئهم وكتابهم إلى حيث يعضون عليهم الأنامل ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾.
٣. عبارة ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ أي: ليكن غيظكم إلى الموت، أو لتأخذوه معكم إلى القبر.. وهذا من وجوه نمو الإسلام من جهة؛ ومواصلة عداء الكافر للإسلام من جهة أخرى، وأن مؤامرات الأعداء لن ترى الفلاح من جهة ثالثة...
٤. أنكم -أيها المسلمون- لم تكونوا على اطلاع بعداء الكفار ونفاقهم من قبل، ولكن الله يعلم ما تخفي الصدور من أسرار ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾.

الآية ١٢٠

إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا
بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. إحدى علامات حقد الكافرين وعدائهم للمسلمين؛ كشفت عنه الآية وأشارت إلى أن المسلمين إذ ما وفقوا للنصر أو الفلاح؛ كان هذا النصر والفلاح مما يزعج أعداءهم والعكس هو الصحيح أيضاً، كأن يتعرض المؤمنون إلى مصيبة ونكسة، فإنها تكون مدعاة لفرح الكافرين وسرورهم ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾.
٢. إن استقام المؤمنون وصمدوا بوجه الكافرين وأحقادهم.. فصبروا واثقوا بالله تعالى، فإن الكافرين سيعجزون عن إيراد الضرر بهم، لأن الله محيط على الإطلاق بما يتآمرون ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.
٣. يعلم من ذيل الآية أن تحقق الأمن للمسلمين . في مقابل مؤامرات أعدائهم الدنيئة الغادرة . منوط باستقامة وفطنة وتقوى المسلمين أنفسهم ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

الآية ١٢١

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ



تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

معركة أحد؛ مسرح الصراع...

من الروايات والنصوص التاريخية؛ يعلم أنَّ قريشاً حين خسرت الحرب في بدر وقتل منها سبعون وأسر سبعون؛ عادت إلى مكة فيما أمر أبو سفيان أهلها أن يمنعوا نساءهم عن البكاء على قتلى بدر بزعم أنَّ الدموع تزيل الحزن وتقلل من العداء للنبيِّ صَلَّى الله عليه وآله.. وكان أبو سفيان هذا قد قطع على نفسه أن لا يقرب زوجته حتى ينتقم لقتلى بدر.. وعلى أيِّ حال؛ فإنَّ قريشاً توَّسَّلت بكلِّ الوسائل لإثارة المشاعر والأحقاد ضدَّ المسلمين، حتى تعالت فيهم صرخات الثأر والانتقام في مدينة مكة.

في السنة الثالثة للهجرة، خرجت قريش بثلاثة آلاف مقاتل راجل وألفي فارس مدججين بالأسلحة والحديد بقصد الحرب ضدَّ رسول الله صَلَّى الله عليه وآله ومن معه، ولكي تكون حربهم حرباً شاملة؛ فقد جاءت قريش بأصنامها ونسائها لإثارة الرجال المقاتلين. أمَّا العباس عمَّ النبيِّ صلوات الله عليه وآله وكان لم يسلم بعد ويعدُّ من رجال مكة الوثنيين، ولكن مع ملاحظة أنَّ النبيِّ الأكرم هو ابن أخيه وكان يحبُّه حباً جمّاً، فقد عمد - حين رأى تعبئة قريش وجيشها الكبير وخروجها من مكة بقصد الحرب - إلى كتابة كتاب أرسله مع رجل من قبيلة بني غفار إلى المدينة.

وسرعان ما وصل رسول العباس إلى المدينة، وحين علم النبيِّ صَلَّى الله عليه وآله الأمر استدعى سعد بن أبي وعرض عليه رسالة عمِّه العباس وحرص على إخفاء الأمر عن غيره حتى يستشير المسلمين.. هنالك حيث وصلت رسالة العباس إلى النبيِّ صلوات الله

عليه وآله في ذلك اليوم، أمر نفرًا من المسلمين أن يخبروا الطريق بين مكة والمدينة ويطلعوا على أحوال جيش قريش.

ولم تنقُض فترة حتى عاد هؤلاء الذين أمروا بجمع المعلومات وأخبروا النبي صلى الله عليه وآله بما علموا، فكان ممّا قالوا له أن جيش قريش كبير ويقودهم أبو سفيان.

بعد أيام قلائل استدعى النبي صلوات الله عليه وآله أصحابه وعموم أهل المدينة، واجتمع معهم لمتابعة تطوّر الأحداث، وكلمهم بصراحة عن الدفاع عن المدينة، وسألهم عمّا إذا كانوا يرون الدفاع من داخل المدينة أو خارجها.

فقال جماعة فيهم أنّهم لا يرون إلّا البقاء في المدينة والدفاع من داخلها؛ على أن تكون معركتهم مع قريش في طرق المدينة وأزقتها... وفي هذه الحال سيشتبك في الدفاع جميع أهل المدينة بمن فيهم الرجال الضعفاء والخدم والنساء، وأضاف عبد الله بن أبي الذي تبني هذا الرأي قائلاً: يا رسول الله! لم نر حتى الآن أنّنا نقاتل من بيوتنا فينتصر أعداؤنا علينا..

وحظي هذا الرأي. نظراً لحالة المدينة المميّزة. باهتمام الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، ومال إلى القول بلزوم البقاء في المدينة والدفاع من داخلها.. إلّا أنّ جماعة من الشباب والمقاتلين المتحمسين لقتال قريش عارضوا هذا الرأي، وقد قام سعد بن معاذ ونفر من قبيلة الأوس وقالوا: يا رسول الله! لم يكن فيما مضى من العرب من هو قادر على أن يطمع فينا.. مع أنّنا كنّا نعبد الأصنام، والآن وقد صرت بين ظهرانينا، فكيف لعدوّ أن يطمع فينا.. والرأي أن نخرج من المدينة ونقاتل عدوّنا، فإن قتل منا أحد كان شهيداً، وإن نجا ممّا أحد؛ حظي بشرف الجهاد في سبيل الله تعالى.

.. وهكذا تكاثرت الأصوات القائلة بالخروج من المدينة حتى صار رأي عبد الله بن أبي قليل المؤيدين.. ومع أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يميل إلى الرأي القائل بالبقاء في المدينة، إلّا أنّه اختار الرأي بالخروج احتراماً للرأي الأكثرية.. وعيّن مجموعة من الأصحاب

لِلإِعْدَادِ لِإِقَامَةِ مَخِيْمٍ خَارِجَ الْمَدِينَةِ وَفِي مَوْضِعٍ عِنْدَ جَبَلٍ أَحَدٍ يَنَاسِبُهُ الظُّرُوفُ الْعَسْكَرِيَّةُ وَالْمَوْضِعُ الْحَسَّاسُ..

ذَلِكَ الْيَوْمَ كَانَ يَوْمَ جُمُعَةٍ حَيْثُ اسْتَشَارَ النَّبِيُّ أَصْحَابَهُ الَّذِينَ عَارَضُوهُ فِي الْبَقَاءِ فِي الْمَدِينَةِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ قَامَ خُطِيباً لَصَلَاةِ الْجُمُعَةِ، وَقَالَ بَعْدَ أَنْ حَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَأَخْبَرَ الْمُسْلِمِينَ بِنَبَأِ خُرُوجِ قَرِيْشٍ وَاقْتِرَابِ جَيْشِهَا: إِنْ قَاتَلْتُمْ عَدُوَّكُمْ بِهَذَا الْإِسْتِعْدَادِ وَالْحِمَاسِ فَلَا رَيْبَ فِي نَصْرِكُمْ.. ثُمَّ إِنَّهُ صَلَّاهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ أَنْطَلَقَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى الْمَخِيْمِ عِنْدَ جَبَلٍ أَحَدٍ مَعَ أَلْفٍ مِنْ مُقَاتِلِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ..

وَقَادَ النَّبِيُّ صَلَّاهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ بِشَخْصِهِ الْعَظِيمِ جَيْشَهُ، وَقَبْلَ مَغَادَرَةِ الْمَدِينَةِ؛ أَمَرَ بِإِعْدَادِ ثَلَاثِ رَايَاتٍ، تَعْطَى وَاحِدَةً لِلْمُهَاجِرِينَ وَاثْنَانِ لِلْأَنْصَارِ، ثُمَّ قَطَعَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ الْمَسَافَةَ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَأَحَدٍ مَاشِياً، فِيمَا كَانَ يَواصِلُ النَّبِيُّ صَلَّاهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ تَرْتِيبَ صُفُوفِ الْجَيْشِ بِاسْتِمْرَارٍ لِيَكُونَ صَفّاً مُسْتَقِيماً وَاحِداً.

وَيَكْتُبُ الْحَلَبِيُّ الْمُؤَرِّخُ الْمَعْرُوفُ . فِي (سِيرَتِهِ) أَنَّ النَّبِيَّ الْأَكْرَمَ كَانَ لَمَّا يَصِلُ أَحَدًا بَعْدَ، لَاحِظَ فَرِيقاً فِي صَفِّ الْجَيْشِ لَمْ يَكُنْ قَدْ رَأَاهُ مِنْ قَبْلِ، وَحِينَما اسْتَطْلَعَ الْحَالُ، قِيلَ لَهُ بِأَنَّ هَذَا الْفَرِيقَ يَتَشَكَّلُ مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْيَهُودِ مُعَاهِدِينَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، فَتَأَمَّلَ قَلِيلاً وَقَالَ: لَا يُمْكِنُ لِلْإِسْتِعَانَةِ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ إِلَّا أَنْ يَسْلَمُوا، فَلَمْ يَقْبَلِ الْيَهُودَ مُقْتَرِحَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَعَادُوا بِأَجْمَعِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَبِهَذَا قَلَّ مِنْ عَدَدِ الْجَيْشِ الَّذِي كَانَ عَدَدُهُ أَلْفًا؛ ثَلَاثَ مِائَةِ رَجُلٍ.. وَلَكِنَّ جُمْلَةً مِنَ الْمَفْسِّرِينَ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي حِينَ رَأَى عَدَمَ مُوَافَقَةِ الْيَهُودِ عَلَى الْمَقْتَرَحِ النَّبَوِيِّ رَافَقَهُمْ بِالْعُودَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ..

وَعَلَى أَيِّ حَالٍ؛ وَصَلَ النَّبِيُّ صَلَّاهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ إِلَى جَبَلٍ أَحَدٍ بَعْدَ تَصْفِيَّتِهِ جَيْشَهُ مِنَ الْيَهُودِ، وَبَعْدَ إِقَامَتِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، صَفَّ الْمُسْلِمِينَ فِي هَيْئَةٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ إِنَّهُ كَلَّفَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَبْرِ بِقِيَادَةِ خَمْسِينَ رَاجِلاً لِيَقْفُوا عِنْدَ فَرْجَةِ الْجَبَلِ وَأَكَّدَ عَلَيْهِمُ الْبَقَاءَ وَالصُّمُودَ فِي مَوْضِعِهِمْ

خلف الجيش على أن لا يتحركوا من مكانهم ولو رأوا جيش المسلمين يصل مشارف مكة، أو رأوا المشركين قد دحروا المسلمين وأرجعواهم إلى المدينة..

وعلى الضقة الأخرى أمر أبو سفيان خالد بن الوليد مع مئتي مقاتل بمراقبة موضع رماة المسلمين المذكورين، وأن يكمنوا وينتظروا عبور المسلمين من ذلك الوادي فإذا عبروا كان عليهم أن يهجموا على مؤخرة جيش المسلمين مباشرة، ثم إن الجيشين تقابلا في صفين معتدلين واستعدا للقتال، وكان كل جيش يشجع أفراداه على البسالة والمواجهة.

كان أبو سفيان يرفع عقيرته باسم أصنام الكعبة مصطحباً معه نساء قريش الجميلات ويشجع مقاتليه ويعددهم بما يثير شهواتهم وأطماعهم.. أما النبي الأعظم صلى الله عليه وآله؛ فكان ينادي باسم الله والنعم الإلهية ويشجع المسلمون على الجهاد والصمود لإحقاق الحق ودحض قوى الجاهلية.. فراح المسلمون ينادون بعظمة الله وكبريائه، حتى اهتزت ساحة الوعى بصرخات: الله أكبر، فيما الطرف الآخر شهد جولات من هند ابنة عتبة زوجة أبي سفيان وصويحباتها. من بائعات الهوى. لإثارة مشاعر مقاتلي المشركين الظالمين، وهن يضربن بالدفوف والطبول ويقرأن أبيات الشعر الماجنة!!!

اندلعت المعركة وهجم المسلمون على المشركين في حملة صاعقة واحدة؛ فشتتوا رجالهم حتى اضطروهم إلى الفرار من ساحة المواجهة، فلاحقهم المسلمون، أما خالد بن الوليد الذي رأى هزيمة المشركين؛ فقد أراد مغادرة الوادي لمهاجمة المسلمين من الخلف، إلا أن الرماة المتموضعين على الجبل ردّوه ومقاتليه على أعقابهم، فراجعوا حتى ظنّ الرماة ومن كان حولهم بأنّ المشركين قد انهزموا نهائياً وأن الحرب قد أُلقت أوزارها.. فطمعوا في الغنائم حتى تركوا مواضعهم ونزلوا منها إلى الوادي.. ولم تنفع معهم صيحات عبد الله بن جبير قائداهم في المكوث في أماكنهم، ولم يبق في رفقته إلا أفراد لم يزد عددهم على العشرة..

وما كانت نتيجة العصيان لأمر النبي المختار إلا أن شدَّ خالد بن الوليد برجاله المئتين واكتسح المسلمين الرماة العشرة فقتلهم وقائدهم ابن جبير، منطلقاً من فرجة الجبل مهاجماً مؤخّرة جيش المسلمين الملاحق لأفراد جيش المشركين المنهزم.. فتفاجأ المسلمون بهذه المباغتة ورأوا أنفسهم محاصرين بمقاتلي خالد من جهة وبالعائدين عليهم من جيش المشركين، فاضطربت صفوفهم وأسقط في أيديهم..

وهناك استشهد سيّد الشهداء حمزة بن عبد المطلب غداً ومجموعة من المؤمنين البواسل، ولم يبقَ من المسلمين حول رسول الله صلوات الله عليه وآله إلا أفراد قلائل. لا سيّما وأن التاريخ يحدّثنا عن عصيان الرماة من جهة، وعن مؤامرة داخلية قادها بعض زعماء المنافقين إذ أنّهم حين رأوا انتصار المسلمين في بادئ الأمر؛ غادروا ساحة الحرب وصعدوا جبل أحد لإضعاف قوّة المسلمين والإقلال من عددهم إيماءً لأبي سفيان ومن معه من المشركين للكرّ على المسلمين، وهذا ما تمّ فعلاً [المترجم]. وكان أشدّ الرجال دفاعاً عن شخص النبي الكريم صلوات الله عليه وآله أمير المؤمنين سلام الله عليه، إذ راح يقاتل ويقاقل حتّى تحطّم سيفه مراراً فأعطاه النبي سيفه..

ثم إنّ النبي صلى الله عليه وآله اتخذ لنفسه موقعاً دفاعياً فيما واصل أمير المؤمنين عليه السلام دفاعه المستميت حتّى أصابته سّتون ونيف من الجراح، طبقاً للمؤرخين. ممّا حدا بالملائكة أنفسهم إلى الإعجاب بهذه المواساة العلوية الفدّة.. فقال النبي صلى الله عليه وآله: عليّ مّتي وأنا من عليّ، وقال جبرئيل: وأنا منكما.. وقد قال مولانا الصادق عليه السلام: لقد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله جبرئيل وقد وقف بين السماء والأرض وهو يقول: لا فتى إلاّ علي لا سيف إلاّ ذو الفقار...

وهناك تعالت الأصوات بأنّ محمّداً قد قتل... ولكن من كان أوّل من صرخ بهذه الكذبة

الظالمة المقيتة!؟

سواء كان مصدر هذه الصرخة الشيطانية بعض المسلمين أو أحد أفراد العدو، فهي لعلها كانت في مصلحة المسلمين، ذلك لأن العدو ظن أنه صلى الله عليه وآله قد قتل حقاً؛ فما كان منه إلا أن ترك وادي أحد وبدأ بالتوجه إلى مكة، نظراً إلى أن همّة المشركين الأولى كانت تهدف قتل النبي والتخلص منه، فلم يكونوا قاصدين ترك أحد دون الانتقام ممن سقاه أحلامهم وقتلهم، ولذلك تركوا أحداً فور سماعهم شائعة مقتل النبي صلى الله عليه وآله... ولقد كان لشائعة مقتل هذه وقع شديد في جماعة المسلمين، فانبرى عدّة منهم إلى أصحاب النبي إلى الجبل، ليخبروا الآخرين بسلامة النبي صلوات الله عليه وآله فيعودوا إلى الاجتماع مرة أخرى بعد أن فرّوا من أمام المشركين وكان الرسول يدعوهم في آخرهم..

لام الرسول صلوات الله عليه وآله الذين هربوا من ساحة الحرب فاعتذروا إليه قائلين: يا رسول الله! لقد سمعنا شائعة قتلك فتملكنّا الخوف فهربنا.. وكانت أحد مسرحاً للخسارة المالية والفردية والمعنوية حيث قتل من المسلمين سبعون رجلاً وجرح الكثير..^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. طبقاً للقرآن المتوفرة في الآيات أعلاه. فإنّ هذه الآية والآية التالية النازلة بعد معركة أحد أشارت إلى جوانب من هذه المعركة الرهيبة وإلى ذلك ذهب معظم المفسرين.
٢. ثم اختلاف كثير فيما يتعلق باختيار موقع الحرب؛ وما إذا كان الأفضل لو وقعت داخل المدينة أو خارجها.. ومع هذا الاختلاف بين المسلمين، فإنّ النبي صلى الله عليه وآله وبعد الاستشارة؛ ذهب إلى رأي أكثر المسلمين وفيهم الشباب إلى الخروج من المدينة والاستقرار عند جبل أحد..

١- تفسير الامثل، ج ٣، ص ٦٩ إلى ٧٦

٣. قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة إلى أنَّ أفراداً من المسلمين - وبصورة طبيعية - كانوا يخفون مطالب عدّة، ولم يكونوا على استعداد للتصريح بها، وأنَّ المراد من النصِّ أنَّه تعالى يسمع خطابكم وعليم بأسراركم.

الآية ١٢٢

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى

اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا..﴾ فيه الإشارة إلى ما نقله التاريخ عن معركة أحد، فتلمّح إلى الفريقين من المسلمين (طبقاً لما نقله التاريخ عن أسرة بني سلمة من قبيلة الأوس وبني حارثة من قبيلة الخزرج) حيث أيد أو دعا الفريق الأول إلى خوض الحرب في المدينة نفسها. وقد عارضهم النبي ثم قرروا التخاذل والعودة إلى المدينة. وكذلك كان الفريق الثاني، وبعد التحاق عبد الله بن أبي والثلث مئة نفر من اليهود بجيش المسلمين، وتبعاً لمعارضة النبي صلى الله عليه وآله لبقائهم في مخيم المسلمين فقد عادوا إلى المدينة، وبناءً على هاتين المسألتين قرّر هذان الفريقان من المسلمين العودة إلى المدينة، إلا أنّ الإرادة الإلهية أقعدتهما عن قرارهما فقرّرا دعم المسلمين، ولذا؛ قال القرآن الحكيم: ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^١.

٢. قوله سبحانه: ﴿وَلِيَهُمَا﴾ إشارة إلى حقيقة أنّه تعالى يحبّ عباده كثيراً، وأنّ من الممكن أن يخطأ العبد في تشخيص مساره.. إلا أنّ الله المتعال يصرفه عنه بعناية خاصّة.

٣. ببيان حادثة أحد وعدم إذن النبي صلى الله عليه وآله بإشراكهم في الحرب وبقائهم (اليهود) الذي جاؤوا لنصرة المسلمين. حسب الظاهر. يؤكد أنّ غير المسلمين. كهذا الفريق. كانوا غرباء على المسلمين، ولا ينبغي السماح للغرباء بالاطلاع على الأسرار أو بأن يكونوا مورد

اعتماد المسلمين في تلك الظروف الحرجة.

٤. رغم أنَّ معركة أحد قد تسببت للمسلمين بخسائر في الأرواح والأموال، إذ قتل منهم سبعون شهيداً وجرح منهم الكثير، إلَّا أنَّ المسلمين قد تعلّموا من هذه الهزيمة دروساً عظيمة وتأكّد لهم أنَّ طاعة الرسول الإلهي هي ما يضمن النصر في ساحات المواجهة.

الآية ١٢٣

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

سبب نزول الآية وما بعدها من آيات

أسرع المشركون في العودة إلى مكة بعد انتصارهم في معركة أحد، ولكنهم في طريق عودتهم تأملوا في السبب الذي حدا بهم أن يجعلوا من نصرهم نصراً ناقصاً ولم يتموه في مهاجمة المدينة والإغارة عليها، وأن يتأكدوا من قتل رسول الله صلى الله عليه وآله، فيقتلوه إن لم يكن قد قتل حقاً، فيستريحوا منه وممن معه إلى الأبد... وهكذا صدر الأمر بالعودة إلى أحد.. وهذه كانت المرحلة الأخطر في الواقعة، لا سيما وأن المسلمين قد تحمّلوا ما تحمّلوا من القتلى والجرحى. ولا ريب أنهم كانوا غير مستعدين لخوض معركة أخرى... على عكس المشركين المشبعين بنشوة النصر، فكان لهم أن يخوضوا المعركة ويتوقعوا النصر.. وسرعان ما بلغ هذا سمع رسول الله صلوات الله عليه وآله.. ولولا قيادته الحكيمة وشهامته التي لا توصف ولولا أنه كان مسدداً بتسديد السماء، لكان تاريخ الإسلام قد انتهى عند هذه النقطة.

وقد نزلت هذه الآية وما تلاها من آيات بخصوص هذه المرحلة الحساسة، فاهتم النبي صلى الله عليه وآله بإعادة الروح المعنوية للمسلمين وأصدر الأمر القاطع بالانطلاق للحاق بالمشركين، فاستعدّ المؤمنون (وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عليه السلام الذي أصيب بأكثر من ستين جراحة) لتنفيذ الأمر النبوي. السماوي ومواجهة المشركين مرة أخرى، فانطلقوا من المدينة لهذا الغرض.. فعلمت قريش بانطلاق المسلمين وملاحقتهم لهم، فتعجّبوا وامتلأوا رعباً؛ ظناً منهم أن ثمّ قوات جديدة قد رفدت المسلمين وأن دائرة الحرب الجديدة ستدور

عليهم في هذه المَرَّةِ.. ولذا فَضَّلُوا الهرب إلى مَكَّةَ للحفاظ على ما تحَقَّقَ لهم...^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. الهدف من التذكير بالنصر العظيم الذي تحَقَّقَ للمسلمين في معركة بدر، مع الحديث عن ضعف المسلمين وهزيمتهم في أحد (لا سيَّما وأن عدد المسلمين ببدر كان ٣١٣ رجلاً مع قَلَّةِ ذات اليد والسلاح، فيما كان عدد المشركين يربو على الألف مقاتل بكامل العَدَّةِ والسلاح والإمكانات) كان بيان وتأكيد هذه الحقيقة مع دعم المعنويات الهابطة للمسلمين بعد أحد، وليعلموا أن الانتصارات وفي جميع الميادين هين عند الله تعالى وإن كانوا قليلي العَدَّةِ والعدد...

٢. لعلَّ التذكير بالانتصار في بدر مع قَلَّةِ العدد والعَدَّةِ، وذلك حين الهزيمة في أحد... (مضافاً إلى رفع المعنويات) فقد أريد منه التذكير بأنَّ الله الذي نصر المسلمين ببدر هو نفسه الله الناظر إلى واقعهم في أحد.. ففي الوقت الذي كان فيه المسلمون في أحد أقوى وأكثر ممَّا كانوا عليه في بدر. وهذا ما كان يراه المشركون أيضاً. ولكنَّ النصر حالَّهم في بدر دون أحد.. فكيف انتصروا هناك وانهزموا هنا حتَّى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت.. فإذا كان الأمر كذلك.. فإنَّ على المسلمين أن يتَّقوا ربَّهم وأن لا يعاودوا الكَرَّةَ في عصيان الرسول؛ ليكون ذلك بمثابة الشكر على النعمة.. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الآية ١٢٤

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ
ءَالْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلَيْنِ ﴿١٢٤﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية الشريفة تأكيد وتأكيد واضح على وجود ودور الإمداد الغيبي في الحروب الإلهية ﴿إِذْ تَقُولُ... من الملائكة...﴾.
١. أن إحدى - وأهم - الوسائل المتاحة لقائد الحرب ومن أجل رفع معنويات مقاتليه: إحياء معنوياتهم بالإمداد الغيبي.. ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ...؟﴾
٣. لا ينبغي التفكير بأن نزول الملائكة لا يكون إلا لمقاتلة المشركين فقط، بل إن الملائكة قد تنزل كما تنزل في ليالي القدر لمشاهدة عبادة الأمة والإشراف على طبيعة اتصالها وتقربها من ربها والدعاء لها وقضاء حاجاتها (وعرض تقديراتها على المعصوم في زمانها) كما تنزلت في واقعة بدر لغرض رفع معنويات المسلمين والنظر في إخلاصهم وجهادهم وتجبين المشركين..
٤. لا بد أن نعلم أن منتهى وغاية جميع الانتصارات منوطة بإرادة الله سبحانه وتعالى كما وردت الإشارة في الآيتين التاليتين ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ و﴿يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ﴾.

الآية ١٢٥

بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ
رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. الإمداد غير متوقَّف على حادثة بدر، فلو أنَّ ابن آدم كَتَس عبودِيَّته لربِّه المتعال وصبر على هذه العبودِيَّة لحظي بإمداد إلهي قوامه خمسة آلاف . بدلاً عن ثلاثة آلاف . من الملائكة بعد معركة أحد . مثلاً. ﴿ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين ﴾.
٢. لا يمكن أن يتحقَّق المدد الغيبي من جانب الله تعالى من دون حركة ومبادرة من جانب الإنسان وتوفَّر شروطه الأخرى ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ﴾.
٣. الله تعالى ناصر عباده المطيعين المتقين، ولا ريب أنَّ المسلمين الذين هزموا في أحد، هاهم الآن في معرض التهديد؛ وهم بحاجة إلى رفع معنوياتهم ﴿ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين ﴾.
٤. المدد الغيبي بالملائكة، ورسَل الله بحاجة إلى علامة (مسوِّمين).

الآية ١٢٦

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ ۚ وَمَا
النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. نزول الملائكة لنصركم إلا لتشجيعكم وتبشيركم وطمأننتكم ورفع معنوياتكم.
٢. تحقق النصر لا يكون إلا من قبل الله تعالى الذي هو قادر على كل شيء وحكيم في كل شيء.. فهو يعلم بطريق وسبب النصر، كما هو قادر على تحقيقه، ولا ريب أن حكيمته إذا اقتضت نصر المسلمين؛ وكانوا قد وقروا شروطه كما ورد في الآية السالفة: ﴿بلى إن تصبروا و
تتقوا﴾ فإنهم سينالون النصر ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾.

الآية ١٢٧

لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ﴿طَرَفًا﴾ بمعنى: جانباً، و (يَكْتُمُهُمْ) من الكبت بمعنى إرجاعهم بالقوة القرينة للذلة.
٢. خلق المعنوية في المجاهدين، وخلق الهزيمة المعنوية في جيش الكافرين عن أهداف نزول الآية هذه.
٣. بالبشارة الإلهية للمؤمنين بالنصر ببركة المدد الغيبي ودعم الملائكة ورفعهم وشحذ همم القتال.. بحيث إذا ما كان في نية الأعداء معاودة شنّ الحرب على الإسلام تارة أخرى، فإنّ المسلمين المجاهدين سيردّونهم على أعقابهم أذلاء يائسين..
٤. هذه الآية توضّح القول بأنّ معركتي بدر وأحد وما بعدهما، هي حروب دفاعية لدرء الشرّ. أي أنّها كانت حروباً دفاعية وليست هجومية ضدّ الكافرين..

الآية ١٢٨

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ
فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ



سبب نزول هذه الآية

عن سبب نزول هذه الآية ثم روايات عديدة قد نقلت، منها أنه بعد تعرّض رسول الله صلى الله عليه وآله لجراحات عديدة كما هي ثناياه ورباعيته وجبهته في معركة أحد، وجملة الإصابات التي نالت المسلمين، مما أثار قلق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إزاء مستقبل المشركين حتى قال: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبّيهم وهو يدعوهم إلى ربّهم؟!»،... فنزلت هذه الآية وطمأنّت النبي الكريم صلوات الله عليه وآله مؤكدة أنه ليس المسؤول عن مصيرهم وهدايتهم، وأنه مكلف بتذكيرهم وإبلاغ الوحي إليهم^١.

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. رغم الحديث والكلام الكثير الذي وقع بين المفسرين في معاني وغايات هذه الآية الجليّة... إلّا أنّ المسلّم به وفق الآيات السالفة وقرائنها، أنّ هذه الآية قد نزلت بعد واقعة أحد كونها متعلّقة بحوادثها وتفصيلها.

٢. هناك احتمالان في تفسير الآية:

الاحتمال والتفسير الأول: أنّ هذه الآية تمثّل جملة مستقلة ولا تتعلّق بما سبقها، وعليه؛ يكون معنى استغلال قوله سبحانه: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: إلّا أن يتوب عليهم، فيكون المقصود على وجه العموم: أنّك يا رسول الله لست المسؤول عن واقعهم ومصيرهم إلّا أن يعفو الله تعالى عنهم،

١- جامع البيان، ج ٤، ص ٨٦

أو يعذبهم ويعاقبهم على ما ارتكبوا من ظلم.. والمعنيون هم الكفار الذين ظلموا المسلمين وتسببوا في مقتل العديد منهم وألحقوا بالنبي كل تلكم الجراحات والإصابات.. أو أن المقصود هم المسلمون الذين فزوا من ساحة الحرب ثم عادوا نادمين بعد انتهاء الحرب وسألوا رسول الله صلوات الله عليه وآله الصفح.. والآية تقول بأن العفو والصفح عنهم أو تعذيبهم ومعاقبتهم أمور هي في يد الله عز وجل، ولا يمكن أن يتصرف النبي فيهم إلا بما ياذن الله تعالى.

الاحتمال والتفسير الثاني أن هذه الآية تنمّة للآية التي سبقتها، فيكون قوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ بمثابة جملة اعتراضية وغير مستقلة في نفسها، وأن قوله تعالى: ﴿أو يتوب عليهم﴾ بمثابة عطف وتعلّق بقوله سبحانه: ﴿أو يكتبهم﴾ وفي هذه الحالة يكون معنى مجموع الآيتين كالتالي: إن الله سبحانه سيوفّر لكم وسائل النصر، وسيتصرّف في المشركين المقاتلين طبقاً لما تقتضيه الحكمة والعدالة، وأنت يا أيّها النبي لا يمكنك أن تتخذ قراراً، وإن مصيرهم سيتوقّف على أمور أربعة:

* إمّا أنه تعالى سيقطع قسماً من مجموع جيش المشركين.

* أو سيضطرّهم ربّهم إلى العودة والرجوع عن القتال.

* أو يتوب عليهم إذا ما كانوا جديرين بذلك.

* أو أنه سيعاقبهم ويعذبهم على ظلمهم..

٣. ويذهب صاحب تفسير (المنازل) إلى أن هذه الآية تجسّد درساً عظيماً بخصوص تسخير الوسائل الطبيعيّة لتحقيق النصر.. وهي تعلّم المسلمين وتوحي لهم بأن الله تعالى إن كان قد وعدهم النصر؛ فهذا لا يعني أن يغفلوا عن الوسائل الطبيعيّة والعسكريّة والخطط الحربيّة، ولذلك؛ قال خطاب الآية: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أي أنّ تحقيق النصر ليس موكولاً أمره إليك، بل هو إلى الله، وقد جعل سبحانه سنناً وقوانين يجب الالتزام بها والنظر إليها (ورغم التأثير القطعي لطبيعة الدعاء النبوي، إلّا أنه بمثابة الاستثناء في موارد وحالات مخصوصة

ومعينة)..^١

وهنا ينبغي الالتفات إلى قول هذا المفسر؛ وإن كان له وجه منطقي في هذه الجزئية، إلا أنه لا يتطابق أبداً مع مفهوم ذيل الآية الخاص بالتوبة أو عقوبة الكافرين، وعليه؛ لا ينبغي اعتبار كلامه تفسيراً صحيحاً للآية، لا سيما وقد سمتهم الآية بكونهم ظالمين..

٤. قد سلبت هذه الآية النبي صلوات الله عليه وآله صلاحية العفو أو عقوبة المتمردين على أوامره.. وهذا لا يتنافى والتأثير الأكيد لدعائه صلى الله عليه وآله وعفوه وصفحه وشفاعته؛ الذي يعلم من آيات قرآنية أخرى، وذلك لأن المراد من هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس له أن يتخذ قراراً مستقلاً بحق هؤلاء الأعداء والهاربين، إلا أن يأذن الله تعالى له، فيعاقبهم كما ينبغي؛ وكذلك يوفر أسباب النصر، بل يأذنه يمكن أن يحيي الموتى كما كان المسيح عليه السلام يفعل...

٥. ينبغي الالتفات إلى أن المتكلمين في جملة: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ وأرادوا إنكار صلاحية الرسول في هذا الأمر، قد نسوا. في الحقيقة. آيات قرآنية أخرى، مثل الآية (٦٤) من سورة (النساء) القائلة: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ وطبقاً لهذا النص الصريح يكون الرسول ذا صلاحية في طلب التوبة المقبولة لذنوب هؤلاء الذين يظلمون أنفسهم.. وفي البحوث القادمة سنفصل القول لدى تفسير الآيات ذات العلاقة إن شاء الله تعالى.

١- راجع: تفسير المنار، ج ٤، ص ١١٨ إلى ١٢٠.

الآية ١٢٩

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية - في حقيقتها - تأكيد للآية السابقة، حيث تشير إلى أنَّ الثواب والعقاب ليسا بيد الرسول صَلَّى الله عليه وآله (على سبيل الاستقلال عن الإرادة الإلهية) بل هما خاضعان لحاكمية الله المطلقة، هذه الحاكمية النافذة على سبيل الإطلاق والاستقلال في جميع ما في السماوات والأرض، إذ الخلقة صادرة منها، كما هي المالكية عائدة لها، وكما هو تدبير شؤونها كل ما فيها، وعليه؛ فالله تعالى الذي يغفر لمن يشاء أو يعذب من يشاء ﴿والله غفور رحيم﴾. ٢. في الوقت الذي تكون عقوبته سبحانه شديدة، كذلك هي رحمته واسعة، كما أن رحمته قد سبقت غضبه وعقوبته.

٣. لعلَّ سؤالاً يقفز إلى الكثير من الأذهان، وهو: كيف يعمد الله تعالى إلى معاقبة عباده بداعي ذنوبه مع كل ما فيه من رحمة واسعة لا متناهية؟ لدى الإجابة على هذا السؤال؛ نفصل النقل عن المفسر الكبير (الطبرسي) الذي نقل عنه القول في ذيل هذه الآية الشريفة: بأنَّ رحمة الله تعالى لا تنفك عن حكمته ولا تتعارض، ذلك لأنَّ رحمته ليست كشعورنا بالترحم أو كرقعة قلوبنا تجاه فرد من الأفراد،^١ أي أنَّ الرحمة الإلهية لا تصدر عن رقة قلب كما نشعر نحن، وإتّما هي ممزوجة بالحكمة أبداً، والحكمة توجب معاقبة المذنبين (إلا في موارد خاصّة).

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٨٣٣

الآية ١٣٠

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا
مُضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. مع أن الآيات السالفة تناولت حوادث معركة أحد والدروس التي استقاها المسلمون من تلكم الحوادث، إلا أن الآيات التسع التالية ستتناول مجموعة مناهج اقتصادية واجتماعية وتربوية، وبعد هذه الآيات التسع سيكون الحديث مرة أخرى عن معركة أحد...

حقيقة العلاقة بين الآيات

٢. يمكن أن يتساءل الفرد عن السبب في هذا التفاوت الحاصل في طبيعة الموضوع الذي تتناوله الآيات التسع القادمة عما سبقها من آيات تحدثت عن موضوع آخر؟ ولماذا يشاهد نوع انفصال بين بحوث الآيات؟

ينبغي القول أولاً إنه ليس من الضروري أن نبحث بإصرار. كما يفعل بعض المفسرين. عن علاقة بين الآيات، فلا حاجة إلى تجشّم عناء إيجاد العلاقة بين موضوعات وآيات لم يشأ الله تعالى أن يربط فيما بينها، لأنّ هذا الإصرار والتكلّف وتحمل المشقّة لا يتناسق وروح القرآن وطبيعة نزول القرآن وآياته في وقائع مختلفة ومتعدّدة طبقاً للحاجات المتنوّعة وضمن الظروف والبيئة المنفصلة.. وحقيقة القرآن واضحة في كونه كتاباً غير تقليديّ كما هي الكتب الأخرى ذات التبويب والفصول المحدّدة، فلا بدّ أن يلتزم نظاماً تأليفيّاً خاصّاً يتضمّن الأبواب والفصول.. بل القرآن كتاب نزل بالتدرّج طيلة ثلاث وعشرين سنة طبقاً للحاجات المتعدّدة والمتفاوتة في أوقات وأماكن مختلفة.. فتراه يتحدّث . مثلاً. عن معركة أحد وقضايا الحرب

وظروفها وما تتضمنه من دروس وعبر.. ثم تطرأ الحاجة - في اليوم التالي - إلى الحديث عن مسألة اقتصادية كالربا، أو مسألة حقوقية كالزواج، أو مسألة تربوية أخلاقية كالنوبة.. وهكذا تنزل الآيات.. رغم أن جميع الآيات والصور القرآنية مرتبطة فيما بينها من وجهة نظر محدّدة؛ حيث تتابع منهاجاً واحداً يهتم بصناعة الإنسان وتربيته وصياغة شخصيته على مستوى راق، كما أنّها قد نزلت لصناعة المجتمع الحضاري الواعي المميّز بالأمن والاستقرار والتطور المادي والمعنوي.

٣. معلوم أن القرآن المجيد لدى مواجهته الانحراف المتجذّر في المجتمع البشري ملتزم بقاعدة التدرّج.. ليكشف للناس والرأي العام الإنساني فداحة خطر الفساد والانحراف، ثم بعد ذلك يعمد إلى عملية التحريم والمنع حيث يكون المجتمع مستعداً لقبول هذا التحريم، يعلن قانون بصراحة ووضوح (لا سيّما بما يتعلّق بالحالات التي يستفحل فيها ارتكاب الذنوب والمفاسد وينتشر).

الحرب على الربا

٤. حيث كان العرب في الجاهلية غائرين في موبقة الربا، وخصوصاً في البيئة المكّية حيث كان أكل الربا على قدم وساق، وهو الأمر الذي كان يتسبّب في كثير من البؤس الاجتماعي والاقتصادي، فقد وّزع القرآن الحكيم عملية تحريم ممارسة هذه الرذيلة الخطيرة والمتجذّرة على أربع مراحل:

المرحلة الأولى: ورد الاكتفاء بوصف الربا بكونه رذيلة أخلاقية يمارسها قاصروا النظر ممّن يجمعون ويضاعفون ثرواتهم عن طريق الربا، ولكّنه عند الله تعالى لا يتضاعف، وإنّما الذي يضاعف المال هو الإنفاق والزكاة.. وذلك حيث قال تعالى في الآية التاسعة والثلاثين من سورة (الروم) المباركة: ﴿ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾.

المرحلة الثانية: انتقدت الآية الحادية والستين بعد المئة من سورة (النساء) عادات وتقاليد اليهود الخاطئة في أكل الربا، إذ قالت: ﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه﴾.

المرحلة الثالثة: في الآية محطّ البحث . كما سيأتي تفسيرها . جاء التصريح بحرمة الربا، ولكن لشكل من أشكاله، حيث يكون شديداً وفاحشاً..

المرحلة الرابعة، وأخيراً منعت وحرمت الآيات (٢٧٥. ٢٧٩) من سورة (البقرة) بشدّة جميع أشكال الربا وعدّتها مساوية لإعلان الحرب على الله عزّوجلّ.

٥. المراد من الربا الفاحش تصاعد كمّيات الثروة باستمرار في إطار الربا، أي أن يضمّ المال إلى عملية الربا في البداية فيمتزجان معاً، فيشكل رأس المال ثروة جديدة بزيادته بالربا. فلا تمرّ فترة طويلة حتّى تتضاعف مديونيّة المدين عدّة أضعاف وتتلاشى معيشته في مدّة قصيرة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾.

٦. يعلم من الروايات والمأثور التاريخي أنّ الجاهليّة كانت تحكم فيما إذا عجز المدين عن سداد دينه في موعده أن يطلب من الدائن أن يجعل من أصل الدين ومجموع الفائدة مالاً جديداً يعدّه قرضاً ثمّ يحدّد له فائدة جديدة.. أمّا في عصرنا الراهن؛ فهذا الربا قد يمارس بشكل أشدّ ظلماً واستغلالاً على مستوى الأفراد والدول.

٧. أنّ كلّ إنسان يرغب في زيادة المال، ولكن يجب أن يعلم، أنّه إذا كان يريد السعادة في الدنيا والآخرة لزمه كبح جماح غرائزه ورغباته، فلا يقحم نفسه في كلّ طريق لإشباع غرائزه وشهواته.. كما عليه التحلّي بالتقوى لعلّه يفلح في نتيجة امتحانه الدنيوي ﴿واتّقوا الله لعلّكم تفلحون﴾.

الآية ١٣١

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. التأكيد المكرر على لزوم الورع والتقوى الوارد في مطلع هذه الآية يشير إلى أنَّ نهاية هذه الحياة على شاكلتين: إما التقوى والورع ثمَّ النجاح والفلاح.. وإما الانفلات ونار جهنم ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.
٢. يعلم من استعمال مفردة ﴿الكافرين﴾ في هذه الآية، ومن خطاب ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ أنَّ المرابي غريب عن روح الإيمان، بل إنَّ أكل الربا مساهم وله نصيب من النار التي تنتظر الكافرين!
٣. من قوله تعالى: ﴿النار التي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ يعلم أنَّ النار إنما خلقت للكافرين، وأنَّ العصاة المذنبين - وإن كانوا مسلمين مؤمنين في ظاهرهم - لهم نصيبهم من نار الجحيم بمقدار شبههم بالكافرين.

الآية ١٣٢

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. استعمال لغة التشجيع في هذه الآية، وتغيير لحنها ولهجتها قياساً بالآية السالفة، إذ كانت لهجة تهديد وترهيب، يوضح أنّ نيل الرحمة الإلهية منوط بالطاعة لله تعالى وللرسول صلوات الله عليه وآله.
٢. بدلاً من تحكيم الرأي والرغبة الذاتية، لو هجرت المادّيات التي يتسبّب التعلّق بها بحلول الغضب الإلهي، ويمكن أن تُعرّض إلى الخطر في الظاهر بهذا الهجر.. ولكن ثمّ منافع عظيمة ستكون من نصيب الإنسان، منافع تكون مادّيات الدنيا برمتها إزاءها شيئاً لا يذكر.. وهي الرحمة والرضوان الإلهيان ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾.
٣. لا يكتمل التهديد أبداً إلا إذا كان فيه ترغيب وتشجيع.. وقد جرى التهديد في الآية السابقة، وها هو التشجيع في هذه الآية.. قالت الآية السابقة: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ وهذه الآية تحدّثت عن الرحمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾.

الآية ١٣٣

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٣)

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. تتمّة لما مرّ في الآية السابقة، أوضحت إمكانية نيل وبلوغ المؤمنين الرحمة الإلهية منوطة بطاعة الله ورسوله، وفي هذه الآية جرت الإشارة إلى مصاديق الرحمة والطاعة.
٢. تبعاً للآيات السالفة التي هدّدت الطالحين بعقوبة النار؛ وشجّعت الصالحين ودفعتهم إلى الرحمة الإلهية، فإنّ هذه الآية شجّعت مساعي الصالحين بمنافسة ومسابقة معنوية؛ هدفها النهائي رحمة الله وغفرانه ونعمه الخالدة في الجنان.. فكان الحثّ على الدخول في مضمار التنافس الإيجابي.

الإسراع والتسابق للمغفرة

٣. ﴿ سارعوا ﴾ بمعنى السعي وبذل الجهد بين الشخصين والأكثر لإحراز قصب السبق للوصول إلى هدف محدّد، وهذا العمل في مضمار الصلاح جدير بالثناء والقبول، فيما يذمّ في مضمار السوء ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾.
٤. القرآن في هذه الآية وباستعمال البعد النفسي، حيث يجد الإنسان نفسه غير مرغّم على الإسراع في إنجاز ما أنيط به من المهام إذا ما وجد نفسه فريداً وحيداً، على العكس ممّا إذا نافسه شخص أو أكثر، فيأخذ الإنجاز هيئة تنافس يستدعي الإسراع والتسابق.. لا سيّما إذا كان التسابق مقروناً بعتاء وأجر وجائزة، فتراه يبذل أقصى جهده للسبق وإحراز الجائزة بعد تحقيق الهدف.. ولهذا؛ ترى هذه الآية قد أمرت المؤمنين بالتسابق والإسراع لبلوغ المغفرة الإلهية.

٥. الهدف الأولي لهذه المسابقة؛ الغفران الإلهي، حيث لا يمكن بلوغ أي مقام معنوي دون المغفرة والتطوّر من الذنب، إذ يجب تطهير الذات من الخطيئة ثم الانطلاق نحو مقام القرب الإلهي.. ونتيجة الفوز في هذه المنافسة جنان الله الأبدية التي تفوق مساحتها مساحة السماوات والأرض.

٦. المراد من ﴿عرضها﴾ في هذه الآية ليس ما يقابل (الطول) في الحسابات الهندسية، بل هو استعمال روحاني يضاف إلى المعنى اللغوي الموسع..

٧. التناسب والارتباط بين الآية (١٣١) من هذه السورة المباركة التي حثّت المؤمنين على اجتناب نار جهنّم، وأكّدت على أنّ هذه النار قد أعدّت للكافرين... وبين هذه الآية (١٣٣) أنّ الدعوة قد صدرت في دائرة الإسراع والتسابق لبلوغ المغفرة والجنان، وأنّ جنان الله قد هيئت لضيافة الطاهرين المتّقين.. وهذا ما يشير إلى أنّ الدنيا والآخرة تسيران وفق محور التقوى.. وما لم يكن المرء ذا تقوى؛ فالنار مثواه ﴿واتّقوا النار التي أعدّت للكافرين﴾ وإن اتّقى؛ فالجنة موعده ﴿أعدّت للمتّقين﴾..

٨. رغم أنّ هذه الآية قد صرّحت بأن اتّساع الجنة بمقدار اتّساع السماوات والأرض، إلّا أنّ هذا التعبير ورد .بتفاوت بسيط . في الآية الحادية والعشرين من سورة (الحديد) المباركة، إذ قالت: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربّكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ فالمسابقة وردت بدلاً عن المسارعة، والسماء وردت مفردة معرّفة بالألف واللام.. ودلّت على عموم الجنس، فيما أضيف حرف الكاف المستعمل في التشبيه ﴿كعرض﴾ بمعنى أنّ الآية مورد التفسير والبحث (سورة آل عمران) تصرّح بأن عرض الجنة هو عرض السماوات والأرض، أمّا آية سورة (الحديد) فقد ذكرت بأن سعة الجنة كسعة السماء والأرض، والعبارتان تفيدان معنى واحداً...

أين الجنة وأين النار؟!

٩. ها نحن هنا نطرح جملة أسئلة:

السؤال الأول: هل الجنة والنار مخلوقتان في الوقت الحاضر ولهما وجود خارجي، أم أنهما

ستخلقان تبعاً لطبيعة أعمال العباد؟

في هذه الآية وفي آيات عديدة أخرى ورد التعبير بكلمة ﴿أَعَدَّتْ﴾ أو بكلمات أخرى تفيد هذا المعنى، وتارة تستعمل لوصف الجنة والنار، ويعلم من هذه الاستعمالات أن الجنة والنار حاضرتان مخلوقتان في الوقت الراهن مع أنهما آخذتان في الاتساع حسب أعمال العباد..

السؤال الثاني: بالنظر إلى أن القرآن المجيد يقول بأن سعة الجنة بحجم سعة السماوات

والأرض، إن كانت الجنة والنار حاضرتين مخلوقتين؛ فأين يكون موقعهما؟

يمكن أن يقال للإجابة على هذا السؤال إن الجنة والنار في باطن هذا العالم، وكما نرى هذه السماء والأرض والأجرام الأخرى بأعيننا المجردة، إلا أن هناك عوالم كائنة في باطن هذا العالم نعجز عن رؤيتها، ولو كانت لنا قدرة خاصة وإدراك مميز لتمكّننا من رؤيتها.. كما أن في هذا العالم موجودات كثيرة نعجز عن رؤية ذبذباتها، بل هي غير قابلة للإدراك ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ وكما يعلم من بعض الروايات أن جملة من أولياء الله تعالى لهم القوة والقدرة على الإدراك والرؤية في هذا العالم، حيث رأوا الجنة والنار بعين الحقيقة...

ولمزيد من فهم هذا الموضوع نضرب مثالين:

المثال الأول: كما تتوفر في وقتنا الحاضر أجهزة إرسال فائقة التطور وتستطيع أن تغطي

مساحات الأرض كلّها، وقد أثبت العلم المعاصر أن ثمّ ذبذبات في عالمنا غير مرئية بالهيئة العادية وغير مسموعة بالوسائل الطبيعية.. وعلى هذا الأساس؛ إذا ما وضع جهاز إرسال فائق جداً في نقطة من الأرض، وساعدته الأقمار الصناعية في الإرسال إلى جميع بقاع الأرض وتمّ بواسطة ذلك بثّ تلاوة قرآنية رائعة.. وفي مقابل ذلك وفي نقطة أرضية أخرى كان جهاز إرسال

فائق أيضاً يبت صوتاً منكراً ومزعجاً جداً من جهة أخرى... ولكنا حينما نجلس في موضع بسيط وبعيد عن جهازَي الإرسال المشار إليهما.. ورحنا نسمع أحاديث بعضنا في ذلك المجلس.. فإننا لدى ذلك نكون غافلين أو جاهلين بوجود جهازَي الإرسال وما يبثانه من صوت جميل أو منكر مزعج.. أمّا إذا مثل أحد الجهازين أو كلاهما، فسنكون قادرين على سماع ما يبثان.. غير أننا لا نسمع شيئاً من إرساليهما في الحالة الطبيعية للعجز الموجود في آذاننا (رغم أن هذا المثال لا يتصور المقصود من جهات إلا أنه قد يرسم كيفية وجود الجنة والنار في باطن هذا العالم).

المثال الثاني: لا شك في أنّ عالم الدنيا مستقرّ في باطن عالم الآخرة، كما أنّ عالم الجنين مستقرّ في عالم الدنيا؛ رغم أنّ عالم الجنين له واقعه المستقلّ، ولكّنه ليس ببعيد عن هذا العالم الذي نعيش فيه.. كذلك هو عالم الدنيا بالنسبة إلى عالم الآخرة... أيّ أنّه كائن في داخله.. وعلى هذا الأساس؛ كان عالم الآخرة - الجنة والنار - محيط بعالم الدنيا.. فإذا وجدنا القرآن الحكيم يشير إلى أنّ سعة الجنة بسعة السماوات والأرض فبداعي أنّ الإنسان يجهل بوجود عالم أكثر سعة من سعة السماوات ليجعل منه مقياساً ومعيّاراً.. ولهذا؛ عمد القرآن الحكيم - في إطار رسمه ملامح سعة الجنة والنار - إلى تشبيه الجنة بسعة السماوات والأرض، ولم يكن ثمّ مناص في البين.. كما لو أننا أردنا مخاطبة جنين في بطن أمّه بعد أن كان له عقل، فعلينا مخاطبته وفقاً للمنطق المفهوم بالنسبة إليه... ومما ذكرنا تتبيّن الإجابة على هذا السؤال القائل بأنّه إذا كانت سعة الجنة بسعة الأرض والسماوات؛ فأين تكون النار إذن؟ ذلك لأنّه وطبقاً للمثال الأوّل تكون الجحيم في داخل هذا العالم، وهذه الحالة والصورة لا تتناقض مع وجود الجنة فيه أيضاً (كما مرّ في مثال الذبذبات الخاصّة بجهاز الإرسال الصوتي) وأمّا طبقاً للمثال الثاني حيث تكون الجنة والنار محيطتين بهذا العالم، فالجواب يكون أكثر اتّضحاً، لأنّ النار يمكن أن تحيط بهذا العالم، والجنة تحيط بذلك العالم (الآخرة) بل وأكثر

سعة..

السؤال الثالث: هل الجنة والنار موجودتان فعلاً؟ وأين هما الآن؟

يذهب أكثر علماء الإسلام إلى كونهما موجودتين فعلاً وأنَّ لهما وجوداً خارجياً.. وكذلك هو شأن ظواهر الآيات القرآنية الشريفة.. ونموذج ذلك:

نقرأ في الآيات الخاصة بالمعراج في سورة (النجم): ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾^١ وهذا شاهد عيان على الوجود الفعلي للجنة.

قال سبحانه في سورة (التكاثر).. الآيات الخامسة والسادسة والسابعة: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾. وهناك شواهد عديدة أخرى تناولتها الروايات المتعلقة بكرامة المعراج النبوي...^٢

١- سورة النجم / ١٤.

٢- راجع: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٩١ إلى ٤٠٩.

الآية ١٣٤

الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. لما تحدّثت الآية السابقة عن أنّ الله تبارك وتعالى قد وعد المتّقين جنان الخلد، ها هي الآية محطّ البحث تحدّد طبيعة هؤلاء المتّقين وتصفهم بثلاث صفات راقية:

من صفات المتّقين

الصفة الأولى: أنّهم ينفقون في كلّ حال، وسواء في حال المكنة والسعة أو في حال الضيق والعسرة: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾.

الصفة الثانية: كظمهم للغیظ وقدرتهم في كبح غضبهم ﴿والكاظمين الغیظ﴾.

الصفة الثالثة: عفوهم وصفحهم عمّن هو جدير بالعفو والصفح دون من لا تنفع معهم هذه الخصلة الإنسانية الراقية ممّن تزداد جرأتهم على الحقّ إذا ما عفي عنهم: ﴿والعافين عن الناس﴾.

٢. واضح أنّ الإنفاق في حال الوسع والراحة ليس كافياً في النفوذ التام لهذه الصفة النبيلة في عمق روح الإنسان، أمّا الذين يعينون غيرهم وهم محتاجون إلى العون؛ فقد يعلم تجدّر هذه الصفة والملكة فيهم.

الإنفاق مع الحاجة

٣. يمكن أن يسأل عن كميّة إنفاق الإنسان في حال كونه محتاجاً؟

وواضحة هي الإجابة، ذلك لأنّه:

أولاً: أنّ المحتاجين لهم أن ينفقوا بمقدار استطاعتهم.

ثانياً: أنّ الإنفاق غير منحصر في الناحية المالية، إذ يمكن أن يكون إنفاقاً من مختلف المواهب العلميّة كالعلم والمعرفة... وبهذا، يكون الله تعالى مريداً لزرع روح التسامح والتضحية والسخاء في نفوس المؤمنين المتّقين وإن كانوا محتاجين لذلك؛ لإزاحة الرذائل الأخلاقيّة التي تنشأ أساساً من البخل..

٤. الذين يستصغرون الإنفاق القليل إنّما يستصغرونه لأنهم يفصلون بين مصاديقه.. إلّا أنّ الإعانات الجزئية البسيطة لو صُفّت إلى بعضها، وعمد. مثلاً. أفراد المجتمع؛ فضلاً عن فقيرهم وغنيّهم إلى مدّ يد العون بمبالغ بسيطة؛ ثمّ صرفت هذه المبالغ لتحقيق أغراض وأهداف اجتماعيّة، لأمكن إنجاز مشاريع عظيمة، مضافاً إلى أنّ الأثر المعنويّ والأخلاقيّ للإنفاق غير منوط بحجم الإنفاق وكثرته، والنتيجة الطيّبة تعود على المنفق في سبيل الله على أيّ حال.

٥. الكظم لغةً بمعنى غلق فوهة القربة المليئة بالماء، وكنايةً يستعمل في الذين امتلأوا غيظاً فيسيطرون عليه.

أما ﴿ الغيظ ﴾ فهو شدّة الغضب والهيجان الروحي الذي يحدث في الإنسان عند مصادفته ما لا يستسيغه.

٦. أنّ حالة الغضب والهيجان الروحيين أخطر الحالات إذا تركت وشأنها، وقد تتحول إلى جنون لا يمكن أن يضبط، بل إنّ كثيراً من الجرائم والقرارات الخطيرة التي تستوجب أن يدفع المرء ثمنها طيلة عمره.. إنّما ترتكب في مثل هذه الحالة.. ولهذا قال نبيّ الإسلام صلّى الله عليه وآله: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه؛ ملأه الله تعالى أمانة وإيماناً»^١ وهذا الحديث

يؤكد على أن كبت الغضب له آثار عجيبة واستثنائية في التكامل المعنوي للإنسان ورفد روحه الإيمانية..

٧. السيطرة على حالة الغضب أمر إيجابي جيد؛ ولكنه ليس كافياً بمفرده، وذلك لاحتمال بقاء الحقد والعداوة في قلب الإنسان، ولهذا جعل العفو والصفح قريناً بكظم الغيظ.

٨. مع أن مسألة العفو وردت بعد صفة كبت الغضب الراقية، إلا أن المراد هو العفو عمن هو جدير به، دون الأعداء الذين تمرّسوا امتصاص الدماء، حيث العفو عنهم يزيدهم جرأة ووقاحة واستهتاراً بحقوق وحرّمات غيرهم.

٩. الإنسان وخلال مسيرته في طيّ مراتب التكامل، لا ينبغي له الاكتفاء بكظم الغيظ وممارسة فضيلة العفو لغسل روحه عن أدران الانزعاج، وإثماً عليه أن يتقن عملية التطهير والتطهر، وذلك بالإحسان في مقابل الإساءة (بما وبمن هو جدير) للانتقال إلى نبل آخر يتمثل في محاولة تطهير قلب الطرف المقابل من أدران العداوة والبغضاء وحمله على المحبة والتعاطف؛ بحيث لا تتكرّر منه مشاهد العدا، مثال ذلك؛ أننا نقرأ في نصّ متفق عليه ورد في ذيل قوله تعالى: ﴿والله يحبّ المحسنين﴾ أنّ جارية كانت تصبّ الماء على يد الإمام السّجاد عليه السلام، فوقع الإبريق من يدها على وجهه وجرحه، فرفع الإمام عينه إليها، فقالت من فورها: قال الله: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ فقال عليه السلام: قد كظمت غيظي. فقالت الجارية: ﴿والعافين عن الناس﴾ فقال عليه السلام: قد عفوت عنك، فقرأت الجارية: ﴿والله يحبّ المحسنين﴾ فقال عليه السلام: اذهبي فأنت حرة^١. وهذا الحديث شاهد حيّ على أنّ هذه المراحل الثلاث المذكورة ذات خاصيّة متدرّجة، وكلّ منها تعقب الأخرى ﴿والله يحبّ المحسنين﴾.

١- الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ٢٠١

الآية ١٣٥

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ
إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ﴿فاحشة﴾ من مادة الفحش، والفحشاء بمعنى كل عمل قبيح جداً، ولا ينحصر فيما هو مخالف للعفة، ذلك لأنه لغة بمعنى التجاوز عن الحد، وهو يشمل كل خطيئة.
 ٢. الآية تشير إلى صفة أخرى من صفات المتقين، فهم فضلاً عن تميزهم بالصفات الإيجابية المذكورة.. إن ارتكبوا ذنباً؛ أسرعوا إلى تذكّر الله وتابوا إليه ولم يصروا أبداً على ممارسة ذنبهم.
 ٣. يفهم من قوله تعالى: ﴿ذكروا الله﴾ أن الإنسان لا يرتكب خطيئة ما دام ذاكراً ربّه المتعال، وإنّما ارتكاب الذنب يكون حين ينسى الفرد خالقه وتستولي عليه الغفلة، أمّا الغفلة ونسيان الله؛ فلا تستمرّ طويلاً لدى المتقين، لأنّهم يمتازون بملكة الإسراع في تذكّر الله تعالى وجبر ما مضى.. ذلك لأنّ المذنب يشعر بعدم وجود ملجأ له غير الله سبحانه وبضرورة طلب المغفرة منه.. ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾.
 ٤. إذا ما سئل عن السبب في ذكر الظلم للذات بعد الإشارة إلى ارتكاب الفاحشة، وعمّا هو الفرق بينهما؟ فإنّ الجواب عن ذلك؛ هو أنّ الفرق بين الفاحشة والظلم، كون الفاحشة من الكبائر، وأمّا الظلم للذات فهو إشارة إلى الصغائر.
- وقالت الآية في الخاتمة: ﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾.

٥. بخصوص الإصرار على الذنب، روي عن مولانا الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدث نفسه بتوبة؛ فذلك الإصرار...»^١ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون.*

٦. من المعلوم أن نسيان الإنسان ذنبه، نتيجة تساهله واستصغاره للذنب الذي ارتكبه، وهو تأثر أيضاً بوساوس الشيطان.. والوحيدون الذين يتورطون بهذا الواقع المزري هم المستسلمون للشيطان.. إلا أن الواعين من المؤمنين يحرصون على استغلال أقرب الفرص للتطهر بماء التوبة والاستغفار عن ذنبهم، فيغسلوا قلوبهم وأرواحهم ويغلقوا نوافذ نفوسهم بوجه الشيطان وجنوده...

الآية ١٣٦

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. وردت الإشارة بدءاً في هذه الآية إلى المواهب المعنوية والمغفرة وتطهير القلب والروح والتكامل المعنوي، ثم جرى الحديث عن المواهب المادية.
٢. الأجر الإلهي يحظى به العاملون دون الكسالى القاعدين عن مسؤولياتهم وعهودهم ﴿ونعم أجر العاملين﴾.
٣. كما أنّ عدم العفو عن الذنوب يستلزم الغضب الإلهي والخلود في نار الجحيم، كذلك هي المغفرة تستوجب الخلود في الجنان: ﴿جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾.

الآية ١٣٧

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَآنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. يعدّ القرآن المجيد التواصل الفكري والثقافي بين الجيل الحاضر وتاريخ الماضين - لدرك الحقائق. أمراً لازماً وضرورياً، إذ لا شك في وجود صلة واضحة ومؤكدة بين الأجيال السالفة والعصر الراهن وبالعكس، ومن خلال العلاقة والصلة بين الزمانين (الماضي والحاضر) تتضح مسؤولية الأجيال اللاحقة وتتجلى.

وعي السنن التاريخية

٢. قد جعل الله تعالى سنناً في الأمم الماضية، وهي غير مختصة بها أبداً، فكانت عبارة عن سلسلة قوانين وثوابت مصيرية تعم الجميع؛ الماضين والمعاصرين وتجري فيهم. وفي هذه السنن يكون تطوّر وتعالى المؤمنين والمجاهدين ويضمن اتّحادهم ويقظتهم.. فيما الهزيمة والفناء من نصيب الأمم والمجتمعات المتفرقة؛ عديمة الإيمان والملوثة بالذنوب، وتاريخ هذه وتلك أمر ثابت ومعروف ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض... ﴾.

٣. للتاريخ أهميّة خاصّة في حياة كلّ أمة ومجتمع.. والتاريخ. بطبيعة الحال. يكشف لنا عن الخصوصيّات الأخلاقيّة والممارسات الصالحة والطالحة وطبيعة تفكير الماضين، ويبين أسباب السقوط والسعادة لكلّ مجتمع عاش في العصور الماضية. وحقيقة الأمر هي أنّ تأريخ الماضين بمثابة مرآة لمستقبل وحياة المجتمعات البشريّة روحياً ومعنوياً، ويشكّل إنذاراً للأجيال اللاحقة.. ومن هنا؛ أمر القرآن المسلمين بالسير في الأرض وملاحظة آثار الماضين

والأُمم البائدة وقادتها من فراعنة وجبَّارين، ثمَّ النظر في عاقبة الذين كفروا وكذَّبوا الأنبياء وأُتْسِسُوا لِلظُّلْمِ والتمرَّد على إرادة المولى سبحانه..

٤. آثار وتراث الماضين، مثل خرائب قصور الظالمين وأبنية الأهرام العجيبة وبرج بابل وقصور الأكاسرة والأباطرة والقياصرة وبقايا حضارة سبأ والمئات من نظائرها.. تحوي الوقائع الناصحة للأجيال التي لحقتهم، وللناس . إذ ذاك . أن يصحَّحوا مساراتهم بالاستفادة والاستعانة بها.. والآثار المتوقِّرة في مختلف بقاع الأرض بمثابة الوثائق القديمة المتبقية والناطقة باسم التاريخ، بحيث يتسنى لنا الإفادة منها أكثر ممَّا هو مدوَّن في الأوراق والصفائح والصحائف.. فهي تحوي صوراً ورسوماً وتكشف لنا عن روح وقلب العظمة والقدرة والتفكير ورذالة الذين كانوا قد شيدوها، فيما التاريخ المدوَّن يكتفي . في الغالب . بتجسيم الحوادث الواقعة والصور الجاقَّة الباردة والمجرَّدة عن الروح.

٥. أولى الإسلام مسألة السير والسياسة في ربوع الأرض أهميَّة خاصَّة، وللأسف؛ قد جرت الغفلة عن هذا الأمر والاهتمام كما هي بالنسبة للكثير من الأوامر والتعاليم الإسلامية.. ولكن يبقى أنَّ هذه الدعوة إلى السير والسياسة لا ينبغي أن تكون كسياسة طلاب الهوى المعاصرين الذين لا ينفكُّون عن ارتكاب المعاصي وتضييع الوقت، بل لا بدَّ من اتِّسامها بالرغبة الواعية في التعلُّم والتحقيق في الآثار ومصائر الماضين ومشاهدة عظمة الله وقدرته في مختلف بقاع الأرض.. وهذا ما أسماه القرآن بالسير في الأرض وأمر به في آيات عديدة، مثل:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾^(١).

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾^(٢).

١- سورة النحل / ٧١.

٢- سورة العنكبوت / ٢٠.

﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾^(١) وآيات أخرى، وهذه الآية تقول إنّ هذه السياحة المعنوية والسير في الأرض توقظ قلب الإنسان وتفتح عينه وأذنه، وتخلصه من الكسل والجمود والتحجر..

﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ يريد الله تعالى في هذا النص أن ما مرّ في الآيات أعلاه بياناً واضحاً صريحاً لجميع الناس ووسيلة هداية وموعظة لجميع المتقين، أي أنه في الوقت الذي تتسم هذه الموعظة بصفة عمومية واجتماعية، فإنّ الجهة الوحيدة التي تستلهم منها وتهتدي بها، هي جهة المتقين الهادفين الناضجين..

الآية ١٣٨

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ



النقاط المستفادة من هذه الآية

١. التعاليم والأوامر الأخلاقية في هذه الآية درس لمعيشة جميع الناس.
٢. رغم أن هذه الأوامر الأخلاقية درس لحياة عامة الناس، إلا أن إحراز الهداية وأخذ العبرة يكون للمؤمنين منهم.
٣. التفاعل والتأثر بهذه التعاليم يتأتى تحت مظلة التقوى والورع.

الآية ١٣٩

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

شأن نزول هذه الآية

عن شأن نزول هذه الآية وما بعدها؛ وردت روايات عديدة، ويفهم من مجموعها أن هذه الآيات التي وردت سابقاً بخصوص معركة أحد، وتحليل نتائج هذه المعركة وأسبابها يتضح أنها تمثل درساً عظيماً للمسلمين كما أنها - الآيات - ترفع من معنوياتهم، ذلك لأن سبب الهزيمة في معركة أحد كان التمرّد وعدم الانضباط الذي صدر عن جميع كثير من مقاتلي المسلمين، فيما استشهد العديد من أبطال الإسلام؛ ومنهم الحمزة بن عبد المطلب؛ عم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فذهب في مساء يوم المعركة مع أصحابه إلى حيث القتلى والشهداء، وكان يجلس عند كلّ جسد من أجسادهم المضرجة بالدماء فيبكيهم ويطلب لهم الرحمة، ثم إنه صلوات الله عليه وآله دفن أجساد الشهداء عند منحدر جبل أحد وقد ملأه الحزن.. وهنالك حيث كان المسلمون بمسيس الحاجة لرفع معنوياتهم وللاعتبار بنتائج هزيمتهم.. فنزلت هذه الآيات.^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ من مادّة الوهن، والوهن لغةً هو كلّ نوع من الضعف، سواء كان جسمياً، أو في الإرادة والإيمان.
٢. أطلق التحذير في هذه الآية للمسلمين لئلا يسمحوا للوهن بالنفوذ إلى كيانههم لمجرّد خسارة حرب، فيحزنوا ويأسوا من النصر النهائي، ذلك لأن الأفراد اليقظين الواعين

١- تفسير الامثل، ج ٣، ص ١٠٧

كما يغتنمون إحراز النصر، كذلك يعتبرون من الهزيمة.. فيبحثون دوماً عن نقاط ضعفهم التي تسببت لهم بالهزيمة، ليَرْمَموها ويَحَقِّقوا نصرهم المؤزَّر..

٣. كلَّ هزيمة وكلَّ انتصار لهما أسبابهما، فعليكم أن تكتشفوا أسباب هزيمتكم في هذه المعركة وأسباب انتصاركم في معركة بدر.. فكان السبب في خسارة أحد أن إيمانكم أصيب بالضعف، ولو أنكم لم تتمردوا على أمر الله والرسول ما كنتم تصابون بهذه الخسارة، خلافاً لمعركة بدر تماماً.

٤. المؤمن لا يهزم، لأنَّه منتصر دوماً بالتزامه بالتكليف الإلهي؛ سواء قُتل أو قَتَلَ، ولأنَّ ما يهَمُّه هو رضا الله تعالى ﴿أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾.

٥. لا تحزنوا لخسارتكم، فالنصر النهائي لكم إن ثبتتم على إيمانكم، ثم إنَّ خسارة جولة لا تعني خسارة حرب برمتها ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾.

الآية ١٤٠

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ
وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ﴿قَرْحٌ﴾ بمعنى الجرح الذي يتسبب به عامل خارجي عن البدن.
٢. تتضمن هذه الآية درساً آخر لبلوغ المسلمين النصر النهائي وأن لا يظنوا أنهم أقل شأنًا من الكافرين، فهؤلاء قد أصيبوا بهزيمة من جانب المؤمنين وقد قتل منهم سبعون مقاتلاً كما جرح منهم الكثير وأسر غير ذلك؛ ولكتهم لم يخسروا كل شيء، وقد عوضوا عن هزيمتهم بداعي غفلتكم، فإن كان المؤمنون قد هزموا في معركة؛ فعليهم جبر هزيمتهم.. ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ..﴾.
٣. عدّ بعض المفسرين هذه الآية إشارة إلى الجراح التي أصيب بها كفّار قريش في أحد.. ولكن! أولاً: هذه الجراحات لم تكن كجراحات المسلمين، وعليه؛ هي لا تتفق مع كلمة (مثله) ثانياً: لا تناسب أيضاً والجملة التالية التي سيلي تفسيرها.

سنة التكامل البشري

٤. قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾:

إشارة إلى إحدى السنن الإلهية التي تتوالد عنها الحوادث المرة أو السعيدة في حياة الناس؛ وهي بطبيعتها غير ثابتة، سواء كانت نصراً أو هزيمة أو قوة أو عجزاً.. إذ جميع الناس

في حال حركة وتغير، وعليه؛ لا يصح تصوّر الهزيمة والخسارة أمراً ثابتاً أبدياً وافتراس آثارها ثابتة أبدية، وإنما يجب تحليل الأسباب والبواعث للهزيمة وعدّها سنة من سنن التغيير والتحوّل ثم الانتقال بها ومنها إلى نصر تبعاً لسنة التحوّل والتغير، وذلك أنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل الأيّام تداولاً بين الناس لتبرز من خلالها سنة التكامل..

٥. قوله تعالى: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا...﴾ إشارة إلى نتيجة الحوادث المرة معرفة المؤمنين من مدعي الإيمان.. وحقيقة الأمر أنّ الحوادث الأليمة مالم تقع في أمة من الأمم فإنّ أنواع الناس لا تتحدّد ولا تعرف ولا تميّز، خاصّة وأنّ الانتصارات تبعث على الغفلة والفرح، في حين أنّ الهزائم توقظ الناس وتحدّد القيم والميزات.

٦. قوله تعالى: ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ يبيّن هذه الحقيقة القائلة بأنّ من نتائج هذه الهزيمة الأليمة أنكم قدّمتم شهداء وضحايا في سبيل الإسلام، وعلمتم أنّ هذا الدين القويم لم يتأتّى لكم بثمن بخس لتفرّطوا فيه بما لا قيمة له.. فيما الأمة التي لا تقدّم ضحايا وقرايين في سبيل الأهداف المقدّسة؛ فهي أمة تستصغر وتحتقر، أمّا من يقدّم القرايين؛ فهو وأجياله الذين يتعاضمون وينظر إليهم على أنّهم نبلاء كبار.

٧. يمكن أن يكون المراد بالشهداء هنا؛ هم من يشهدون، بمعنى أنّ الله تعالى يستخلص منكم . عبر هذه الهزيمة . شهوداً على أنّ التمرد أدّى إلى الهزيمة الأليمة، وسيكون هؤلاء الشهداء في المستقبل معلّمين للناس فيما يواجهون من حوادث قادمة.

٨. المعنى والنتيجة ممّا مرّ وما تتضمّنه خاتمة هذه الآية أنّ الله تعالى لا يحبّ الظالمين،

ولهذا؛ فهو لن يدافع عنهم..

الآية ١٤١



وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ﴿لِيُمَحِّصَ﴾ من التمحيص، بمعنى التطهير للشيء من كل عيب.
٢. ﴿يَمْحَقُ﴾ من المحق، بمعنى قلة الشيء بشكل تدريجي، ومن هنا قيل لليلة الأخيرة من الشهر: ليلة المحاق؛ حيث يقل نور القمر شيئاً فشيئاً حتى ينتهي.
٣. وردت الإشارة في هذه الآية إلى إحدى النتائج الطبيعية للهزيمة في معركة أحد، وهي أن في هذا النوع من الهزيمة تتجلى نقاط الضعف والعيوب؛ فيكون ذلك وسيلة مؤثرة للتطهير من العيوب.
٤. مضمون هذه الآية التنويه إلى أن الله تعالى أراد من وقوع هذه المعركة استخلاص المؤمنين والإشارة إلى نقاط ضعفهم، فكان من اللازم امتحانهم للإعداد للانتصارات القادمة ولتحديد معايير شخصياتهم.. كما هو قول أمير المؤمنين عليه السلام: «في تقلب الأحوال يعلم جواهر الرجال»^١.
٥. تارة تكون الهزيمة في معركة ما عاملاً عظيماً في بناء شخصية الإنسان إلى الحد الذي لا يمكن قياسها بالانتصار الظاهري فيما يتعلق بتحديد مصير المجتمع..
٦. قوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقُ الْكَافِرِينَ﴾ هو في الحقيقة نتيجة للنصوص السابقة، وذلك أن المؤمنين إذا تطهروا في خضم الأحداث؛ صار الاستعداد الكافي لإزاحة برائث الشرك والكفر عن كيان المجتمع بصورة تدريجية.. بمعنى أن البداية يجب أن تكون من التطهير ثم التطهير.
٧. كما أن نور القمر يقل ويخمد شيئاً فشيئاً حتى يبلغ المحاق.. كذلك الكفر والشرك والمدافعون عنهما.. سيمحقون جميعاً حينما يبلغ المسلمون حالة ومرحلة النقاء والطهارة.

١- نهج البلاغة، ص ٥٠٧

الآية ١٤٢

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ
جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. تشريع هذه الآية القرآنية بتصحيح خطأ فكري ثقافي وقع فيه المسلمون؛ وذلك عبر استثمار واقعة أحد، وتقول إنكم أخطأتم حين ظننتم استحقاقكم الجنة دون خوضكم سوح الجهاد والاستقامة في سبيل الله.. وتؤكد هذه الآية على خطأ التفكير والظن بأن مجرد اعتناق الإسلام والتسمي باسمه كاف للدخول في عمق السعادة الأخروية.. ولو كان الأمر كذلك لكان غاية في اليسر.. ولكن الأمر ليس كما ذهبتم أبداً.. إذ ما لم تتم عملية تصحيح جذري في العقيدة والسلوك؛ فإن أحداً منكم لن يدخل الجنة.. وهنا لابد من وضع النقاط على الحروف، فيعرف المجاهدون الحقيقيون بصبرهم واستقامتهم ونواياهم الصادقة من مدعي الإسلام والإيمان.

٢. لا تتم معرفة وتحديد المجاهدين والصابرين إلا من قبل الله تعالى؛ لأنه هو العالم بالضمائر والخبايا...

الآية ١٤٣

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

سبب وشأن نزول هذه الآية

حدث أن كان جمع من المسلمين يجلسون إلى بعض ويتحدثون عن الشهادة في سبيل الله تعالى ويتمنونها.. وبطبيعة الحال كان منهم جماعة صادقة وجماعة كاذبة متظاهرة؛ أو كانوا خاطئين في أمنيته.. ولكن لم يمر وقت طويل حتى وقعت معركة أحد الرهيبة.. فعمد الصادقون إلى خوض هذه الحرب حتى نالوا شرف القتل في سبيل الله وحققوا أمنيته، غير أن الجماعة الكاذبة فضّلت الهروب من ساحة المعركة حين رأت الهزيمة قد حلت بالمسلمين - بل وقبل ذلك أيضاً - فوبختهم هذه الآية وخاطبتهم بالقول: أنتم الذين كنتم تتمنون القتل في سبيل الله.. لم هربتم وتركتم رسول الله صلى الله عليه وآله وإخوانكم في الدين في ساعة العسرة.. بل ولعلكم أنتم من تسبّب بالهزيمة وأعنتم المشركين على إخوانكم؟!١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. وردت عبارات ملفتة للنظر في الآيات أعلاه وذلك لدى استعراض أسباب الهزيمة في أحد.. وكلّ عبارة منها كانت تكشف عن أسرار الخسارة.. فحدّدت - عموماً - جملة من تلکم الأسباب والعلل؛ لتكون الهزيمة - في الوقت نفسه - درساً بليغاً يجب أن يتقن:

دروس الهزيمة

ألف: الخطأ في المحاسبة من قبل بعض حديثي الإسلام في إدراك مفاهيم الإسلام، إذ ظنّوا أن مجرد إظهار الإسلام كافٍ في تحقيق النصر؛ وأن الله تعالى سيمدّهم من الغيب بما ينصرهم

دوماً.. فغفلوا عن السنن الإلهية في تحقيق النصر الطبيعي ورسم الخطة الصحيحة وضرورة توفير الوسائل والأسباب اللازمة لذلك.

ب: عدم الانضباط العسكري والتمرد على الأوامر النبوية المؤكدة، لا سيما فيما يرتبط بمسألة بقاء الرماة في المواضع الحساسة.. فكان ذلك من الأسباب المهمة الأخرى في الهزيمة.

ج: أدّى حبّ الدنيا أو عبادتها بجمع من حديثي الإسلام إلى الإقبال على جمع الغنائم؛ مفضّلين ذلك على ملاحقة المشركين، بعد أن وضعوا أسلحتهم لئلا يتأخروا عن غيرهم.. وهذا ثالث عوامل الهزيمة.. فكان لا بدّ لهم أن يعلموا بأنّ حقّ الجهاد في سبيل الله تعالى يستوجب نسيان الانكباب على الدنيا..

د: الغرور الناشئ عن الانتصار العظيم في معركة بدر، حيث غفل الكثير من المسلمين عن قابلية العدو واستصغار شأنه.. وهو رابع أسباب الهزيمة التي ينبغي أن تزاح عن تفكير المؤمنين وسلوكهم في المعارك القادمة.

٢. هناك من المؤمنين -السطحيين- وإلى الوقت الذي لم يتعرضوا فيه إلى الموت؛ يبقون على ادّعائهم الإيمان والطاعة، ولكنهم سرعان ما ينسون ادّعاءهم إذا ما ذاقوا شيئاً يسيراً من المرارة والابتلاء.

٣. قوله سبحانه: ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ أنّ مجموعات كثيرة من المسلمين - وحينما حمى الوطيس في أحد - قد ابتعدوا عن المعركة واكتفوا بأن يكونوا في (النظارة) وتركوا أمير المؤمنين عليه السلام يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فلم يعرضوا أنفسهم للخطر؛ بل وهبوا الفرصة العظيمة للكفار ليقضوا على الإسلام تماماً!!!

الآية ١٤٤

وَمَا مُحَمَّدٌ

إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ

أَنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ

اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

سبب نزول هذه الآية

هذه الآية الجليلة ناظرة إلى أحد مشاهد معركة أحد، وهو: أنه حينما استعرت نيران هذه المعركة بين المسلمين والمشركين.. تفاجأت الجموع بصوت يصرخ أن: قتل محمدًا.. قتل محمدًا.. وكان ذلك قد زامن رمي عمرو بن قميئة الحارثي حجراً باتجاه رسول الله صلوات الله عليه وآله، فأصاب جبهته وكسر أسنانه وأدمى شفته الطاهرة، فجرى منها دم غزير حتى غطى وجهه الشريف.. في ذلك الحين؛ حيث تكالب المشركون في الرغبة في قتل النبي صلى الله عليه وآله.. فانبرى مصعب بن عمير، وكان يحمل أحد ألوية المسلمين إلى صد هجوم المشركين.. حتى قضى شهيداً رضوان الله عليه.. ولأنه كان يشبه النبي صلى الله عليه وآله في ظاهره؛ فقد ظنّ الأعداء أنهم قد قتلوا النبي صلوات الله عليه وآله الذي كان مضمخاً بدمائه.. حتى انتشر نبأ مقتله في ساحة الحرب.

وكما ارتفعت معنويات المشركين بفعل هذا الخبر.. فقد هبطت معنويات المسلمين وزلزلوا زلزالاً عظيماً.. ممّا حدا بالكثير الكثير منهم إلى الهرب من المعركة بسرعة بالغة.. بل إنّ العديد منهم ارتدّ عن الإسلام أو قرّر ذلك في نفسه وأراد أن يطلب الأمان من أبي سفيان وأقرانه.. ولكنّ عدّة قليلة جدّاً من المسلمين من صمدوا واستقاموا واستماتوا في الدفاع عن النبي

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَكَانَ فِي مَقْدَمَتِهِمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَبُو دَجَانَةَ وَأَنْسُ بْنُ النَّضْرِ
الَّذِي عَمِدَ إِلَى دَعْوَةِ الْمُسْلِمِينَ لِلرَّجُوعِ نَحْوَ الْمَعْرَكَةِ وَمَخَاطَبَتِهِمْ بِالْقَوْلِ: أَيُّهَا النَّاسُ! إِنْ قَتَلَ
مُحَمَّدٌ؛

فَإِنَّ رَبَّ مُحَمَّدٍ لَمْ يَقْتُلْ.. فَارْجِعُوا وَقَاتِلُوا وَلْتَقْتُلُوا لِمَا قَتَلَ الرَّسُولَ مِنْ أَجْلِهِ.. وَبَقِيَ الرَّجُلُ يَدْعُو
وَيُقَاتِلُ حَتَّى قَتَلَ.. وَسَرَعَانَ مَا اتَّضَحَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمْ يَقْتُلْ، وَأَنَّ خَيْرَ
مَقْتَلِهِ لَمْ يَكُنْ سِوَى خَطَا أَوْ كَذِبٍ، وَأَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا فَتَىءَ يَدْفَعُ عَنْهُ الْهَجُومَ بَعْدَ
الْهَجُومِ وَالْجَمَاعَةَ بَعْدَ الْجَمَاعَةِ، وَهَكَذَا نَزَلَتِ الْآيَةُ أَعْلَاهُ بِهَذَا الْخُصُوصِ لِإِدَانَةِ الْهَارِبِينَ بِكُلِّ
هَذِهِ الْإِدَانَةِ..^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية تكشف للمسلمين وتعلمهم حقيقة أخرى، وهي أن دين الإسلام ليس ديناً
صنمياً، كما أنه ينهى عن عبادة الفرد.. وعلى فرض مقتل الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله
في المعركة، فإن وظيفة المسلمين هي الاستقامة ومواصلة الجهاد، ذلك لأنَّ بموت النبي أو
مقتله لا ينتهي الإسلام، إذ الدين الحقَّ يجب أن يبقى نوره مضاءً إلى الأبد.
٢. إنَّ مسألة عبادة الفرد من أخطر المخاطر التي تهدد الهدف الأسمى للدين، لأنَّ التعلُّق
والتعويل على شخص - وإن كان يحمل اسم النبي الخاتم - يعني انتهاء الدين والجهاد، وإنَّ
فقدان الشخص القائد في خضمِّ التعلُّق به وتلاشي التدبُّر يعني عدم تكامل و نموِّ أتباعه
ومجتمعه.

٣. إبلاغ هذه الآية على لسان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يؤكد معارضته وتحريمه
وإدانته للصنمية وعبادة الفرد، وهو يمثل إحدى علائم حقانية وعظمة هذا الرسول الأكرم،

وذلك أنه لو كان نهض وثار ضدّ الجاهليّة لنفسه ولأغراض شخصيّة، كان عليه أن يكرّس هذا المذهب في أتباعه ويبلغهم أنّ كلّ شي منوط ومتعلّق به؛ وأنّه إن مات أو قتل؛ فإنّ كلّ شيء سينتهي.. ولكنّ القادة الصادقين - وفي مقدّماتهم نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله - لا يشجعون الناس ولا يدفعونهم إلى ذلك، بل إنّ رسول الله صلوات الله عليه وآله طالما حارب هذا المذهب ونهى عنه كلّ النهي.. بل لعله قال لهم بأنّ الهدف يجب أن يكون هو الأسمى ولا ينبغي أن يكون الهدف من اعتناق الإسلام متوقفاً ومتعلّقاً على بقاء القائد الرسول على قيد الحياة.

٤. القرآن يصرّح في هذه الآية بأنّ محمداً صلوات الله عليه وآله ليس إلّا رسولاً مبعوثاً من قبل الله تعالى، وقد سبقه رسل وأنبياء كثر، فهل أنّ موته أو قتله يبرّر لأتباعه الرجوع والرّدّة إلى حيث عبادة الأوثان؟ والملفت للنظر أنّ الآية استعملت عبارة: ﴿انقلبتم على أعقابكم﴾ لبيان مسار التراجع والرّدّة إلى الكفر. وذلك أنّ الأعقاب جمع عقب؛ وهو مؤخّر القدم. وعليه يكون قوله تعالى: ﴿انقلبتم على أعقابكم﴾ بمعنى رجوع القهقري، وهذا تصوير واضح عن التقهقر والرجوع بمعناه الحقيقي والواقعي؛ وهو أكثر صراحة وإيضاح من كلمة الرجوع والرجعيّة عموماً.

٥. الذين رجعوا إلى الأعقاب وارتدّوا إلى عبادة الأصنام إنّما ألحقوا بأنفسهم الخسران والهزيمة، إذ عطّلوا عجلة مسيرتهم نحو السعادة، وفرطوا بما كسبوه من قبل تحت مظلة الإسلام ﴿ومن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئاً﴾.

٦. ضمن ثناء الله تعالى على جهاد الأقلّيّة الصامدة في معركة أحد؛ رغم مالقوه من آلام جسديّة وروحيّة تمثّلت بشائعة مقتل النبي صلى الله عليه وآله، فلم يثنهم ذلك ولم يكفوا عن مقارعة المشركين.. فقد عدّهم الله تعالى شاكرين مستثمرين نعمه في إطار الجهاد في سبيله، ووعد بأن يجزيهم بما يجزيهم؛ بلا قيد أو ذكر نوع هذا الجزاء ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾.

٧. بناءً على أصل بقاء الدين وأيّ عقيدة روحانيّة، فإنّ جميع المسلمين وعلى مرّ القرون (وبالاستناد على تعاليم القرآن الكريم الواردة في هذه الآية والآيات الأخرى) فإنّ مواجهة الصنميّة وعبادة الفرد تستدعي ضرورة معرفة أنّ المسائل المصيريّة لا ينبغي أن تقوم وتتوقّف على شخص أو أشخاص، بل لا بدّ من تمحورها حول سلسلة أصول وقواعد أبدية؛ فلا تنتهي بانتهاء شخص أو وفاته أو قتله؛ حتّى وإن كان نبياً عظيماً من أنبياء الله تعالى، فتبقى المواجهة للصنميّة قائمة بذاتها، أمّا العقيدة المتوقّفة على شخص بعينه؛ فهي عقيدة غير نزيهة وغير طبيعيّة وهي سرعان ما تتلاشى وتغيب..

٨. من المؤسف أنّ غالبيّة المؤسسات والتوجّهات في المجتمع الإسلامي لا تزال قائمة بالأشخاص، ولهذا؛ تراها أسرع شيء إلى الانهيار والتلاشي، والحال أنّ المسلمين مكلفون بالتخطيط والعمل بناءً على مفهوم هذه الآية، فيشرعون ببناء مؤسساتهم تحت مظلة الجديريين من الأشخاص دون أن تكون منوطة بهم متوقّفة على وجودهم.. وذلك لضمان الاستمرار في العمل والعطاء^(١).

١- فضلاً عنّا قدّمه السيّد المفسّر، فإنّ هناك من عزّل على ما أولته الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في هذه الآية التي نظرت إلى بعد آخر، لا سيّما وأنّها تحدّثت عن أمير المؤمنين عليه السلام وعدّته شاكراً متميّزاً عن الآخرين الذين قرّوا وخانوا رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يلتزموا بما عاهدوه من التضحية والجهاد والاستقامة والصبر.. ثمّ إنّ الآية الشريفة تناولت شخص رسول الله صلى الله عليه وآله باعتباره خاتم الأنبياء والمرسلين على أنّه ليس بدعاً من الرسل الذين سرعان ما خانتهم أممهم لمجرّد وفاته أو مقتله.. فهذا الأمر يكاد يكون حالة ثابتة يتعرّض لها ديانات الأنبياء، بل إنّ العديد من الديانات قد انقلب عليها من كان يدّعي اعتناقها في حياة النبي الذي جاء بها قبل وفاته أو مقتله.. فالآية إذن؛ لا ينحصر معناها ومؤدّاها في واقعة أحد وحادثة خيانة الهاربين أو سلوك المتمرّدين على الأمر النبوي في الثبات والصبر.. بل تتعدّى ذلك إلى حيث مستقبل الأمة المسلمة في أهمّ مسألة تبقى تواجههم ويواجهونها إلى يوم القيامة، وهي قضيّة الخلافة والإمامة بعد استشهاد رسول الله صلى الله عليه وآله، وما إذا كان الناس سيستقيمون وسيلتزمون بالأمر الإلهي - النبوي الخاصّ بإمامة أمير المؤمنين عليه السلام. القضية التي طالما أكّدها الله ورسوله، كما كان الله تعالى قد أكّد على الأمم السابقة أن تنفي لأنبيائها بعد رحيلهم فلا ينقلبون على أوصيائهم ومجمل عقيدتهم، فلا يخونونه ولا ينقلبون عليهم أو يعملون على تحريف دينهم.. وكذلك صار واقع المسلمين الذين خانوا رسول الله صلى الله عليه وآله في واقعة أحد وخانوه أيضاً في انقلابهم القطعيّ على وصيّيه وخليفته الشرعيّ عليّ بن أبي طالب عليهما السلام ثمّ إصرارهم على تغيير العقائد والشرائع.

الآية ١٤٥

وَمَا كَانَ
لنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأٌ مُّوجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ
ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ
مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. في هذه الآية ورد التنبيه والإيقاظ لهذه الجماعة مرة أخرى، فأشارت إلى أن الموت بيد الله وبأمره، وأن أجل كل فرد مكتوب ولا يستطيع الفرار منه أبداً، وعليه؛ فإن النبي صلى الله عليه وآله إن كان قتل واستشهد في المعركة؛ فإن ذلك لا يتعدى كونه تحقيقاً للستة الإلهية، ولا يستدعي ذلك رعباً يصيب المسلمين؛ فيكفوا عن مواجهة المشركين.
٢. أن الهروب من ساحة الحرب لا يحول دون تحقق الأجل، كما أن المشاركة في القتال في ساحة الحرب ليس من شأنها تقديم هذا الأجل، وبالتالي؛ فالهرب لا يؤدي إلى حفظ النفس وحصانتها من الموت: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾.
٣. ﴿مؤجلاً﴾ في اللغة هو المصير والموعود المحدد بمدة سلفاً، وقضاء الأجل يعني بلوغ

ثم إن قوله تعالى ﴿فإن مات أو قتل انقلبتم﴾ فيه الإشارة الواضحة على أن رسول الله صلوات الله عليه وآله سيقول: ليس في حادثة حربية لخروجه سالماً من كل الحروب التي خاضها، وإنما الذي قتله هو السم الذي تجرعه صلى الله عليه وآله، هذا هو الذي وقع اتفاق المسلمين عليه، إلا أن المختلف فيه هو هوية القاتل (وفي هذا بحث مديد). أما حرف (أو) فهو بديل لحرف الاستدراك (بل) فيكون المعنى أن الرسول الخاتم لم يموت الموتة الطبيعية؛ بل إنه قتل على سبيل القطع والتأكيد، لا سيما وأن هذا الإخبار عن المستقبل قد صدر عن علام الغيوب الله رب العالمين الغني عن التصريح وفق الاحتمال والتخمين، لا سيما وأن الأمر متعلق بأحب الخلق إليه.. وهذا شبيه بما وصف الله تعالى نبيه يونس عليه السلام الذي بعثه إلى ﴿مئة ألف أو يزيدون﴾ وهو العالم على الإطلاق للعدد الذي أرسله إليهم، وهذا يختلف مع قول الواحد منا لدى العد أو التخمين.. [المترجم].

المدة إلى منتهاها، كما تطلق الكلمة على الفرصة الأخيرة، كأن يقال: بلغ الدين أجله، أي: آخر فرصة لسداد الدين، وبلوغ الموت موعده، أي: أجله، باعتبار أن آخر لحظة من عمر الإنسان هو حلول أجله المعين.

٤. إذا كان هدف الإنسان مادياً دنيوياً بحثاً، كما حدث لأحد مقاتلي المسلمين في أحد؛ إذ كانت غايته القصوى جمع الغنائم، فهو لا يعدو أن يحصل على بعض منها إن سنحت له الفرصة.. أما إن كان هدفه أسمى من ذلك، وكانت غايته الحياة الأبدية ونيل واكتساب الفضائل الإنسانية؛ فإنه سيحقق هدفه أيضاً، وعلى هذا؛ فإن كان بلوغ أي الهدفين منوطاً بالسعي وبذل الجهد، فلم يسخر المرء كل جهده في مسار الماديات ولا يسخره في المسار السامي؟.. ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾.

٥. القرآن المجيد في هذه الآية والآية التي سبقتها وضمن الثناء والتقدير لما قدمه أمير المؤمنين عليه السلام في معركة أحد من تضحية وفداء وقدمه المجاهدين المؤمنين. وكانوا القلة القليلة جداً. إذ قالت الآية: ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ وقالت في موضع آخر: ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ والسبب في استعمال صيغة الفعل الغائب دون ما ذكر هنا من صيغة فعل المتكلم، هو الإشارة إلى منتهى التأكيد على الوعد الإلهي بإعطاء الأجر، وبكلمة أخرى: أن الله تبارك وتعالى هو الضامن للأجر بنفسه..

وورد في تفسير (مجمع البيان) في ذيل هذه الآية ما روي عن مولانا الإمام الباقر عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام قد أصيب بإحدى وستين جراحة، وقد أمر النبي صلوات الله عليه وآله أم سليم وأم عطية بمعالجة جراحه عليه السلام... ولكتهما بعد هنيئة قالتا للنبي صلى الله عليه وآله بقلق بالغ إن حالة بدن أمير المؤمنين عليه السلام بلغ من الخطر أنهما ما إن ضممتا جرحاً أنفتح جرح آخر، فكانت جراحاته قد بلغت مبلغاً عظيماً من الخطر، وأنهما تخشيان على حياته، فعاده النبي صلى الله عليه وآله وجمع من الصحابة في بيته وقد امتلأ

بدنه الطاهر جروحاً ودماءً، فمسح صلوات الله عليه وآله بيده الشريفة المباركة على بدنه وقال:
من رأى من الأذى في سبيل الله ما رآه عليّ فقد أدّى ما عليه من حقّ الله، ثمّ إنّه راح يدعو له،
وسرعان ما التأمّت تلك الجراح ببركة وكرامة نبويّة، وإذ ذاك قال أمير المؤمنين عليه السلام:
الحمد لله على أنّني لم أفرّ من العدو.^١

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٨٥٢

الآية ١٤٦

وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ
رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا
وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ...﴾ أي: ما أكثرهم، وقيل إن الكلمة مركبة في الأصل من كاف التشبيه وأي الاستفهامية، فصارت كلمة واحدة وترك معنى الجزأين السابقين وأخذت معنى جديداً مساوياً لمفهوم: ما أكثرهم، أو: كم هو كثير..
٢. ﴿رَبِّيُونَ﴾ جمع ربي، وتقال لمن كانت علاقته بالله تعالى في غاية الوثاقة، ولمن هو مؤمن مستقيم مخلص.

٣. تبعاً لحوادث معركة أحد وهروب عدد غير قليل من ساحة الحرب من المسلمين، فقد أولت هذه الآية الشريفة شجاعة المؤمنين الصابرين المستقيمين اهتماماً بالغاً وذكّرت بأنصار الأنبياء الماضين وشجاعتهم واستقامتهم، مع إدانتها الضمنية لهروب المسلمين ولومها لهم، فأكدت أن كثيراً من الأنبياء قد قاتل معهم الموحّدون الشجعان ونصروهم دونما تراجع وفرار أو شعور بالضعف والاستكانة.

٤. قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ إشارة إلى أن الأنصار المخلصين للأنبياء الماضين نهضوا مع أنبيائهم ولم يضعفوا لما أصابهم من خسائر وجراحات وضيق لا يطاق، وذلك لكسب رضا الله تعالى، فلم يخضعوا ولم يذلّوا لأعدائهم ولم يستسلموا: ﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ ومن البديهي جداً أن يحب الله هكذا أنصار مقاتلين صامدين ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ وفي مقدّماتهم أمير المؤمنين عليه السلام؛ وهو الشاكر الصبور...

الآية ١٤٧

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ
إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. المجاهدون وأنصار الأنبياء السابقون حينما كانوا يتعرضون . أحياناً . إلى بعض الضعف أو المشاكل لدى مواجهة الأعداء، وبدلاً من الفرار أو الاستسلام أو الارتداد عن دينهم والرجوع إلى الكفر والضلال.. تراهم يتوجهون إلى ربهم المتعال؛ فيطلبون منه العفو وغفران الذنوب ويسألونه المدد والصبر والاستقامة والثبات ويقولون: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾.
٢. بدلاً من أن يعمد المجاهدون الحقيقيون إلى إلقاء اللوم على الآخرين أو نسبة الخسارة إلى أسباب وهمية.. تراهم يعودون إلى أنفسهم باحثين عن الأسباب فيها؛ مهتمين بمعالجة الأخطاء دون أن تجري كلمة الهزيمة على ألسنتهم، بل يعدّون الأخطاء الحاصلة نوع إسراف في التخطيط والتصور . مثلاً . على عكس بعض حالات المسلمين المعاصرة، حيث يتجاهلون نقاط ضعفهم التي تصدر عنها هزائمهم، ثم يلقون باللائمة على أسباب خارجية، وبالتالي يقعدون عن معالجة الأخطاء وإلغاء نقاط الضعف فيهم..

الآية ١٤٨

فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهَ
ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. المسلم المخلص يجب أن يعدّ نفسه مديناً على الدوام لله تعالى، فإن استقام على هذه الشاكلة جزاه الله أجره العاجل فتحاً ونصراً على أعدائه؛ مضافاً إلى ثوابه في الآخرة. ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهَ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾.
٢. قوله تعالى في خاتمة الآية: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ وقوله العزيز في آية أخرى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى أنَّ الصَّلاح والإحسان لا يمكن أن يكونا ذوي مصداقية ما لم يقتربا بالصبر والاستقامة، ذلك لأنَّ كلَّ فرد صالح محسن تواجهه آلاف الأزمات والمشاكل في حياته، فلو أنَّه تجرَّد عن الصبر والاستقامة لكان تراجع وانسلخ عن صلاحه وإحسانه..
٣. في الآية أعلاه جرى التعبير بثواب الدنيا بدلاً عن أجر الدنيا، أما عن أجر الآخرة؛ فقد استعملت عبارة: ﴿حُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ وهذا يتضمَّن التنويه إلى أنَّ أجر الآخرة يختلف بشكل كبير جدّاً عن أجر الدنيا وثوابها، إذ مهما تعاظم ثواب الدنيا؛ فإنَّه لا ينفكَّ عن أن يكون زائلاً مقروناً بالمشاكل؛ وهذه هي طبيعة الدنيا وشاكلتها، والحال أنَّ أجر الآخرة كلّهُ حُسْنٌ، وهو خالص بعيد عن أيِّ نصب وتعب ولا يعرف الفناء إليه طريقاً....

الآية ١٤٩

يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. لحن وبيان الآيات السالفة وهذه الآية وما يليها أيضاً يفصح عن حقيقة أنّ هذه الآية قد نزلت بُعيد معركة أحد، وأنّ غايتها تحليل وقائع هذه الحرب.. ويبدو أنّ أعداء الإسلام عمدوا بعد الحرب إلى اتّخاذ مجموعة خطوات إعلاميّة ودعائيّة سامة أخذت قالب النصيحة والتعاطف لزرع بذور التفرقة في صفوف المسلمين وذلك باستغلال الحالة الروحيّة السيئة التي أصابت بعض المسلمين؛ لإساءة الظنّ بدينهم.. ولعل من اليهود والنصارى من تعاون واتّفق مع المنافقين في هذا الإطار.. كما فعل الأعداء خلال معركة أحد نفسها لدى استخدام شائعة قتل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إضعافاً لمعنويّات المسلمين ﴿ يا أيّها الذين آمنوا إنّ تطيعوا الذين كفروا... ﴾.

٢. ضمن تحذير المسلمين من اتّباع الكافرين والاستماع والاهتمام بما يشيعون، فإنّ هذه الآية تؤكد أنّ اتّباع المسلم للكافر لا ينتج عنه سوى الارتداد على الأعقاب والعودة إلى حالة الكفر والفساد ثمّ السقوط إلى الحضيض؛ وذلك بعد الاهتداء إلى النور ومسار التكامل الروحي في ظلّ تعاليم الإسلام.. فيما اتّباع الكافر يعني الخسارة الأبديّة، وما أعظمها من خسارة أن يستبدل المرء الإسلام بالكفر والسعادة بالشقاء والحقيقة بالباطل؟!

الآية ١٥٠

بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. لا ينبغي للمسلم أن يزعج ويحزن . لدى قيامه بالتكليف الإلهي . لقلة عدده وشح إمكانياته.. ذلك لأنَّ الله تعالى هو مولاه، وهو خير ناصر وخير معين ومعتمد.
٢. أنتم أيُّها المسلمون! عندكم خير الناصرين.. ناصر لا يغلب أبداً، ولا يمكن قياس جميع القوى والقدرات به.. في حين أنَّ الناصرين الآخرين يمكن أن يغلبوا ويتعرَّضوا للفناء.

الآية ١٥١

سَنُلْقِي

فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ
مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ

مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. وردت الإشارة في هذه الآية الجليلة إلى معجزة نجات المسلمين بعد معركة أحد وإلى وعدهم بالنصر في المستقبل وطمانتهم بقدام الأيام، إذ أنَّ المشركين من مكّة وإن كانوا قد حققوا نصراً في أحد، وما تعرّض له المسلمون من الهزيمة حسب الظاهر، وما عزم عليه أهل الجاهليّة من الرجوع إلى ساحة المعركة أو إلى المدينة للقضاء على من تبقى من المسلمين والتأكّد من مقتل رسول الله صلى الله عليه وآله.. ولكنّ الله تعالى ألقى في قلوبهم رعباً عظيماً. تبعاً لخاصيّة الكفر وعبادة الأصنام والإيمان بالخرافات. أعاقهم عن قرارهم بالتوجّه إلى أحد والمدينة، وقد نقرأ في الروايات أنّهم حينما عادوا من أحد واقتربوا من مكّة اضطبغت حالهم بصبغة الجيش المنهزم^١ ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾.

٢. كرّست هذه الآية الأمل في قلوب المسلمين تنمّة للمدد الإلهي الذي تمثّل في إلقاء الرعب في قلوب المشركين.

٣. توضّح الآية السبب في إلقاء الرعب والهلع في قلوب المشركين بعد معركة أحد، وبالتالي: أنّهم جعلوا لله تعالى شركاء وعبدوا الخرافات بلا دليل من عقل ومنطق... وتراهم

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٨٥٧

يعجزون عن حلّ أبسط القضايا الفكرية والحقوقية تبعاً لاستيلاء الشرك و الخرافات على عقولهم.. ومن ذلك؛ الرعب الذي استولى على قلوبهم لمجرد معرفتهم بأن المسلمين الذين هزموا في أحد بصدد ملاحقتهم إلى مكة، فامتلؤوا رعباً مع كونهم المنتصرين في أحد.. وكان حالهم كحال الذين تراهم في العصر الراهن.. فمع كونهم يتمتعون بالقوة والثروة إلا أنهم ينهزمون في مقابل أبسط الحوادث التي تقع لهم.. وذلك تبعاً لعدم اعتمادهم على قواعد رصينة وأصول فذة.. ﴿بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾.

٤. المشركون بموقفهم المعادي للمسلمين وشتهم الحرب عليهم إنما يحملون مجتمعهم وأنفسهم ظلماً، وعليه؛ لن يكون لهم مصير سوى نار جهنم، وما أقبحها من مصير: ﴿وما أواهم النار وبئس مثنى الظالمين﴾.

٥. نقرأ في نصوص روائية عديدة أنّ النبي صلى الله عليه وآله أشار إلى أنّ من جملة ما خصّه الله تعالى وأعطاه أنّه أيّده بالرعب الذي يلقيه في قلوب أعدائه إذا واجهوه أو لدى مسيرهم إليه.^١

٦. المعروف أنّ من أهمّ عوامل النصر في ساحات المعارك رفع معنويات الجنود والمقاتلين، والمعنويات لا تتوقّف على عدد المقاتلين ونوعية السلاح الذي يحملونه، ولهذا نجد الآية القرآنية تولي معنوية المجاهدين وتربيتهم على الشجاعة والتضحية وحبّ الاستشهاد والتوكّل على الله تعالى أهميّة فائقة.. في حين أنّ عبدة الأصنام الخرافيين يعتمدون الأساطير والأوثان عديمة الإرادة والروح ويفتقرون إلى عقيدة المعاد بعد الموت، وقد لاثت الأفكار الخرافية عقولهم حتّى أضحوا ضعاف الروح والإرادة؛ الأمر الذي كان يمهد للمسلمين الانتصار عليهم..

١- من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٢٤٠ و ٢٤١

الآية ١٥٢

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ
وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ
مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ
مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ
وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۚ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

علة نزول هذه الآية وما بعدها

كما مرّت الإشارة؛ فقد انطلق المسلمون في بداية معركة أحد باتّحاد وشجاعة كبيرة، وسرعان ما انتصروا وشتّتوا صفوف أعدائهم، فعمّ الفرح والسرور جيش الإسلام، إلّا أنّ التمرّد الذي صدر عن مجموعة الرماة الذي كانوا يقفون عند فرجة الجبل تحت قيادة عبد الله بن جبير، وتركهم مواقعهم الحساسة وانشغالهم مع غيرهم بجميع الغنائم.. [وتعمّد انسحاب العديد من الأفراد. المنافقين. من ساحة المعركة أثناء القتال...].

أدّى ذلك إلى انقلاب النصر هزيمة قاسية. وحينما عاد المسلمون إلى المدينة وقد خسروا الكثير من رجالهم، راحوا يتساءلون فيما بينهم عن الوعد بالنصر والفتح الذي وعدهم الله به، وعن سبب الهزيمة التي لحقت بهم، فنزلت هذه الآية وما بعدها ردّاً على تساؤلاتهم لتبيّن لهم أسباب هزيمتهم^١.

١- تفسير الامثل، ج ٣، ص ١٢٨

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. من الخطأ القاتل أن يكون تصوّر الوعد الإلهي بالنصر بلا قيد أو شرط، وإنّما وعود النصر مقيّدة بالطاعة لأمر الله تعالى.. وذاك الوعد الإلهي لكم بالنصر كان صحيحاً، ولذلك رأينا المسلمين يحقّقون النصر المؤرّر في بادئ الحرب حيث تلاشت صفوف الأعداء وتشرذمت.. وكان الوعد بالنصر قد تحقّق ما دام المسلمون مستقيمين صابرين طائعين لأمر الرسول صلى الله عليه وآله، وإنّما بدأت الهزيمة حين صار التمرد على الأوامر النبويّة حالة عمّت مقاتلي المسلمين ﴿لقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه﴾.

٢. سؤال: ترى أين وعد الله المسلمين بالنصر في هذه الحرب؟

ثمّ احتمالان لدى الإجابة على هذا السؤال:

الاحتمال الأوّل: أن يكون المقصود بهذا الوعد جملة الوعود التي تكثر الحديث عنها من قبل الله تعالى وخاطب بها المؤمنين..

الاحتمال الثاني: أنّ رسول الله صلوات الله عليه وآله الذي ينطق عن الله تبارك وتعالى كان قد صرّح للمسلمين بالنصر في أحد.

٣. من قوله تعالى: ﴿وتنازعتم في الأمر﴾ تعلم الإشارة إلى حالة الرماة في جبل عينين وإلى حالة الاختلاف والنزاع الذي وقع بينهم فيما إذا كان عليهم البقاء أو النزول لجمع الغنائم.

٤. استعمال عبارة ﴿عصيتهم من بعد ما أراكم﴾ يعني أنكم عصيتهم بعد أن رأيتم النصر الابتدائي، وهذا الحال يعكس حقيقة أنّ أكثر الرماة خالفوا أمر الرسول صلوات الله عليه وآله بعد ذلك النصر العجيب..

٥. أنكم في البداية قد بذلتم قصارى جهودكم لتحقيق النصر، فلم لم تشبّثوا به بالصبر والاستقامة؟ لا سيّما وأنّ حفظ النصر أصعب من تحقيقه...

٦. سبب هزيمتكم في نهاية المطاف أنّ الغالبية منكم . بدليل كلمة (عصيتم) . طلبتم الدنيا وتهالكتم في جمع الغنائم الحربية، والحال أنّ جمعاً آخر منكم؛ مثل عبد الله بن جبير وبضعة نفر كانوا معه من الرماة ثبتوا في مواقعهم؛ طلباً للإيمان والآخرة وأجرها الإلهي ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾.

٧. علة تغيير نصركم إلى انكسار؛ الإرادة في امتحانكم وتأديبكم.. ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾.

٨. ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾ في حين أنكم صرتم مستحقين للعقوبة بتخلفكم عن الأمر النبوي، ولكنّ الله تعالى عفا عنكم بفضلِهِ ورحمته وغفر لكم ذنبكم العظيم هذا . التمرّد على الأمر النبوي . ذلك لأنّ الله لا ييخل بنعمة وفضل على المؤمنين ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾.

الآية ١٥٣

﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ
وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ فَأَتْبَعَكُمْ
غَمًّا بَغْمٍ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. كيف لكم أن تتوقعوا نصر الله عز وجل وتحقيق وعده بنصر المؤمنين في هذه الحرب، والحال أنكم تمردتم على أمر النبي صلى الله عليه وآله وتركتموه وحيداً ولم تلتفتوا إلى ورائكم وقد كان نبيكم يناديكم بأن لا تقروا ولا تصعدوا الجبل إذ كان يصرخ فيكم: «إلبي عباد الله! إلبي عباد الله! فإنني رسول الله!!»^١ ولا من مجيب منكم ولا غيور!! ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ﴾.
٢. إنما هاجمكم سيل الغم والكآبة لكي لا تغتموا بعد ذلك لعدم حصولكم على الغنائم، ولكي لا تبتئسوا لما أصابكم من جراح ﴿فَأَتْبَعَكُمْ غَمًّا بَغْمٍ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ...﴾.
٣. الغم والحزن اللذان تواليا عليكم هما كالذي أصابكم بداعي الهزيمة من مقتل كبار مقاتليكم وشجعانكم وإصابة العديد منكم، أو ما عنيتموه من شائعة مقتل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وما أصابته من جراحات.. كل ذلك كان عاقبة عصيانكم وتمردكم

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٨٦١

﴿فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بُغْمًا﴾.

٤. علم الله تعالى بأعمالكم أيها المشاركون في معركة أحد يؤكّد أنه عليم بحال المطيعين والمجاهدين الحقيقيين وكذلك بحال الهاربين.. وعليه؛ لا ينبغي لأحد منكم أن يخدع نفسه فيدعي غير الذي وقع فعلاً في ساحة المعركة، فإن كنتم من الفريق الأول حقّاً؛ فاشكروا الله على ما وفقكم إليه، وإلا فتوبوا عن ذنبكم ﴿والله خبير بما تعملون﴾.

الآية ١٥٤

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُبَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً
 مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ
 الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ
 قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ
 يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ
 فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ
 وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ



ليلة ما بعد هزيمة أحد!

قضى المسلمون ليلة ما بعد هزيمة أحد باضطراب وألم، لأنهم - من جهة - كانوا يتوقعون كرامة قريش المنتصرة عليهم ليحطم عتاتها آخر خطوط مقاومتهم، ولعل نبأ نية الكافرين في مباغتتهم قد بلغهم، ولو أنهم كانوا قد عادوا حقاً؛ لوقعت أخطر مفاصل الحرب عليهم... ومن جهة أخرى، كان المجاهدون الصادقون وكذلك التائبون عن خطيئة الفرار من الحرب قد ندموا، واطمأنوا إلى لطف ربهم وتوكلوا عليه وصدّقوا بما وعدهم الرسول صلوات الله عليه وآله لمستقبلهم.. في خضمّ حالة الاضطراب العامة؛ استولى على المؤمنين نوم هادئ عميق وهم لما يضعوا عنهم لباس الحرب أو يركنوا أسلحتهم.. غير أنّ المنافقين وضعيفي الإيمان

والجبناء؛ قد هجر النوم أعينهم وقضوا ليلتهم تلك في اضطراب وأرق؛ حتى لكأنهم حرسوا المؤمنين الصادقين النيام دون أن يشعروا.. وهكذا راحت الآية أعلاه تصوّر قصّة تلك الليلة أدقّ تصوير...

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. رغم أنّ بعضاً منكم قد قضى ليلته بنوم هادىء؛ مؤمناً برحمة الله تعالى، إلا أنّ جمعاً منكم كانوا لا يهتمّون إلا بأنفسهم ونجاتها، الأمر الذي حرّمهم الاطمئنان والسكينة فلم يعرف النوم طريقاً إلى أعينهم..
٢. أنّ المؤمن وتحت مظلة بركة إيمانه؛ تراه يتّعم بالطمأنينة حتى في أشدّ المصائب والمصاعب، وعكسه في ذلك المنافق أو ضعيف الإيمان؛ حيث لا يتذوّق طعم الاستقرار والسكينة.

نفاق وإيمان

٣. المنافقون الذين فرّوا من ساحة القتال . سواء أثناء نصر المؤمنين في البداية، أو حين انهزام المسلمين ونصر المشركين في نهاية المعركة . ومن هم ضعاف الإيمان ممّن قضى الليلة التي تلت الهزيمة في أحد أصيبوا بأرق شديد وظلّوا يقظين في ليلتهم تلك تتناوشهم الظنون الخاطئة بخصوص الله تعالى؛ كما هي ظنون الجاهلية قبل الإسلام.. فراحوا يحتملون الكذب والخطأ في وعود رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يرتبط بالنصر المؤرّر للمسلمين على المشركين، فكان أحدهم يقول لصاحبه أو يتساءل في نفسه: ﴿هل لنا من الأمر من شيء﴾ أي: هل من الممكن أن نحظى بنصر ونحن في هذه الحال العسيرة؟ وكأنّهم يريدون القول بأنّ احتمال انتصارهم كان مجرّد وهم وضرب من الخيال: ﴿يظنون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهلية﴾.

٤. صرَّح القرآن المجيد في معرض ردِّه على أفكار وظنون المنافقين بخصوص تحقُّق الوعود الإلهية: أَنَّ النصر منوط بإرادة الله تعالى، فإذا أراد؛ وكان المسلمون جديرين ولائقين؛ كان النصر من نصيبهم ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

٥. سبب نفاق بعض الهاريين من ساحة المعركة في أحد أنهم لم يكونوا على استعداد للإفصاح عمّا في قلوبهم، لخوفهم من أن يحسبوا في عداد الكافرين ﴿يَخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ﴾.

٦. بعض الجهلة الهاريين من المعركة كانوا يشكّون في حقّانيتهم، فظنّوا أن خسارة أحد دليل بطلان الإسلام، ولذا فقد قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَتَلْنَا هَاهُنَا﴾. فردَّ الله تعالى هذه الظنون الباطلة والشكوك الجاهلية فيما يتعلّق بحقّانية الإسلام وبعلة الهزيمة ضمن مطلبين:

المطلب الأول: أن لا يتصوّر امرئ أنّه بفراره من ساحة المعركة والشدائد التي ينبغي له مواجهتها أنّه قادر على الفرار من الموت.. فإنّ من جاء أجله سيموت أو يقتل ولو كان قابلاً في بيته وعلى فراش نومه ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

المطلب الثاني: لا بدّ من وقوع مثل هذه الحوادث. الحرب والعسرة. ليتّضح ما في القلوب ولتحدّد المواقف والصفوف، مضافاً إلى أنّ الأفراد والنوايا يمكن أن تسموا عبر هذه الحوادث فيستحكم الإيمان وتطهر القلوب ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

٧. أنّ الأمة المتقاعسة المتكاسلة. عموماً. محكومة بالهزيمة والخذلان ولا بدّ أن تذوق طعم الموت، فما أروع أن تجرّب الحرب وتتعرّض لسيوف الأعداء في سوح الجهاد وتتشرّف بالمواجهات البطوليّة.. وليس أن تهاجم وهي قابضة مستكينة في بيوتها ثم يساق أفرادها الجبناء إلى حيث الذلّ والهوان والاستسلام.

٨. أن الله سبحانه لا ينظر إلى أعمال الناس فحسب، بل إنه يريد امتحان قلوبهم مع كونه عالماً بما تخفي الصدور، ولكنّه - بهذه الحوادث العسيرة والمميّزة - يريد تطهيرهم من أدران الشرك والنفاق والشكوك ﴿والله عليم بذات الصدور﴾.

الآية ١٥٥

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ
يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا
كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

حقيقة الهزيمة

١. الانحرافات التي تصيب الإنسان بداعي الوسواس الشيطانية فتجره إلى حيث الذنوب والخطايا.. إنّما هي نتيجة الروحية غير المناسبة وغير الطيبة التي جاءت هي الأخرى بسبب الذنوب السابقة التي تمهّد له الطريق إلى ارتكاب ذنوب أخرى ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾.

٢. القلوب النزيهة والبعيدة عن الذنوب ليست موضعاً لتأثير ونفوذ الشيطان ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾.

٣. الحياة كما التجارة، وكما التاجر الناجح بتجارته الربحية يجني ويأكل ممّا اكتسبه، فإنّ عمل الإنسان في الدنيا نظير الكسب والتجارة ﴿ ببعض ما كسبوا ﴾.

٤. ردّة فعل الإنسان، سواء كانت صالحة أو طالحة؛ في الماضي أو المستقبل، في عبادة الله أو عبادة الشيطان.. لها دورها في التأثير عليه ﴿ ببعض ما كسبوا ﴾.

٥. يمكن أن يكون المراد من الذنوب التي كان المقاتلون الهاربون من أحد قد ارتكبوها فيما سلف.. هي عبادة الدنيا والحرص على جمع الغنائم والتمرد على أمر النبي صلى الله عليه وآله في إطار الحرب، أو الذنوب التي ارتكبوها قبل واقعة أحد وأدّت إلى ضعف إيمانهم.

٦. لا بدّ . لتحقيق الانتصار في المستقبل . من السعي الحثيث في تربية النفس قبل كلّ شيء وتطير القلوب من الذنوب.

٧. رغم أنّ الفرار من ساحة القتال في أحد، وترك النبيّ صلى الله عليه وآله وبعض أصحابه لسيوف الأعداء يعدّ ذنباً عظيماً، إلّا أنّ صبر الله وحلمه في منح الهاربين فرصة جديدة لجبر خطيئتهم الماضية، وحثّهم على العود إلى الله.. ليكون بمثابة التمهيد لفرص جديدة لهؤلاء الفارين ليعودوا إليه سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

٨. نقل المرحوم الطبرسي في ذيل هذه الآية عن أبي القاسم البلخي أنّ جميع المهاجرين والأنصار قد فزوا في يوم أحد إلّا ثلاثة عشر رجلاً وقفوا وصمدوا مع النبيّ صلى الله عليه وآله.. ومن هؤلاء كان ثمانية من الأنصار وخمسة من المهاجرين، بل إنّ الاختلاف وقع بين المؤرخين والمفسرين في هؤلاء إلّا في أمير المؤمنين عليه السلام وطلحة اللّذين ورد الاتفاق في عدم هروبهما...^١

الآية ١٥٦

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا
ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَرٍ لَّوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا
قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ينبغي النظر إلى أهميّة معركة أحد بالنسبة للمسلمين من جهتين:

ألف: حوادث هذه المعركة المريعة كانت بمثابة مرآة عاكسة للوجه الحقيقي للمسلمين وواقعهم في تلك البرهة؛ ليكون ذلك دافعاً مناسباً للإصلاح الذاتي ولإزالة نقاط الضعف، ولهذا وجدنا القرآن الكريم يولي هذه الحادثة اهتماماً بالغاً، وقد قرأنا في العديد من الآيات السالفة؛ وسنقرأ في الآيات اللاحقة كيف أنّه يستثمر ذلك لإلقاء دروسه التربويّة الفدّة بهذا الصدد.

ب: كانت خسارة المسلمين في هذه الحرب مبرراً للكفّار والمنافقين في بثّ سمومهم (المعدّة سلفاً) وهكذا نزلت آيات عديدة لإبطال مفعول هذه السموم..

٢. بالنظر إلى الدعايات والشائعات السامّة للمنافقين المتظاهرين بالإسلام، فقد نزلت هذه الآية والآيات التي تليها لإبطال مساعي هؤلاء التخريبيّة ولتكون تحذيراً للمسلمين، وقد خاطبت المؤمنين بادئ بدء بالقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.

٣. رغم أنّ المنافقون كانوا يتظاهرون بالتعاطف والحنو على عموم المسلمين، إلّا أنّهم لم يكونوا يبطنون غير الرغبة في تسميم الأفكار والهبوط بالمعنويّات، فلا يصحّ التأثير بما يرومون؛ وترديد ما يقولون من باطل..

٤. إن تأثرتهم. أيها المؤمنون. بخطاب هؤلاء الضالّ ورحتم تكررّونه، فإنّ معنوياتكم ستهبط؛ وستمتنعون عن أداء فريضة الجهاد وطّي سبيل الله؛ وبذلك سينالون مبتغاهم.. فلا تنساقوا إلى ما يهدفون.. بل انطلقوا إلى سوح الوغى والشجاعة بروح عالية؛ لتبقى الحسرة في قلوب المنافقين أبداً: ﴿ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾.

الردّ القرآني على منافقي أحد

٥. ردّ القرآن على مؤامرات المنافقين السامة بعد معركة أحد بثلاثة ردود منطقيّة:

ألف: أنّ الموت والحياة بيد الله تعالى على كلّ حال.

ب: أنّ السفر أو الحضور في ساحة المعركة لا يمكن أن يغيّر المسار القطعي لهما.

ج: أنّ الله تعالى عليم بأعمال عباده.

٦. رغم أنّ خطاب بعض المسلمين كان شبيهاً بخطاب الكافرين (إذ كانوا يقولون لدى سفر إخوانهم أو مشاركتهم في الحرب مع المجاهدين ثم يقتلون: ليتهم كانوا معنا، ولو كانوا كذلك ما ماتوا وما قتلوا) فكانوا يقولون ذلك متظاهرين بالتعاطف، إلّا أنّهم لم يكونوا يبطنون غير تسميم الأفكار والهبوط بالمعنويّات، فلا يصحّ للمؤمنين التأثر بهذا المنحى من الأقاويل السامة أو تكرارها.

٧. إذ كان الخطاب المضلّ للكافرين يؤدّي إلى تأثركم أيّها المؤمنون، فرحتم تكررّونه، فلا ريب في أنّ معنوياتكم ستهبط وتضعف و ستحجمون عن الذهاب إلى الحرب والجهاد في سبيل الله حتى ينالوا بغيتهم. فلا تنساقوا وراء أقاويلهم السامة، وانطلقوا إلى حيث الشرف والجهاد لتبقى الحسرة جاثمة على قلوب المنافقين وإلى الأبد.. ﴿ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾.

الآية ١٥٧

وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. فتد القرآن المجيد الدعايات المتظاهرة بالعطف للمنافقين وعموم الأعداء بثلاثة ردود

منطقيّة:

الردّ الأول: أنّ الموت والحياة بيد الله عزّ وجلّ في كلّ حال، وأنّ السفر أو الحضور في ساحة المعركة لا يغيّران شيئاً من المسار القطعيّ لهما، وأنّه تعالى عالم مّطلع على أفعال العباد ﴿١﴾ والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير ﴿٢﴾.

الردّ الثاني: فإنّ متّم في سبيل الله أو قتلتم - فصرتم إلى موت في غير مواعده على حدّ زعم المنافقين - فإنّكم في الحقيقة لم تفقدوا شيئاً، ذلك لأنّ الله تعالى وغفرانه خير من الأموال التي جمعتوها أنتم أو المنافقون لمواصلة حيواتكم: ﴿٣﴾ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متّم لمغفرة من الله ورحمة خير ممّا يجمعون ﴿٤﴾.

الردّ الثالث: رغم أنّ القتل والشهادة في سبيل الله تعالى لا يمكن ولا يصحّ قياسها بالحياة الدنيويّة المزريّة، إلّا أنّ الأفكار والعقائد الضالّة التي تختزل معيشة لعدّة أيّام وجمعاً لبعض المال؛ فيقدّمها البعض على شرف الجهاد والاستشهاد، إلّا أنّك لا تجد القرآن إلّا ويستدلّ

١- أي: إن قتلتم في سبيل الله أو متّم في سبيل الله... لمغفرة... ولكن ما هو سبيل الله أساساً؟ هل هو مجرد القتال في الحرب ضدّ أعداء الإسلام؟ فهناك من يقاتل هؤلاء الأعداء وهو لا يؤمن بالله ولا بالإسلام.. وعليه؛ فلا بدّ من الرجوع إلى النصوص المعصومة التي طالما تحدّثت وأكّدت على أنّ أهل البيت عليهم السلام وولايتهم الحقّة؛ هما السبيل (الوحيد) إلى الله وأنّ من يجاهد فيقتل أو يموت في إطار هذه الولاية المحمديّة - العلويّة يكون هو المقتول والميت في سبيل الله عزّ اسمه... [المترجم]

بالقول على أنّ ما تلقونه بالشهادة أو الموت في سبيل الله خير ممّا يجمع الكافرون في حياتهم
المزرية الدليّة والمنغمسة في الشهوات وعبادة الدنيا..

٢. حيث من المقرّر والمؤكد أنّ لكلّ ممّا يوماً نموت فيه، وحيث أن حياتنا متّجهة إلى
الموت والفناء، فإنّنا إن فرّطنا برحمة الله وغفرانه وثوابه الأعظم تحت طائلة إحراز عمر أطول أو
مال أكثر؛ نكون قد خسرنا الصّفقة وليس العكس!!..

الآية ١٥٨

وَلَيْنَ مُتُّمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لِيَالِي اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. الموت لا يعني الفناء والعدم؛ بحيث يستدعي كل هذا الاستحياش والهلع البادي منكم، بل هو نافذة إلى حياة أخرى أكثر سموً ووسعة مزيجة بالأبدية ﴿١﴾ ولئن متُّم أو قتلتم لآلى الله تحشرون ﴿١٥٨﴾.

٢. طبقاً لهذه الآية، صار الموت في حال السفر في مصاف الاستشهاد في سبيل الله تعالى، والمراد من هذا السفر؛ السفر في سبيل الله تعالى؛ مثل السفر إلى ساحة الحرب أو السفر للمهمات الإعلامية وأمثال ذلك، خصوصاً وأنَّ السفر في تلك الحقب كان محفوفاً بالمشاكل والأخطار والأمراض الكثيرة، ولذا؛ لم يكن التعرُّض للموت خلال الأسفار بأقل من التعرُّض للقتل في الحرب..

٣. رغم احتمالات بعض المفسرين وذهابهم إلى أنَّ المقصود بالسفر هنا هو السفر للشؤون التجارية.. إلّا أنَّ هذا الاحتمال بعيد جداً عن معنى الآية وما تذهب إليه.. ذلك لأنَّ الكافرين لا يتأسفون على هذا الأمر، إذ أنَّه طريق لجمع الأموال، فضلاً عن أنَّ هذه القضية لم تكن ذات تأثير في إضعاف معنوية المسلمين بعد حرب أحد، كما أنَّ عدم التطابق بين المسلمين والكفار في هذا الإطار لا يوجب حسرة لهم، وعليه؛ يبدو أنَّ المراد هو الموت أثناء السفر إلى سوح القتال والجهاد أو سائر الوظائف الدينية..

الآية ١٥٩

فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ
 اللَّهُ لَئِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ
 فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ
 فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. مع أنَّ سلسلة من الأوامر والتعاليم العامة قد صدرت في هذه الآية الشريفة للنبي الأكرم صلوات الله عليه وآله، وهي تشتمل - من حيث المحتوى - على مناهج عامة وأصولية، ولكنها من حيث النزول تتحدث عن معركة أحد وعن أولئك الذين هربوا من معركة أحد وجأؤوا وحلّقوا بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله معلنين ندمهم؛ طالبين الصفح والعفو ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾.
٢. أمر الله تعالى في هذه الآية نبيه العظيم بالعفو والصفح العام عمن فزوا من ساحة الحرب.. فامتثل النبي صلى الله عليه وآله لهذا الأمر الإلهي واستقبلهم بصدر رحب وقبل توبتهم..
٣. ﴿فَظًّا﴾ لغة من كان لسانه حاداً، و(غليظ القلب) قاسي القلب الذي لا يظهر تعاطفاً وتفاعلاً، وعليه؛ تكون هاتان الكلمتان وإن استعملتا في العنف والخشونة، إلا أنَّ الأولى تستعمل في خشونة الكلام؛ والأخرى في العنف في السلوك، وبهذا؛ أشار القرآن الكريم إلى لطف الرسول صلوات الله عليه وآله ومرونته تجاه الجهال والمذنبين من الأشخاص.
٤. هذه الآية توجّهت إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بالعفو عن حقّه، وأنَّ ما يرتبط بالله فيسيعفو عنه، فامتثل صلوات الله عليه وآله هذا الأمر الإلهي، فعَمَّهم بعفوهم عن حقّه

﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم ﴾.

٥. رغم أنَّ الهاربين من معركة أحد كانوا قد ارتكبوا بحق أنفسهم وبحق الرسول ظلماً كبيراً، إلا أنَّ الواضح هنا أنَّه من موارد العفو والمرونة واللطف البيّنة، ولو كان النبي صلوات الله عليه وآله فعل غير ذلك لكان قد تسبّب - حاشاه - في مزيد من التشرذم الاجتماعي.

٦. أنَّ الناس الذين تورّطوا وابتلوا بتلك الهزيمة النكراء وخسروا ذلك العدد الكبير من القتلى والجرحى (رغم أنَّهم كانوا المسبّب الرئيسي في تلك المصائب) إلا أنَّ هكذا أناس بحاجة ماسّة إلى المحبّة والمواساة والمعالجة لجراح قلوبهم وأبدانهم، ليشفوا منها سراعاً وليستعدّوا لمواجهة القادم من الأحداث..^(١)

٧. بديهي أنَّ الشخص الذي يتسّم منصب القيادة لو كان خشناً فظاً غير من وفاقداً لروح التسامح، لأسرع إلى الخسارة فيما يريد نشره في الناس من دين ومنهج، ولتفرّق الناس والأتباع من حوله، ولعجز عن أداء وظيفته. وإنَّ من أهمّ صفات القائد الناجح صفة العفو والمرونة واللطف تجاه من يخطئ بحقه ويتخلّف عن أوامره ثمّ يعلن ويقرّ بخطئه.. ولهذا؛ قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى كلماته القصار: «آلة الرياسة سعة الصدر».^٢

قانون المشاورة

٨. بعد الأمر القرآني بالعفو ومسامحة الهاربين من ساحة الحرب؛ وإحياء الشخصية

١- لعلّ من أعظم الدروس التي كان على المسلمين الاعتبار بها إذ ذاك؛ أن يكون لهم الموقف الواعي والرصين تجاه من تلوّثوا بموبقة الفرار من معركة أحد.. فلا يساوونهم بمن صمد في المعركة — على الأقل — فيكون الموقف المطلوب هذا معياراً ومقياساً في قابل الأيّام، فلا تتاح الفرصة للفازين المتخاذلين لكي يتسّموا مناصب القيادة بعد رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.. لا سيّما وأنّ تمكّن هؤلاء أو بعضهم قد كلّف المسلمين - تاريخاً وواقعاً وما زال يكلفهم - أعظم الأضرار وأفدح الخسائر وعلى جميع المستويات، وذلك لعدم استحقاق وأهليّة أولئك المنهزمين المتمرّدين على الأوامر النبويّة في أن يكونوا قادة الإسلام.. وهكذا تكون معركة أحد وما تمخّضت عنه أعظم درس ومسؤوليّة وحجّة إلهيّة كان الله تعالى قد ألّفها على عاتق المسلمين وعلى مرّ العصور [الترجم].

٢- نهج البلاغة، ص ٥٠١

المسلمة وتجديد الحياة الفكرية والروحية، صدر الأمر الإلهي للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بمشاورة المسلمين في إنجاز الأعمال واستعلام رأيهم: ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾.

٩. عبارة ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ توضح حقيقة أن الرسول كان يستشير المسلمين. لا عن جهل؛ بل عن إرادة في إحياء شخصياتهم. في المسائل العادية واليومية دون ما يتعلق بالأحكام الإلهية.

١٠. رغم أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وبالبناء على الاستشارة التي أجراها مع المسلمين قبيل معركة أحد بخصوص طبيعة المواجهة مع الأعداء، وعلى أساس احترام رأي الأغلبية، فقد كان رأيهم أن يكون معسكر المسلمين عند جبل أحد، وكانت نتيجة ذلك الرأي سلبية غير مرضية، ولهذا؛ بدا لكثير من الأفراد أنه لم يكن ينبغي للرسول صلوات الله عليه وآله أن يستشير أحداً.. ولكن الله تعالى أوحى لنبيه أن يستمر في استشارته الناس فيما هو محدد ومرسوم.

١١. يمكن أن يتفق أن تكون نتيجة المشورة غير ذات نفع، ولكن من حيث العموم: فإن فوائد الاستشارة أكثر بكثير من مضارها، ولعل أثرها التربوي والاجتماعي والفردى والارتفاع بشخصية المجتمع والفرد أعلى من ذلك كله.

١٢. مع أن لكلمة (الأمر) في عبارة ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ مفهوماً واسعاً ويشمل جميع النواحي والأفعال، إلا أن المسلم به أن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله لا يستشير أحداً فيما يرتبط بعملية التقنين وتبليغ وبيان الأحكام الإلهية؛ بل إن كل ذلك منوط وتابع للوحي النازل من السماء..

١٣. المشورة النبوية متعلقة بكيفية وطريقة التنفيذ وتطبيق الأوامر والأحكام الإلهية، حيث كان صلوات الله عليه وآله يسأل الناس آراءهم في ذلك، ولذا؛ كان يحدث أن يقترح الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أمراً، فيبادر المسلمون ليسألوه عما إذا كان ما اقترحه حكماً إلهياً

أم لا؟ إذ قانون السماء غير قابل لإبداء الرأي كما هو حال تطبيقه.. فإن كان من الشق الثاني أبدوا آراءهم؛ وإلا سَلَّمُوا له وأطاعوا... اللَّهُمَّ إِلَّا بعض المنافقين الصلفين الذين كانوا يتحینون الفرص في التمرّد وإبداء الرأي الباطل من أساسه، كما حصل خلال صلح الحديبية أو في رزية ما أصبح يعرف برزية الخميس.

١٤. من الشواهد الحيّة في تاريخ الإسلام ما يؤكّد أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان يستشير الناس في بعض الأمور العادية، منها ما حدث قبيل معركة بدر، حيث عزم جيش المسلمين وطبقاً للأمر النبويّ على التخيم في موضع معيّن، فانبرى الحباب بن المنذر قائلاً: يا رسول الله هل أنّ ما اخترته من موضع للمقاتلين هو بأمر الله؛ فلا يجوز تغييره أم أنّه ما رأيت؟ فقال النبي صلوات الله عليه وآله بأنه ليس من أمر الله، فقال الحباب: هو ليس بالموضع المناسب؛ وعرض له دلائل على صحّة رأيه، وضرورة التوجّه بالمسلمين إلى موضع قريب من الماء، فاستحسن النبيّ صلوات الله عليه وآله قوله وعمل برأيه^(١).

١٥. موضوع المشاورة في الإسلام له أهمّيّته الخاصّة، والرسول الأعظم صلى الله عليه وآله. وبغضّ النظر عن اتصاله بالوحي السماوي، كان مميّزاً بالفكر الثاقب حتى أنّه كان غنياً عن استشارة غيره، وهذا الغير. جميع الخلق. عيال عليه، ولكّنه كان يروم إلغات نظر المسلمين إلى أهمّيّة الاستشارة لتكون أصلاً حقيقياً في مسار ومنهج حياتهم من جهة، ومن جهة أخرى؛ كان صلوات الله عليه وآله يستهدف. بتفعيل الاستشارة. تربية الأشخاص فيما يتعلّق في أمور المسلمين العامّة ذات الصبغة التنفيذية للتعاليم والقوانين الإلهيّة (دون التقنين والتشريع)

١- ولما كان صلوات الله عليه وآله لا ينطق عن الهوى ولا يتصرّف إلا بما يريد الله تعالى، بل إنّ إرادته النبويّة هي ترجمة حيّة عن إرادة الله، وإنّ من أراد التعرّف إلى حقيقة الإرادة الإلهيّة له أن ينظر إلى إرادة النبيّ (وكذلك المعصوم) وقوله وفعله وعمّا يسكت عنه.. وإزاء ذلك؛ لا بدّ من القول إنّ صرف النبيّ نظره عن رأيه الأوّل في بعض الأحيان إنّما هو إرادة إلهيّة متكّسة تهدف إلى تعليم الناس وتربيتهم على المشورة وعدم التعنّت في الرأي حتّى في مجالات التطبيق والتنفيذ.. إذن؛ فالمسألة برمتها عبارة عن تدبير إلهيّ مسبق له ما له من الغايات الحكيمة. [المترجم]

فكان صلوات الله عليه وآله يعقد مجالس المشورة لا سيّما مع بعض أولي الرأي ممّن كان يوليهم أهميّة خاصّة، حتّى أنّه كان يعمد في بعض الأحيان إلى صرف النظر عن رأيه الخاصّ، وشاهد ذلك ومثاله ما حصل في حادثة بدر.. ويمكن القول بأنّ من عوامل النجاح في القيادة النبويّة الفدّة هذا الموضوع فيما يرتبط بتحقيق أهداف الدين.

١٦. لا ريب في أنّ الذين يعمدون إلى المشورة والتشاور في أمورهم؛ قلّ أن يتعرّضوا لانحراف وفشل، على العكس من غيرهم الذين يتورّطون في حالة الاستبداد المقيتة؛ إذ يعدّون أنفسهم في غنى عن آراء الغير؛ وإن كانوا من حيث القوّة الفكرية أذكى ممّن سواهم، فتراهم في غالب حالاتهم، يعانون الأخطاء الخطيرة والأليمة، بالإضافة إلى تجميدهم أفكار الآخرين وقتل آرائهم ودفن قابليّاتهم، وهكذا؛ تضيق أعظم الثروات الإنسانيّة في الأمم..

١٧. من يستشير غيره في إنجاز أعماله ومهامّه، إذا وُفق للنجاح فإنّه قلّ أن يتعرّض للحسد، وذلك لأنّ غيره يعدّون أنفسهم شركاء في نجاحه، ومن المعلوم أنّ المرء لا يحسد نفسه فيما قام به.. ولو أنّه تعرّض لخسارة ما، فإنّ اللوم يتوجّه إلى فعله الذي قام بها دون استشارة، مضافاً إلى الشماتة والإدانة حتّى.. لأنّ من لا يعترض على نتيجة فعله، فإنّه لن يكتفي بعدم الاعتراض فحسب؛ بل إنّ سيّئاً لم يغتم أيضاً.. هذا بالإضافة إلى أنّ المستشار سيتعرّف إلى قيمة الأشخاص وشخصيّتهم، وسيدرك ميزان صداقتهم أو عدائهم.. وهذه المعرفة ستمهّد طريق النجاح والتوفيق.. ولعلّ مشورة النبيّ صلوات الله عليه وآله مع كلّ ما كان يمتاز به من قوّة فكريّة وعقليّة لا نظير لها.. إنّما كانت تشمل مجموع هذه الأهداف والجهات...

١٨. أدناه؛ إشارة إلى ثلاثة أحاديث فيما يرتبط بلزوم استشارة الناس:

الف: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «ما شقي عبد قطّ بمشورة، ولا سعد باستغناء رأي»^١.

ب: قال النبي صلى الله عليه وآله: «إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمركم شورى بينكم؛ فظهر الأرض خير لكم من بطنها.. وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم ولم يكن أمركم شورى بينكم؛ فبطن الأرض خير لكم من ظهرها»^١.

ج: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من استبدَّ برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها»^٢.

١٩. مَنْ نَسْتَشِيرُ؟

لا ريب في أنَّ كلَّ شخص لا يمكن أن يستشار، إذ أنَّ بعض من يستشارون لهم نقاط ضعفهم، فتكون مشورتهم سبباً للشقاء والفشل والتراجع..

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تدخلنَّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزبن لك الشره بالجور»^٣.

٢٠. كما أنَّ الإسلام أكَّد الأمر بالمشورة؛ كذلك أكَّد على الانتباه في اختيار المستشار، بحيث لا يمنع عن أيِّ خير، وأن لا يخون في استشارته.. إذ تعدَّ الخيانة في هذا المجال ذنباً كبيراً.. ويسري ذلك حتَّى في غير المسلم، أي أنَّ الإنسان له أن يقبل مقترح المشورة من غير الفرد المسلم، فلا حقَّ للمسلم في خيانة غير المسلم أو أن يظهر له غير ما يرى ويعلم..

٢١. روي في (رسالة الحقوق) عن مولانا الإمام السَّجَّاد عليه السلام قوله:

«وَحَقُّ الْمُسْتَشِيرِ إِنْ عَلِمْتَ لَهُ رَأْيًا؛ أَشْرَتْ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ تَعْلَمْ أُرْشِدْتَهُ إِلَى مَنْ يَعْلَمُ. وَحَقُّ الْمَشِيرِ عَلَيْكَ أَنْ لَا تَتَّهَمَهُ فِيمَا لَا يُوَافِقُكَ مِنْ رَأْيِهِ»^٤.

١- تحف العقول، ص ٣٦

٢- نهج البلاغة، ص ٥٠٠

٣- نهج البلاغة، ص ٤٣٠

٤- الخصال، ج ٢، ص ٥٧٠

٢٢. بالاستناد إلى هذه الآية وبالإشارة إلى شورى عمر التي شكّلها من ستّة أنفار لاختيار الحاكم الثالث؛ عدّها جمع من مفسري المخالفين منطبقة على روايات المشورة.. ومع أنّ تمام البحث منوط بالكتب العقائدية، ولكنّ ينبغي التنويه هنا وبصورة مختصرة إلى: أولاً: أنّ اختيار الإمام وخليفة النبي صلى الله عليه وآله يتم فقط من قبل الله تعالى، لأنّ هذا الإمام والخليفة - كما النبي - يجب أن يكون متّصفاً بصفات كالعصمة، وأن (يجعل) كالنبي من قبله سبحانه، وبعبارة أخرى؛ كما لا يمكن اختيار النبي وتعيينه بالشورى كذلك هو اختيار الإمام وتعيينه..

ثانياً: أنّ الإمامة وطبقاً لقوله تعالى: ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾^(١) هي عهد إلهي بحت، وعهد الله ونصب الخليفة يكون من جهة الله تعالى دون الناس، إذ لا يسعهم وليس من صلاحيتهم التحكّم بأمر الله والتشاور حوله.

ثالثاً: أنّ شورى عمر لم تكن منطبقة مع موازين الشورى، ذلك لأنّه إذا كان المراد والهدف من المشورة مع عموم المسلمين؛ فما معنى اختصاصها بستّة أشخاص؟ وإن كان المراد بها المشورة مع المفكرين من الأمة، فمفكروها لا ينحصرون بالأشخاص الستّة، إذ كان في الأمة - آنذاك - رجال أفذاذ كثر، مثل سلمان المحمّدي الذي كان نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله نفسه يستشير، أو كأبي ذر والمقداد وابن عباس.. ولكنّ هؤلاء وأمثالهم أخرجوا من دائرة شورى عمر، وعلى هذا؛ فإنّ حصر الشورى بهؤلاء الستّة أكثر شيء شبيهاً بتصنيف سياسي منه بهيئة استشاريّة، وإن كان المقصود هو اختيار أشخاص ذوي نفوذ اجتماعي للمشورة ليقع رأيهم محطّ قبول من الآخرين؛ فالأمر قد جانب الصواب، ذلك لأنّ أشخاصاً وشخصيات كسعد بن عباد الذي كان يتزعّم الأنصار، كما كان أبو ذر الغفاري يتزعّم قبيلة بني غفار وأمثالهما، وقد

استبعدهم عمر عن هذه الشورى!..

رابعاً: نعلم أنَّ هذه الشورى قد أحيطت بظروف صعبة وحرجة، حتَّى أن معارضيها أو معارضي نتائجها قد هدّدوا بالموت، في حين أنَّ منهج الإسلام ورأيه في الشورى لا يتحمّل هذا النوع من التهديد ولا يقوّهه، وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ فَإِنَّ الاستشارة تستدعي الليونة والمرونة، أمّا اتّخاذ القرار؛ فينبغي أن يأخذ حالة من الجدّيّة والعزم، وعليه؛ فإذا تمّت الاستشارة وتوضّحت نتيجتها وجب طرد التردّد والشكّ والآراء المشتّتة واتّخاذ القرار بشكل قاطع، وهذا ما عبّر عنه النصّ القرآنيّ أعلاه بالعزم..

٢٣. أن ذكرت المشورة مع الناس بهيئة الجمع ﴿ وشاورهم ﴾ وأنّ القرار النهائيّ يبقى بيد الرسول صلوات الله عليه وآله وبهيئة المفرد ﴿ عزمت ﴾ فَإِنَّ في ذلك الإشارة إلى قضيّة مهمّة؛ وهي: أنَّ المطالعة والتحقيق في مختلف المسائل الاجتماعيّة يجب أن يتّما بصورة جماعيّة، إلّا أنّ القرار إذا صودق عليه وجب اتّخاذه بإرادة واحدة، وفي غير هذه الحالة؛ تحدث الفوضى، لأنّ تنفيذ وإقرار المصادقة إذا ما تمّ بإرادات متعدّدة ومجرّدة عن إرادة قائد واحد، فلا ريب في وقوع الخلاف والفشل.. ولهذا؛ نرى الاستشارة تتمّ في العصر الراهن . بصورة جماعيّة، غير أنّ تطبيق نتيجتها ومؤدّاها يترك للجهة الحاكمة التي يشرف عليها قائد واحد.

٢٤. قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ يبيّن حقيقة أنّ التوكّل على الله يلزمك أن يقترن بالقرار النهائيّ، أي: في حال توفير الأسباب والوسائل الطبيعيّة؛ لا بدّ من الاستمداد من قدرة الله اللامتناهية.

٢٥. ليس معنى التوكّل أن يغفل المرء عمّا وفّره الله له من أسباب النجاح في عالم المادّة وجعلها تحت تصرّفه، بل المراد من التوكّل أن لا يقيّد المرء نفسه بقيود المادّة ويغمض عينيه عن دعم خالقه له أو يتناساه.. فالتوكّل على الخالق القدير الذي يحبّ عباده يبعث على الطمأنينة واستثمار القوّة المعنويّة في مواجهة الصعاب والمشاكل..

٢٦. للتوكل مقدمات؛ لا سيما وأنّ الإنسان مدعو إلى استثمار الإمكانيات المتاحة له بعد المشورة.. وهنا يتجلّى حبّ الله للمتوكلين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ كما روي في الحديث الشريف أنّ أعرابياً ترك ناقته بلا عقل ودخل المسجد ليصلّي تحت مدّعى التوكل على الله، إلّا أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله نصحه بالقول: «اعقلها وتوكل»^١ أي: عليك بتوفير أسباب الحفظ، كالعقل المشار إليه في الحديث، أو اختيار المكان المناسب.. ثمّ توكل على الله تعالى؛ وهو الحافظ الأصل والصائن من الحوادث التي تقع خارجة عن نطاق قدرة الإنسان واحتمالاته..

١- إرشاد القلوب، ج ١، ص ١٢١

الآية ١٦٠

إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ
فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ
بَعْدِهِ ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. في هذه الآية: وهي المكملّة للآية الماضية، ورد نوع بيان لمسألة التوكّل على الله تعالى، وهي أنّ قدرته سبحانه أعلى القدرات، وأنّه إذا ما نصر أحدهم؛ عجز الجميع عن إلحاق الهزيمة به، وكذلك لو أنّه كفّ دعمه عن أحد؛ عجز الجميع عن حمايته ونصره.. ممّا يعني أنّه تعالى مصدر النصر والدعم، وهو الذي يجب أن يتوكّل عليه ويعتمد ويطلب العون منه..
٢. مع أنّ المخاطب في الآية السالفة هو نبيّ الإسلام صلّى الله عليه وآله، إلّا أنّ الخطاب في هذه الآية موجّه إلى المؤمنين، وأريد به حتّهم على اعتماد قدرة الله تعالى التي لا تعرف الفشل والانكسار؛ فضلاً عن تهيئة الوسائل الظاهرية، فأراد الخطاب القرآني أن يربّي المؤمنين على ثقافة التوكّل وعلى الاقتداء بالرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله باعتباره أوّل وأفضل المتوكّلين ﴿وعلى الله فليتكول المؤمنون﴾.
٣. معلوم أنّ نصر الله أو عدم نصره للمؤمنين لا يكونان عن غير حكمة.. وأنّهما يجريان طبقاً لاستحقاقهم وجدارتهم وما يريد الله بهم..
٤. أنّ الذين يتجاهلون أمر الله ويغفلون عن توفير الإمكانيات المادّية والمعنويّة لن ينالوا ولن يشملوا بالنصر الإلهي، وعلى عكسهم أولئك الذين يرصّون صفوفهم ويخلصون نواياهم ويكرّسون عزائمهم ويوفّرون القوى المادّية وينهضون إلى مواجهة أعدائهم؛ فإنّ نصر الله سيعمّمهم ويحميهم..

الآية ١٦١

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ
يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ
نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

علة نزول هذه الآية

حينما أراد غالبية الرماة المسلمين في معركة أحد أن يتركوا مواضعهم وينزلوا عن سفح الجبل لجمع الغنائم، أمرهم قائدهم بالثبات وعدم المغادرة وأخبرهم بأن رسول الله صلى الله عليه وآله لن يحرمهم من الغنائم، إلا أن عبيد الدنيا - ولإخفاء حقيقة نواياهم - قالوا: نخشى أن ينسانا الرسول حين تقسيم الغنائم، وإن علينا المبادرة لجمعها وحيازتها لأنفسنا بأنفسنا.. قالوا ذلك وغادروا مواضعهم وانشغلوا بجمع الغنائم مستميتين.. فوقع ما وقع.. والقرآن في معرض رده على هؤلاء قال لهم: أظننتم أن الرسول سيخونكم ويجحف في حقكم.. والحال أنه لا يمكن لنبي أن يخون: ﴿وما كان لنبي أن يغُلَّ...﴾^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. بالنظر إلى أن هذه الآية نزلت تتمة للآيات النازلة في أحد، وبالالتفات إلى الرواية التي نقلها جمع من مفسري الصدر الأول، تكون هذه الآية تنفيذاً للأعذار الواهية التي تقدم بها بعض مقاتلي أحد، مبرئة ساحة الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله من كل خيانة واحتمالها..

٢. الخيانة أصلاً، سواء كانت في تقسيم الغنائم، أو في حفظ أمانات الناس، أو في تلقي

الوحي وإبلاغه عباد الله.. غير مناسبة ومقام النبوة المقدس، ولو أنَّ نبياً من الأنبياء مارس هذا الفعل المشين. والعياذ بالله. لسلبت منه الثقة في أداء مسؤوليته الرسالة الإلهية وتبليغ أحكامها سلباً تاماً..

٣. من المعلوم أنَّ الخيانة فعل لا يجوز على كلِّ إنسان، سواء كان نبياً أو غيره.. ولكن حيث جرى الحديث هنا عن الفارزين المعتذرين في معركة أحد وفيما يتعلّق بالرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله، فقد شرعت الآية بالحديث عنه ثم أضافت بالقول: ﴿ومن يغلل يأت بما غلّ به يوم القيامة﴾ أي: أنَّ من خان سيأتي في يوم القيامة حاملاً شاهد خيانتته على ظهره، وهكذا سيفتضح على رؤوس الأشهاد!

٤. كيف يمكن لمن يعتبر رسول الله صلوات الله عليه وآله أميناً على وحي السماء، ثمّ يحتمل أن يصدر هذا الرسول في تقسيم الغنائم حكماً باطلاً خائناً، أو يحرمه هذا الصادق الأمين حقّه المعلوم؟!

٥. مع أنَّ بعض المفسرين ذهبوا إلى أنَّ المراد من إتيان الخائن بما خان في يوم القيامة أنّه سيأتي به على وجه الحقيقة والعينية.. إلّا أنّه يلزم القول بخطأ هذا المذهب، إذ المقصود هو تحمّله في القيامة مسؤوليّة ما خان به في الدنيا.. ولكن بالنظر إلى القول بتجسّم أعمال الإنسان في يوم القيامة؛ فإنّه لا ضرورة لهذا المذهب في التفسير، فما يشهد به ظاهر الآية هنا، فإنّ عين الأشياء التي جرت فيها الخيانة سيحملها الإنسان الخائن على ظهره باعتبارها سنداً وشاهداً، أو كونه يأتي بها معه..

٦. أنَّ يوم القيامة هو يوم لقاء الفرد أعماله الدنيويّة، إذ سيجد كلُّ إنسان ما عمل في الدنيا حاضراً أمام مرآه، وهكذا ينعدم احتمال أن يظلم في مصيره شيئاً، لأن من يعمل مثقال ذرّة من خير أو شرٍ سيراه.. ﴿ثمّ توفى كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾.

٧. طبقاً للشواهد التاريخيّة الإسلاميّة؛ كهذه الآية والأحاديث الواردة في ذمّ فعل الخيانة

وتنزيه النبي المعصوم صلوات الله عليه وآله عنها، فإنّ هذا الأمر كان له تأثير بالغ في تربية المسلمين على تجنّب الخيانة، حتّى أنّهم ارتقوا بعقولهم إلى حيث أنّهم أحجموا عنها؛ لا سيّما فيما يرتبط بالغنائم الحربيّة والأموال العامّة، بل إنّهم راحوا يعقّون عن الخيانة في الغنائم الثمينة وإن كانت صغيرة الحجم مع أنّ حيازتها لم يكن بالأمر المشكل، ولكنّهم كانوا يسلمونها إلى شخص النبي صلّى الله عليه وآله أو من ينوب عنه في بعض الغزوات، وكانت تلك الحالة الطيّبة مثار إعجاب.. كما نقل الطبري في (تاريخه) أنّ المسلمين حينما فتحوا المدائن واهتموا بجمع الغنائم، جاء أحدهم وكان قد حمل غنيمة ثمينة جدّاً إلى مسؤول جمع الغنائم، فتعجّبوا لها وقالوا بأنّهم لم يروا شيئاً أثمن منها، ثمّ سألوه عمّا إذا كان قد اقتطع منها شيئاً، فأقسم بالله أنّه لولا إخلاصه لله ما كان أتاهاهم بها.. فعلموا أنّه رجل ذو أمانة وشخصيّة معنويّة فذّة، ثمّ طلبوا إليه أن يفصح عن هويّته، فقال: والله لن أعرفكم نفسي لتثنوا عليّ، ولن أحكي هذه الحادثة لأحد ليمدحني؛ ولكنّي أشكر الله وأرضى بثوابه...^١

٨. تكرّس المعنويّة في نفوس مسلمي الصدر الأوّل تحت مظلة التعاليم الإسلاميّة الطيّبة. وهم الذين كانوا حتّى الأمس القريب يأكلون بعضهم بعضاً. قد بلغ حدّاً كأنّهم يرون مشاهد القيامة عياناً، ومنها مشهد الخائنين الذين يحملون أموال الخيانة على ظهورهم وعلى مرأى من العالمين في ساحة المحشر وعند الحساب.. فكانت هذه الحالة المعنويّة رادعاً لهم عن كلّ خيانة...^(٢)

١- تفسير الامثل، ج ٣، ص ١٥٣ نقلاً عن تاريخ الطبري، ج ٤، ص ١٦

٢- يمكن الإشارة هنا إلى أنّ هذه حالة من الحالات التي دَوّنها بعض مؤرّخي المخالفين عن مسلمي الصدر الأوّل، ولكن يبقى لزوم الإشارة إلى رغبة هؤلاء المؤرّخين والمفسّرين في تصوير واقع مثاليّ لأولئك في هذا المجال على الأقلّ، ولكنّ ثمّ نصوص تاريخيّة طالما نقلت في مواضع أخرى تشير إلى رغبة جامحة كانت تعترى نفوس المقاتلين في نيل الغنائم، كما حدث بعد معركة حنين التي وهب فيها الرسول صلوات الله عليه وآله جميع الغنائم للمهاجرين أو للمكّين ممّن أسلم بعد الفتح لتأليف قلوبهم، ومع علم الأنصار وتجربتهم بأنّ نبيّهم لا يفعل إلّا بما أمر الله، إلّا أنّهم اتّهموه — للحدّ الذي أزعجه أيّما إزعاج — بأنّه قد ظلمهم بميله إلى أهل مدينته، وأنّه غفل عن نصرتهم وإيوانهم له... ولهذا وجب التنويه. [المترجم]

الآية ١٦٢

أَفَمِنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ
بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. جرى البحث في مختلف جوانب معركة أحد ونتائجها في الآيات السابقة، وقد جاء الدور هنا على المنافقين وضعيفي الإيمان الذين تبعوا الفريق الأول (المنافقون) في ساحة المعركة، وذلك أنَّ الروايات تحدَّثنا أنَّ رسول الله صَلَّى الله عليه وآله حينما أمر بالانطلاق إلى أحد انبرى جمع من المنافقين إلى الإعراب عن نيتهم بعدم حضور المعركة تحت طائلة يقينهم بعدم وقوع المعركة، فالتحق بهم جمع من المسلمين ضعيفي الإيمان والعزيمة، فنزلت هذه الآية لتبيِّن مصير هؤلاء وتقول: ترى هل يستوي المطيعون لأمر الله واتباعه متوكِّلين عليه والذين رجعوا القهقريَّ باتِّجاه غضب الله؟ لا ريب أنَّ هؤلاء المتمردين سيؤولون إلى جهنم وساءت مصيراً^١.

٢. أنَّ كثيراً من الحقائق المتعلقة بالمعارف الدينيَّة والاجتماعيَّة في القرآن الكريم وردت بهيئة وقالب سؤال يتيح المسألة بطرفيها للمستمع ليفكِّر ثمَّ يختار أحدهما، وهذا الأسلوب يجب أن يدعى أسلوباً غير مباشر وله أثره الكبير في المنهج التربوي.

٣. عادةً ما يولي الإنسان أفكاره واستنتاجاته الخاصَّة بمختلف المسائل أهميَّة كبيرة، فإذا ما واجه مسألة بهيئة القطع والجزم؛ رأيته يقاومها؛ فلا يقتنع بها بيسر؛ بل وينظر إليها نظرة استغراب، ولكنَّه إذا طرحت عليه مسألة بصيغة سؤال ثمَّ استمع إلى الجواب من عمق قلبه

١- تفسير الامثل، ج ٣، ص ١٥٥

ووجدانه، فإنه سيعمد إلى التفكير والاستنتاج، بل ويعدّها مسألته وفكرته وينظر إليها باعتبارها خاصّته؛ فلا يقاومها.. وهذا الأسلوب في التعليم مؤثّر في الأفراد شديدي العناد أو الأطفال الصغار..

٤. استعمل القرآن هذا الأسلوب في كثير من سوره، وأدناه بعض النماذج:

* ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾؟

* ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكّرون﴾؟

* ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾؟

الآية ١٦٣

هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. في هذه الآية وبالإشارة إلى أنَّ المنافقين ليسوا الوحيدين الذين يفترون عن المجاهدين، بل إنّ كلّ الأفراد المنضوين إلى الصّفّين يتفاوتون بدرجات التضحية والفداء أو الرياء والنفاق ومعاداة الحقّ عند الله تعالى؛ إذ لكلّ منهم درجة تبدأ من الصفر إلى ما لا نهاية.
٢. الدرجة عادةً ما تطلق على المرحلة، فيتخذها الإنسان وسيلة للارتقاء إلى درجة أعلى، أمّا الدرجات التي تتخذ للهبوط إلى ما هو أسفل من ذلك؛ فتسمّى بالدرك، ولذا؛ نقرأ عن الأنبياء كما في الآية (٢٥٣) من سورة (البقرة): ﴿ورفع بعضهم فوق بعض درجات﴾ أمّا بالنسبة للمنافقين؛ فنقرأ في الآية (١٤٥) من سورة (النساء): ﴿إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ ولكن حيث شمل الحديث في هذه الآية كلا الطرفين جرت مراعاة المؤمنين واستعملت كلمة (درجة) وهو ما يعرف في الاصطلاح الأدبي بالتغليب.
٣. روي عن مولانا الإمام الرضا عليه السلام أنّ بين الدرجة والدرجة ما بين السماء والأرض،^١ وورد في حديث آخر أنّ أهل الجنة ليرون أهل (علّيين) يرون كما تُرى النجوم في السماء.^٢
٤. قوله تعالى: ﴿والله بصير بما تعملون﴾ يوضح أنّ الله مّطلع على أعمال الجميع، ويعلم جيّداً ما يناسب كلّ شخص من الدرجات؛ طبقاً لنيّته وإيمانه وعمله.

١- تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٠٥

٢- مجمع البيان، ج ٢، ص ٨٧٥

الآية ١٦٤

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. الجذر الأصل لكلمة (المنة) لغةً هو (المنّ) بمعنى الأحجار التي توزن بها الأشياء، ولذلك قيل لكلّ نعمة عظيمة وقيّمة: منّة، بحيث إذا كانت لها ناحية عملية، كأن يعطي أحد أحداً نعمة كبيرة؛ وكانت قيّمة ورائعة.. أمّا إن كانت صغيرة؛ كعمل بسيط أو كلمة بسيطة؛ فعظّمها صاحبها ومنّ بها على المعطى؛ صارت أمراً قبيحاً، وعليه؛ فالمنة في حين كونها عظيمة حقّاً، أو لدى تعظيمها في القول..

٢. في هذه الآية، جاء الخطاب عن أعظم نعمة إلهيّة؛ وهي نعمة بعثة نبيّ الإسلام صلّى الله عليه وآله، وهي في الحقيقة ردٌّ على بعض الأسئلة التي كانت ترد في أذهان جماعة من حديثي الإسلام بعد معركة أحد، حيث كانوا يتساءلون عن تعرّضهم للمشاكل والمصائب.. فقال القرآن لهم: إن تعرّضتم - في هذا الطريق - للخسائر؛ فلا تنسوا أنّ عندكم أعظم نعمة؛ وهي أنّ فيكم رسول الله صلوات الله عليه وآله الذي يعلمكم ويربّيكم ويخرجكم من الضلال، فعليكم أن تجهدوا وتبذلوا الغالي والنفيس في حفظ هذه النعمة: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم...﴾.

٣. لعلّ ذكر بعثة النبيّ بعبارة ﴿لقد منّ الله على المؤمنين﴾ بدءاً؛ يؤدّي إلى الظنّ بعدم جمال العبارة، إلّا أنّ السبب في ذلك أنّه تعالى قد هيأ لهم هذه النعمة العظمى بشكل عمليّ.

٤. السبب في الاختصار على ذكر اسم المؤمنين فقط، والحال أنَّ رسول الله صَلَّى الله عليه وآله قد بعث لهداية الناس جميعاً؛ أنَّه من حيث الثمرة والنتيجة والتأثير أنَّ المؤمنين فقط هم من يتنعمون بهذا الفضل الإلهي الكبير الذي اختُصَّ به المؤمنون.

٥. العلة في جعل الرسول من جنس البشر ﴿من أنفسهم﴾ وليس من جنس الملائكة وأمثال ذلك؛ لكي يشعر هذا الرسول بحاجات البشر ومقتضيات الجنس الإنساني بكل تفاصيلها على وجه الدقة؛ فيتحمَّس آلامهم ومشاكلهم ومصائبهم وقضايا حياتهم.. فينطلق في ذلك إلى تعليمهم وتربيتهم.

٦. أهم أقسام المنهج والمشروع التربوي لدى الأنبياء: تبليغهم العملي، وإنَّ سلوكهم خير قدوة ونموذج ووسيلة تربوية، ذلك لأنَّ لسان العمل أفضل من كلِّ لسان يسعه التبليغ، ويتأتَّى هذا حين يكون المبلِّغ القدوة من ذات جنس المبلَّغين وبنفس خصائصهم الجسميّة والغرائزيّة وبنائهم الروحي.. ولو كان الأنبياء من جنس الملائكة مثلاً، لتساءل الناس عمّا لو كان الأنبياء لا يعصون؛ كذلك لكونهم لا شهوة ولا حاجات مادّيّة فيهم ولهم.. وهكذا يعطل مشروعهم التربوي بشكل عملي.. وإنَّما اختيار الأنبياء وجعلوا بشراً ليكونوا أسوة؛ بما عندهم من خصائص إنسانيّة..

ملامح المشروع النبوي

٧. لقد أمر الله تعالى خاتم أنبيائه صلوات الله عليه وآله وعليهم بتحقيق ثلاثة مشاريع:

ألف: تلاوة آيات القرآن على الناس وعرضها على عقولهم..

ب: تعليم الناس الحقائق وتكريسها في أرواحهم.

ج: تركية النفوس وتنمية الملكات الأخلاقية والإنسانية.

٨. حيث أنَّ الهدف الأساس والنهائي هو تربية الفرد والمجتمع؛ فقد ذكرت التربية قبل

التعليم في هذه الآية، في حين أنّ التربية الطبيعية تستوجب تقديم التعليم عليها: ﴿يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾.

٩. السبب في تقديم قراءة الآيات على القسمين الآخرين؛ أنّ الجماعة البعيدة كلّ البعد عن الحقائق الإنسانية لا يتأثرون ولا يخضعون للتربية ببساطة، وإنّما هم بحاجة إلى تعرّف وتعود آذانهم على الانتباه للخطاب الإلهي وإزاحة الاستيحاش والاستغراب من تفاصيله، وبعد ذلك؛ يمكن دخولهم في مرحلة التعليم الحقيقي، ثم يتسنى جني ثمار التربية.

١٠. يحتمل أن يكون الهدف من التزكية هو تطهير الناس من مساوئ الشرك والعقائد الباطلة والخرافات وورذائل الأخلاق والسلوك الحيواني.. إذ ما لم يتطهر الإنسان من كلّ ذلك، لن يسعه أن يستعدّ لتلقّي تعاليم الكتاب الإلهي والحكمة والمعرفة الحقّة.. وصفحة القلب ما لم تسمح عنها الصور القبيحة؛ فإنّها لن تتسع لعرض الصور الجميلة عليها، ولهذا؛ قدّمت التزكية في هذه الآية على تعليم الكتاب والحكمة، أي: المعارف السامية للإسلام..

١١. تتّضح عظمة النعمة في الوقت الذي يمكن الاستفادة منها وحين تقاس بالفترة التي كانت غير متوقّرة فيها ومعرفة الفاصلة والفارق بينهما.. ولذلك قال القرآن المجيد في العبارة أعلاه بضرورة النظر في الحقبة التي سبقت الإسلام والمقارنة بينها وبين ما صرتم إليه بفضل نعمة البعثة النبويّة: ﴿وإن كانوا من قبل لفی ضلال مبين﴾.

١٢. كان البشر؛ وخصوصاً في الجزيرة العربية قبيل البعثة النبويّة المباركة في ضلال وضياع واضح.. إذ كان الظلام والشقاء والجهل والظلم قد خيّم على الجميع في ذلك العصر؛ وهذه الحقيقة غير خافية على أحد..

والقرآن بوصفه حقبة الجاهليّة بالضلال المبين؛ رام القول بأنّ للضلال والضياع أنواعاً وأقساماً شتى؛ وهكذا هي وسائله وأشخاصه بحيث لا يتيسّر للإنسان أن يميّز بين الحقّ والباطل في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى يكون التمييز متاحاً لأبسط عقل وتفكير..

الآية ١٦٥

أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا
 قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. حيث حزن جمع من المسلمين لنتائج معركة أحد الأليمة وراحوا يرددون على ألسنتهم ما كان يختلج في صدورهم بهذا الصدد، نزلت هذه الآية لتعالج ثلاثة مطالب ضمن تحقيق جديد في تلکم المعركة:

معالجة قرآنية

الف: ليس لكم أن تضطربوا لنتيجة هذه الحرب، بل عليكم أن تركزوا كل طاقاتكم لمقارعة العدو، وإن كانت مصيبة قد نزلت بساحتكم؛ فإنكم في معركة بدر قد أنزلتم بساحة عدوكم مصيبتين، وإن كانوا قد قتلوا منكم سبعين رجلاً في أحد؛ ولم يأسروا منكم رجلاً واحداً، ولكتكم في بدر قتلتم منهم سبعين وأسرتهم سبعين..

ثانياً: أنتم تتساءلون: كيف أصبتم بهذه المصيبة؟ ﴿قلتم أتى هذا﴾ ولكن يا أيها الرسول! أخبرهم بأن هذه المصيبة قد جاءكم من أنفسكم، فعليكم أن تبحثوا عن أسباب الهزيمة (في أحد) في أنفسكم: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾.

فأنتم الذين تمردتم على أوامر نبيكم صلوات الله عليه وآله، فتركتم مواضعكم وفررتهم وانشغلتم منهمكين في جمع الغنائم ولما تضع الحرب أوزارها، وأنتم الذين وليتم هاريين من ساحة المعركة حين كثر العدو عليكم.. فهذه الذنوب ذنوبكم التي أدت إلى الهزيمة وإلى مقتل المسلمين..

ثالثاً: لا تقلقوا للمستقبل، فالله تعالى قادر على كل شيء، فإن جبرتم ضعفكم رعاكم الله بالدعم والنصر ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

٢. قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا ﴾ و ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا ﴾ يعني أنكم حملتم أعداءكم ضعفي ما حملكم، وهو بمثابة الجواب والرد من جهة الله تعالى للمسلمين المحزونين على الخسائر التي تعرضوا لها في معركة أحد، وعلى سؤالهم عن سبب الخسائر والهزيمة التي منيوا بها.

٣. طبقاً لهذه الآية الكريمة؛ فإن المصائب التي يتعرض لها الإنسان في حياته الدنيا؛ تنبع من ذاته هو ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ بشكل مباشر أو غير مباشر.

٤. غالباً ما يكون موقف الناس من المصائب التي يتعرضون لها موقف الجزع والشكوى والتساؤل عن أسبابها.. والحال أنهم لا يتساءلون عن أسباب تنعمهم بأنواع النعم وكيفية ومصدر وصولها إليهم، بل ويغفلون عن شكرها.. علماً أنه سبحانه يجعل من الحالتين وسيلة امتحان لهم ﴿ قَلْتُمْ أَتَىٰ هَٰذَا ۙ؟! ﴾

الآية ١٦٦

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية توضّح حقيقة أنّ ما تقع من مصيبة (كمصيبة أحد) إلّا ولها علّة، وأنّ وقوعها يكون بإذن الله تعالى، إلّا أنّها تكون وسيلة للاختبار ومعرفة وتحديد صفّ المجاهدين الصادقين من صفّ المنافقين أو الأفراد ضعيفي الإيمان ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ﴾ وفي هذه الآية إشارة مباشرة إلى سببي الهزيمة في أحد: الأول: السبب الفاعل في الهزيمة، والثاني: السبب الغائي والنتيجة النهائية.

٢. بُني العالم عموماً على أساس سلسلة من الأسباب والعلل.. وهذا أصل ثابت ودائم، ولهذا؛ فإنّ مصيبة أحد التي حلّت بكم كانت بإذن الله وطبقاً لأمره تعالى.. لأنّ كلّ حادثة إنّما تقع طبقاً للقانون العام في الخلقة، ولها علّتها الخاصّة، وعلى هذا الأساس؛ فإنّ كلّ جيش يتكاسل ويتخاذل ويطمع بأموال الغنائم مع تمرّده على قائده الفدّ؛ محكوم بالفشل والهزيمة، وعليه؛ يكون المراد من إذن (أمر الله) تلك الإرادة والمشئّة التي تتجلّى بهيئة قانون العلّية في عالم الوجود..

٣. لكلّ حرب آثارها وعللها، ومن آثار معركة أحد أنّها ميّزت بين المؤمنين والمنافقين وبين أشداء المؤمنين وضعيفي المؤمنين ﴿ وليعلم الله المؤمنين وليعلم الذين نافقوا ﴾.

جماعات المسلمين في أحد!

٤. ظهر في واقعة أحد. عموماً. ثلاث فرق في المسلمين:

الفريق الأول: قلّة من الأفراد الذين صمدوا إلى آخر لحظات المعركة وصمدوا بوجه العدو، حتّى استشهاد بعضهم وجرح البعض الآخر بخطر الجراح.

الفريق الثاني: مضطربو القلوب؛ الذين عجزوا عن الصمود والاستقامة، وفَضَّلُوا الفرار على القرار.

الفريق الثالث: جماعة المنافقين الذين امتنعوا عن حضور المعركة وتراجعوا عند منتصف الطريق ويمّموا صوب المدينة، وكان منهم عبد الله بن أبي سلول بمعية ثلاث مئة شخص. ٥. وردت الإشارة في هذه الآية إلى سببي الخسارة في معركة أحد، وهما السبب الفاعل الذي تمثّل في التخلّف عن القائد، والنفاق والتخاذل، والسبب الثاني هو السبب الغائي، ويتمثّل في القول بأنّ معركة أحد . خسارتها . كانا عامل تمييز في حقائق الأشخاص؛ كلّ بصفته.. وقد كان متاحاً لكلّ فرد قبل المعركة أن يدّعي ما يدّعي ﴿ وليعلم المؤمنين ﴾.

الآية ١٦٧

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمُ هُمْ لِلْكَفَرِ
 يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ
 فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

حديث في هذه الآية

طبقاً للرواية المنقولة عن بعض المفسرين (مع الإشارة إلى حوار جرى بين بعض المسلمين والمنافقين) حيث تحاور عبد الله بن عمر بن حزام مع عبد الله بن أبي حينما رآه يتراجع مع أصحابه وينسحب عن جيش المسلمين باتجاه المدينة وقال: تعالوا قاتلوا في سبيل الله، أو دافعوا عن وطنكم وأهلكم المهتدين على الأقل، ولكن هؤلاء برّوا تراجعهم وانسحبوا بحجج واهية وقالوا: ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ وكأنهم حلّلوا الموقف بأن حرباً لن تقع وأن الجميع سيعودون إلى بيوتهم دون إراقة الدماء..^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. السبب في إشارة هذه الآية إلى نفاق الأفراد الذين لم يشتركوا في معركة أحد أو الذين فروا من ساحة المعركة بهيئة الفعل ﴿ليعلم الذين نافقوا﴾ وليس بهيئة الوصف ﴿ليعلم المنافقين﴾ ولهذا؛ لم تكن حالة النفاق صفة ثابتة في بعضهم، وقد حدّثنا المؤرخون أنّ منهم من وفق إلى التوبة بعد ذلك والتحقوا بصف المؤمنين.

٢. المنافقون الهاربون من ساحة معركة أحد برّوا لتهربهم من مسؤولياتهم ولفرارهم بتبريرات واهية من دون الإعلان عن معارضتهم ﴿لو نعلم قتالاً لا تبغناكم﴾.

٣. طبقاً لتفسير آخر، إنّ المنافقين ولتبرير سلوكهم المشين في تركهم ساحة الحرب قالوا: لو كنّا على يقين باندلاع الحرب لكنّا شاركناكم فيها، ولكنّا كنّا نراها نوع انتحار وليست معركة حقيقية؛ نظراً لانعدام التوازن في قوى الصّفين (المسلمين والكفار) مع اتّخاذ جيش المسلمين موضعاً غير مناسب، وأنّ محاربة الكفار أمر غير عقلائي.

٤. لا شكّ في أنّ كلّ فرد منصف ومطلع يعي أنّ تبريرات المنافقين لسلوكهم المعيب والمخزي ليست أكثر من تحجّج، إذ الحرب كانت لا شكّ واقعة؛ إضافة إلى انتصار المسلمين في بدايتها، وإن كانوا قد خسروها؛ فذلك تابع لأخطاء المسلمين أنفسهم وتمردهم على ما أمرهم الرسول القائد..

٥. تبريرات الأفراد الذين انغمسوا في حالة النفاق حين المعركة لا تعدو كونها كذبة، وإنّما السبب في فرارهم كان تعاطفهم واقترابهم من الكفار وبعدهم القلبي والباطني والفكري عن الإسلام ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾.

٦. للكفر والإيمان درجات مرتبطة بطبيعة عقيدة الإنسان وسلوكه ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾.

٧. أخلاق وصفات الأفراد المصابين بداء النفاق؛ يتجسّد في التفاوت الكبير بين ما يصرّحون وبين ما في قلوبهم، والمغايرة الكبيرة بين نواياهم وبين أقاويلهم.. لأنّ امتناعهم عن الحضور في المعركة أو السبب في فرارهم منها كان مبنياً على أساس عنادهم واقتراحهم القائل بضرورة محاربة المكيّين من داخل المدينة، أو انطلاقاً من الخوف والهلع تجاه ضربات الأعداء، أو لعدم ميلهم إلى الإسلام والإيمان: ﴿ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾.

٨. الله تعالى خبير عليم بما يكتُم المنافقون.. وقد كشف الله اللّثام عن نواياهم ووجوههم

الكالحة في هذه الدنيا والتي يحاولون إخفاءها عن المؤمنين، وكذلك سيخزيهم في الآخرة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

الآية ١٦٨

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا
قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. المنافقون وفضلاً عن اعتزالهم المشاركة في معركة أحد وسعيهم إلى إضعاف معنويات الآخرين، وحينما عاد المجاهدون من المعركة راحوا يوجهون إليهم سهام النقد والملامة ويقولون: لو أنّ المقاتلين أطاعونا ما قتل الكثير منهم: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا...﴾.

٢. السبب في وصف المؤمنين في هذه الآية بكونهم إخواناً لهؤلاء المنافقين، والحال أنّ المؤمنين ليسوا بإخوان للمنافقين.. هو نوع ملامة للمنافقين الذين كانوا يخاطبون المؤمنين بأنهم إخوانهم؛ فما الداعي إلا غدرهم بهم في اللحظات الأخيرة وهم إخوانهم كما كانوا يدّعون، ولهذا وردت كلمة ﴿قعدوا﴾ بعد كلمة ﴿إخوانهم﴾ مباشرة، أي أعرضوا عن حضور المعركة، فهل يصحّ أو يجوز لإنسان - بعيداً عن مسألة الإيمان والمعتقد - أن يغدر بأخيه ويكلمه إلى عدوّه؟ ﴿الذين قالوا لإخوانهم﴾.

٣. القرآن وفي معرض ردّه على مدّعى المنافقين الخاوي الذي أدلوا به بعد معركة أحد حيث قالوا: لو أنّ المؤمنين أطاعونا ما قتلوا، قال للرسول ولكلّ مؤمن: قل لهم إن كان بوسعكم فتجنّبوا الموت إن كنتم صادقين ﴿قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت﴾.

٤. أنتم أيّها المنافقون بمقولتكم هذه، تدّعون علمكم بالغيب وعلمكم بأخبار المستقبل، والحال أنّ مدّعي ذلك عليه أن يتمكّن من التنبؤ بعلم الموت؛ فيقضي عليها؛ فهل لكم مثل هذه القدرة؟! ثم إنّكم إن لم تقتلوا في ساحة الجهاد والشرف؛ فهل سيكون لكم عمر أبدي؟

وهل لكم القدرة في درء الموت عن أنفسكم؟ وعلى هذا؛ فأنتم العاجزون عن إزاحة أو تعطيل قانون الموت.. فما الذي يدفعكم إلى اختيار الموت على فرشكم أذلاء، ولم لا تختارون ميتة العز والشرف في ساحة الجهاد ومواجهة أعدائكم الكافرين؟!

الآية ١٦٩

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

علة نزول هذه الآية

ذهب بعض المفسرين إلى أنّ الآيات أعلاه نزلت في شهداء أحد، وعدّها مفسرون آخرون نازلة في شهداء بدر، ولكنّ الحقّ هو أنّ علاقة هذه الآيات بما سبقها يشير إلى أنّها قد نزلت بعد معركة أحد، إلّا أنّ مضمونها ومحتواها له صبغة عامة وتشمل جميع الشهداء بمن فيهم شهداء بدر الذين كان عددهم (١٤) شهيداً، ولذا؛ ورد عن مولانا الإمام الباقر عليه السلام أنّ الآيات نزلت في شهداء بدر وشهداء أحد..^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية والآيات التالية وبعرضها المقام السامي للشهداء تكون بمثابة ردٍّ منطقيّ وإبطال لكلمات وأفكار جماعة جاهلة أو ضعيفة الإيمان ممّن قعد أفرادها بعد معركة أحد وراحوا يتأسفون على شهداء هذه المعركة، لا سيّما حين تصلهم نعمة وفيرة، فيتحدّثون عن عدم وجود أولئك الشهداء بين ظهرائهم وعن سبب موتهم وقتلهم، والحال - على حدّ زعمهم - أنّهم كانوا يتنعمون بأنواع النعم وهامهم اليوم قد ناموا في قبورهم وقصرت أيديهم عن كلّ شيء... فضلاً عن بطلان مثل هذه الأقاويل وكونها لا تنطبق مع واقع الحياة وسننها، فإنّها كانت ذات تأثير في إضعاف معنويّات الباقين: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾.

٢. حيث جعل الله رسوله مخاطباً في هذه الآية، أراد القول بأن إدراك مقام الشهداء مناسب بمقام وعقل الرسول ومن هم منه، دون الأشخاص العاديين الذين لا يميزون بين الموت والقتل في سبيل الله لافتقارهم إلى القدرة على التمييز: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾.

٣. المراد من الحياة هي الحياة البرزخية التي تعيش فيها الأرواح بعد الموت، وليست الحياة الجسمانية والمادية، ورغم أن الحياة البرزخية غير خاصة بالشهداء، إذ كثير من الناس يعيشون في تلك الحياة البرزخية، ولكنهم تعوزهم حياة الشهداء المتنعمين بالرعاية الإلهية الخاصة، حيث الحياة المفعمة بالنعم المعنوية العظمى..

الآية ١٧٠

فَرِحِينَ

بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا
بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ إِلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

علة نزول هذه الآية طبقاً لرواية

روى ابن مسعود عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه تعالى خاطب أرواح شهداء أحد وسألهم بالقول: ماذا تتمنون؟ فقالوا: يا ربنا! وماذا نتمنى أعلى مما عندنا وقد شملتنا بنعمك الأبدية وأسكنتنا تحت ظلّ عرشك.. ونطلب إليك إلا أن تعيدنا إلى عالم الدنيا لنقتل في سبيلك مرة أخرى.. فقال سبحانه: أمري القاطع أن لا يعود الميت إلى الدنيا، فقالوا: إذا كان الأمر كذلك، فنسألك أن تبلغ نبيك عتاً السلام، وأن تخبر من خلفنا بحالنا وتبشرهم أن لا خوف عليهم.. وهنا نزلت هذه الآيات...^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. يتنعم شهداء الإسلام بعظيم المواهب الإلهية بحيث لا يجاريهم في ذلك جميع أهل البرزخ: ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾.
٢. أحد مصاديق فرح الشهداء يتم لأجل إخوانهم المجاهدين الذين لم يستشهدوا بعد في سوح الوغى ولم يلحقوا بهم.. فهم ينظرون إلى مقامهم وأجرهم العظيم ويودّون لو أنّ إخوانهم يلحقون بهم ويستبشرون لهم ﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾.
٣. ثم احتمالان في تفسير قوله تعالى: ﴿إلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾:

١- تفسير الامثل، ج ٣، ص ١٦٩

الاحتمال الأول: أنَّ الشهداء يشعرون بأنَّ إخوانهم المجاهدين وبسبب أمرهم العظيم بعد الموت على جهادهم، ليس مجرد ذهاب الخوف والحزن عنهم في الدنيا، وإنَّما سيزاح عنهم كلَّ خوف وحزن عنهم في يوم البعث وما سيليه من حوادث عظيمة موحشة ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الاحتمال الثاني ضمن تفسير قوله سبحانه: ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإنَّ الشهداء؛ وفضلاً عن مشاهدتهم مقامات إخوانهم المجاهدين الذين لم يلتحقوا بهم بعد، يفرحون لحالة انعدام الخوف فيهم وعدم الحزن عليهم لما عاشوه في الماضي.

الآية ١٧١

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

الْمُؤْمِنِينَ﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. تؤكد هذه الآية وتدلي بمزيد من الإيضاح للبشارات التي يتلقاها الشهداء؛ فيسرون بها من

جهتين:

الجهة الأولى: أنهم يتلقون نعم الله تعالى، بل وفضله الذي هو عبارة عن تعاضم النعم وتواليها الذي يعظمهم: ﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل﴾.

الجهة الثانية: أنهم يرون أن الله لا يضيع أجر المؤمنين؛ لا أجر الشهداء ولا أجر المجاهدين الذين لم يستشهدوا بعد: ﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾.

٢. هذه الآية من جملة الآيات القرآنية المصروفة والدالة على بقاء الروح، حيث تحدثت عن حياة الشهداء بعد الموت.. أما الاحتمال الذي وضعه البعض والقائل بأن المراد من الحياة؛ هو معنى مجازي يقصد به بقاء آثار أعمال الشهداء وأسمائهم وصفاتهم؛ فهو بعيد جداً عن معنى الآية ولا يتناسب وأي من عبارات الآية أعلاه؛ بغض النظر عن رزق الشهداء وفرحهم، وفضلاً عن ذلك؛ هناك أدلة واضحة على مسألة البرزخ ونعمه.. وهو ما يتضمنه شرح وتفسير الآية الشريفة القائلة: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾^(١).

٣. مع أن لمقام الشهداء أهمية خاصة وحديثاً طويلاً، وأن كل أمة وجماعة تعظم شهداءها، ولكن الاحترام المميز الذي أولاه الإسلام لشهداءه لا نظير له أبداً.

٤. يمكن أن يُسأل عن النتائج من تأكيد الإسلام وتعظيمه للشهداء ومقامهم... والجواب هو أنه في ظل هذه التعاليم والاحترام الذي خصّه الإسلام للشهداء.. تمكّن أناس كانوا محاطين بالجاهلية المقيتة من اكتساب أرفع المعنويات وعظيم القوة على إلحاق الهزائم بأعظم امبراطوريات العالم؛ ببركة إيمانهم..

٥. لمزيد من البركة والمعرفة بمقام شهداء الإسلام نطالع رواية واردة عن مولانا الإمام الرضا عليه السلام نقلاً عن أمير المؤمنين عليه السلام إذ كان يخطب في الناس ويشجّعهم على الجهاد في سبيل الله تعالى، فقام إليه شاب وقال: يا أمير المؤمنين! حدّثنا عن فضل المجاهدين في سبيل الله.. فأجاب عليه السلام: كنت راكباً خلف رسول الله صلى الله عليه وآله في طريق عودتنا من غزوة ذات السلاسل؛ فسألت النبي ما سألتني عنه: وقال صلى الله عليه وآله: حين يهّم المؤمن بالقتال في سبيل الله؛ يكتب الله له عتقاً من نار جهنّم.. وحين يحمل السلاح ويستعدّ للقتال؛ تتفاخر به الملائكة، وحين يودّع أهله وأولاده؛ يخرج من ذنوبه، فلا تهتمّ الملائكة إذ ذاك إلا بمضاعفة أجره؛ فيكتبون له عبادة ألف عام وحين يقابل عدوّه؛ تعجز الخلائق عن عدّ ثوابه، وحين يقف في ساحة الحرب ويتلقى السهام والرماح حيث يبدأ القتال؛ تحيطه الملائكة بأجنحتها وتطلب من ربّها أن يثبت قدمه، ثم ينادي منادٍ: «الجنة تحت ظلال السيوف» وهنالك تكون ضربات السيوف التي تصيبه أيسر عليه من شربة ماء عذب في يوم حار، وحين يسقط عن مركبه؛ تتلقاه الحور العين قبل وصوله الأرض وتخبره بما أعدّ الله له من أشكال النعم، وحين يسقط أرضاً؛ تقول له الأرض؛ بورك لك روحك التي فارقت بدنك وحلّقت.. فبشراك: «إنّ لك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» ثم يقول الله عزّ وجلّ: أنا كافل عياله.. ومن سرّهم فقد سرّني، ومن أغضبهم فقد أغضبني...^١

١- صحيفة الإمام الرضا عليه السلام، ص ٩١ و ٩٢

الآية ١٧٢

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا
أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾

علة نزول هذه الآية

سرعان ما انطلق جيش أبي سفيان صوب مكة بعد معركة أحد، وحين وصل إلى منطقة الروحاء ندم المشركون على استعجالهم العود، فقرروا الرجوع إلى المدينة للقضاء على المسلمين نهائياً، فبلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه وآله، فبادر إلى إصدار الأمر للاستعداد لحرب أخرى، بل وأمر بالتحاق الجرحى بصفوف المسلمين أيضاً.. قال أحد الأصحاب: كنت في جملة المجروحين وكانت جراحات أخي أكثر وأشدّ منّي، فأردنا إيصال أنفسنا إلى النبي صلى الله عليه وآله والالتحاق به.. وحيث كانت حالي أفضل من حال أخي، فقد كنت أحمله متى ما عجز عن المسير حتى بلغنا رجالنا.. وهكذا عسكر النبي بجيشه في موضع يقال له حمراء الأسد الذي كان يبعد عن المدينة ثمانية أميال.. فبلغ خبر زحف المسلمين مسامع المشركين فاستوحشوا لمقاومة المسلمين ومشاركة الجرحى في المعركة المتوقعة، ولعلهم ظنوا التحاق قوات إضافية ومدد جديد قادم من المدينة نفسها..

وهنا حدث للمشركين ما ضعضع معنوياتهم وحطّم عزيمتهم.. إذ صادف أن كان أحد المشركين ويدعى معبد الخزاعي خرج من المدينة إلى مكة، وقد شاهد النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه؛ فهزّه منظرهم، حتى قال لرسول الله صلوات الله عليه وآله: قد آلمني حالكم، فلو أرحتم أنفسكم كان خيراً لكم.. ثم إنّه غادر موضع جيش المسلمين حتى وصل إلى جيش المشركين في منطقة الروحاء، فسأله أبو سفيان عما يعلم من خبر المسلمين، فأجابه قائلاً: قد رأيت محمداً وخلفه جيش عظيم لم أر له مثيلاً من قبل، وهم يلحقون بكم بأشدّ سرعة..

فاضطرب أبو سفيان وقال: ماذا تقول؟ فلقد قتلنا أتباع محمد وجرحناهم حتى تفرقوا.. فقال معبد الخزاعي: لا علم لي بما صنعتكم، وما أعرفه أن جيشاً عظيماً يسارع في اللحاق بكم.. فقرّر أبو سفيان ومن معه من المشركين الانسحاب العاجل حتى عادوا إلى مكة، ولكي يكفّ المسلمون عن ملاحقتهم، ولتتوفّر الفرصة في رجوعهم، طلب المشركون من قبيلة عبد القيس الذين صادفوا مسير المشركين وكانوا يتجهون إلى المدينة لشراء الحنطة، طلبوا منهم إبلاغ المسلمين بأنّ المكّيّين يتجهون إلى المدينة بجيش كبير، وذلك لإضعاف معنويّات المسلمين، وحين بلغ النبيّ صلوات الله عليه وآله والمسلمين هذا الخبر، قالوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل» أي أنّهم طلبوا الكفاية والنصر من الله تعالى.. ولكنهم مهما انتظروا لم يروا أثراً للمشركين المنهزمين إلى مكة مع أنّهم - المسلمون - بقوا في ذلك الموضع ثلاثة أيام.. فكانت هذه الآيات تشير إلى هذه القصة..^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. كلمة الاستجابة والإجابة بمعنى واحد، وهي أن تطلب شيئاً من شخص؛ فيلبي طلبك بعسر وتأخر.

٢. السبب في إيراد اسم الله واسم الرسول، مع أنّ المقام كان يكفي بذكر أحدهما، أنّ المتخلفين والتمردّين في معركة أحد كانوا قد عصوا الله وعصوا الرسول.. أمّا عصيان الله؛ فلاّته سبحانه كان قد نهاهم عن الفرار من الزحف والقتال وأمرهم بالجهاد، فلم يجاهدوا وفروا. وأمّا عصيان الرسول، فلاّته صلوات الله عليه وآله كان قد أمر جماعة الرماة بالوقوف عند سفح الجبل وأن لا يغادروا مواضعهم مهما كانت مجريات المعركة ومصيرها، ولكنهم عصوا الأمر النبويّ، بل إنهم حين رأوا القتل قد وقع في المسلمين وصعدوا الجبل لم يلتفتوا إلى الرسول

١- راجع: مجمع البيان، ج ٢، ص ٨٨٦ إلى ٨٨٨

الذي راح يناديهم بالنزول ويدعوهم للرجوع إلى القتال... وهكذا أوردت الآية اسم الله واسم الرسول للإشارة إلى عصيان المسلمين ربهم ورسولهم وإلى ضرورة طاعتهم معاً في ملاحقة المشركين، وقد أجاب المسلمون هذه الدعوة في هذه المرة..

٣. الأجر والثواب الإلهي خاص بالمحسنين المتقين لدى إجابة أوامر الله والرسول.. أي: ضرورة التحلي بأخلص النية في ساحة المعركة: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. ٤. يفهم من اختصاص مجموعة المحسنين المتقين جماعة محدّدة بالأجر العظيم أنّ إجابة الجميع في هذه الواقعة لم تكن على حدٍ سواء، بل إنّ منهم من وجد نفسه مجبراً. طبقاً لحسابات كلّ منهم . على هذه الاستجابة، فلم يتّصف البعض منهم بالإحسان والتقوى الملازمين لحقّ الإجابة المطلوبة، فلم يستحقوا الأجر العظيم..

٥. يمكن أن تكون كلمة ﴿منهم﴾ (بعض مجروحي معركة أحد والمقاتلين العائدين إلى بيوتهم) إشارة إلى أن بعض مقاتلي أحد قد امتنعوا من العودة والمشاركة في الحرب.

٦. حصرت عبارة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الوعد بالأجر ببعض الذين أجابوا دعوة الله والرسول، لأنها الإجابة عبارة عن عمل ظاهريّ يمكن أن يطابق الواقع أو لا يطابقه.. وعلامة مطابقته التحلي بالإحسان والتقوى؛ والأجر العظيم يدور في هذا النطاق.. وهذا من جملة الدقة القرآنية الشديدة في الإيضاح والتعبير، لنعلم من ذلك كم هي مراعاة الكلمات القرآنية لجانب الدقة لئلا يحصل الاضطراب والتفاوت مع ما يراد منها من المعارف والمعاني، والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن...

٧. حرف (من) الوارد في العبارة ليس للتبعيض ولا يراد منه القول بأنّ من الذين استجابوا وتحلّوا بالإحسان والتقوى لهم أجر عظيم، بل أريد به القول بأنّ الذين استجابوا هم الذين أحسنوا منهم واتّقوا وأنّهم سيحظون بأجر عظيم..

الآية ١٧٣

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. كلمة ﴿الناس﴾ تعني أفراد الإنسان، ولكن ليس من كل ناحية، بل إنهم متميزون عن بعضهم.
٢. وردت كلمة ﴿الناس﴾ مرتين في هذه الآية، والناس الأولى هي غير الناس الثانية، والمراد بالأولى هم المنافقون، والمراد بالثانية هم الأعداء، فالمنافقون الذين امتنعوا عن نصره الإسلام بهدف منع المسلمين من الذهاب إلى معركة أحد وإضعافهم قالوا للمسلمين إنَّ الناس (المشركين) قد جمعوا لكم واستعدوا ل حربكم كل الاستعداد، فيعلم إنَّ (الناس) الثانية هم المشركون، أمَّا (الناس) الأولى؛ فهم الأيادي والجواسيس الذين زرعهم المشركون بين المسلمين.
٣. كل إنسان وحسب طبعه حين ينهى ويمنع من جهة شخص أو أشخاص؛ فإنه ما لم يكن يحسن الظنَّ بهم، فإنه يجدُّ بدرجة أكبر لتحقيق ما قرَّره ويجعله أكثر حرصاً على تفعيل طاقته لتنفيذ ما عزم عليه.. بل وتتصاعد جدَّيته في ذلك إذا ما أصرَّوا على منعه، وهذا ينطبق على ما إذا كان هذا الممنوع يعتبر نفسه محقاً ومعدوراً فيما يفعل.. ولذا؛ رأينا إيمان المؤمنين في الصدر الأول في تصاعد كلِّما كانوا يحاربون ويمنعون عن إطاعة الله تعالى، وكانوا يزدادون شجاعة وإقداماً..
٤. هذه الآية تؤيِّد ما أوردته الآيات الماضية بخصوص الواقعة التي تلت معركة أحد، حيث انطلق الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله مع بقيَّة أصحابه في ملاحقة المشركين، وليس

بخصوص بدر الصغرى ﴿الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم...﴾.

٥. أن اكتفاءنا بالله بحسب ما نتمتع به من إيمان وليس بحسب الأسباب الخارجية التي تجري فيها السنن الإلهية، وكلمة ﴿الوكيل﴾ بمعنى من يدبر أمر الإنسان بالنيابة عن الإنسان ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

٦. حقيقة التوكّل تتجلّى في الأحيان التي يحتاج الإنسان . لبلوغ هدفه . إلى الأسباب الروحية مضافاً إلى الأسباب الطبيعية، دون أن تكون هذه الأخيرة ذات تأثير تام.. وعليه؛ إذا أراد الإنسان خوض أمر ما؛ وكان هذا الأمر محطّ اهتمامه، وكانت الأسباب الطبيعية له بحاجة إلى التوفّر والتكامل، وفي هذه الحالة لن يبلغ مراده، ولا ريب أنّ الأسباب المعنوية المذكورة والموصوفة بدورها في ذلك لم تكن تامة، وعدم التمام هذا لم يسمح له بتحقيق هدفه. كأن كانت إرادتهم ضعيفة، أو كانوا يخافون، أو منعه الحزن والغمّ، أو أنّه تطرّف، أو حرص، أو سَفَه في سلوكه وموقفه، أو أساء الظنّ، أو أي حالة من هذا القبيل حال بينه وبين هدفه المرجوّ.. ومثل هذه الأمور مهمّة جدّاً وعامة، فإذا ما توكّل الإنسان على ربّه لدى خوضه في ذلك الأمر، فإنّه في الحقيقة يكون قد اتّصل وتعلّق بسبب لا يعرف الفشل والهزيمة والانكسار، سبب هو فوق وأسمى من كلّ سبب، وبالنتيجة؛ فإنّ التمسّك بهكذا سبب يدعم الإرادة ويرفدها، ولن يغلبها أحد الأسباب الروحية المثبّطة، وهذا ما يوجب التوفيق والنجاح والسعادة للإنسان مورد المثال.

الآية ١٧٤

فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا
رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. يمكن أن يكون الفرق بين النعمة والفضل في أنَّ النعمة أجر بحجم الاستحقاق، فيما الفضل إضافة على الاستحقاق.
٢. ترى ما هي النعمة والفضل الأرقى من أن لا تتم مواجهة مع العدو الخطير؛ فيهرب هذا العدو ويعود بالمسلم إلى المدينة سالماً؛ وقد وفق إلى رضا الله ورضوانه: ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾؟
٣. مرّت المقارنة بين معنويات المسلمين في ساحة بدر ومعنوياتهم بعد معركة أحد، ومما يشير إعجاب الفرد؛ كيف حصل كل ذلك التغيير في جماعة منهزمة فاقدة للمعنوية وتجبر وراءها أعداداً كثيرة من الجرحى في مدّة قصيرة قد لا تتجاوز اليوم والليلة، تغيير مظهرها ورسخ عزمها وارتفعت معنوياتها، واستعدت لملاحقة أعدائها، حتّى أنّ القرآن تحدّث عن ذلك بالقول بأنّه حينما بلغهم اجتماع العدو واستعداده للهجوم، لم يصبهم خوف، بل وتضاعف عزمهم واستقامتهم، وهذا الانقلاب العجيب في تلك البرهة القصيرة يملأ المرء تأثراً في قدرة الآيات القرآنية على التربية مضافاً إليها أقوال النبي صلى الله عليه وآله المؤثرة في الوجدان إلى حدّ الإعجاز.
٤. من خصوصيات الإيمان بالهدف أنّ الإنسان مهما واجه وتعرّض إلى المشاكل والمصاعب، ازدادت مقاومته واستقامته، وفي الحقيقة؛ فإنّه سيعبئ كلّ طاقاته المادية والمعنوية لمواجهة ما يعده خطراً.

الآية ١٧٥

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ
يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية نزلت تتمّة للآيات التي سبقت بخصوص غزوة حمراء الأسد.

٢. ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى تشبيه سلوك أفراد مثل نعيم بن مسعود وعبد القيس بالشیطان حيث كانا يخوفان المسلمين بقدرة جيش أبي سفيان المشرك لإضعاف معنوياتهم، وعلى هذا؛ يكون معنى الآية هو التالي:

أنّ عمل نعيم بن مسعود وعبد القيس كان عملاً شيطانياً لإخافة أولياء الشيطان، أي أنّ هكذا وسائوس لا تؤثر إلّا بأولياء الشيطان، أمّا المؤمنون المتوكلون على ربّهم فلا تؤثر هذه الوسائوس وأمثالها فيهم، وعليه؛ لا ينبغي لكم وأنتم لستم بأولياء للشیطان أن تتزلزلوا بهذه الوسائوس.

٣. التعبير وتشبيه الرجلين المذكورين بالشیطان إمّا لأنّ عملهما كان عملاً شيطانياً حقّاً، أو لأنّهما استلهما ذلك من الشيطان.. وقد سمّى القرآن والروايات كلّ عمل قبيح ومحرم عملاً شيطانياً؛ إذ أنّ فاعل الحرام يفعل بوسوسة من الشيطان.. وإمّا أن يكون المراد من الشيطان الرجلين بذاتهما، وهذا من جملة الموارد التي يصدق على ابن آدم أن يكون شيطانياً، إذ لهذه التسمية معنى واسعاً يشمل جميع المضلّين، سواء كانوا من نوع الإنسان أو غيره، كما ورد في الآية (١١٢) من سورة (الأنعام) حيث نقرأ فيها: ﴿كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾.

٤. الإشارة بـ ﴿ذَلِكُمْ﴾ في هذه الآية توجّهت إلى تلك الجماعة التي قال لها المنافقون:

﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾، وبالنتيجة؛ فإنَّ العبارة مورد البحث من جملة ما استعمله القرآن المجيد كلمة الشيطان وأطلقها على الإنسان.. كما يستفاد من ظاهر هذه الآيات أنَّ المراد من وساوس الختناس شياطين الإنس.. ﴿ من شرِّ الوسواس الختناس الذي يسوس في صدور الناس من الجنة والناس ﴾ ويؤيد هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿ فلا تخافوهم ﴾ أي: لا تخافوا ممَّن قال لكم إنَّ الأعداء قد استعدوا لكم ذلك.. لأنَّهم شياطين بالنسبة لكم..

٥. إذا ما قارن المؤمنون وليَّهم وهو الله تعالى بوليَّ المشركين والمنافقين وهو الشيطان؛ علموا وأيقنوا أنَّهم لا قدرة لهم في مقابل قدرة الله تعالى، ولهذا؛ لا يسعهم أن يخافوهم بأدنى مقدار، وبالنتيجة؛ فإنَّ الإيمان أينما نفذ وتكرَّس؛ فسيصطحب معه الشجاعة والهيبة..

٦. إن نفوذ الخوف من غير الله إلى القلب، فإنَّ ذلك يعدُّ علامة من علامات عدم تكامل الإيمان وسطوة الوسواس الشيطانيَّة، لأننا نعلم بأنَّ الملجأ الوحيد في عالم الوجود هو الله سبحانه وتعالى، وأنَّه هو الذات المستقلَّة في التأثير، أمَّا الآخرون؛ فهم مسلوبو القدرة إزاء قدرته اللَّامحدودة.

٧. إن كنتم مؤمنين فخافوني وخافوا التمرّد على أمري.. أي أنَّ الخوف من غير الله لا يتفق والإيمان البتَّة.. ﴿ وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ كما نقرأ في موضع قرآنيّ آخر: ﴿ فمن يؤمن بربّه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾.

الآية ١٧٦

وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ
شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. وجهة الخطاب في هذه الآية هي رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ واساه الله تعالى بعيد معركة أحد، إذ ليس النبي -الذي هو رحمة للعالمين- لوحده حينما يرى تسابق الناس في الكفر يحزن ويهتم لذلك، بل إن كل إنسان مؤمن إذا ما رأى إقبال الناس على الكفر انزعج واغتم، ولهذا؛ رأينا الله تعالى يواسي رسوله ويخفف عليه من حزنه وألمه بعد حادثة أحد التي كانت مسرحاً للتسابق في الكفر ومواجهة الرب العزيز القدير.. فقال له سبحانه: يا أيها الرسول! لا تحزن أبداً لما ترى من تسابق الناس إلى الكفر، ذلك لأنهم يعجزون أبداً عن إلحاق ضرر بالله، وهم . على أي حال . في قبضة الرب العزيز العليم ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً ﴾.

٢. لا ريب في أن النفع والضرر والربح والخسارة من شأن الموجودات التي لا يتوقف وجودها على ذاتها.. أما الله تعالى؛ فأزلي أبدي غني من كل جانب ووجوده غير محدود.. فما الذي يمكن للكفر أو إيمان الناس ومساعدتهم في هذه الجهة أو تلك أن تؤثر في رب الوجود؟ إنما المؤمنون من يتكاملون في رحاب الإيمان.. وإنما الكافرون يتسافلون ويسقطون.. هذا فضلاً عن أن خطيئاتهم لن تنسى لهم، إذ سيجدون ما عملوا حاضراً عند الله عز اسمه.

٣. قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يُوَضِّحُ أَنَّهُمْ إِذَا تَسَابَقُوا وَأَسْرَعُوا فِي طَرِيقِ الْكُفْرِ، فَلَيْسَ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَسْتَطِيعُ مَنَعُهُمْ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلْحَرِيَّةِ وَالِاخْتِيَارِ اللَّذِينَ أَعْطَاهُمَا اللَّهُ لِيَقُومُوا بِالْفِعْلِ الَّذِي يَرِيدُونَ، وَالنَّاتِجَةُ مِنْ ذَلِكَ حُرْمَانُهُمُ الْمَطْلُوقُ مِنَ الْمَوَاهِبِ الْخَاصَّةِ فِي الْعَالَمِ الْآخِرِ، وَعَلَيْهِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تُشِيرُ إِلَى حَرِيَّةِ الْإِرَادَةِ فَضْلًا عَنْ عَدَمِ دَلَالَتِهَا عَلَى الْإِجْبَارِ.

الآية ١٧٧

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا
 اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. من يتخذ طريق التمرد والعناد في مقابل الله المتعال يتورط في هذا الكفر والتمرد.. أو. طبقاً للآية السالفة. يجد نفسه يسارع في الابتعاد عنه تعالى، ويبتلى في مواجهته: ﴿الذين يسارعون في الكفر﴾. إذ بناءً على أساس كلمة ﴿يسارعون﴾ يجب أن يقابلها كلمة (تباطؤ) أو أنهم يبيعون إيمانهم في هذه الدنيا ويستبدلونه بمتاع الكفر غير ذي القيمة.. وهو لدى ذلك كله لن يلحق ضرراً بالله تعالى.
٢. في هذه الآية جرى الحديث بشكل أشمل من الآية السابقة؛ بأن الذين يسارعون إلى الكفر ليسوا وحدهم من لن يضرّوا الله شيئاً، بل إنّ جميع الذين يسلكون طريق الكفر ويضيّعون إيمانهم، ويشترون به الكفر؛ فإنّهم لن يضرّوا الله شيئاً، بل إنّ الضرر كلّ الضرر سيلحق بهم..
٣. التفاوت في اللحن والتعبير في كلمة ﴿عذاب عظيم﴾ الواردة في الآية السابقة، وفي كلمة ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في هذه الآية، جاء بسبب أنّ أولئك كانوا يسارعون في طريق الكفر، أمّا هؤلاء؛ فقد باعوا إيمانهم بمتاع الكفر، وحينما يتأكّد لهم الخسران العظيم في معاملتهم. وفي أيّ وقت حصل ذلك. سيعلمون أن لا حيلة لهم على جبر الخسارة والاستفادة من فرصة التوبة، كما أنّهم سيتعرضون لعذاب الآخرة الأليم حيث سيشعرون به من داخلهم متوجّهاً إليهم من جهة الله تعالى.

الآية ١٧٨

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ
إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. جهة الخطاب في هذه الآية، وخلافاً لما سبقها من الآيات هم المشركون، حيث تحذّره وتندّره بأنّ ما عندهم من إمكانات وضعها الله تعالى بين أيديهم، مضافاً إلى الانتصارات التي تكون من نصيبهم أحياناً، والحرّية التي يتمتّعون بها، ليست لكونهم صالحين صادقين، أو أنها علامة على رضا الله عنهم..

٢. يعلم من آيات القرآن المجيد أنّ الله تعالى يوقظ المذنبين الذين لم يغرقوا في أحوال الخطايا بأجاس الإنذار وردود أفعالهم أو بالعقوبات المناسبة لأعمالهم.. فيعيدهم إلى جادة الحقّ.

٣. هذه الشاكلة من الناس هم من لا يزالون جديرين بالهداية ومشمولين بلطف الله الحقّ.. والأصل هو أنّ ما يتعرّضون له من عقوبات وآلام بمثابة النعمة لهم.. كما نقرأ في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١).

أما الغارقون في الذنوب والمعاصي والطغيان والتمرد على إرادة الله عزّ وجلّ، فإنّه يكلهم إلى أنفسهم ويهملمهم إلى الحدّ الذي تثقل أحمال ظهورهم فيستحقّون ما يستحقّون من العقاب. ٤. هؤلاء الأفراد قد هدموا جميع الجسور من ورائهم، حتى لم يعد لهم طريق للعودة، وقد

هتكوا حجب الحياء والذوق، وفترطوا في استحقاق الهدى بشكل كامل..

٥. هذه الآية تؤكد ضرورة علم هؤلاء بأنهم حين كفروا فأمهلوا؛ فإن المهلة التي قُدمت لهم خير لهم وفي صالحهم.. بل إنهم ما أمهلوا إلا ليزدادوا إثماً وليستحقوا عذاباً يناسب أفعالهم ونواياهم..

وفي خطبة سيّدة الإسلام الشجاعة الصديقة زينب الكبرى عليها السلام في الشام وفي محضر الطاغية الجبار يزيد بن معاوية؛ وهو من مصاديق المذنبين الذين لا طريق لعودتهم إلى جادة الحق والهدى حيث قالت:

«أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده؟! فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا.. فمهلاً مهلاً أنسيت قول الله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾؟!»

... ولئن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك، إنّي لأستصغر قدرك واستعظم تقريعتك، واستكثر توبيخك، ولكنّ العيون عبرى والصدور حرّى..

... فكذ كيدك واسع سعيك وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تمتيت وحيننا، ولا يرخص عنك عارها.. وهل رأيك إلا فند وأيامك إلا عدد وجمعك إلا بدد؛ يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين..»^١

٦. سؤال: ترى ما السبب في أن نرى عظيم النعم التي يغرق فيها الظالمون والمذنبون ولا

يعاقبون؟!

هذه الآية تجيب على هذا السؤال الذي يخطر على أذهان الكثيرين.. والحال أنَّ منطق القرآن يؤكِّد على أنَّ هؤلاء الأشخاص غير قابلين للإصلاح، فيوكلوا لأنفسهم طبقاً لسنة الخلق وأصل الحرّية والاختيار حتّى يصلوا إلى آخر مرحلة من السقوط والتسافل فيعرضون لأشدّ العقاب.. كما يفهم من بعض الآيات القرآنية أنّه تعالى يعطي أمثال هؤلاء الأفراد مزيد النعم، فإذا ما اطمأنوا وغرقوا في ملذّاتهم واستشعروا النجاح والسرور تفاجؤوا بأن الله سلبهم كلّ ما أعطاهم، فيتعدّبوا في دنياهم أشدّ العذاب لذلك، فسلبهم ما عندهم من رفاهية العيش أمر مؤلم جدّاً.. كما نقرأ قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾^(١).

وفي الحقيقة؛ فإنّ أشخاصاً كهؤلاء مثل من يتسلّق شجرة بظلم وعدوان.. فهو كلّما ارتقى سرّ وفرح حتّى يصل أعلى الشجرة، ولكنّ عاصفة تهبّ فتسقطه أرضاً بحيث تتحطّم لسقوطه جميع عظامه!!

٧. بناءً على ما ذكرنا من تفسير، يتّضح أنّ (اللام) في ﴿ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ هي لام العقابة وليست لام الغاية.. فمثلاً تستعمل اللام في اللغة العربيّة بما يرغب فيه الإنسان ويحبّ، كقوله تعالى في الآية الأولى من سورة (إبراهيم) عليه السلام: ﴿ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ ومعلوم أنّ هداية الناس أمر يحبّه الله تعالى. ولكنّ اللام تارة أخرى تستعمل فيما لا يحبّه الإنسان ولا يطلبه، إلّا أنّه يعبر عن نتيجة عمله هو، مثل: ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَخِزًا ﴾^(٢) حيث تناول آل فرعون الصندوق الذي وضع فيه موسى الرضيع ليكون لهم عدوّاً فيما بعد.. فهم لا ريب لم يخرجوه من الماء لهذه الغاية، ولكنّ هذا كان عاقبة ونتيجة فعلهم.. ويلاحظ هذا الاستعمال في أدبيّات مختلف اللغات وليس في أقوال العرب فحسب.. ومن هنا تتّضح

١- سورة الأنعام / ٤٤.

٢- سورة القصص / ٨.

إجابة سؤال آخر، وهو: لماذا قال سبحانه: ﴿لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ وهذا الإشكال إنما يرد ويصح إذا كانت اللام لام الغاية والهدف وليس لام العاقبة والنتيجة، وعليه؛ يكون معنى الآية أننا نمهلهم لتكون عاقبتهم أن ظهورهم تزداد ثقلًا.. وعلى هذا؛ فإن الآية أعلاه لا تدل على إجبارهم فحسب، وإنما هو دليل على حرّية الإرادة لدى الإنسان..

الآية ١٧٩

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا
 أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ
 عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ
 وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

علة نزول هذه الآية

لم يكن موضوع المنافقين مطروحاً بين المسلمين بشكل مفصل قبل معركة أحد، ولهذا؛ كان المسلمون يعتبرونهم أعداءً لهم، ولكن بعد هزيمة أحد والضعف المؤقت الذي أصاب المسلمين وتوفر الفرصة لنشاط المنافقين، علم المسلمون أنّ هؤلاء هم عدوهم الأخطر الذي يجب أخذ جانب الحيطة والحذر منه.. وهذا كان أحد أهم نتائج معركة أحد بالنسبة للمسلمين..^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية؛ وهي الأخيرة من الآيات التي تحدّثت عن واقعة أحد؛ تبين حقيقة قانون عام وتقول بأنّ السنّة الإلهيّة أنّه تعالى يختبر عباده مدّعي الإيمان بصورة عامّة، ولا يترك من يجعل لنفسه موضعاً في صفوف المسلمين لحاله، بل إنّّه تعالى يعرضه للامتحان بعد الامتحان حتّى تتجلّى حقيقته ويتبين باطنه ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

١- تفسير الامثل، ج ٣، ص ١٨٧

السنة الإلهية في الغيب

٢. سؤال: الله العالم بخفايا الجميع، ما الذي يمنعه عن إعلام الناس بحقيقة مدّعي الإيمان، فيعرفوا المؤمن من المنافق بوسيلة الغيب؟ يجيب الله على هذا السؤال في الشق الثاني من الآية ويشير إلى أنه لن يجعل أسرار الغيب في تصرف الناس لأنه:

أولاً: أن السنة الإلهية قضت بستر عيوب الناس وبإعطائهم الفرصة لإصلاحها.

ثانياً: أن الاطلاع على الأسرار الخاصة بالآخرين. وعلى عكس ما يُظنّ. لا يحلّ مشكلة، بل يؤدي في معظم الحالات إلى الفوضى وانفراط عقد الكيان الاجتماعي وانطفاء شعلة الأمل في الإصلاح وتلاشي دور مساعي الناس إلى الخير، والأهم من ذلك؛ يتوجب معرفة الناس من خلال أعمالهم وأقوالهم وليس بالاطلاع على أسرارهم، وليس الامتحان الإلهي أكثر من هذا، وعليه: فإن طريقة معرفة الناس تتم بمعرفة أعمالهم فحسب ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾.

٣. رغم أن القانون العام والأبدى لمعرفة الناس متمثل في معرفة سلوكهم، إلا أنه تعالى متى أراد؛ اختار من بين أنبيائه وأوليائه أفراداً يطلعهم على جانب من الغيب ويعرفهم أسرار الناس لحاجة تكميل صلاحيتهم وقيادتهم للناس، ولكن يبقى القانون الكلي والدائم لمعرفة الأشخاص حكراً على أعمالهم: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

٤. يعلم من قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أن الأنبياء لا يعلمون الغيب بذاتهم.. كما يفهم أن الرسل يعلمون جوانب من الأسرار تبعاً للتعليم الإلهي، وعليه؛ فإن الأفراد العالمين بالغيب، تتحدد نسبة علمهم طبقاً للمشئنة الإلهية..

٥. لاشك في أن المقصود بالمشئنة وإرادة الله في الآية. كما الآيات الأخرى. تلك الإرادة المقرونة بالحكمة مطلق الاقتران، بمعنى أنه تعالى أطلع من رآه جديراً على الغيب بما تقتضي حكمته..

٦. حيث أنَّ ساحة الدنيا هي ساحة الامتحان وتمييز الطَّيِّبِ المؤمن من الكافر الخبيث والمنافق، ولكي ينجح المؤمنون في امتحانهم؛ فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ غَيْرَ كَافٍ لَضَمَانِ النِّجَاحِ، بل لابد من متابعة ذلك بالزهد والتقوى الموجبين للأجر والثواب الإلهي العظيم الذي ينتظرهم.. ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.
٧. كما أنَّ الإيمان بالخالق مزروع في فطرة الإنسان ومبدأ خلقته، فَإِنَّ اسْتِعْمَالَ كَلِمَةِ ﴿الطَّيِّبِ﴾ فِي الْمُؤْمِنِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يُؤَكِّدُ أَنَّ الطَّيِّبَةَ تَبْقَى عَلَى الْخَلْقَةِ الْأُولَى لِلْإِنْسَانِ، أَمَّا الْأُمُورُ الْخَارِجِيَّةُ وَالْغَرِيبَةُ؛ فَهِيَ الَّتِي تُوَدِّي بِهِ إِلَى الْخَبْثِ...

الآية ١٨٠

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا
لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١٨٠﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. تشير هذه الآية إلى مصير البخلاء في يوم القيامة.. هؤلاء الذين يستमितون في جمع المال وحفظ الثروة ويحجمون عن الإنفاق في سبيل الله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾.

٢. رغم أن الآية لم تذكر زكاة ولا حقوقاً مالية واجبة بصراحة، إلا أن المروي عن أهل البيت عليهم السلام وكذلك أقوال المفسرين.. تذهب إلى أن الآية مختصة بمانعي الزكاة، والشدة المذكورة في هذه الآية دليل على أن المراد ليس هو الإنفاق المستحب..

٣. يفهم من قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أن الأموال التي لا يخرج منها الحقوق الواجبة ولا ينتفع منها المجتمع ثم تصرف في أطر الشهوات والغرائز الفردية، وتارة فيما هو نوع صرع وجنون، أو يكُدس بعضها فوق بعض بلا سبب وجيه فلا ينتفع منها أحد.. شأنها كشأن سائر الأفعال القبيحة للإنسان.. وستتجسد في يوم القيامة طبقاً لقانون تجسد الأعمال وتتحول إلى آلة عذاب أليم..

٤. حقيقة أن موضوع تجسّم هكذا أموال لتكون طوقاً في أعناق البخلاء في يوم القيامة تبين أنهم سيتحملون المسؤولية بعظيم ثقلها دون أن يكونوا قد انتفعوا بأموالهم التي جمعوها في دار الدنيا بشكل جنوني وحفظوها.. ولم يبذلوا منها ما ينفع مجتمعهم، وهي لم تكن إلا بمثابة قيود وسجون لأصحابها، وذلك لعلمنا بأن انتفاع الأشخاص بأموالهم له حدود معينة، فأن

يجعلوا منها ذات إطار وبعد واحد، فَإِنَّهُمْ لَن يَحْصِدُوا مِنْهَا شَيْئاً.. إِلَّا إِذَا انْتَفَعُوا مِنْ بَرَكَاتِهَا المعنويَّة واستعملوها في منحى الأعمال والمشاريع الصالحة والإيجابية.

٥. لا ريب في أَنَّ الأموال البعيدة عن الأفق المعنويَّ ليس أَنَّها ستتحوّل طوقاً في يوم القيامة في أعناق أصحابها فحسب، بل إِنَّها ستكون كذلك في دار الدنيا أيضاً.. والفرق أَنَّها ستتجسّد طوقاً في القيامة بشكل واضح، بينما هي في الدنيا تأخذ طابعاً خفياً.. وكم هو جنون وحمق أن يحمل المرء على عاتقه من المسؤوليّة الكبيرة في تحصيل الثروة إضافة إلى مسؤوليّة حفظها وحسابها والدفاع عنها، في الوقت الذي لا ينتفع منها.. أليس طوق الأسر إلا هذا الواقع المزري؟!

٦. روى في (تفسير العياشي) عن مولانا الإمام الباقر عليه السلام أَنَّ من امتنع عن زكاة ماله، بَدَّلَ الله ذلك المال طوقاً من نار ثمَّ يقال له: كما امتنعت في دار الدنيا عن إخراج زكاتك.. كذلك احملها اليوم وضعها في عنقك.^١

٧. حيث عبّرت الآية عن المال بالقول: ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يفهم أَنَّ المالك الحقيقي للأموال ليس سوى الله تعالى.. ومهما يعطى منه؛ فهو من فضل الله وكرمه، وعليه؛ فلا مناص من الإنفاق في سبيل المالك الحقيقي، ومع أَنَّ بعض المفسرين ذهبوا إلى عموميّة مفهوم هذه العبارة وَأَنَّها تشمل جميع المواهب الإلهيّة بما فيها العلم والمعرفة، ولكنَّ هذا الاحتمال . عموميّة المفهوم . لا ينطبق على ظاهر العبارة.

٨. قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في هذه الآية إشارة إلى الأموال؛ وسواء أنفق منها في سبيل الله أو لم ينفق منها؛ فهي ستستردّ من أصحابها ومالكيها، وَأَنَّ الله تعالى وارث جميع موارث السماوات والأرض، فما أروع أن ينتفع ببركات المعنويّة قبل استردادها، دون

١- تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٠٨

الاحتراق بالحسرة على ما جرى البخل بها وعدم الإنفاق منها، ثم مواجهة المسؤولية الجسيمة التي تتطلبها في يوم القيامة.

٩. الله العليم مطلع على أعمالكم.. فإن بخلتم؛ علم، وإن أنفقتم وأكرمتهم؛ علم.. ولكل يعطي من الأجر ما يستحق ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

الآية ١٨١

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ
ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾

شأن وسبب نزول هذه الآية

نزلت الآية في إدانة وتوبيخ اليهود. قال ابن عباس: كتب رسول الله صلى الله عليه وآله كتاباً إلى يهود بني قينقاع دعاهم فيه إلى إقامة الصلاة وأداء الزكاة وإقراض الله قرضاً حسناً (المراد من ذلك الإنفاق في سبيل الله، وذلك لإثارة مشاعر الناس وعواطفهم، فجرى التعبير بذلك). فجاء مبعوث النبي صلى الله عليه وآله ودخل مدرسة لليهود وكانت تسمى: بيت المدارس، وسلم الكتاب إلى فنحاص؛ كبير علماء اليهود.. وبعد أن قرأ الكتاب قال مستهزئاً: إن كان كلام نبيك صحيحاً، فلنا أن نقول بأن الله فقير ونحن أغنياء، ولو لم يكن فقيراً؛ ما اقترض متناً؟! ^(١) وفضلاً عن محمد صلى الله عليه وآله الذي نهى عن الربا، والحال أنه وعدكم بأضعاف ما أنفقتم ^(٢) ثم إن فنحاص أنكر أن يكون قد قال هذه المقولة؛ فنزلت هذه الآية وما بعدها.. ^٣

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. كيف لقائل مقولة الكفر ﴿اللَّهُ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ أن ينكرها في محضر من جماعته؛

١- إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

٢- إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يُرِيي الصَّدَقَاتِ﴾.

٣- جامع البيان، ج ٤، ص ١٢٩

وهو العاجز عن التنصّل عن ذلك في محضر الله تعالى وهو السميع العليم بكلّ شيء؛ بما في ذلك ما لا يسمع من الذبذبات أو ما يصمّ آذان الخلائق ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

٢. ليس الله يسمع حديث هؤلاء فحسب، بل إنّ جميع ما قالوا يرصد ويدوّن من قبل الموكّلين من الله سبحانه ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾.

٣. معلوم أنّ المقصود من الكتابة ليس كما نكتب في الصفحات، بل المراد هو حفظ ما يترتّب على العمل، إذ طبقاً لقانون بقاء المادّة؛ فإنّها تبقى في الوجود، وحتى أنّ كتابة الملائكة لها شكل من حفظ العمل؛ وهي أرقى من كلّ كتابة..

٤. هذه ليست المرّة الأولى التي يعمد فيها اليهود إلى الاستهزاء، فهم على مدى التاريخ صدرت منهم جنايات عظيمة، والجماعة التي يصل بها الأمر إلى الجرأة والجسارة على قتل عدد كبير من الأنبياء؛ لا عجب من أن يصدر عنهم مثل ذلك الخطاب الساخر: ﴿وَقَتَلَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ﴾.

٥. يمكن أن يقال بأنّ قتل الأنبياء لما لم يصدر عن اليهود المعاصرين لنبيّ الإسلام صلّى الله عليه وآله، فلماذا خوطب بها يهود المدينة؟ الجواب: أنّهم كانوا راضين بفعل أجدادهم العصاة المجرمين، ولهذا؛ فهم شركاء في تحمّل ذلك الإثم الكبير..

٦. السبب في كتابة وضبط أعمال جميع المذنبين وأمثال هؤلاء اليهود أنّهم في يوم القيامة سيواجهون أفعالهم فيقال لهم ذوقوا نتائج أفعالكم: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

الآية ١٨٢

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. مفردة ﴿ظَلَامٌ﴾ صيغة مبالغة، ومعناها كثير الظلم.. واختيار هذه الكلمة هنا مع أنه تعالى لا يمارس أدنى ظلم، لعله أنه لو أجبر الناس على الكفر والخطأ وكسّر وضاعف فيهم دوافع ارتكاب الخطيئة ثم أنه حاسبهم على ما اقترفوا من ظلم بسيط؛ سيكون ظلاماً لعباده..
٢. مرارة العذاب وألمه وإحراقه إنما هو نتيجة وثمرة عمل الإنسان المذنب الذي ظلم نفسه، وإلا فإن الطبيعي أنه تعالى لن يظلم أحداً ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

٣. روي في (نهج البلاغة) عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام مستنداً إلى قوله تعالى ﴿لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾: «وأيما الله! ما كان قوم قط في غضن نعمة من عيش فزال عنهم إلا بذنوبٍ اجتروها؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد»^١.

٤. هذه الآية تبين أن كل عقوبة وثواب من جهة الله تعالى إنما بسبب أفعال الناس التي يقومون بها بإرادتهم.. ولهذا؛ فهذه الآية تردّ من جهة عقيدة المجبّرة الذاهبين إلى مجبورية الإنسان في أعماله الصالحة والطالحة، وأن كل شيء منوط بإرادة الربّ الجبّار، ومن جهة أخرى؛ تراهم يعمّمون أصل العدالة على أفعال الله تعالى.

٥. الآية أعلاه تصرّح بأن الله تعالى لا يظلم أبداً، وأن قانون جزائه قائم على محورية الحكمة والمنطق والعدل المطلق.. وهذا هو الشيء الذي يذهب إليه المعدّلون (القائلون بالعدل، وهم الشيعة والمعتزلة من المخالفين) وفي مقابلهم هناك الأشاعرة المؤمنون بالعقيدة العجيبة

١- نهج البلاغة، ص ٢٥٧

القائلة بأن الظلم لا يتصور في الله سبحانه أبداً، وأن ما يفعله هو عين العدالة ولو أنه عمد إلى حشر الصالحين جميعاً في النار، وأسكن جميع الطغاة في جنان الخلد، فإنه لا ظلم في ذلك أبداً، وأن أحداً ليس له حق الاعتراض.. فردّتهم هذه الآية الشريفة وأبطلت عقائدهم، إذ أشارت إلى أنه سبحانه لو عاقب من لا يجترح السيئات فإنه يصير. والعياذ بالله . ظالماً؛ بل ظلاماً..

الآية ١٨٣

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ

اللَّهُ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ
تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ
وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾

شأن وعلة نزول هذه الآية

جاء جماعة من كبار اليهود إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وقالوا له: إنك تدعي بأن الله قد بعثك إلينا رسولا وأنه قد أنزل عليك كتابا، والحال أن الميثاق قد أخذ علينا في التوراة أن لا نؤمن لمن يدعي نبوة إلا أن يأتينا بحيوان نتخذه قربانا فتنزل عليه نار (صاعقة) من السماء فتحرقه.. فإن فعلت ذلك في محضرنا؛ أمثالك.. فنزلت هذه الآية ردًا على مدعاهم العجيب والباطل...^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. لكي يتنصل اليهود عن اعتناق الإسلام، راحوا يتوسلون بتبريرات عجيبة وحجج واهية، مثل التبرير الذي ذكرته هذه الآية.. ولو أنهم كانوا يريدون المعجزة بهذا الفعل - القربان الذي تأكله النار - دون العناد واللجاجة، لكانوا محققين، إلا أن تاريخ اليهود الماضي وكذلك تعاملهم ومواقفهم من نبي الإسلام صلوات الله عليه وآله تثبت أن مرادهم لم يكن لرغبة في إحقاق الحق، كما أن إصرارهم على التنصل عن الإيمان بالإسلام مع كل ما يشهدونه من دلائل قرآنية

ونبوءة واضحة، كان يتجسد في تقديمهم مقترحات يومية جديدة.. وحتى لو تحققت لهم تلك المقترحات؛ ما آمنوا لها.. بدليل أنهم كانوا قرؤوا في كتبهم جميع علامات نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، ولكنهم أحجموا عن الإيمان به: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا...﴾.

٢. يخاطب القرآن المجيد نبينا الأعظم صلوات الله عليه وآله لدى رده تلك التبريرات اليهودية بأن يقول لهم: قد بعث أنبياء من قبلي وقد حملوا علامات وصفات ودلائل واضحة، بما في ذلك القربان الذي وصفتموه. إشارة إلى زكريا ويحيى عليهما السلام وجمع آخر من الأنبياء والرسل في بني إسرائيل ممن قتل من قبل اليهود. فإن كنتم محققين فلم لم تؤمنوا لهم؟ ولم قتلتموهم؟!

٣. مع أن بعض المفسرين المعاصرين (مثل مؤلف تفسير المنار) احتملوا أن لا يكون مطلب اليهود أن يذبح حيوان ثم تنزل نار سماوية تحرقه بشكل إعجازي.. وإنما المقصود أن في تعاليمهم الدينية التقرب بقربان يدعى القربان المحروق، حيث يقطعون رأس حيوان ثم يحرقونه ضمن مراسم خاصة. وقد وردت تفاصيل هذه المراسم في الفصل الأول من سفر اللاويين في التوراة. وهؤلاء يدعون بأن الله قد عهد إليهم أن هذه المراسم ستشرع في كل دين سماوي، ولأن دين الإسلام خلا من هذه المراسم؛ فإنهم لن يؤمنوا به..^١ ولكن هذا الاحتمال في تفسير هذه الآية بعيد جداً كما يبدو.. لأن:

أولاً: هذه الجملة في الآية أعلاه عطفت على ﴿البينات﴾ التي تشهد على أن المراد من ذلك فعل إعجازي لا يتناسب وهذا التفسير.

ثانياً: أن قتل حيوان ثم إلقاءه وحرقه بالنار يشبه عملاً خرافياً، ولا يمكن أن يكون جزءاً من تعاليم الأنبياء السماوية..

١- تفسير المنار، ج ٤، ص ٢٦٧ و ٢٦٨.

الآية ١٨٤

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. يواسي الله رسوله في هذه الآية ويأمره بأن لا يقلق لتكذيب هذه الجماعة الضالة أقواله، وذلك لأن هذا التكذيب قد كان من نصيب الأنبياء السابقين ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: بالمعاجز والدلائل الواضحة والكتب المتينة ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ﴾.

٢. ﴿الزُّبُرِ﴾ جمع زبور، وهو الكتاب الذي جرى تدوينه بإحكام، والمعنى مأخوذ في الأصل من الكتابة، ولكن ليس أي كتابة، بل هي ما يكتب بمتانة ورصانة وإحكام.

٣. يمكن أن يُتصوّر بأن التفاوت بين الزبور والكتاب المنير مع أنهما من جنس الكتاب، ذلك أن الأول يتضمّن الإشارة إلى الأنبياء الذين سبقوا موسى عليه السلام، فيما الثاني يقصد به التوراة والإنجيل، لأن القرآن ذكر التوراة والإنجيل في الآيتين (٤٤ و ٤٦) من سورة المائدة بعنوان النور: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ... وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ ولكن بعض المفسرين قالوا باحتمال آخر، وهو أن الزبور يقصد به الكتاب السماوي المتضمّن مواعظ ونصائح، كما هو الزبور المنسوب إلى النبي داود عليه السلام، وهو الكتاب المفعم بالمواعظ والنصائح، ولكن الكتاب السماويّ أو الكتاب المنير يقال للكتاب المتضمّن للأحكام والقوانين والتعاليم الشخصية والاجتماعية..

الآية ١٨٥

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ
وإِنَّمَا تُوقَنُ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ
عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هدف هذه الآية، وضمن الإشارة إلى قانون الموت العام ومصير الناس إلى القيامة.. هو مواساة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والمؤمنين، مضافاً إلى تحذير المخالفين العصاة..
٢. هذه الآية توضح قانوناً يؤكد أن جميع الموجودات الحية محكومة . شاءت أم أبت . بالمصير إلى الموت الذي ستذوقه ذات يوم ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.
٣. رغم أن أكثر الناس يرغبون في الغفلة عن حتمية فنائهم، ولكن الحق والواقع هو أنهم إن غفلوا عن هذه الحتمية؛ فإنها لن تغفل عنهم وأن الحياة ستنتهي ذات لحظة، ولا ريب في ملاقة الموت لهم؛ فيضطرون إلى مغادرة هذا العالم.
٤. رغم أن المراد من (النفس) في هذا السياق القرآني هو الجسم والروح، ورغم أن إطلاق كلمة النفس في القرآن يراد به الروح أحياناً.. والتعبير بالذوق والتذوق إشارة إلى الشعور الكامل، ذلك لأن الإنسان يرى طعاماً أحياناً أو يلمسه بيده، ولكن هذين الأمرين لا يمثلان إحساساً تاماً، إلا أن يتبعهما التذوق للطعام.. وهكذا يكتفى بالذوق عن نظام الخلقة التي ينتهي أمرها بالموت كما أن تحسس الطعام يكتمل لدى التذوق، سواء كان من قبل الإنسان أو الحيوان..

٥. بعد هذه الحياة، تبدأ مرحلة إعطاء الأجر والتعريض للعذاب.. وفي الدنيا عمل بلا جزاء، وفي الآخرة جزاء بلا عمل ﴿وَإِنَّمَا تُؤَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٦. قوله تعالى: ﴿تُؤَفَّقُونَ﴾ بمعنى الإعطاء التام، ويشير إلى أنَّ الأجر والثواب سيعطى تاماً في يوم القيامة، وعليه؛ لا مانع أن يكون عالم البرزخ (المتوسط بين الدنيا والآخرة) ساحة لمشاهدة الإنسان شطراً من نتائج أعماله الدنيوية؛ أجراً كانت أو عقاباً، ذلك لأنَّ هذا الأجر وهذا العقاب غير تامين..

٧. كلمة ﴿زُحْرَجَ﴾ لغة تعني أنَّ الإنسان حين يقع تحت تأثير جاذبية شيءٍ؛ ينساق إليه تدريجياً، وكلمة ﴿فَارَ﴾ في الأصل تعني النجاة من الهلاك وبلوغ المحبوب ﴿فَمَنْ زُحْرَجَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَارَ﴾.

٨. قوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْرَجَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَارَ﴾ يبيِّن كأنَّ النار تجتذب بكلِّ قدرتها الإنسان إلى كيانها، وبالفعل؛ فإنَّ العوامل التي تجتذب الإنسان إليها ذات جاذبية عجيبة..

٩. كأنَّ النار تجتذب الإنسان إليها بكلِّ قدرتها.. والذين لا ينجذبون إلى النار ويبتعدون عنها سيدخلون الجنة.. وهؤلاء هم الناجون، وهم الذين سيَتَّصلون بمحبتهم ومطلوبهم..

١٠. من عبارة ﴿فَمَنْ زُحْرَجَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَارَ﴾ يفهم أنَّ الناس ما لم يسعوا إلى التحصُّن من جاذبية العوامل الخادعة؛ فإنَّهم سينجذبون إليها بالتدريج.. ترى أليست الرغبات العابرة واللذات الجنسية المحرَّمة والثروة غير المباحة تشكل جاذبة لكلِّ إنسان؟! الذين يربُّون أنفسهم على الانعتاق من الجاذبية وضبطها ويسمون إلى مقام ما يعرف

بالنفس المطمئنة، هم الناجون الحقيقيون، وهم المتنعمون بالأمن والسكينة.

١٢. قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ يبيِّن المسألة أدناه: أنَّ الدنيا دار تمتع وانتفاع واغترار، وهذه الحياة وزبرجها لها خاصية، ولكنَّ الإنسان إذا ما نالها ولمسها عن قرب؛

وجدها فارغة المحتوى، ومعنى متاع الغرور ليس أكثر من هذا ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾.

١٣. اللذات المادية تبدو خالصة طيبة عن بعد، وإذا ما اقترب منها الإنسان؛ وجدها ملوثة بأنواع المنغصات.. وهذا أحد أشكال الخديعة في هذه الدنيا، وغالباً ما يغفل المرء عن طبيعة فنائها، ولكنّه سرعان ما يلتفت إلى سرعتها البالغة في الزوال والفناء ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾.

١٤. رغم أنّ عبارات فناء الدنيا طالما تكرّرت في القرآن الكريم والروايات المعصومة إلا أنّ الهدف النهائي من هذا التكرار منع الإنسان من اتخاذ الدنيا ولذائذها الزائلة هدفاً نهائياً، ولو أنّه اتخذها كذلك، فلن يجني سوى الضياع والغرق في أنواع الذنوب والابتعاد عن الحقيقة والتكامل الإنساني، ولكنّ الانتفاع من ماديّات الدنيا وما فيها من صور رائعة كوسيلة لتحقيق التكامل المنشود.. فيعدّ ذلك أمراً لازماً وضرورياً.. فضلاً عن كونه غير محمود..

الآية ١٨٦

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ
وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً
وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١٨٦)

شأن نزول هذه الآية

وردت في هذه الآية، وطبقاً للروايات التي نقلها المفسرون، وضمن دعوة المسلمين لمقاومة أذى الكفار، الإشارة إلى أن المسلمين حينما هاجروا من مكة إلى المدينة وخرجوا من مساكنهم وأموالهم، عمد المشركون في مكة إلى مصادرة أموالهم وتملكها، ولم يقصروا فيما لا يصح أن ينسب إليهم من قول، ثم إن هؤلاء المسلمين حين وصلوا المدينة واجههم اليهود بأنواع الأذى، لاسيما ما كان يلذعهم به كعب بن أشرف من أشعار وهجاء، فيما كان مشركو المدينة يشجعونه عليه، بل إن نساء المسلمين وبناتهم لم يسلمن من تعرضه لهن بأبيات الغزل.. حتى بلغ الأمر أن اضطر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى إهدار دمه، فقتل على يد بعض المسلمين.^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. حقيقة هذه الآية تحمل تحذيراً لجميع المسلمين من أن يظنوا بأن ما يلقونه من عسر ومصاعب قد انتهت بهجرتهم من مكة مثلاً، أو أن أذاهم سينتهي بمقتل كعب بن أشرف؛

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٩٠٣

ذلك الشاعر السليط اللسان، أو أن أعداءهم سيكفون عن إلحاق الأذى بهم بعد كعب هذا، وأنه لا ريب في أنهم سيسمعون في المستقبل من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) والمشركين ما لا يحبونه من القول الكثير.. ﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾.

٢. الحياة أساساً مسرح اختبار، ومن المؤكد أن المسلمين سيؤذون في أموالهم وأنفسهم ويمتحنون، وهم في قبال ذلك ملزمون بالاستعداد لخوض الاختبار ومواجهة الحوادث والأزمات ﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾.

٣. أن الإشارة إلى مسألة سماع السوء من القول الصادر عن الأعداء، هو من مصاديق الامتحان الذي صرحت به الآية في مطلعها.. وذلك تبعاً للأهمية القصوى لهذا الموضوع المؤثر في روح الأفراد الأشراف والمتحسين، حتى أن بعضهم يعدونه أشد إيلاماً من ضربات السيف ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾.

٤. أن الاستقامة والصبر والتقوى والورع وظيفة جميع المسلمين لدى مواجهة الأذى والإهانات المتتالية عليهم ضمن مصاعب الأيام، وأن الالتزام بهذه الوظيفة من جملة الأفعال ذات النتائج الواضحة، ولذا؛ كان لزاماً على كل ذي عقل أن يقرّر العمل بتلك الوظيفة ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

٥. كأن اقتران الصبر والتقوى في الآية إشارة إلى أن بعض الأفراد ينطقون بغير الشكر وبالشكوى رغم استقامتهم وصبرهم، إلا أن المؤمنين الواقعيين يمزجون بين الصبر والاستقامة والتقوى دائماً، وينأون بأنفسهم عن كل ما يعيب ذلك.

٦. العزم لغة بمعنى التصميم والرصانة في اتخاذ القرار، ويطلق أحياناً على كل شيء متين، وعليه؛ فإن ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ يشار بها إلى الأفعال الجديرة بأن يقوم بها الإنسان ويقرّر إنجازها، أو أنها بمعنى كل فعل رصين وجدير بالاطمئنان..

الآية ١٨٧

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا
قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. تبعاً لذكر جملة من مخالفات أهل الكتاب، تشير هذه الآية إلى أحد أعمالهم القبيحة؛ وهي كتمان الحقائق ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ وتقول: فلا تنسوا ذلك الميثاق الذي أخذه الله ووكدته على أهل الكتاب والزمهم بإيضاح وبيان آيات الله للناس، وأن لا يكتُموه عنهم أبداً.
٢. مع أن كلمة ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ قرنت بلام القسم وتضمنت منتهى التأكيد، فإنها قرنت أيضاً بكلمة ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ وذلك للأمر بعدم كتمان الحقائق.
- ومن مجموع هذه العبر الواردة في هذه الآية يعلم أنه سبحانه قد أخذ على هؤلاء بواسطة أنبيائه السابقين أوثق العهود والمواثيق في بيان الحقائق، ولكن مع كل ذلك؛ تراهم خانوا الميثاق الإلهي المتين وكتُموا حقائق كتب السماء ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾.
٣. أيّ منهج أراد الإنسان إنجازَه، جعل مقاييس تطبيقه أمام عينيه.. ولكنه متى أراد التنصّل عنه وعدم العمل به ونسيانه بالمرة؛ أزاحه من أمام ناظره وجعله وراء ظهره، ولهذا كانت عبارة ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ كناية لطيفة عن عدم عمل الإنسان وتناسيه له..
٤. علماء أهل الكتاب العابدون للدنيا، وعبر التعلّق الشديد بالدنيا والانحطاط الفكريّ العتيد، إنّما نالوا نزراً يسيراً بكتمانهم الحقائق، وما أسوأ ما اشتروا من متاع، ولو أنّهم كانوا

حقّقوا لأنفسهم مكاسب عظيمة في مقابل جريمتهم الشنعاء لعذروا بما أعمتهم المصلحة.. ولكنّ العجب كلّ العجب أنّهم لم يحقّقوا لأنفسهم غير متاع قليل زائل ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

٥. رغم ورود هذه الآية في علماء اليهود والنصارى، ولكنّها في الحقيقة تصدق على جميع علماء الأديان والمذاهب المكلفين بكشف الحقائق وتبيان التعاليم الإلهية والمعارف الدينية، لاسيّما وأنّه تعالى قد أخذ العهود المؤكّدة على كلّ هؤلاء بهذا الصدد.

٦. يشير التحقيق وملاحظة جذر كلمة (تبيين) المستعملة في هذه الآية إلى أنّ المراد ليس قراءة الآيات ونشر كتب السماء فحسب، بل هو عرض الحقائق عارية واضحة للناس ليطلع عليها الجميع ويسبروا غورها بأرواحهم.. وأيّ ما عالم دينٍ قصّر في تعليم المسلمين؛ صار من أولئك العلماء المذمومين ولقي ذات المصير البائس الذي حدّده الله تعالى لعلماء اليهود في الضالّين المضلّين في هذه الآية.

٧. قال الحسن بن عمّار: ذهبت إلى الزهريّ ذات يوم؛ وكان قد كفّ عن رواية الحديث، فقلت له: علّمني ممّا تعلّمت من الحديث، فقال: ألم تعلم بأنني قد اعتزلت نقل الحديث لأحد من الناس؟ فقلت: مهما كان الأمر؛ فإنّما أن تحدّثني بحديث أو أحدّثك.. فقال: حدّثني أنت إذن.. فقلت: روي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلّموا حتّى أخذ على أهل العلم أن يُعلّموا» فصمت بعد سماعه هذا الحديث العظيم ثمّ قال: اسمع منّي ما أحدّثك، ثمّ روى لي في مجلسنا هذا أربعين حديثاً^١ (ولمزيد من الاطلاع على موضوع خيانة العلماء من أهل الكتاب، راجع الآيات ٧٩ و١٧٤ من سورة (البقرة) والآيات ٧١-٧٧ من سورة (آل عمران)).

الآية ١٨٨

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ
بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ
بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

شأن نزول هذه الآية

نقل المحدثون والمفسرون شؤون نزول عديدة لهذه الآية، وأحد هذه الشؤون ما روي أنَّ جماعة من اليهود حينما كانوا يحرفون كتابهم التوراة ويكتمون ما ورد فيها من حقائق، وكانوا يظنون أنَّهم سينتفعون من فعالهم فيسرون لها ويفرحون، وكانوا يحبون أن يعدَّهم الناس علماء ومدافعين عن الدين وأنَّهم يحسنون ما يصنعون، فنزلت هذه الآية وردَّت عليهم فعالهم الخاطئة.. وقال آخرون: نزلت هذه الآية في المنافقين ممَّن تذرَّعوا بأنواع الذرائع لامتناعهم عن مشاركة المسلمين في المعارك، وحينما كان المجاهدون يعودون من أرض المعركة يقسمون لهم أنَّهم ما كانوا ليرتكبوهم لولا أَعذارهم الشرعية، ومع ذلك كانوا يتوقعون من الناس أن يمدحوا ويحمدوا لأفعال تملَّصوا منها من قبل.. فنزلت هذه الآية وردَّت توقعاتهم السفيهة الباطلة..^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. المذنبون المقصرون على شاكلتين:

الأولى: من يندم على ارتكابه الذنب الذي كان قد قام به لدى طغيان غريزته.. وتخلَّصه من هذا الذنب أمر يسير جدًّا، وذلك لندمه المباشر على معصيته، إذ سرعان ما يلومه وجدانه الحي..

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٩٠٦

الثانية: الذي لا يشعر بندم على ذنبه، بل هو مغرور راضٍ عن معصيته فرح متباهٍ بها، وفوق هذا؛ تراه يميل ويرغب بأن يحمده الآخرون على سوء فعله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾.

٢. هذه الآية تصرّح بأن لا تظنّوا أنّ أشخاصاً كهؤلاء الذين يسرّون بأفعالهم القبيحة ويحبّون أن يحمدا بما لم يفعلوا.. أنّهم سينأون بأنفسهم عن العذاب الأخروي، بل إنّ النجاة ستكون من نصيب الذين يندمون على أفعالهم المشينة. على الأقلّ...

٣. لم ترد الإشارة في هذه الآية إلى عدم نجاة هؤلاء العصاة المغرورين الذين لا يندمون على قبائحهم فحسب، بل هي أكّدت أنّ عذاباً أليماً ينتظرهم في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٤. يمكن أن يستفاد من هذه الآية أنّ السرور المطلوب يجب أن يكون في حال توفيق الإنسان إلى القيام بالعمل الصالح بشكل معتدل والذي لا يؤدي به إلى الغرور والرضا عن النفس ثمّ عدم الرغبة في تلقي المديح عليه، لاسيّما إذا كان في حدّ الاعتدال ولم يكن الدافع إليه أمراً مذموماً.. ذلك لأنّه من مصاديق الغريزة الإنسانية..

٥. أحبّاء الله تعالى لا يعدّون ما يقومون به أكثر من حدّه، بل تراهم يشعرون بتقصيرهم في مقابل عظمة الله، ومن هم في مستوى عالٍ من الإيمان بعيدون كلّ البعد عن الفرح بأعمالهم وعن الرغبة في تلقي المديح والثناء.. فهم يعتبرون أعمالهم الطيبة أقلّ من المتوقع، ويعدّون أنفسهم مقصّرين دوماً في طاعة الربّ العظيم..

٦. لا ينبغي أن يتصوّر أنّ هذه الآية خاصّة بالمنافقين الذين كانوا يعيشون في الصدر الأوّل للإسلام وأمثالهم، بل إنّها تعمّ كافة الناس وفي كلّ العصور وضمن مختلف الظروف الاجتماعية، ممّن يفرح ويغتتر بعمله القبيح ويدفع الآخرين إلى الثناء عليه.. ومثل هذا الفرد المتطرّف في تفكيره وسلوكه المشين ينتظره عذاب أخرويّ أليم، بالإضافة إلى تعرّضه لغضب الناس والابتعاد عنهم في هذه الدنيا، وكذلك أصابته بأنواع الاضطراب..

الآية ١٨٩

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية تبشّر المؤمنين وتهذّب المنافقين والكافرين.. بمعنى أنّه لا مبرّر ولا دليل على أنّ للمؤمنين أن يسلكوا طرقاً منحرفة لإحراز التقدم لأنفسهم، أو أن يمدحوا ويشجعوا على ما لم يفعلوا.. فهم قادرون على إحراز التقدم بالاعتماد والتوكّل على الله الذي له ملك السماوات والأرض وعبر الطرق المشروعة والصحيحة ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

٢. لا يتصوّر المسيئون والمنافقون الطامحون للوصول إلى منزلة ما بالطرق المنحرفة وغير المشروعة أنّهم سينجون من عقاب الربّ مالك كلّ الوجود..

الآية ١٩٠

إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ

وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾

روايات في نزول هذه الآيات

جميع آيات القرآن ذات أهميّة؛ لأنها جميعاً كلام الله، وقد نزلت لتربية الناس وإنقاذهم من الجهل والضلال، إلا أنّ منها آيات ذات نورانيّة خاصّة، ومن جملتها الآيات الخمس أعلاه، إذ فيها ما يهزّ مشاعر الإنسان وتتضمّن معارف دينيّة ممزوجة بالطف ألحان الدعاء والمناجاة، ولهذا؛ فقد أولتها الروايات المعصومة توجّهاً مميّزاً.

قال عطاء بن أبي رباح: سألت عائشة ذات يوم عن أعجب ما رأت من رسول الله صلّى الله عليه وآله. فقالت: كلّ ما في رسول الله عجيب، ولكنّ الأكثر عجباً أنّي رأيته ذات ليلة وقد جلس ليستريح في بيته، ولكنّه سرعان ما نهض من مجلسه وارتدى ثيابه وأسبغ الوضوء ووقف للصلاة، فأطال في صلاته حتى بكى وابتلّ مسجده بدموعه.. وحين أذن بلال لصلاة الصبح وانتهى من أذانه سأل رسول الله صلّى الله عليه وآله عن سبب بكائه وأنه المشمول بلطف ربه، فقال مجيباً: «أفلا أكون لله عبداً شكوراً» وقد أنزل الله عليّ في ليلتي آيات عجيبة، ثمّ إنّه صلوات الله عليه وآله قرأ الآيات الخمس أعلاه ثم قال أخيراً: «ويل لمن قرأها ولم يتفكّر فيها»^١ وهذا أمر مؤكّد على ضرورة التفكّر حين تلاوة آيات القرآن. وهناك روايات عديدة حوت عبارات متنوعة في هذا الصدد.. وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه كان إذا قام لصلاة اللّيل بدأ بالسواك ثم نظر إلى السماء وهمس بهذه الآيات..^٢

١- لتفسير الكبير، ج ٩، ص ٤٥٨

٢- مجمع البيان، ج ٢، ص ٩٠٨

كما ورد الأمر عن أهل البيت عليهم السلام بلزوم قراءة هذه الآيات قبيل صلاة الليل^١.. وقال نوف البكالي، وكان من خواص أمير المؤمنين عليه السلام.. قصدت أمير المؤمنين ذات ليلة ولمّا يعف النوم عيني، فرأيتُه قام وهو يرثل هذه الآيات، ثمّ طلبني وقال: يا نوف! نائم أم يقظ؟ فقلت: بل يقظ، فقال: يا نوف! طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة^٢..

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية والآيات الأربع التي تليها تبين منهجاً مختصراً للإيمان والأسلوب العملي وما يطلبه من أصحاب الفكر والعقل وطبيعة مناجاتهم.
٢. آيات القرآن ليست للقراءة فحسب، وإنّما هي للفهم والإدراك، وما قراءتها إلّا مقدّمة للتفكير والتدبّر، ولهذا أُشير في الآية الأولى إلى الذكر ثمّ التفكير، بمعنى أنّ الذكر غير كافٍ لوحده..
٣. أُشير في مطلع الآية إلى عظمة خلقه السماء والأرض، وهي تفصح عن أنّ في خلقه السماوات والأرض وفي تعاقب الليل والنهار علامات واضحة لأولي الألباب والمفكرين، وعلى هذا؛ فهي تشجّع الناس على التفكير في هذا الخلق العظيم ليكون ثمّ نصيب بمستوى استعداد الإنسان ومدى تفكيره وليرتوي من معين الأسرار الصافي والزلال في الخلقة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
٤. لا ريب أنّ عالم الخليقة وصورها البديعة وما فيها من نماذج جاذبة والنظم العجيبة الحاكمة عليها بمثابة كتاب استثنائي عظيم، وكلّ حرف وكلمة فيه دليل وآية واضحة جدّاً على وجود الخالق القدير ووحدانيّته...

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٩٠٨

٢- إرشاد القلوب، ج ١، ص ٢٠

الآية ١٩١

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا
وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. التخطيط الأخاذ والعجيب الواضح في العالم وجوانبه يجتذب قلوب أولي النهى وتجعلهم يتفكرون بنظام الخلقة العجيب في جميع حالاته؛ سواء لدى قيامهم أو قعودهم أو على جنوبهم حين استلقائهم ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا﴾.
٢. العقلاء هم الذين يذكرون الله على كل حال ويتفكرون في أسرار السماوات والأرض على الدوام.

هدفية الوجود

٣. ذكر الله تعالى له ثمرته القيّمة حين يمتزج بالتفكر، كما لو أنّ التفكر في خلق السماوات والأرض ما لم يقترن إلى ذكر الله تعالى سيكون غير ذي نفع وثمره.. ولهذا؛ كم هم المفكرون المنهمكون في أبحاثهم الفلكية وما يرتبط بخلقة الأجرام السماوية وهذا النظام الفضائي العجيب، ولكن لما لم يقرنوا ذلك بذكر الله ولم يضعوا نظارات التوحيد على أعينهم ولم يقفوا لدى تفكيرهم. في زاوية معرفة المبدأ، تراهم لا يجنون الثمار التربوية والإنسانية، كما لو أنّ أحدهم يتناول طعاماً يرفد بدنه بالقوة ولا يلتفت إلى تقوية روحه وعواطفه وتفكيره..
٤. التفكر في أسرار الخلقة يضيف على الإنسان وعياً خاصاً، وأول آثاره إلفات نظره إلى هدفية الخلقة، ذلك لأنّ الإنسان إذا ما وجد في كلّ موجود صغير في هذا العالم المترامي

الأطراف هدفاً مهماً، فهل له أن يقول بعدم هدفيّة الوجود برمته.. وها نحن نلاحظ الهدفيّة الواضحة في هيكله النبات وقلب الإنسان ونوافذه وكلّ شيء في الوجود كما هي العين وأجزاءها والأظفار بتفاصيلها.. إذ كلّ جزء له هدفه المرسوم ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ﴾.

٥. ترى هل من الممكن القول بأنّ لكلّ من ذرات موجود ما هدفاً خاصاً مع القول بأنّ الموجود - ذا الذرات - لا يحمل هدفاً بذاته؟! ولذا ترى المفكرين العلماء وبالالتفات إلى هذه الحقيقة يهمسون بالقول: ربّنا ما خلقت هذا باطلاً.. فهذا العالم اللامتناهي وهذا النظام العجيب لم يكن إلّا عن حكمة ومصلحة وهدف سام.. فالكلّ آية الوجدانية والله منزّه عن العبث واللاهدفيّة.

٦. أولو الألباب وبعد الإقرار بالهدفيّة في الخلقة يتذكّرون مباشرة خلقتهم ويعون أنّ الإنسان ثمرة عالم الوجود، وأنّه لم يخلق عبثاً.. وما هدفه سوى التربية والتكامل.. وهو لم يخلق ليعيش أياماً قلائل غير ذات قيمة.. بل إنّ تَمَّ مستقراً آخر قد أعدّ له.. وفيه سيلقى أجره أو عقابه على ما صدر منه من نوايا وأفعال.. وهناك يلتفت إلى مسؤولياته الموظف بالقيام بها، فيطلب إلى الله التوفيق إلى إنجازها ليأمن العقاب، ولذلك يقول: ﴿ فَقَيْنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾.

الآية ١٩٢

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. يعلم من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أنَّ العقلاء وقبل خوفهم من النار فإنَّهم يربعون من الفضيحة، وهذا هو واقع الأفراد ذوي الشخصية الفذة، فهم على استعداد لتحمل أنواع المشاق والآلام دون أن تتعرض حيثيتهم للخدش، وعليه؛ فإنَّ أشدَّ عذاب لهم فضيحتهم في محضر ربهم وعباد ربهم..
٢. المسألة المهمة التي يتضمَّنها قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أنَّ العقلاء وبعد معرفتهم بالأهداف التربوية للإنسان، يبلغون الحقيقة القائلة بأنَّ الوسيلة الوحيدة لتوفيق الإنسان ونجاته هي عقيدته وعمله وسلوكه، وعليه؛ فإنَّ الأفراد الظلمة يعجزون عن العثور على ناصر ما، لاسيما وأنَّهم قد فقدوا الناصر الأصلي؛ وهو العمل الطيب..

الظلم والشجاعة!!

٣. اعتماد كلمة (الظلم) إمَّا بداعي خطورة هذا الذنب من بين سائر الذنوب، وإمَّا بداعي أنَّ جميع الذنوب ترجع إلى ظلم النفس.
٤. هذه الآية لا تتنافى وعقيدة الشفاعة (بمفهومها الصحيح) ذلك لأنَّه وكما تقدَّم في بحث الشفاعة حيث المشفوع له بحاجة إلى خصوصية، وهذه الخصوصية والاستعداد إنما يتوفَّران تحت مظلة الأعمال وقبلها النوايا الصحيحة والصالحة..

الآية ١٩٣

رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ
ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ذوو العقول وبعد تعرّفهم إلى هدف الخلقة؛ يعلمون أنّ طي هذا الطريق فيه من العسر الكثير، ولا يسع المرء العبور منه من دون قيادة ربّانية ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾.

٢. المؤمنون يعيشون مناجاة خالقهم الواحد الأحد، وهم على الدوام مترصدون سماع صوت المنادين بالإيمان والصدق، ومتى ما سمعوا أول نداء إيماني أسرعوا إلى الإجابة، وبعد التحقيق اللازم يبادرون إلى التلبية، فيؤمنون بكل وجودهم ويخاطبون ربّهم بالقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾.

مع الأبرار لا مع الأصنام!!

٣. ربّنا! قد آمنا بكل وجودنا، ولكن حيث جعلتنا في معرض عواصف الغرائز الشديدة، ولعلّ انحرافاً نسقط فيه فنرتكب ذنباً.. إلها! فاعف عتاً واغفر لنا ذنوبنا واستر علينا خطايانا واحشرنا مع الصالحين الأبرار: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

٤. المؤمنون هم الجهة الخائفة من الله في المجتمع، ويحذرون من أن يكونوا من الصنميين، ويطلبون من ربّهم أن يجمعهم إلى الصالحين في الدنيا ويحشرهم مع الأبرار في الآخرة؛ وسواء كان موتهم موتاً طبيعياً أو لدى القتل في سبيل الله تعالى ﴿تَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

٥. ثم سؤال في البين؛ وهو: ما معنى ستر سيئات الإنسان وذنبه مع طلب غفرانها؟
 تنبغي الإجابة بالقول: مع ملاحظة سائر آيات القرآن تتضح الإجابة، ذلك لأن الآية (٣١) من سورة (النساء) والقائلة: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ فيعلم أن السيئات هي الذنوب الصغيرة، وعليه؛ فإن ذوي الألباب يطلبون. أول ما يطلبون. من الله العفو عن كبائر الذنوب؛ ثم محو آثار الذنوب الصغيرة.

الآية ١٩٤

رَبَّنَا وَعَايِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. المؤمنون وفي المرحلة الأخيرة، وبعد طي مسيرة التوحيد والإيمان بالمعاد وبعد إجابة دعوة الأنبياء والأئمة عليهم السلام والقيام بوظائفهم ومسؤولياتهم.. بعد كل ذلك يتوجهون إلى الله تعالى بالقول: قد وفينا بعهدها فأتنا ما وعدتنا على لسان رسلك ولا تفضحنا يوم القيامة؛ إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ..
٢. اعتماد عنوان عدم الافتضاح في مشهد يوم القيامة يبين أن المؤمنين وبداعي ما يولون من أهمية لشخصيتهم وكرامتهم، فإنهم يعدّون الفضيحة في يوم القيامة أشدّ عقاب.. ولذلك يطلبون من ربهم الستر والعافية..
٣. روي عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام أنّ من اهتمّ الأمر، فليقل خمساً: «ربنا» آمنه الله تعالى من كلّ ما يخاف وأعطاه ما يؤمل.. فليل، وكيف يقول: «ربنا» خمساً؟ فقال: يقرأ الآيات التي اشتملت على هذه الكلمة؛^١ ففيها الإجابة لأنّه تعالى يقول فيها: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.
٤. حينما يتفق لسان المرء وقلبه، ويفكر - عن إيمان - بمضمون هذه الآيات أعلاه ويتدبّر، يبلغه الله تعالى معانيها، وهو أنّ الفرد المؤمن إذا نظر فيها نظرة العلم والحبّ لله، وجد حلاوة الإيمان في وجدانه ونزع الله عنه داء النفاق وأثار قلبه..

الآية ١٩٥

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ
ذَكَرٍ أَوْ أَنتِي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ۖ فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا
مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ
عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَآ ذُخْلَنَّهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

شأن نزول هذه الآية

هذه الآية تتمة للآيات السابقة الخاصة بأولي الألباب وبنتيجة أعمالهم، وابتدأوها بفاء
التفريع أوضح دليل على هذه العلاقة، ومع ذلك فإنّ شؤون نزولها المروية وما جاء فيها من
كلمات للمفسرين لا يتنافى مع علاقتها بالآيات السالفة.

ومن جملة ما نقل؛ أنّ السيدة أم سلمة (إحدى زوجات الرسول) قالت للنبي الأكرم صلى
الله عليه وآله: قد قال القرآن في الرجال وجهادهم وهجرتهم الكثير، فهل للنساء نصيب؟
فنزلت هذه الآية وأجابتها عن سؤالها.^١

وكذلك روي أنّ الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام حين هاجر إلى المدينة
واصطحب معه الفواطم (فاطمة بنت أسد؛ أمّه، والصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء سلام الله
عليها، وفاطمة بنت الزبير) وأمّ أيمن التي التحقت بهم أثناء الطريق.^٢

١- مجمع البيان، ج ٢، ص ٩١٤

٢- الأمالي، الشيخ الطوسي، ص ٤٧١

ولا ريب في أنه لا منافاة بين هذه الشؤون المتعلقة بالآية الشريفة وبين الآيات السابقة، كما هو عدم المنافاة بين شأني نزول هذه الآية بالذات.

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية جواب وإجابة لمطالب المؤمنين ودعائهم مباشرة، والتعبير ب﴿ رَبِّهِمْ ﴾ يحكي منتهى اللطف والرحمة الإلهية لهم ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾.

الرحمة والحكمة

٢. قوله تعالى: ﴿ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ ﴾ ينبّه إلى أن رحمة الله ولطفه لا يقعان خطأ، وأنه لا فصل بين نجاة الإنسان ونجاحه وبين أعماله الصالحة ونيّته الطيبة.. ولهذا وردت الإشارة في هذه العبارة إلى أصل العمل وكذلك إلى العامل، فيعلم بذلك أنّ العمدة والمحور الأساس في القبول واستجابة الدعاء هو عمل الإنسان الناشئ عن العقيدة السليمة والإيمان، وأنّ الإجابة المباشرة إمضاء للعمل الصالح.

٣. لا يُتَصَوَّر أنّ الوعد الإلهي: ﴿ لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ ﴾ خاص بالرجال فقط، ولذا ورد التصريح بأنّ عدم إضاعة العمل يشمل الرجل والمرأة على حدّ سواء، وذلك لأنّ الجميع متساوون في الخلقة ويتعلّق بعضهم ببعض؛ وقد ولد الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر ﴿ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾.

٤. يمكن أن يكون في قوله تعالى: ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ إشارة أنّ الجميع أتباع دين واحد ومؤيّدو حقيقة واحدة؛ وعليه؛ فلا دليل على أن يميّز الله بعضكم دون بعض..

٥. أوّل إحسان ولطف بالذين هاجروا في سبيل الله وأخرجوا من أوطانهم وديارهم وأوذوا في الله تعالى وجاهدوا... أنّ المولى عزّ وجلّ آلى على نفسه أن يكفّر عنهم سيئاتهم لما تحمّلوا من المصاعب والمصائب في سبيله، فيتطهّروا بهذا التكفير والغفران ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا

مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴿٦﴾

٦. معلوم أنّ المشمول بالرحمة الإلهية سيكون مصيره إلى الجنة المفعمة بالأنهار والأشجار

وأنواع النعم والرضوان ﴿٦﴾ وَلَأَدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٧﴾

٧. ثواب الله تعالى لهؤلاء المذكورين لا يمكن وصفه ومعرفته، وبكفي فيه أنه صادر عن أكرم

الأكرمين؛ فهو لا شك أعلى وأسمى من كل ثواب، وهو ناتج عن لطف إلهي وعمّا قدّمه هؤلاء

في سبيله تعالى.. ﴿٧﴾ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿٨﴾

٨. يعلم من هذه الآية جيداً أنّ الجنة محلّ المطهرين، وأنّه ما لم يطهر الإنسان لن يسار به

إليها، ومن هنا؛ لزم التطهر بالأعمال الصالحة، ثمّ الانطلاق إلى حيث النعم الإلهية والجنة

﴿٨﴾ لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴿٩﴾ ثُمَّ ﴿٩﴾ وَلَأَدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ ... ﴿١٠﴾

حقوق الإنسان!

٩. هذه الآية كما الآيات القرآنية العديدة أكّدت على تشابه المرأة والرجل في الموقف

عند الله تعالى ولدى بلوغ المقامات الروحية السامية؛ إذ الاختلاف الجنسي والتفاوت في

هيكلية البدن وفي بعض المسؤوليات الاجتماعية لا يعدّ دليلاً على وجود فرق بين الطرفين

لدى تحقيق التكامل الإنساني.. بل إنّهما بالسواء على هذا الصعيد، ولهذا؛ ذكرتهما الآية

معاً.. والأمر برمّته يشبه ما إذا جرى انتخاب أحدهم رئيساً لدائرة ما، واختير آخر لمنصب

معاونه أو ليكون عضواً في هذه الدائرة.. فيلزم أن يكون الرئيس ذا قابلية أكبر أو تجربة أطول

أو علم أوسع لما تحتاجه وظيفته ومسؤوليته.. إلّا أنّ هذه الميزات والخصائص والشروط

التي هي من مستلزمات العمل الوظيفي لا يستدلّ بها على أنّ الشخصية الإنسانية والقيمة

الوجودية للشخص الرئيس هي أشرف وأسمى من معاونيه أو موظفيه...

١٠. واضح أنّ التحقيق والمطالعة في نظرة الإسلام المحترمة إلى حقوق كلّ من المرأة

والرجل، وبعد مزيد التعمق والتدبر في آيات القرآن المجيد التي نزلت في حقبة كانت أمم الأرض جميعاً تشك في إنسانية جنس المرأة وتعدّها موجوداً مذموماً وكونها مصدر الخطيئة والانحراف والموت، مثل الآية الأربعين من سورة (غافر) القائلة: ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ومثل قوله تعالى في الآية السابعة والتسعين من سورة (النحل): ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ حيث توضّح هذه الحقيقة الناصعة أنّ الإعلام المضلل الصادر عن بعض الجهلة أو المعادين طالما اتهم الإسلام بكونه ديناً خاصاً بالرجال دون النساء.. والتهمة باطلة وبعيدة كلّ البعد عن الصدق والحق...

١١. ليس التفاوت الحاصل والمشهود في بعض الأحكام والقوانين الإسلامية بين المرأة والرجل بسبب ترجيح الرجل على المرأة أو أريد به الإساءة إلى مكانة المرأة المعنوية، بل هو بداعي التفاوت البدني والعاطفي الحاصل بين المرأة والرجل، ولهذا؛ كانت الفوارق من حيث المسؤوليات الاجتماعية التي دوّنتها الأحكام والقوانين الإسلامية.. وإلا فإنه لا تفاوت آخر في نظرة الإسلام وموقفه تجاه المرأة والرجل، لاسيّما وهو الذي طالما أكد أنّ أبواب السعادة مشرعة للطرفين على حدّ سواء كما نقرأ في قوله تعالى: ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ حيث يعلم منها أنّ الطرفين من جنس واحد ومجتمع واحد..

١٢. مع توفّر الاحترام لحقوق المرأة في القرآن المجيد الذي أنزله الله تعالى قبل ما يزيد على (١٤٠٠) سنة، وفي عصر كان الناس يدفنون بناتهم أحياء، فقد يظنّ ظانّ بأنّ عرب الجاهلية فقط هم من كانوا يرتكبون هذه الجريمة الشنيعة بحقّ إناثهم.. إلّا أنّه يجب أن يعلم بأنّ حقوق المرأة لم يناد بها إلّا قبل مئة سنة فقط، وأنّ كثيراً من الأمم قبل ذلك كانت تعدّ عبادة المرأة ربّها فعلاً عبثياً وغير مقبول أصلاً، كما كان اليونانيون وفلاسفتهم يعتبرون المرأة موجوداً خبيثاً من عمل الشيطان، فيما كان الرومانيون وبعض اليونانيين يعتقدون بأنّ المرأة لا روح لها،

وعليه؛ فقد كانوا يحصرون كيان الإنسان ووجوده في الرجل فقط.. والملفت أيضاً أنّ علماء النصراني في اسبانيا وحتى عصر متأخر كانوا يبحثون فيما إذا كانت المرأة مثل الرجل في امتلاكها روحاً، وأنّها. الروح فيما لو توفّرت في حياتها. ستكون خالدة بعد الموت أم لا؟! وقد ذهبوا إلى أنّها لا تتمتع بروح خالدة نظراً لأنّ ما عند المرأة من روح إنّما هي روح برزخية بين روح الإنسان وروح الحيوان.. وليست من النساء إلاّ مريم عليها السلام تمتلك روحاً خالدة.. وهذا الظلم العتيد بحق المرأة لا يزال عند عديد من الأمم يتشكّل بصور متفاوتة!!

الآية ١٩٦

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ

شأن وعلة نزول الآية

كان كثير من المكِّيَّين يمتهنون التجارة، فكانوا يحققون أرباحهم ومكاسبهم من خلالها ليعيشوا عيشة نعيمة.. وكان يهود المدينة ماهرين في المتاجرة، وكانت أسفارهم التجارية رابحة في الغالب، فيما كان المسلمون في تلك الحقبة - وبسبب ظروف حياتهم الخاصة، ومنها الهجرة من مكة إلى المدينة ومحاصرتهم الاقتصادية المفروضة عليهم من قبل الأعداء قد أدت بهم إلى حالة مادية مزرية وعسر معيشي مضني - وقد أدى هذا التفاوت المشهود في حال الكفار عموماً والمسلمين خصوصاً إلى تساؤل البعض عن رخاء غير المسلمين وعناء المسلمين وفقيرهم... فنزلت الآية أعلاه لتجيب عن هذا التساؤل..^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. السؤال المطروح من قبل جماعة من مسلمي العصر النبوي فيما يتعلق بشأن النزول المذكور، كان سؤالاً عاماً شاملاً بالنسبة لكثير من الناس في كل زمان، حيث يقارنون بين العيشة المرفهة ووفور النعمة لدى الطغاة والفراعنة والأفراد غير الملتزمين دينياً وبين العيشة المدقعة والفقر لدى المؤمنين في الغالب، فيتساءلون عن غنى غير المؤمنين مع كل ما فيهم وما يصدر عنهم من آثام فيما المؤمنون يعانون ما يعانون من إعسار، ولعل هذه الفكرة تؤدي في بعض الأفراد إلى التشكيك وضعف الإيمان..

الفشل والنجاح في الحياة

٢. واضح أنه مع كون المخاطب في هذه الآية هو شخص رسول الله صلى الله عليه وآله، إلا أن المراد هو عموم المسلمين ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾.

٣. الإجابة على هذا السؤال بحاجة إلى تحليل وتفصيل عوامل النجاح وعدم النجاح، وقد أشارت الآية إلى بعض منها.. وبالدقة والملاحظة نستطيع معرفة بعض آخر منها..

فكل من الفريقين - المؤمنون وغيرهم - لهم نقاط ضعف ونقاط قوة، ولكل منهما آثار وتبعات، والفرق أنه لدى الجرد والحساب يقع الخطأ والشبهة فيها. فمثلاً: واحدة من نقاط القوة وأسباب التقدم لبعض غير المؤمنين والمتأخرين من المؤمنين أن الفريق الأول ومع عدم إيمانهم تراهم يحوزون نقاط قوة تارة ويحققون نجاحات فائقة تحت ظلالها.. والفريق الآخر ومع إيمانهم يحوز نقاط ضعف تستدعي التأخر والتراجع.. وهناك من الأفراد - أيضاً - ومع ابتعادهم عن ربهم المتعال واتخاذهم أرباباً من دونه سبحانه، تراهم يعيشون منتهى النشاط والفاعلية والجديّة والإبداع والاستقامة فيما بينهم مع كل الوعي لمتطلبات عصرهم.. ولا شك في أنه هكذا أفراد سيحققون لأنفسهم - بهذه الملكات والصفات - نجاحات تلو نجاحات.

وهم في الحقيقة يفعلون سلسلة مناهج أصيلة دينية دون ادعاء ديني بها.. وفي المقابل هناك أفراد يبدو أنهم متمسكون بالدين وشعاراته، إلا أنهم غافلون - في الحقيقة - عنها، مما يعني أنهم أفراد تعوزهم الشهامة والاستقامة والاتحاد.. ولا ريب أن حياة هؤلاء ستشهد الهزيمة تلو الهزيمة.. إلا أن هذه الهزائم لا تقع بداعي إيمانهم، وإنما لوجود نقاط ضعف فيهم، والحال أنهم يتصورون أحياناً أن النجاح رهين بأداء الصلاة والصيام مع أن الدين يتضمن سلسلة مناهج عملية يتكفل العمل بها تحقيق النجاح والتطور، فيما التغافل عنها يؤدي إلى الهزيمة والفشل..

الآية ١٩٧

مَتَّعْ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه النجاحات والمكاسب المادّية غير المقيّدة، نجاحات عابرة وقلييلة؛ تتبعها عواقب وخيمة وسيطالب أصحابها بمسؤولياتهم الحقيقيّة كما أنّ عذاب النار سيكون بانتظارهم، وما أسوأه من مصير: ﴿مَتَّعْ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.
٢. الآية أعلاه تشير. في الحقيقة. إلى نقطتين:

نجاح الطغاة متاع

الأولى: كثير من نجاحات الطغاة والظالمين ذات أبعاد مؤقتة ومحدودة، كما أنّ حرمان وآلام الكثير من المؤمنين مؤقتة ومحدودة.. ومصادق ذلك؛ حالة المسلمين في مطلع الإسلام وحالة أعدائهم.. فالحكومة الإسلاميّة التي كانت تأسست لتوّها كانت بسيطة وطريّة في عودها فيما الأعداء قد أحدقوا بها كما العاصفة الهوجاء، مضافاً إلى أنّ مهاجري المسلمين إلى المدينة كانوا قلة قليلة.. فكانت حالهم يرثى لها، شأنها في ذلك شأن الثورات الأصيلة والروحيّة التي تحدث في مجتمعات فاسدة، حيث لا بدّ أن تطوي مرحلة من الحرمان، ولكنّها بعد قضائها فترة قصيرة من التعمّق والتجذّر تراها تقوّي عودها.. وتنتقل إلى مرحلة جنّي الثمار، فيما الأعداء تحلّ بهم الخسارة والهزيمة.. وهذا عين الذي وصفته العبارة القرآنيّة بأنّه ﴿مَتَّعْ قَلِيلٌ﴾.

الثانية: أنّ النجاحات المادّية التي تحقّقها الجماعة غير المؤمنة إنّما تحدث بسبب عدم التزام ذويها بقيود أو شروط، فتراهم يجنون المال. مثلاً. من الطرق الشرعيّة وغيرها، بل إنّ هذه الطرق لا تجد لها مفهوماً في تفكيرهم وسلوكهم، ولو كان ذلك عن طريق امتصاص دماء

البؤساء.. في حين أنّ المؤمنين يلزمون أنفسهم بالقيود الشرعيّة وبأصول الحقّ والعدل، وعليه؛ فلا يصحّ قياس الفريقين إلى بعضهما.. إذ المؤمن ذو شعور بالمسؤوليّة، بيد أنّ غيره لا يعرف شيئاً تحت مسمّى الخطوط الحمراء، وحيث أنّ الدنيا دار حرّية واختيار، فقد جعل الله تعالى الفريقين مختارين لينتهي كلّ واحد منهما إلى عاقبة عمله.. وهذا هو الذي عبّرت عنه الآية الشريفة بالقول: ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾..

الآية ١٩٨

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا
رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. الآية السابقة أوضحت مصير الأفراد غير المؤمنين، وفي هذه الآية إشارة مباشرة إلى مصير المتقين.

الثروة وموازين الحق

٢. ينبغي للمتقين أن يعلموا أنَّ إحراز الثروة المادية يجب أن يكون طبقاً لموازين الحق والعدل، ولا ريب في أنَّ للإيمان بالله ثمنه ومصاعبه، إذ لعلَّ ذلك يستوجب الهجرة عن الوطن أو تحمُّل المحاصرة الاقتصادية والاجتماعية، كما لا ينبغي للمؤمنين المتقين أن يتعلَّقوا بلذائذ الدنيا المؤقتة، بل عليهم أن يعوا ضرورة تحمُّل مصاعب ومصائب الدنيا الزائلة؛ حفظاً لإيمانهم والطموح إلى ما أعدَّ الله تعالى لهم من جنات تجري من تحتها الأنهار.. ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

٣. ﴿نُزُلًا﴾ لغةً بمعنى ما يعدُّ لضيافة الضيف. وقال بعض اللغويين إنَّ (النزل) هو أول الضيافة؛ مثل شراب الفاكهة الذي يقدم للضيف بدءاً.. ﴿نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾.

٤. رغم أنَّ أول ما يستقبل به المتقون في جنات الخلد كلُّ المواهب المادية، أمَّا الضيافة الأهم والأسمى؛ هو النعيم المعنوي الذي قالت عنه الآية: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾.

٥. استعمال كلمة ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ لغةً (بمعنى الشيء واللذة القليلة في الآية السابقة) يرد للتعبير عن لذات الدنيا وظاهرها، و﴿خَالِدِينَ﴾ بمعنى اللذات الأبديّة (ورد التعبير في هذه الآية للتعبير عن لذات أهل الآخرة المعنوية؛ الذين ابتلوا بمصائب الإيمان في الدنيا، فوردت العبارة لرفع معنويات المؤمنين المتّقين بهدف مزيد من تحمّل دنياهم.. ولتأكيد الفرق بين المادّيّات والمعنويّات..

الآية ١٩٩

وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا
 أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا
 قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ
 سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾

شأن نزول هذه الآية

هذه الآية . وطبقاً لأكثر المفسرين . وردت في المؤمنين من أهل الكتاب، هؤلاء الذين عانوا التعصب الأعمى والتطرف والتحقوق إلى صف المسلمين، وكانوا غير قليل من جملة اليهود والنصارى، ولكن جماعة أخرى من المفسرين . بناءً على ما روي . قالوا: رغم أن مفهوم الآية مفهوم واسع، إلا أنها نزلت في النجاشي ملك الحبشة، وهو الذي حينما توفي وعلم النبي صلى الله عليه وآله بنبأ وفاته في شهر رجب في السنة التاسعة للهجرة، قال صلوات الله عليه وآله للمسلمين: قد رحل عن الدنيا أخ لكم وليس في أرض الحجاز، فقوموا للصلاة عليه، فسأله بعض المسلمين عمّن يكون؟ فقال: هو النجاشي. ثم إنهم جميعاً قصدوا البقيع وصلّوا عليه صلاة الميت، ثم سأل النبي ربه المتعال له الرحمة والغفران، وأمر المسلمين بالدعاء كما دعا.. فقال بعض المنافقين بعد أن رأوا صنيع النبي للنجاشي قالوا: قد صلّى محمد على رجل كافر لم نره يصلّي أبداً ولم يسلم قط.. فنزلت هذه الآية ردّاً على زعم المنافقين.. ويعلم من الروايات أن النجاشي قد أسلم رغم أنه لم يتظاهر بذلك.^١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. حيث توجهت الآيات السابقة باللوم الشديد على إخفاء أهل الكتاب وكتمانهم الحقائق وطغيانهم وتمردهم، ولكن الخطاب هنا جرى في أقلية استجابت للدعوة النبوية وبيّنت خمس صفات لهم:

الصفة الأولى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ فهم يؤمنون بالله بكل وجودهم.

الصفة الثانية: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يؤمنون بالقرآن وما أنزل على المسلمين.

الصفة الثالثة: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ إيمانهم بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله إيمان حقيقي بالكتب السماوية الخاصة بهم وإيمان بالبشارة التي وردت فيها، وعليه؛ فهم مؤمنون بالذي أنزل إليهم من قبل..

الصفة الرابعة: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ مسلمون خاضعون لله تعالى، وهذا الخضوع هو الدافع للإيمان الحقيقي، فلا ينساقون وراء التعصب الجاهلي..

الصفة الخامسة: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فهم لا يفرطون بآيات الله تعالى كما يفعل بعض علماء اليهود حفظاً لمصالحهم وسلطتهم في مقابل رشوة بسيطة ومببرات لا قيمة لها..

٢. القرآن المجيد من الأديان والمذاهب الأخرى ولا ينظر إلى الجميع بعين واحدة، ولا يصطبغ بصبغة العنصرية والأكثرية، بل إنّ حكمية القرآن قائمة على أساس ما يؤمنون.. ولذلك؛ فلم ينس القرآن الكريم نصيب الأقلية المؤمنة الصادقة في مقابل الأكثرية الضالة..

٣. بديهي أنّ الأفراد الذين مجّدهم القرآن وكرمهم لا يبيعون آيات الله تعالى بثمن قليل، والإشارة إلى الثمن القليل يقصد بها أنّهم ليسوا كعلماء الدنيا وعديمي الإيمان..

٤. لا ريب في أنّ الإنسان مهما أخذ. في مقابل تحريف آيات الله تعالى. فهو ممّا لا قيمة له.

٥. هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب سيلقون جزاءهم من عند الله تعالى طبقاً لمنهجهم

الواضح والحي؛ المقتضي للإيمان بجميع أنبياء الله تعالى ولتوقُّر الصفات الإنسانية الراقية.. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

٦. إيراد كلمة ﴿رَبِّهِمْ﴾ في العبارة إشارة رائعة إلى منتهى اللطف والرحمة الإلهية تجاه مؤمني أهل الكتاب، كما هي الإشارة إلى أنه تعالى يوفِّقهم في مسار التربية والهداية..

٧. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ بشارة للصالحين وتهديد للطالحين، تتضمَّن أنَّ الصالحين لن ينالوا سوءاً لدى تلقِّيهم جزاءهم، كما أنَّ عقاب الطالحين لن يتأخَّر عنهم.

الآية ٢٠٠

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا
وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية توضّح منهجاً حياتياً جامعاً ذا أربع موادّ للمسلمين المؤمنين، ولهذا بدأ الخطاب لهم بعبارة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾:

المادة الأولى: ﴿اصبروا﴾:

الصبر والاستقامة في مقابل الحوادث هو ما يضمن سموّ المسلمين وانتصارهم، وهو في الحقيقة أصل كلّ انتصار ماديّ ومعنويّ.

المادة الثانية: ﴿صابروا﴾:

من المصابرة (من باب المفاعلة) بمعنى الصبر والاستقامة في مقابل صبر واستقامة الآخرين.

وعلى هذا؛ فقد أمر القرآن المؤمنين بدءاً بالاستقامة (الشاملة لجميع أشكال الجهاد مع النفس ومشاكل الحياة) ثمّ في المرحلة الثانية أمر بالاستقامة في مواجهة الأعداء، وهذا ما يوحي أنّ الأمة لن تنتصر ما لم تجاهد نفسها وتصلح نقاط ضعفها، وإنّ النصر على العدو غير ممكن - ولعلّ أكثر هزائمنا من قبل الأعداء - تصدر عن هزائمنا في جهادنا أو عدم جهادنا لأنفسنا وعدم إصلاح نقاط ضعفنا..

كما يعلم من الأمر ﴿صابروا﴾ أنّه مهما استقام العدو في عدائه، فعلينا مضاعفة استقامتنا..

المادّة الثالثة: ﴿ورابطوا﴾:

هذه الجملة مشتقة من مادّة الرباط، وفي اللّغة هي بمعنى ربط شيء في مكان (مثل ربط الحصان في موضع ما) ولهذا قيل لقوّة القلب وربطه سكينه الخاطر، وللمرابطة معنى واسع يتضمّن كلّ أشكال الاستعداد للدفاع عن النفس والمجتمع والوطن، كما يعني حراسة الحدود حيث تحفظ العجلات والوسائل الحربيّة في ذلك المكان.

وقد ورد الأمر في هذه الجملة للمسلمين بالاستعداد لمواجهة الأعداء والترقّب الدائم وحراسة الثغور لئلا يقع البلد المسلم فريسة الغفلة عن هجوم الأعداء، كما أمرت الآية المسلمين بالحراسة الدائمة دون هجمات الشيطان والرغبات النفسيّة لئلا يؤخذوا على حين غرّة، ولذا؛ فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله تفسير هذه الآية بانتظار الصلاة بعد الصلاة،^١ إذ أنّ من يحيى بهذه العبادة ويواظب عليها بروحه وقلبه يكون كما الجنديّ المراقب لتحركات العدو ويستعدّ لمواجهته دوماً..^(٢)

المادّة الرابعة: ﴿واتقوا الله﴾:

فالصبر والاستقامة والمصابرة والمرابطة يجب أن تمتزج كلّها بالتقوى والورع والابتعاد عن كلّ مصاديق الرياء والأنانيّة والأهداف الشخصيّة..

٢. يجب أن تعلموا. أيّها المؤمنون - بأنّ تفعيل هذه الأوامر الثلاثة يوجب لكم الفلاح والنجاح، أمّا التخلف عنها؛ فلن يبلغ بكم الفوز: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿لعل﴾ القرآنيّة

٣. رغم الإشارة الواردة في هذه الآية إلى المواد الأربع باعتبارها من أسمى التعاليم الإسلاميّة،

١- مكارم الأخلاق، ص ٦٧

٢- كما وردت روايات عديدة في تفسير المراد من المرابطة هنا، حيث أشير فيها إلى المرابطة في انتظار قيام إمام الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف.. تأكيداً على وجوب توقّع الظهور المبارك ولزوم أداء المؤمن وظيفته التمهيد لنصرة الإمام [المترجم].

فقد استعملت كلمة (لعل) لئلا تجري الغفلة في بقية مواد المنهج الإسلامي.

٤. رغم وجود بحث في الفقه الإسلامي في باب الجهاد تحت عنوان المراقبة بمعنى الاستعداد لحفظ الثغور من الهجمات المحتملة للأعداء وما يتضمّن ذلك من أحكام خاصة مبيّنة.. إلا أنّ حفظ وصيانة الحدود العقائدية والثقافية أمر في غاية الأهمية، لأنّ الأمة المعرضة حدودها العقائدية والثقافية باستمرار؛ لن تستطيع الدفاع عن نفسها بما هو المطلوب، ولعلّها ستهزم سياسياً وعسكرياً خلال مدّة قصيرة..

وقد ورد من الروايات ما تصف علم ودور العلماء في المجتمع المؤمن بالمراقبة، كما هو المروي عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام إذ قال: «علماء شيعتنا. طبقاً لتعريف أهل البيت عليهم السلام للعالم الفقيه الحقّ. مرابطون في الثغر الذي يلي إبليس وعفاريته ويمنعونه عن الخروج على ضعفاء شيعتنا وعن أن يتسلط عليهم إبليس»^١. ثم إنّ هذه الرواية تؤكد في ذيلها على أنّ مقام العلماء الربّانيين أعلى وأسمى من مقام قادة الجيش وحراس الثغور الذين يقاتلون أعداء الإسلام، وذلك لأنّ العلماء الربّانيين هم حراس العقائد والثقافة الإسلامية في حين أنّ قادة الجيش هم حراس الحدود الجغرافية.

٥. يمكن لسؤال أن يطرح، فيقال: لماذا تنتهي بعض الآيات القرآنية بكلمة (لعل) مثل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ والحال أنّ هذه الكلمة تفيد الترديد، وكونها بعيدة عن مقام الإحاطة والعلم والإشراف الإلهي على كلّ الأشياء والأمور والأشخاص..

إنّ وجود واستعمال هذه الكلمة أضحى حجة لتبرير بعض الجهالة المعادين للدين في أن يدّعوا أنّ الإسلام لا يعدّ أحداً بحتمة نجاته، وأنّ وعوده مزيجة بالترديد، إذ أنّ كثيراً من وعود

القرآن بدأت بكلمة (لعل)..

للإجابة على هذا السؤال يجب أن يقال:

إنّ هذا الاستعمال والتعبير القرآنيّ بحد ذاته أحد دلائل عظمة القرآن وواقعته.. لأنّ القرآن يستعمل هذه الكلمة حيث يكون تحقّق النتيجة بحاجة إلى توفر شروط معيّنة، فتكون كلمة (لعلّ) إشارة إجمالية إلى تلك الشروط.

مثال ذلك: أنّ الاستماع والإنصات لآيات القرآن حين قراءتها لا يكفي لوحده ليشمل الإنسان بالرحمة الإلهية، وإنّما الهدف هذا بحاجة إلى وعي وفهم محتوى الآيات وتطبيقها، ولذا؛ رأينا القرآن يقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١) ولو كان القرآن قال: سترحمون حتماً، لكان هذا القول غير واقعيّ..

إذ كما قلنا؛ إنّ لهذا الموضوع شرائط أخرى، ولكن حين يقال: لعلّ، فإنّ دور أو نصيب الشروط الأخرى تبقى محفوظة، ولكنّ ما يؤسف له؛ هو عدم الالتفات لهذه الحقيقة الكامنة في معنى (لعلّ) ممّا يؤدّي إلى طرح مثل هذا الإشكال الجاهل إزاء هذه الآيات.. بل إنّ بعض مفسّرينا يذهبون إلى أنّ (لعلّ) في مثل هذه الموارد لا تعكس معنى: (يمكن).. والحال أنّ هذا الرأي نوع خلاف للظاهر بلا دليل..

اللّهم وفّقنا لفهم تعاليم كتابك السماويّ، وللعمل به في حياتنا، اللّهمّ تلطف علينا
برحمتك الواسعة

موضوعات

الآخرة: ٣٣٦، ٤٩١	ارادة الله: ٥٠
آدم عليه السلام: ٨، ١١٤، ١٧٤	ارباب: ١٩٤، ٢٠٠
آل عمران: ٧	الارتداد: ٤٠٥
آيات الله: ٤٦، ٦٨، ٧٥، ٢١٢، ٣٠١، ٣٢٣،	الارحام: ٢٨
٥٥١، ٣٣٤	الارض: ٥٢٨
الآية: ١٣٦	الازواج: ٥٨
ابراهيم عليه السلام: ٨، ١١٤، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٧،	اسباط: ٢٥٥
٢٥٥، ٢٨٢، ٢٩١،	الاستعمار: ٩٥
الأبرص: ١٥٣	الاستغفار: ٦١، ٦٣، ٣٨٧، ٤٤٠
الاتباع: ٢٢٢	اسحاق عليه السلام: ٢٥٥
التحرير: ١٢٠	الاسراف: ٤١٥
الاثم: ٤٩٥	الاسلام: ٦٨، ٧٣، ٢٠٥، ٢٥٧
الاجابة: ٤٨٠	اسماعيل عليه السلام: ٢٥٥
الاجتناب: ٤٩٩	الإشتراء: ١٣٤، ٥٢١
الاجر: ١٧٢	الاصطفاء: ١١٤
الاجل: ٤١٠	الاصلاح: ٢٦٥
الاحسان: ٣٨٣، ٤١٦	الاطاعة: ١١٣، ٣٠٠
الاختلاف: ١٦٧	الأعلى: ٣٩٤
الاذى: ٣٢٨، ٥١٨، ٥٣٩	الإفتراء: ٢٨٠

الأَكْمَه: ١٥٣ ٥٥١، ٥٢١، ٥١٨، ٣٤٣، ٣٣٤، ٣٢٥

الالتباس: ٢١٦ الايمان: ١٦٤، ١٧٢، ٢١٨، ٢٥٥، ٣٠٠، ٣٤٦،

ام الكتاب: ٣١ ٥٥١، ٥٣٥، ٤٩٣، ٤٦٨، ٣٩٩، ٣٩٤

الامامه: ١٧٩ الباطل: ٢١٦

الامانة: ٨، ٢٢٧ البخل: ٥٠٢

الامر بالمعروف: ٨، ٣١١، ٣٢٥، ٣٣٦ البر: ٢٧٣

الانبياء: ١٥٣ بسم الله: ١٢

الانبياء: ٤١٣، ٥١٠ بسمله: ١٢

الانتقام: ٢٣ البشارة: ٣٦٣، ٤٧٥، ٤٧٧

الأنشاء: ١٢٢ البطانة: ٣٤٣

الانجيل: ١٩، ٨١، ١٥٢ البعثة: ٤٦٠

الانداد: ٣٦١ البغضاء: ٣٤٣

انصار الله: ١٦١ بكه: ٢٨٤

الانفاق: ٨، ٦٣، ٢٧٣، ٣٤٠، ٣٨٣ البلاغة: ٧٣

اولوالعزم: ١٥٣ البلد: ١٢٠

اولي الالباب: ٥٢٨ بني اسرائيل: ١٥٣، ٢٧٧

اولياء الشيطان: ٤٨٤ البيت الحرام: ٢٨٤

اهل البيت عليه السلام: ١٧٩ بيت الله الحرام: ٨

اهل الكتاب: ٨، ٩، ٣١، ٧٩، ٨١، ١٣٤، البيئات: ٢٥٩، ٥١٣

البيئة: ٣١٩ ١٧٩، ١٩٤، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٦،

التاليف: ٣٠٥ ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٣٩، ٢٤٥، ٢٩٦،

الثاويل: ٣٨	ثواب الآخرة: ٤١٠، ٤١٦
التبرى: ٨	ثواب الدنيا: ٤١٠، ٤١٦
التداول: ٣٩٦	الجنة: ٥٨، ٣٧٧، ٣٨٩، ٤٠١، ٥١٥، ٥٣٩
التراب: ١٧٤	الجنين: ٢٨
التزكية: ٤٦٠	الجهاد: ٣٢٨، ٣٤٩، ٤٠١، ٤١٣، ٤٢٧،
التسابق: ٣٧٧	٤٦٨، ٤٧١، ٥٣٩
التسبيح: ١٣٦	جهنم: ٤٨، ٤٥٦، ٥٤٩
التشريع: ٢٥٣	الحب: ١١٣، ٣٤٦
التصوير: ٢٨	حبط العمل: ٧٩
التفرقة: ٣١٩	حبلى الله: ٣٠٥، ٣٣٠
التفكر: ٥٣١	حبلى الناس: ٣٣٠
التقوى: ٥٨، ٦١، ٩٥، ١٥٨، ٢٣١، ٣٠٣،	الحج: ٨، ٢٩١
٣٣٧، ٣٤٨، ٣٥٩، ٣٧١، ٣٧٧،	الحرب: ٤٢٥
٣٩٣، ٤٨٤، ٥٥١	الحروف المقطعة: ١٣، ١٤، ١٥
التقية: ٩٥	الحزن: ٣٩٤، ٤٧٥، ٤٩١، ٥٣٧
التكذيب: ٥١٣	الحسن عليه السلام : ١٧٩
التكوين: ٢٥٣	حسن الثواب: ٥٣٩
التوبة: ٢٦٥، ٢٦٧، ٣٦٥	الحسنة: ٣٤٨
التوراة: ١٩، ٨١، ١٥٢، ١٥٨، ٢٠٣، ٢٧٧	الحسين عليه السلام : ١٧٩
التوكل: ٣٥٧، ٤٤٠، ٤٥٠	الحشر: ٤٣٨
التولى: ٨	الحصور: ١٣١

الحضور: ١٠٢	الدين: ٦٨
الحق: ١٧٧، ٢١٦، ٢٥٩، ٣٢٣	الدينار: ٢٢٧
حقوق الانسان: ٥٣٩	الذرية: ١١٨، ١٢٩
الحكمة: ١٥٢، ٢٤٨، ٤٦٠، ٥٣٩	الذكر الحكيم: ١٧٣
الحواريون: ١٦١	الذكر: ١٢٢
الحي: ٩٠	الذكر: ٥٣١
حياة الآخرة: ٤٢٢	ذكر الله: ٣٨٧
حياة الدنيا: ٤٢٢	الذلالة: ٢٦٧
الحياة الدنيا: ٥١٥	ذلام: ٥٠٨
الحياة: ١٥٣، ٥٤٤	الذلة: ٨٦، ٣٣٠، ٣٥٩
الخيال: ٣٤٣	الذنب: ٦١، ١٠٩، ٣٨٧، ٤١٥، ٥٣٥، ٥٣٩
الخبيث: ٤٩٩	الذهب: ٥٤، ٢٧٠
الخسران: ٢٥٧، ٤١٧	الرباء: ٣٧١
الخشوع: ٥٥١	الربوبية: ٢٤٢، ٢٤٥
الخشية: ٤٨٤	الرجاء: ١٠٢
الخلق: ٥٣١	الرحمة: ٤٢، ٢٢٥، ٤٤٠، ٥٣٩
الخلود: ٢٦٤	الرزق: ٩٠، ١٢٤، ٤٧٣
الخوف: ١٠٢، ٤٧٥، ٤٨٩	رضوان الله: ٤٥٦، ٤٨٧
الخيانة: ١٣٤، ٤٥٢	الرعب: ٤٢٠
الخير: ١٠٢، ٣٣٦	الركوع: ١٤١
الدنيا: ٣٤٠	الرمز: ١٣٦

روح الدين: ٦٨	الشر: ١٠٢
الروم: ٢٠٠	الشرك: ٢٠٠، ٢٠٥، ٢٤٥، ٢٨٢، ٤٢٠، ٥١٨
الريب: ١٧٧	الشك: ١٧٧
الريح: ٣٤٠	الشكر: ٣٣٧، ٣٥٩، ٥٢٤
الزبور: ٥١٣	الشهادة: ٦٥، ١٦٤، ١٩٤، ٢١٢، ٢٤٨، ٢٩٨
ذكرى آل البيت: ١٢٤، ١٢٩، ١٣٤، ١٤٣	٤٧٣
الزنا: ٨١	الشهوة: ٥٤
الزيف: ٤٢	الشیطان: ٤٣١، ٤٨٩
سبيل الله: ٢٩٨	الشيعة: ١٧٩
السجدة: ٣٣٤، ٢٤٢	الصبر: ٨، ٦٣، ٣٤٨، ٤٠١، ٤١٣، ٥٥١
السجود: ١٤١	الصدق: ٦٣، ٢٨٢، ٤٢٢
السحر: ٦٣	الصراط المستقيم: ١٥٩، ٣٠١
السراء و الضراء: ٣٨٣	الضلال: ٢٠٩، ٤٦٠
سريع الحساب: ٥٥١	الطبيعة: ١٦٤
السموات: ٥٢٨	الطعام: ٢٧٧
السنة: ١٧٩	الطغاة: ٥٤٩
السوء: ١٠٢	الطيب: ٤٩٩
السيئة: ٣٤٨	الطير: ١٥٣
السيد: ١٣١	الظلم: ٨٤، ٢٥٩، ٢٨٠، ٣٢٣، ٣٤٠، ٣٦٥
السير في الارض: ٣٩٠	٥٣٣، ٣٨٧
الشجاعة: ٥٣٣	العاقبة: ٣٩٠

العبادة: ١٥٩، ٢٤٢	عيسى عليه السلام: ٨، ٢٨، ١٤٦، ١٤٨، ١٥٨، ١٦١،
العبرة: ٥٠	١٦٧، ١٧٣، ١٧٤، ١٩٤، ٢٥٥
العبيد: ٥٠٨	الغرور: ٨٣، ٥٤٤
العذاب: ٢٣، ٧٥، ١٧١، ٢٦٤، ٣١٩، ٣٢١،	الغضب: ٣٣٠، ٤٥٦
٣٦٥، ٣٦٩، ٤٩١، ٤٩٣، ٤٩٥، ٥٠٥،	الغفران: ١٠٩، ٣٦٩
٥٢٤	الغلول: ٤٥٢
العرب: ٢٠٩	الغليظ القلب: ٤٤٠
العزة: ٨٦	الغم: ٤٢٧
عزم الأمور: ٥١٨	الغنى: ٥٠٥
العسرة: ٣٧٧	الغيب: ١٤٣، ٤٩٩
العصيان: ٣٤٩	الغيظ: ٣٤٦
العفة: ١٤٣	فاطمه الزهراء عليها السلام: ١٧٩
العفو: ٤٤٠	الفحشاء: ٣٨٧
العقاب: ٤٦	الفديه: ٢٧٠
العقر: ١٣٤	الفرج: ٥٢٤
العلم: ١٠١	فرعون: ٤٦
علي عليه السلام: ١٧٩	الفرقان: ٢٣
عمران عليه السلام: ١١٤، ١٢٠	الفساد: ١٩٢
عمل الصالح: ١٧٢	الفسق: ٢٥٢
عند الله: ٥٤٩	الفضل: ٣٥٧، ٥٤٤
عهد الله: ١٣٤، ٢٤٨، ٥١٠	الفضه: ٥٤

الفضيلة: ٤٨٧	كتاب الله: ٨١
الفقر: ٥٥	الكتاب المنير: ٥١٣
الفلاح: ٥٥١	الكتاب: ١٥٢، ٤٦٠
الفوز: ٥١٥	الكذب: ٨، ٨٤، ٢٣٩، ٢٨٠، ٣٩٠
القتل: ٧٥، ٣٣٠، ٤٠٥، ٤٢٧، ٤٣٣، ٤٣٦	كظم الغيظ: ٣٨٣
٤٣٨، ٤٧١، ٤٧٣، ٥٠٥، ٥١٠	الكعبه: ٢٨٤، ٢٩١
القرآن: ٢٣	الكفار: ٩٥
القربان: ٥١٠	الكفاره: ٥٣٥، ٥٣٩
القرح: ٣٩٦، ٤٨٠	الكفر: ٤٥، ٤٨، ٦٨، ٧٥، ١١٣، ١٧١، ٢١٢
القريش: ٣٤٩	٢١٨، ٢٤٥، ٢٥٩، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٩١
القسط: ٦٥، ٧٥	٢٩٦، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٢١، ٣٣٧، ٣٣٩
القصص: ١٩٠	٣٦٤، ٣٧٥، ٣٩٩، ٤١٧، ٤٣٣، ٤٦٨
القعود: ٥٣١	٤٩١، ٤٩٣، ٤٩٥، ٥٤٤
القلب: ٤٢، ١٠١، ٣٦٣	كلمة الله: ١٤٦
القناطر: ٥٤	كلمة المساواة: ١٩٤
القنطار: ٢٢٧	الكليم: ١٤٨
القنوت: ١٤١	كن فيكون: ١٥٠، ١٧٤
القيام: ٥٣١	الكيد: ٣٤٨
القيامة: ٤٤، ٨٤	اللجنة: ٢٦٣
قيصر: ٢٠٠	الليل: ٩٠، ٥٢٨
القيوم: ١٨	الم: ١٣

المال: ٤٥، ٣٣٩	المشورة: ٤٤٠
المباهلة: ١٧٩	المصيبة: ٤٦٤
متاع الحياة الدنيا: ٥٤	المعالجة: ٤٦٤
متاع الغرور: ٥١٥	معركة احد: ٣٤٩، ٤٢٧، ٤٦٦، ٤٨٠
المتاع: ٥٤٩	معركة بدر: ٥٠، ٣٥٩، ٣٦١
المتشابه: ٣١	المغفرة: ١٠٩، ٣٦٩، ٣٧٧، ٣٨٩، ٤١٥،
المحاجة: ١٧٩، ٢٢٢	٤٣١، ٤٣٦، ٥٣٥
المحبة: ١٠٩، ٢٧٣	مقام ابراهيم: ٢٩١
محراب: ١٢٤	المقوقس: ١٩٤
المحكم و المتشابه: ٣١	المكاتبة: ١٩٤
المحكم: ٣١	المكر: ١٦٥
محمد ﷺ: ٤٠٥	المكة: ٨٦، ٢٨٤، ٤٨٠
المرادي: ٥٣٥	الملائكة: ٦٥، ٢٤٥، ٣٦١
مريم ؑ: ٨، ٢٨، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٩،	الملامة: ٢٣٩
١٤١، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٨، ١٥٠	المُلْك: ٨٦
المسارعة: ٣٣٦	المنة: ٤٦٠
مسجد الحرام: ٢٨٤	موازين الحق: ٥٤٩
المسح: ١٥٠	الموت: ١٦٧، ٢٧٠، ٣٠٣، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤١٠،
المسكنة: ٣٣٠	٤٣٣، ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٧١، ٤٧٣، ٥١٥،
مسيح عليه السلام: ١٤٦	٥٣٥
المشاورة: ٤٤٠	موسى عليه السلام: ٨، ٢٥٥

الموعظة: ٣٩٣	٥٥١، ٥٢١، ٥١٨، ٣٣٤، ٣٢٥
المولى: ٤١٩	النصر: ٢٧٠، ٣٥٩، ٣٦٣، ٤١٥، ٤١٩، ٤٥٠،
المومن: ٩٥	٥٣٣
المهاد: ٤٨	نصر الله: ٤٢٥
المهد: ١٤٨	النعمة: ٤٧٧، ٤٨٧، ٥٢٤
المهلة: ٤٩٥	النفاق: ٣٤٦، ٤٦٨، ٤٧١، ٥٠٢
الميت: ٩٠	النفخ: ١٥٣
ميثاق الله: ٥٢١	نفس الرسول ﷺ: ١٧٩
الميثاق: ٢٤٨	نوح عليه السلام: ٨، ١١٤
الميعاد: ٤٤	النهار: ٩٠، ٥٢٨
النار: ٤٥، ٤٨، ٦١، ٨٣، ٣٠٥، ٣١٩، ٣٣٩،	النهي عن المنكر: ٨، ٣١١، ٣٢٥، ٣٣٦
٣٧٥، ٤٢٠، ٤٥٦، ٥١٠، ٥١٥، ٥٣١،	وجه الابيض: ٣٢١
٥٣٣	وجه الاسود: ٣٢١
الناس: ٤٨٤	وجه النهار: ٢١٨
النبوة: ٢٤٢	الوحي: ٣٩٤
نجران: ٩، ١٧٩	الْوَد: ١٠٢
النجيل: ٢٠٣	الوعده: ٥٣٧
النذر: ١٢٠	الوفاء بالعهد: ٢٣١
النساء: ٥٤	الولاده: ١٢٢
النصارى: ٨، ٩، ١٧٩، ١٩٤، ٢٠٣، ٢٠٥،	الولاية: ٢٠٧، ٣٥٧
٢٠٩، ٢١٢، ٢١٦، ٢١٨، ٢٢٧، ٢٩٦،	الولد: ٤٥، ١٥٠، ٣٣٩

الولج: ٩٠	يد الله: ٢٢٢
الولي: ٩٥	يعقوب عليه السلام: ٢٧٧، ٢٥٥
الهجرة: ٥٣٩	يوم القيامة: ١٦٧، ٥١٥، ٥٣٧
الهداية: ٧٣، ٢٢٢، ٢٥٩، ٣٠١، ٣٠٥، ٣٩٣	اليهود: ٨، ١٩، ٣١، ٤٨، ٧٩، ٨١، ١٣٤
الهزينة: ٤٣١، ٤٦٦	٢٠٥، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٣٩، ٢٤٥
يحيى عليه السلام: ١٢٩، ١٣١، ١٣٤	٣٢٥، ٣٤٣، ٥١٨، ٥٢١، ٥٥١

فهرس المحتويات

٥.....	تفسير سورة آل عمران المباركة.....
٧.....	المقدمة
٩.....	فضيلة تلاوة هذه السورة.....
٩.....	شأن نزول أكثر من (٨٠) آية من هذه السورة
١٣.....	الآية ١.....
١٣.....	النقاط المستفادة من هذه الآية
١٣.....	تفسير: كشف مفهوم الحروف المقطعة بالحاسوب
١٧.....	الآية ٢.....
١٧.....	النقاط المستفادة من هذه الآية
١٨.....	الآية ٣.....
١٨.....	النقاط المستفادة من هذه الآية
٢٢.....	الآية ٤.....
٢٢.....	النقاط المستفادة من هذه الآية
٢٢.....	القرآن فرقان
٢٤.....	العذاب في القرآن؟!
٢٥.....	الآية ٥.....
٢٥.....	النقاط المستفادة من هذه الآية
٢٦.....	الآية ٦.....
٢٦.....	النقاط المستفادة من هذه الآية

- الآية ٧ ٢٨
- شأن نزول هذه الآية ٢٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٩
- في معنى المحكم والمتشابه ٢٩
- فلسفة المتشابه ٣٢
- في معنى التأويل ٣٤
- الآية ٨ ٣٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٨
- الآية ٩ ٤٠
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٠
- الآية ١٠ ٤١
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤١
- الآية ١١ ٤٢
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٢
- الآية ١٢ ٤٣
- شأن نزول الآية ٤٣
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٣
- الآية ١٣ ٤٥
- شأن نزول الآية ٤٥
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٥
- إرادة الله الحكيمة والخفية ٤٥

- الآية ١٤ ٤٩
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٩
- الزينة الدنيوية ٥٠
- الآية ١٥ ٥٣
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٥٣
- من ملامح السعادة الأخروية ٥٣
- بين الجنة والمادة ٥٤
- الآية ١٦ ٥٥
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٥٥
- من صفات المتقين ٥٥
- الآية ١٧ ٥٦
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٥٦
- السحر والاستغفار ٥٧
- الآية ١٨ ٥٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٥٨
- شهادة الله تعالى على وحدانيته؟ ٥٨
- الآية ١٩ ٦١
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٦١
- روح الدين ٦١
- معنى الدين لغة ٦١
- آفاق الآيات الإلهية ٦٤

- الآية ٢٠ ٦٥
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٦٥
- الإنسان كائن حرّ ٦٥
- الآية ٢١ ٦٧
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٦٧
- الكفر ظلم عظيم ٦٧
- أنواع العذاب ٦٨
- الآية ٢٢ ٧٠
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٧٠
- تاريخ اليهود المظلم ٧٠
- الآية ٢٣ ٧٢
- شأن نزول هذه الآية ٧٢
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٧٣
- الآية ٢٤ ٧٤
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٧٤
- الآية ٢٥ ٧٥
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٧٥
- الكذب على الذات ٧٥
- الآية ٢٦ ٧٧
- شأن نزول هذه الآية ٧٧
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٧٨
- ملك مطلق ٧٨

- ٧٩..... لا جبر ولا تفويض
- ٨١..... الآية ٢٧.....
- ٨١..... النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٨١..... واقع علمي
- ٨٦..... الآية ٢٨.....
- ٨٦..... النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٨٧..... آفاق التقية
- ٩١..... الآية ٢٩.....
- ٩١..... النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٩٢..... الآية ٣٠.....
- ٩٢..... النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٩٢..... منطق المستقبل
- ٩٤..... خوف ورجاء
- ٩٥..... نظريات الأجر والعقاب
- ٩٨..... الآية ٣١.....
- ٩٨..... شأن نزول هذه الآية
- ٩٨..... النقاط المستفادة من هذه الآية
- ١٠٠..... الحب والمغفرة
- ١٠١..... الآية ٣٢.....
- ١٠١..... النقاط المستفادة من هذه الآية
- ١٠٢..... الآية ٣٣.....
- ١٠٢..... النقاط المستفادة من هذه الآية

- ١٠٢..... في معنى الاصطفاء
- ١٠٣..... لماذا الاصطفاء؟
- ١٠٦..... الآية ٣٤
- ١٠٦..... النقاط المستفادة من هذه الآية
- ١٠٧..... الآية ٣٥
- ١٠٧..... قصّة هذه الآية
- ١٠٧..... النقاط المستفادة من هذه الآية
- ١٠٩..... الآية ٣٦
- ١٠٩..... النقاط المستفادة من هذه الآية
- ١١١..... الآية ٣٧
- ١١١..... شرح نزول هذه الآية
- ١١٢..... النقاط المستفادة من هذه الآية
- ١١٢..... كرامة مريم الإلهيّة
- ١١٦..... الآية ٣٨
- ١١٦..... سبب نزول هذه الآية والآيات التي تليها
- ١١٧..... النقاط المستفادة من هذه الآية
- ١١٨..... الآية ٣٩
- ١١٨..... النقاط المستفادة من هذه الآية
- ١١٩..... في معنى (الحصور)
- ١٢١..... الآية ٤٠
- ١٢١..... النقاط المستفادة من هذه الآية

- الآية ٤١ ١٢٣
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٢٣
- الآية ٤٢ ١٢٦
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٢٦
- الآية ٤٣ ١٢٧
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٢٧
- الآية ٤٤ ١٢٨
- شرح نزول هذه الآية ١٢٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٢٨
- الآية ٤٥ ١٣٠
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٣٠
- النبي الكلمة! ١٣٠
- الآية ٤٦ ١٣٢
- قصة نزول هذه الآية ١٣٢
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٣٢
- الآية ٤٧ ١٣٤
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٣٤
- تفسير: كيف يكون لي ولد بلا زوج؟! ١٣٤
- الآية ٤٨ ١٣٦
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٣٦
- الآية ٤٩ ١٣٧
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٣٧

- المسيح وأنبياء أولي العزم ١٣٧
- سرّ المعاجز ١٣٩
- الآية ٥٠ ١٤٢
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٤٢
- الآية ٥١ ١٤٣
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٤٣
- عيسى نبي لا ابن الله ١٤٣
- الآية ٥٢ ١٤٤
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٤٤
- الحواريون الأنصار ١٤٤
- الآية ٥٣ ١٤٧
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٤٧
- الآية ٥٤ ١٤٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٤٨
- معنى المكر الإلهي ١٤٨
- الآية ٥٥ ١٤٩
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٤٩
- المسيح حيٌّ لم يمت ١٤٩
- الآية ٥٦ ١٥٢
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٥٢
- الآية ٥٧ ١٥٣
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٥٣

الآية ٥٨.....	١٥٤.....
النقاط المستفادة من هذه الآية.....	١٥٤.....
الآية ٥٩.....	١٥٥.....
قصة نزول الآية.....	١٥٥.....
النقاط المستفادة من هذه الآية.....	١٥٥.....
المسيح عبد مخلوق.....	١٥٦.....
الآية ٦٠.....	١٥٧.....
النقاط المستفادة من هذه الآية.....	١٥٧.....
الآية ٦١.....	١٥٨.....
شأن نزول هذه الآية.....	١٥٨.....
النقاط المستفادة من هذه الآية.....	١٥٩.....
المباهلة والكشف عن منازل أهل البيت عليهم السلام.....	١٦٠.....
إشكال ناصبي ساذج.....	١٦٣.....
ترى هل أن المباهلة حكم عام؟.....	١٦٦.....
الآية ٦٢.....	١٦٨.....
النقاط المستفادة من هذه الآية.....	١٦٨.....
الآية ٦٣.....	١٧٠.....
النقاط المستفادة من هذه الآية.....	١٧٠.....
الآية ٦٤.....	١٧٢.....
النقاط المستفادة من هذه الآية.....	١٧٧.....
مشاركات عقائدية.....	١٧٧.....
صور من الشرك.....	١٧٨.....

- الآية ٦٥ ١٨٠
- شأن نزول الآية ١٨٠
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٨٠
- الآية ٦٧ ١٨٢
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٨٢
- الآية ٦٨ ١٨٤
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٨٤
- الآية ٦٩ ١٨٦
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٨٦
- ضلال وتربية ١٨٦
- الآية ٧٠ ١٨٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٨٨
- كفر أهل الكتاب ١٨٨
- أقسام الكافر ١٨٩
- الآية ٧١ ١٩١
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٩١
- الآية ٧٢ ١٩٢
- شأن نزول الآية ١٩٢
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٩٢
- هجمة عقائدية ١٩٤
- الآية ٧٣ ١٩٦
- النقاط المستفادة من هذه الآية ١٩٦

عنصرية الضلال	١٩٧
الآية ٧٤	١٩٩
النقاط المستفادة من هذه الآية	١٩٩
الآية ٧٥	٢٠٠
شأن نزول الآية	٢٠٠
النقاط المستفادة من هذه الآية	٢٠٠
تكبر اليهود	٢٠٢
الآية ٧٦	٢٠٣
النقاط المستفادة من هذه الآية	٢٠٣
حقيقة القيمة الإنسانية	٢٠٣
الإسلام ينبذ الخيانة	٢٠٣
الآية ٧٧	٢٠٥
شأن نزول الآية	٢٠٥
النقاط المستفادة من هذه الآية	٢٠٥
عاقبة الخيانة	٢٠٦
خصائص الخائنين	٢٠٧
الآية ٧٨	٢٠٩
النقاط المستفادة من هذه الآية	٢٠٩
الآية ٧٩	٢١٢
النقاط المستفادة من هذه الآية	٢١٢
الآية ٨٠	٢١٤
شأن نزول الآية	٢١٤

- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢١٤
- الشرك مرفوض كَلِّهِ ٢١٥
- الآية ٨١ ٢١٧
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢١٧
- عهد إلهي قديم ٢١٧
- الآية ٨٢ ٢٢٠
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٢٠
- الآية ٨٣ ٢٢١
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٢١
- بين التشريع والتكوين ٢٢١
- الآية ٨٤ ٢٢٣
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٢٣
- الآية ٨٥ ٢٢٤
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٢٤
- الآية ٨٦ ٢٢٦
- شأن نزول الآية ٢٢٦
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٢٦
- الردّة والارتداد ٢٢٧
- الآية ٨٧ ٢٢٩
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٢٩
- الآية ٨٨ ٢٣٠
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٣٠

- الآية ٨٩..... ٢٣١
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٢٣١
- الآية ٩٠..... ٢٣٢
- شأن نزول الآية..... ٢٣٢
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٢٣٣
- الآية ٩١..... ٢٣٥
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٢٣٥
- الآية ٩٢..... ٢٣٨
- أمثلة ونماذج من الإنفاق في سبيل الله عبر نفوذ القرآن إلى قلوب المسلمين..... ٢٣٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٢٣٩
- آفاق البر..... ٢٣٩
- الآية ٩٣..... ٢٤٢
- شأن نزول الآية..... ٢٤٢
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٢٤٣
- الآية ٩٤..... ٢٤٥
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٢٤٥
- الآية ٩٥..... ٢٤٦
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٢٤٦
- الآية ٩٦..... ٢٤٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٢٤٨
- سرّ الحجر الأسود..... ٢٤٩
- روايتان عن الكعبة..... ٢٥٠

- الرواية الأولى ٢٥١
- الرواية الثانية ٢٥٢
- خاصيتان للكعبة ٢٥٣
- الآية ٩٧ ٢٥٤
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٥٤
- الحج لغة واصطلاحاً ٢٥٥
- الآية ٩٨ ٢٥٩
- شأن نزول الآيات الأربع الأخيرة ٢٥٩
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٦٠
- الآية ٩٩ ٢٦١
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٦١
- الآية ١٠٠ ٢٦٢
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٦٢
- الآية ١٠١ ٢٦٣
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٦٣
- الآية ١٠٢ ٢٦٤
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٦٤
- بين التقوى والوحدة ٢٦٤
- الآية ١٠٣ ٢٦٦
- شأن وعلة نزول الآية ٢٦٦
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٦٧

- الآية ١٠٤..... ٢٧١
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٧١
- حقيقة المعروف والمنكر..... ٢٧٢
- بين التناصح والحرية..... ٢٧٤
- المعروف والمنكر والعنف!..... ٢٧٦
- الآية ١٠٥..... ٢٧٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٧٨
- الآية ١٠٧..... ٢٨٠
- النقاط المستفادة من هاتين الآيتين..... ٢٨٠
- الآية ١٠٨..... ٢٨٢
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٨٢
- الآية ١٠٩..... ٢٨٣
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٨٣
- الآية ١١٠..... ٢٨٤
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٨٤
- الآية ١١١..... ٢٨٧
- شأن نزول الآية ٢٨٧
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٨٧
- الآية ١١٢..... ٢٨٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٢٨٨
- حب الله وحب الناس ٢٨٨
- المغضوب عليهم!..... ٢٨٩

- ٢٩٠ غضب وذلّ ومسكنة!!
- ٢٩١ الآية ١١٣
- ٢٩١ شأن نزول هذه الآية
- ٢٩١ النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٢٩٢ الآية ١١٤
- ٢٩٢ النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٢٩٣ الآية ١١٥
- ٢٩٣ النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٢٩٣ كفر وشكر
- ٢٩٤ الآية ١١٦
- ٢٩٤ النقاط المستفادة في هذه الآية
- ٢٩٥ الآية ١١٧
- ٢٩٥ النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٢٩٥ الإنفاق المطلوب
- ٢٩٧ الآية ١١٨
- ٢٩٧ شأن نزول هذه الآية
- ٢٩٧ النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٣٠٠ الآية ١١٩
- ٣٠٠ النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٣٠١ الآية ١٢٠
- ٣٠١ النقاط المستفادة من هذه الآية

- الآية ١٢١..... ٣٠٢
- معركة أحد؛ مسرح الصراع..... ٣٠٢
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٣٠٧
- الآية ١٢٢..... ٣٠٩
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٣٠٩
- الآية ١٢٣..... ٣١١
- سبب نزول الآية وما بعدها من آيات..... ٣١١
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٣١٢
- الآية ١٢٤..... ٣١٣
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٣١٣
- الآية ١٢٥..... ٣١٤
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٣١٤
- الآية ١٢٦..... ٣١٥
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٣١٥
- الآية ١٢٧..... ٣١٦
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٣١٦
- الآية ١٢٨..... ٣١٧
- سبب نزول هذه الآية..... ٣١٧
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٣١٧
- الآية ١٢٩..... ٣٢٠
- النقاط المستفادة من هذه الآية..... ٣٢٠

- الآية ١٣٠ ٣٢١
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٢١
- حقيقة العلاقة بين الآيات ٣٢١
- الحرب على الربا ٣٢٢
- الآية ١٣١ ٣٢٤
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٢٤
- الآية ١٣٢ ٣٢٥
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٢٥
- الآية ١٣٣ ٣٢٦
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٢٦
- الإسراع والتسابق للمغفرة ٣٢٦
- أين الجنة وأين النار؟! ٣٢٨
- الآية ١٣٤ ٣٣١
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٣١
- من صفات المتقين ٣٣١
- الإنفاق مع الحاجة ٣٣١
- الآية ١٣٥ ٣٣٤
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٣٤
- الآية ١٣٦ ٣٣٦
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٣٦
- الآية ١٣٧ ٣٣٧
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٣٧

- وعى السنن التاريخية ٣٣٧
- الآية ١٣٨ ٣٤٠
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٤٠
- الآية ١٣٩ ٣٤١
- شأن نزول هذه الآية ٣٤١
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٤١
- الآية ١٤٠ ٣٤٣
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٤٣
- سنة التكامل البشري ٣٤٣
- الآية ١٤١ ٣٤٥
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٤٥
- الآية ١٤٢ ٣٤٦
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٤٦
- الآية ١٤٣ ٣٤٧
- سبب وشأن نزول هذه الآية ٣٤٧
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٤٧
- دروس الهزيمة ٣٤٧
- الآية ١٤٤ ٣٤٩
- سبب نزول هذه الآية ٣٤٩
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٥٠
- الآية ١٤٥ ٣٥٣
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٥٣

..... ٣٥٦	الآية ١٤٦
..... ٣٥٦	النقاط المستفادة من هذه الآية
..... ٣٥٧	الآية ١٤٧
..... ٣٥٧	النقاط المستفادة من هذه الآية
..... ٣٥٨	الآية ١٤٨
..... ٣٥٨	النقاط المستفادة من هذه الآية
..... ٣٥٩	الآية ١٤٩
..... ٣٥٩	النقاط المستفادة من هذه الآية
..... ٣٦٠	الآية ١٥٠
..... ٣٦٠	النقاط المستفادة من هذه الآية
..... ٣٦١	الآية ١٥١
..... ٣٦١	النقاط المستفادة من هذه الآية
..... ٣٦٣	الآية ١٥٢
..... ٣٦٣	علّة نزول هذه الآية وما بعدها
..... ٣٦٤	النقاط المستفادة من هذه الآية
..... ٣٦٦	الآية ١٥٣
..... ٣٦٦	النقاط المستفادة من هذه الآية
..... ٣٦٨	الآية ١٥٤
..... ٣٦٨	ليلة ما بعد هزيمة أحد!
..... ٣٦٩	النقاط المستفادة من هذه الآية
..... ٣٦٩	نفاق وإيمان

- الآية ١٥٥ ٣٧٢
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٧٢
- حقيقة الهزيمة ٣٧٢
- الآية ١٥٦ ٣٧٤
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٧٤
- الردّ القرآني على منافقي أحد ٣٧٥
- الآية ١٥٧ ٣٧٦
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٧٦
- الآية ١٥٨ ٣٧٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٧٨
- الآية ١٥٩ ٣٧٩
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٧٩
- قانون المشاورة ٣٨٠
- الآية ١٦٠ ٣٨٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٨٨
- الآية ١٦١ ٣٨٩
- علة نزول هذه الآية ٣٨٩
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٨٩
- الآية ١٦٢ ٣٩٢
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٩٢
- الآية ١٦٣ ٣٩٤
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٩٤

- الآية ١٦٤ ٣٩٥
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٩٥
- ملاحم المشروع النبوي ٣٩٦
- الآية ١٦٥ ٣٩٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٣٩٨
- معالجة قرآنية ٣٩٨
- الآية ١٦٦ ٤٠٠
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٠٠
- جماعات المسلمين في أحدا! ٤٠٠
- الآية ١٦٧ ٤٠٢
- حديث في هذه الآية ٤٠٢
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٠٢
- الآية ١٦٨ ٤٠٥
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٠٥
- الآية ١٦٩ ٤٠٧
- علة نزول هذه الآية ٤٠٧
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٠٧
- الآية ١٧٠ ٤٠٩
- علة نزول هذه الآية طبقاً لرواية ٤٠٩
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٠٩
- الآية ١٧١ ٤١١
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤١١

- الآية ١٧٢ ٤١٣
- علة نزول هذه الآية ٤١٣
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤١٤
- الآية ١٧٣ ٤١٦
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤١٦
- الآية ١٧٤ ٤١٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤١٨
- الآية ١٧٥ ٤١٩
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤١٩
- الآية ١٧٦ ٤٢١
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٢١
- الآية ١٧٧ ٤٢٣
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٢٣
- الآية ١٧٨ ٤٢٤
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٢٤
- الآية ١٧٩ ٤٢٨
- علة نزول هذه الآية ٤٢٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٢٨
- الآية ١٨٠ ٤٣١
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٣١
- الآية ١٨١ ٤٣٤
- شأن وسبب نزول هذه الآية ٤٣٤

- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٣٤
- الآية ١٨٢ ٤٣٦
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٣٦
- الآية ١٨٣ ٤٣٨
- شأن وعلة نزول هذه الآية ٤٣٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٣٨
- الآية ١٨٤ ٤٤٠
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٤٠
- الآية ١٨٥ ٤٤١
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٤١
- الآية ١٨٦ ٤٤٤
- شأن نزول هذه الآية ٤٤٤
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٤٤
- الآية ١٨٧ ٤٤٦
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٤٦
- الآية ١٨٨ ٤٤٨
- شأن نزول هذه الآية ٤٤٨
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٤٨
- الآية ١٨٩ ٤٥٠
- النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٥٠
- الآية ١٩٠ ٤٥١
- روايات في نزول هذه الآيات ٤٥١

- ٤٥٢ النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٤٥٣ الآية ١٩١
- ٤٥٣ النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٤٥٣ هدفية الوجود
- ٤٥٥ الآية ١٩٢
- ٤٥٥ النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٤٥٥ الظلم والشجاعة!!
- ٤٥٦ الآية ١٩٣
- ٤٥٦ النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٤٥٦ مع الأبرار لا مع الأصنام!!
- ٤٥٨ الآية ١٩٤
- ٤٥٨ النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٤٥٩ الآية ١٩٥
- ٤٥٩ شأن نزول هذه الآية
- ٤٦٠ النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٤٦٠ الرحمة والحكمة
- ٤٦١ حقوق الإنسان!
- ٤٦٤ الآية ١٩٦
- ٤٦٤ شأن وعلة نزول الآية
- ٤٦٤ النقاط المستفادة من هذه الآية
- ٤٦٥ الفشل والنجاح في الحياة

٤٦٦.....	الآية ١٩٧.....
٤٦٦.....	النقاط المستفادة من هذه الآية.....
٤٦٦.....	نجاح الطغاة متاع.....
٤٦٨.....	الآية ١٩٨.....
٤٦٨.....	النقاط المستفادة من هذه الآية.....
٤٦٨.....	الثروة وموازن الحق.....
٤٧٠.....	الآية ١٩٩.....
٤٧٠.....	شأن نزول هذه الآية.....
٤٧١.....	النقاط المستفادة من هذه الآية.....
٤٧٣.....	الآية ٢٠٠.....
٤٧٣.....	النقاط المستفادة من هذه الآية.....
٤٧٤.....	﴿ لعلَّ ﴾ القرآنية.....
٤٧٧.....	فهرس الموضوعات.....
٤٨٧.....	فهرس المحتويات.....